





الإشراف العام
أ.د. عادل نذير بيري

الإعداد والتحرير
م.م. ياسين خضير الجنابي
حسن علي المرسومي

المراجعة العلمية و التدقيق اللغوي

أ.د داود سلمان الزبيدي
أ.د. شعلان عبد علي سلطان
أ.د. ليث قابل الوائلي
م.د. أحمد الغانمي
السيد هادي الحلو

الترجمة
د. مجتبى الحلو

التصميم
احمد نعمة
علي عبد الحليم



Proceedings of the Second conference of the House
(Dar al -Rasul al-Aytham of the Great Prophet (PBUH))
Researchs and activities-3-

General Supervision

Prof Dr. `Adil Natheer AL.Hassani

Editing

asst. Lect. Yassin Khudhair Al - Janabi

Hassan Ali El Marsoumi

Proofreading

Prof. Dr. Dawood Salman Al-Zubaidi

Prof. Dr. Shaalan Abd Ali Sultan

Prof. Dr. Laith Qabil Waeli

Lect. Dr. Ahmed al ghanemi

Mr. Hadi Al-helo

Translation

Dr. Mojtaba Al-Helo

design

ahmed neamah

Ali abdulhaleem

الترقيم الدولي المعياري

ISBN: 978-9922-680-46-0

العتبة العباسية المقدسة. دار الرسول الاعظم ﷺ، مؤلف.
وقائع مؤتمر دار الرسول الاعظم ﷺ الدولي الثاني : بحوث وفعاليات. الجزء الثالث =
Proceedings of the Second conference of the House (Dar al -Rasul al-
Atham of the Great Prophet (pbuh)) : Researchs and activities-3-
الاولى- كربلاء [العراق] : العتبة العباسية المقدسة، دار الرسول الاعظم ﷺ، ١٤٤٤ هـ.
= ٢٠٢٣.

مجلد ٢٤٤ سم
يتضمن إرجاعات ببليوجرافية.
النص باللغتين العربية والإنجليزية ويتضمن مستخلصات باللغة العربية والإنجليزية.
١. محمد (ﷺ)، نبي الاسلام، 53 قبل الهجرة- ١١ هجري. ٢. السيرة النبوية (شيعية). أ.
العنوان.

LCC : BP75.2 .A8396 2023

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة
فهرسة أثناء النشر

رقم اليداع في دار الكتب والوثائق

بغداد (٢٧٨٢) لسنة ٢٠٢٣

٢٣١	أ.د.فتحي سالم حميدي اللهيبي	• موقف الرسول الاعظم ﷺ من العداء اليهودي للإسلام في المدينة
٢٦١	أ.د. حيدر تقي فضيل العلاق أ.د. محمد فهد حسين القيسي	• دور الوحي في تركيز دعائم النبوة - الرسول محمد ﷺ مثلاً
٢٨٧	أ.د. أمل سهيل عبد الحسيني م.د. ندى سهيل عبد الحسيني	• بين إسرائيلين إسرائيل النبي موسى وإسرائيل النبي محمد ﷺ - دراسة قرآنية تاريخية مقارنة-
٣٣١	أ.م.د. عبد الله محمد فهد م.د. انتصار سامي ابراهيم	• مكانة النبي ﷺ وزوجاته في القرآن الكريم - دراسة موضوعية -
٣٦٣	أ.د خليل حسن الزركاني م.م نغم يحيى ناجي	• أزواج الرسول الأعظم ﷺ تعددهن، مهورهن، وولائمهن
٤٠١	أ.م.د. علاء حسن مردان اللامي	• المعرفة التاريخية للسيرة النبوية الشريفة وتحديات العصر - قراءة في جدلية الفكر الإنساني-
٤٣١	أ.م.د. ظافر عبيس عناد الجياشي	• وظائف اللغة الحوارية في الخطابات النبوية الشريفة
٤٨٣	أ.م.د . عبد الزهرة جاسم الخفاجي	• بيعتا العقبة وأثرهما في بناء الشخصية الإسلامية القويمة

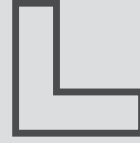


المحور

الثاني

وقائغ مُؤْتَمِرِ دَارِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ﷺ الدُّوْلِيِّ الثَّانِي





القرآن الكريم في حياة الرسول ﷺ
أ.د خليل خلف بشير



The Noble Qur'an in the life of the Prophet (may God bless him and his family)

Prof. Dr. Khalil Khalaf Bashir

الملخص:

هذا بحث تناولتُ فيه شخصية الرسول الأكرم محمد ﷺ وارتباطها بمعجزة القرآن الكريم تلك المعجزة الخالدة التي بهرت العرب، وهم أصحاب بلاغة وفصاحة معرّجاً على أثر القرآن في شخصية الرسول ﷺ فضلاً عن التعرض لبعض خصائصه التي وردت في القرآن الكريم فقد أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ قرآناً عربياً مبيناً، وقد أعجز به البلغاء وأخرس الفصحاء وأفحمهم وتحداهم فيه، وقد كان هذا الكتاب وما زال معجزة كبيرة لما أبدع من ثورة علمية وثقافية في ظلمات الجاهلية الجهلاء، ولعل ما قدّمه الرسول ﷺ من عطاء مقروء أو مسموع من قرآن كريم وسنة مطهرة هو وحي الله على قلبه الذي لم ينطق عن الهوى . وهذا العطاءين يشتركان بأنهما من فيض السماء قال تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

وإذا كان خصوم الإسلام قد دهشوا لروعة القرآن فإن النبي ﷺ كان أشد الناس تأثراً بمنطقه، وكان يتلوّه تلاوة تظهر معانيه ظهوراً رائعاً أخذاً فضلاً عن كونه دائم التفكير في بيان القرآن المعجز الذي نزل على قلبه، وكان يزن كل آية بميزان دقيق بحيث تنكشف له عن دلالات عميقة لا يلمحها سواه لذلك كان دائم الخشوع غزير الدمع حين يتلو القرآن وحين يسمعه، وكان في حله وترحاله وقيامه وقعوده يفكر في القرآن ويستحضر آياته في كل موقف يمر به، ومما ورد في سيرته العطرة - صلوات الله عليه - أنه كان متأثراً بالقرآن بصورة عجيبة، وأنه كان للقرآن الأثر البالغ في روحه الطاهرة، وأنه كان يفتخر بأن الله تعالى أعطاه ما لم يعطه نبياً من أنبيائه، ومن تلك العطايا القرآن الكريم فقد خُص من بين الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم إكراماً له فإذا كان النبي الكريم ﷺ يباهي ويفاخر بالقرآن فإن أمته الإسلامية تفتخر بذلك فكما إن الله قد

خصَّ محمداً ﷺ بالقرآن الكريم فقد خصَّ أمته بذلك من بين الأمم فهم أمة مختارة قد اختارها الله تعالى وأنزل لها القرآن الكريم.

ويذكر في سيرته العطرة أنه كان يهتم بقراءة سور خاصة من القرآن في كل ليلة، وكان أيضاً يتلو آيات القرآن الحكيم على الناس فقد كان واسطة الفيض الإلهي بين الله والناس فهو أول من يأخذ الوحي ثم يتلوه للناس ويعرفهم معانيه على أنه كان يستقرئ أصحابه ويأمرهم أن يقرؤوا عليه القرآن، وما ذلك إلا لأن قلبه كان متعلقاً به فكان يحب استماعه، ومن أحب شيئاً أحب ذكره .

وقد خصَّه الله في كتابه العزيز بالكثير من الخصائص منها بأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. فضلاً عن ذلك فقد خصه بكونه رحمةً للعالمين في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ إذ إنه بعث رحمةً للبر والفاجر ورحمةً للكفار بتأخير العذاب وعدم معاجلتهم بالعقوبة بنحو الخسف والمسح والغرق كسائر الأمم المكذبة وأن الله تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء عليهم والسلام بل خاطبه بـ (يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، ويا أيها المدثر، ويا أيها المزمل، وغيرها) وخاطب الأنبياء بأسمائهم بقوله (يا آدم، ويا نوح، ويا إبراهيم، ويا داود، ويا زكريا، ويا يحيى، ويا عيسى، وغيرهم).

ويدل ذلك على أن سياق النبي ﷺ في القرآن الكريم سياق متعدد ومتنوع في ذاته بحسب التعبير القرآني بين التهذئة والتبشير، واللولوم والعتاب، والتفريع والتهديد أيضاً، وأمثلة ذلك وقوله ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

ولتعظيم الله حبيبهِ المصطفى وتبجيله إياه وتخصيصه عن سواه من الأنبياء لم يناده بـ (يا محمد) في حين نادى الأنبياء بأسمائهم كقوله مثلاً: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وقوله ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾، وقوله ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

ومن خصائصه الأخرى في القرآن الكريم أنه رحمة للعالمين، وأن معجزته روحية عقلية المتمثلة بالقرآن الكريم والمعراج، ولم تكن معجزته مادية كالأنبياء السابقين، واختصه جلّ وعلا بالعصمة والمقام المحمود - وهو الشفاعة - وكذا اختصاصه بأمين الوحي، وغير ذلك من الخصائص التي لم يسع المجال لذكرها بالتفصيل.

Abstract

This is a research in which I dealt with the personality of the Noble Messenger Muhammad (may God bless him and his family) and its connection with the miracle of the Noble Qur'an, that eternal miracle that dazzled the Arabs, and they are eloquent and eloquent, referring to the impact of the Qur'an on the personality of the Messenger (may God bless him and his family), as well as exposing some of his characteristics that were mentioned in The Noble Qur'an, God Almighty revealed to His Prophet (may God's prayers and peace be upon him and his family) a clear Arabic Qur'an. (may God's prayers and peace be upon him and his family) from a gift read or heard from the Noble Qur'an and a purified Sunnah, for the two gifts share in the fact that they are from the abundance of heaven, and they are the revelation of God to his heart, who did not speak of desire. Implies) .

And if the opponents of Islam were astonished by the magnificence of the Qur'an, then the Prophet (peace and blessings of Allaah be upon him) was the most affected by his logic, and he used to recite it with a recitation that showed its meanings in a wonderful and captivating appearance, not to mention that he was always thinking about the miraculous explanation of the Qur'an that came down to his heart, and he weighed every verse with a precise scale so that it would be revealed He has deep connotations that no one else can see, so he was always reverent and abundant in tears when he recited the Qur'an and when he heard it. In his dissolution, his travels, his standing and his sitting, he thought about the Qur'an and invoked its verses in every situation he went through, and from what was mentioned in his fragrant biography - may God's prayers be upon him - that he was influenced by the Qur'an. In an amazing way, and that

the Qur'an had a great impact on his pure soul, and that he was proud that God Almighty had given him what no prophet of his prophets had given him, and among those gifts the Holy Qur'an was singled out from among the prophets and messengers with the Holy Qur'an in his honor. Islam is proud of that, just as God has singled out Muhammad, may God's prayers and peace be upon him and his family, with the Qur'an, so he singled out his nation with that from among the nations, so they are a chosen nation that God Almighty has chosen and revealed to them the Noble Qur'an.

It is mentioned in his fragrant biography that he was interested in reciting special surahs from the Qur'an every night, and he also recited the verses of the wise Qur'an to people, for he was the mediator of the divine effluent between God and people. The Qur'an is upon him, and that is only because his heart was attached to it and he liked to listen to it, and whoever loves something he likes to mention it.

And God has singled him out in his dear book with many characteristics, including that he is more worthy of the believers than their own selves. A mercy for the righteous and the immoral, and a mercy for the infidels by delaying the torment and not treating them with punishment in the manner of earthquake, deformation and drowning, like all other false nations. And he addressed the prophets by their names by saying (O Adam, O Noah, O Abraham, O David, O Zakaria, O Yahya, O Jesus, and others).

This indicates that the context of the Prophet (may God's prayers and peace be upon him and his family) in the Holy Qur'an is a multiple and varied context in itself according to the Qur'anic expression between calming and consolidating, blaming and reproaching, and reprimanding and threatening as well. O Muz-

zammil, get up at night except for a little), and he said: (O you who are covered up, get up and warn).

And in order to glorify God, his beloved chosen one, and glorify him, and single him out from other prophets, he did not call him (O Muhammad), while he called the prophets by their names, as he said, for example: (And we said, "O Adam, dwell! Vision).

Among its other characteristics in the Noble Qur'an is that it is a mercy to the worlds, and that its miracle is spiritual and rational represented by the Noble Qur'an and the Ascension, and its miracle was not material like the previous prophets, and the Almighty singled him out for infallibility and the praised station - which is intercession - as well as his specialization in the trustee of revelation, and other characteristics that the space could not mention in detail.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وبعد: فهذا بحث درست فيه شخصية الرسول الأكرم محمد ﷺ وارتباطها بمعجزة القرآن الكريم تلك المعجزة الخالدة التي بهرت العرب، وهم أصحاب بلاغة وفصاحة معرجاً على أثر القرآن في شخصية الرسول ﷺ فضلاً عن التعرض لبعض خصائصه التي وردت في القرآن الكريم.

على أنني بذلت جهدي وأعملت فكري ليكون هذا البحث بالمستوى المطلوب، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ - هود/ ٨٨

الرسول ﷺ والقرآن

أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ قرآناً عربياً مبيّناً ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١)، وقد أعجز به البلغاء وأخرس الفصحاء وأفحمهم وتحداهم فيه، وقد كان هذا الكتاب وما زال معجزة كبيرة لما أبدع من ثورة علمية وثقافية في ظلمات الجاهلية الجهلاء، ولعل ما قدّمه الرسول ﷺ من عطاء مقروء أو مسموع من قرآن كريم وسنة مطهرة هو وحي الله على قلبه الذي لم ينطق عن الهوى^(٢)، وهذا العطاء ان يشتركان بأنهما من فيض السماء فهما . قال تعالى ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى﴾ ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى﴾ ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَى﴾ - النجم/ ٢-١٢.

وقد أجمع الدارسون على أن معجزات الرسول ﷺ قسمان هما^(٣):

١- ما كان محدوداً ومختصاً بزمان حياته، وهو ما نقله المؤرخون وأرباب

السير من معجزاته الكثيرة.

٢- ما كان باقياً على مر الدهور والأيام، وهو القرآن الخالد على مر الدهور والأيام، ولا تناله يد البلى والدثور بل هو باق ما دبّ على الأرض دابة أو دعا لله داع، وهو الذي فاق على سائر معجزاته.

وإذا كان خصوم الإسلام قد دهشوا لروعة القرآن فإن النبي ﷺ كان أشد الناس تأثراً بمنطقه، وكان يتلوّه تلاوة تظهر معانيه ظهوراً رائعاً أخذاً فضلاً عن كونه دائم التفكير في بيان القرآن المعجز الذي نزل على قلبه، وكان يزن كل آية بميزان دقيق بحيث تنكشف له عن دلالات عميقة لا يلمحها سواه لذلك كان دائم الخشوع غزير الدمع حين يتلو القرآن وحين يسمعه^(٤)، وكان في حله وترحاله وقيامه وقعوده يفكر في القرآن ويستحضر آياته في كل موقف يمر به من ذلك ما روته عائشة حين قالت: ((... وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله، الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية، فقال: (يا عائشة، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب) قالوا هذا عارض ممطرنا))^(٥).

وقال الصادق عليه السلام: كان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية ﴿مَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٦) بكى بكاء شديداً^(٧).

ومما ورد في سيرته العطرة - صلوات الله عليه - أنه كان متأثراً بالقرآن بصورة عجيبة، وأنه كان للقرآن الأثر البالغ في روحه الطاهرة. عن ابن عباس قال: قال رجل: يا رسول الله أسرع إليك الشيب، قال: شيبتي هود والواقعة والمرسلات وعم يتسائلون^(٨).

وأنه كان يفتخر بأن الله تعالى أعطاه ما لم يعطه نبياً من أنبيائه، ومن تلك العطايا القرآن الكريم فقد حُصّ من بين الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم إكراماً له فهو القائل: ((أعطيت خمسا لم يعطهن نبي كان قبلي : أرسلت إلى الأبيض والأسود والأحمر ، وجعلت لي الأرض مسجداً ونصرت بالرعب ، وأحلت لي الغنائم ، ولم تحل لأحد أو قال لنبي قبلي ، وأعطيت جوامع الكلم ، قال عطا : فسألت أبا جعفر عليه السلام قلت : ما جوامع الكلم؟ قال : القرآن...))^(١٠) فإذا كان النبي الكريم يباهي ويفاخر بالقرآن فإن أمته الإسلامية تفتخر بذلك فكما إن الله قد خصّ محمداً ﷺ بالقرآن فقد خصّ أمته بذلك من بين الأمم فهم أمة مختارة قد اختارها الله تعالى وأنزل لها القرآن الكريم.

ويذكر في سيرته العطرة أنه كان يهتم بقراءة سور خاصة من القرآن في كل ليلة فعن جابر قال ((كان النبي ﷺ وسلم لا ينام كل ليلة حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك))^(١١).

وكان أيضاً يتلو آيات القرآن الحكيم على الناس، وقد صرح بذلك القرآن بقوله ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - آل عمران / ١٦٤﴾، وقوله ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ - الجمعة / ٢﴾ فقد كان واسطة الفيض الإلهي بين الله والناس فهو أول من يأخذ الوحي ثم يتلوه للناس ويعرفهم معانيه على أنه كان يستقرئ أصحابه ويأمرهم أن يقرؤوا عليه القرآن، وما ذلك إلا لأن قلبه كان متعلقاً به فكان يحب استماعه، ومن أحب شيئاً أحب ذكره^(١٢) إذ يروى أنه ﷺ قال لابن مسعود: ((اقرأ فقال : يا رسول الله

أقرأ وأعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمع من غيري، فكان يقرأ ورسول الله ﷺ عيناه تفيضان» ((١٣).

ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود: ((اقرأ عليّ، قال: ففتحت سورة النساء فلما بلغت «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً» ((١٤) رأيت عينيه تذرفان من الدمع، فقال لي: حسبك الآن» ((١٥).

وكان طوال مدة رسالته يبحث أسرته وسائر المسلمين على تلاوة القرآن، ويشوقهم الى ذلك فلم يمنعه عن تلاوته شيء سوى الجنباء كما يروي ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في قوله ((كان رسول الله ﷺ لا يحجزه عن قراءة القرآن إلا الجنباء)) ((١٦)، واستمر على هذا النهج القويم حتى في اللحظات الأخيرة من عمره الشريف عندما كان مشرفاً على الموت إذ يروي أمير المؤمنين عليه السلام وقد كان حاضراً عنده، ((فلما قرب خروج نفسه قال له: «ضع يا علي رأسي في حجرك، فقد جاء أمر الله تعالى، فإذا فاضت نفسي فتناولها بيدك وامسح بها وجهك، ثم وجهني إلى القبلة وتول أمري، وصل علي أول الناس، ولا تفارقني حتى تواريني في رمسي، واستعن بالله تعالى» فأخذ علي عليه السلام رأسه فوضعه في حجره، فأغمي عليه، فأكبت فاطمة عليها السلام تنظر في وجهه وتندبه وتبكي وتقول: وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل ((١٧) ففتح رسول الله ﷺ عينه وقال بصوت ضئيل: يا بنية هذا قول عمك أبي طالب لا تقولي، ولكن قولي: «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» ((١٨) فبكت طويلاً ((١٩).

إذ يتبين من الرواية السابقة أنه أمر ابنته الحبيبة - السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بالعدول عن الشعر الى قراءة القرآن على الرغم من أن الشعر لعمه شيخ البطحاء أبي طالب قد قاله في مدحه ﷺ.

من خصائص النبي ﷺ في القرآن الكريم

خصَّ الله تعالى في كتابه العزيز نبيه الكريم بالكثير من الخصائص منها:

- ١ - بأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ - الأحزاب/ ٦﴾ . قال الشريف المرتضى ((وإنما أراد تعالى أنه أحق بتدبيرهم وتصريفهم، وأن طاعته عليهم واجبة، فقال : فمن كنت مولاه فعلي مولاه))^(٢٠)، وهي حجة قاطعة على يوم الغدير عندما أمره الله تعالى بتنصيب الإمام علي عليه السلام أميراً للمؤمنين فقال لهم ((أولست أولى بكم من أنفسكم قالوا بلى قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله))^(٢١).
- ٢ - خصه بكونه رحمة للعالمين في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ - الأنبياء/ ١٠٧﴾ إذ إنه بعث رحمة للبر والفاجر ورحمة للكفار بتأخير العذاب وعدم معاجلتهم بالعقوبة بنحو الخسف والمسح والغرق كسائر الأمم المكذبة.

وأن الله تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء عليهم والسلام بل خاطبه بـ (يا أيها النبي، يا أيها الرسول، يا أيها المدثر، يا أيها المزمل، وغيرها)^(٢٢)، وخاطب الأنبياء بأسمائهم بقوله (يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم، يا داود، يا زكريا، يا يحيى، يا عيسى، وغيرهم)، ويدل ذلك على أن سياق النبي ﷺ في القرآن الكريم سياق متعدد ومتنوع في ذاته بحسب التعبير القرآني بين التهذئة والتثيت، واللوم والعتاب، والتفريع، والتهديد أيضاً^(٢٣)، وأمثلة ذلك وقوله ﴿طه مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى - طه/ ١-٢﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا - المزمل/ ١-٢﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ - المدثر/ ١-٢﴾، وقوله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ - الحاقة/ ٤٤-٤٥﴾ وقوله ﴿فَاصْدَعْ بِمَا

تُؤْمَرُ وَاعْرِضْ عَنِ الْمُثْرِكِينَ - الحجر / ٩٤ ﴿٢٤﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ - المائدة / ٦٧﴾، والملاحظ في هذه الآيات هيمنة سياق الأمر؛ لأن مهمة النبي ﷺ تبليغ الأوامر الإلهية إلى الناس قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا - الأحزاب / ٤٥﴾، وقال أيضاً ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا - الفتح / ٨﴾؛ ولتعظيم الله حبيبهِ المصطفى وتبجيله إياه وتخصيصه عن سواه من الأنبياء لم يناد به (يا محمد) في حين نادى الأنبياء بأسمائهم^(٢٤) بقوله مثلاً: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ - البقرة / ٣٥﴾، وقوله ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ - هود / ٤٨﴾، وقوله ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا - الصافات / ١٠٤-١٠٥﴾، وقوله ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا - آل عمران / ٥٥﴾.

٣- معجزته ليست عصا، ولا ماء يحول الى خمر، ولا لون من ألوان المادة بل هي معجزة روحية عقلية لها مبادئ وأحكام إنسانية تطمئن بها النفوس، وتذعن لها العقول، وتصلح حياة كل الناس في جميع الميادين، وعلى كر العصور واختلاف الأمم، وهذا الفارق بينه وبين غيره من الأنبياء، وبهذي المعجزة - أي القرآن الكريم - ونظامه وشريعته كان محمد ﷺ سيد الأنبياء والمرسلين وخاتمهم، وكانت رسالته عامة شاملة خالدة الى آخر يوم تماماً كمعجزته أما الأنبياء السابقون فشريعتهم خاصة كمعجزاتهم^(٢٥).

٤- اختصاصه بالعصمة: ويدلنا على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ لَا أَنْ تُبَشِّرَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا - الإسراء / ٧٤﴾^(٢٦) يذكر الشيخ الطبرسي أن المعنى ((ثبتنا قلبك على الحق والرشد بالنبوة والعصمة والمعجزات وقيل بالألطف الخفية (لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا) ... قال ابن عباس: رسول الله ﷺ معصوم، ولكن هذا تخويف لأمته لئلا يركن أحد

من المؤمنين الى أحد من المشركين في شيء من أحكام الله وشرائعه))^(٢٧)، ويرى الفخر الرازي أن المعنى ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك لقد كدت تركز إليهم أي تميل إليهم شيئاً قليلاً^(٢٨). أما العلامة الطباطبائي فيرى أن المعنى لولا ((أن ثبتناك بعصمتنا دنوت من أن تميل إليهم قليلاً لكننا ثبتناك فلم تدن من أدنى الميل إليهم فضلاً من أن تحيهم الى ما سألوا فهو عليه السلام لم يجبهم الى ما سألوا ولا مال إليهم شيئاً قليلاً ولا كاد أن يميل))^(٢٩). ويذهب الدكتور محمود البستاني الى أن الخطاب -وإن كان موجهاً للنبي ﷺ- بيد أنه يقصد عامة المؤمنين؛ وهذا يوضح عناية السماء بالمؤمنين ودعمها لهم فهو تعالى يثبت الذين آمنوا حتى لا يركنوا الى المنحرفين الذين يمارسون عمليات التضليل، ومحاولة جر المؤمنين الى الانحراف تحت التأثير العاطفي^(٣٠).

٥-اختصاصه بالمعراج: ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ- الإسراء / ١﴾ فالروايات كثيرة من طرق الفريقين مع اشتغالها على الآيات العجيبة والمناظر البديعة^(٣١) من ذلك ما ذكره الشيخ الطبرسي في تفسيره ((من جملة الأخبار الواردة في قصة المعراج ما روي أن النبي ﷺ، قال: أتاني جبرائيل عليه السلام وأنا بمكة، فقال: قم يا محمد. فقمتم معه، وخرجت إلى الباب، فإذا بجبرائيل، ومعه ميكائيل، وإسرافيل. فأتى جبرائيل عليه السلام بالبراق، وكان فوق الحمار ودون البغل، خده كخذ الانسان، وذنبه كذنب البقر، وعرفه كعرف الفرس))^(٣٢)، وقوائمه كقوائم الإبل، عليه رحل من الجنة، وله جناحان من فخذه، خطوه منتهى طرفه، فقال: اركب. فركبت ومضيت حتى انتهيت إلى بيت المقدس. ثم ساق الحديث إلى أن قال: فلما انتهيت إلى بيت المقدس، إذا ملائكة نزلت

من السماء بالبشارة والكرامة من عند رب العزة، وصليت في بيت المقدس، وفي بعضها بشري إبراهيم في رهط من الأنبياء. ثم وصف موسى وعيسى . ثم أخذ جبرائيل عليه السلام بيدي إلى الصخرة ، فأقعدني عليها، فإذا معراج إلى السماء لم أر مثلها حسنا وجمالا ، فصعدت إلى السماء الدنيا، ورأيت عجائبها وملكوته، وملائكتها يسلمون عليّ))^(٣٣)، وورد أن الآية نزلت ((في إسرائه، وكان ذلك بمكة . صلى المغرب في المسجد الحرام . ثم أسري به في ليلته . ثم رجع فصلى الصبح في المسجد الحرام . فأما الموضع الذي أسري إليه أين كان : فإن الإسرائ إلى بيت المقدس، وقد نطق به القرآن))^(٣٤) .

٦- اختصاصه بالمقام المحمود: وقد ألمع الى ذلك التعبير القرآني في قوله تعالى ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا -الإسرائ/ ٧٩﴾، وهو خطاب للنبي ﷺ^(٣٥)، ((وقد أجمع المفسرون على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد، فيوضع في كفه، ويجمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون ﷺ وسلم أول شافع، وأول مشفع))^(٣٦)، والمقصود بالنافلة في الآية صلاة الليل، قال الطبرسي ((أي : زيادة لك على الفرائض ، وذلك أن صلاة الليل كانت فريضة على النبي ﷺ ، مكتوبة عليه ، ولم تكتب على غيره ، وكانت فضيلة لغيره، ... ، وإنما اختصه بالخطاب لما في ذلك من دعاء الغير إلى الاقتداء به ، والحث على الاستئان بسنته * (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) * عسى من الله واجبة . والمقام بمعنى البعث ، فهو مصدر من غير جنسه أي : يبعثك يوم القيامة بعثا أنت محمود فيه))^(٣٧)، ومعنى ذلك : ((متى فعلت ما ندبناك إليه من التهجد يبعثك الله مقاماً محموداً، وهي الشفاعة))^(٣٨)،

٧- اختصاصه بأمين الوحي : وذلك في قوله تعالى ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٥﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٥﴾
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ - الشعراء / ١٩٢-١٩٥. قال الطبرسي: ((أي: نزل
الله بالقرآن (الروح الأمين) يعني جبرائيل عليه السلام، وهو أمين الله، لا غيره ولا
يبدله. وسماه روحا، لأنه يحيي به الدين. وقيل: لأنه يحيي به الأرواح
بما ينزل من البركات.

وقيل: لأنه جسم روحاني (على قلبك) يا محمد، وهذا على سبيل التوسع،
لأن الله تعالى يسمعه جبرائيل عليه السلام فيحفظه، وينزل به على الرسول، ويقرأه
عليه، فيعيه ويحفظه بقلبه. فكأنه نزل به على قلبه. وقيل: معناه لقنك
الله حتى تلقنته، وثبته على قلبك، وجعل قلبك وعاء له ((٣٩)، ويستدل
الطباطبائي بقوله تعالى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجَبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ -
البقرة/ ٩٧﴾ في كون المراد بالروح الأمين هو جبريل ملك الوحي، وأردف
الطباطبائي أن التعبير القرآني سماه روح القدس في قوله تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ
رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ -
النحل/ ١٠٢﴾، وقد وصف الروح بالأمين في الموضع السابق للدلالة على
أنه مأمون في رسالته لا يغير شيئا من كلامه بتبديل أو تحريف بعمد أو سهو
أو نسيان فضلا عن أن توصيفه بروح القدس يشير الى ذلك ((٤٠).

الخاتمة

أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ قرآنًا عربيًّا مبينًا، وقد أعجز به البلغاء وأخرس الفصحاء وأفحمهم وتحداهم فيه، وقد كان هذا الكتاب وما زال معجزة كبيرة لما أبدع من ثورة علمية وثقافية في ظلمات الجاهلية الجهلاء، ولعل ما قدّمه الرسول ﷺ من عطاء مقروء أو مسموع من قرآن كريم وسنة مطهرة هو وحي الله على قلبه الذي لم ينطق عن الهوى فإن العطاءين يشتركان بأنهما من فيض السماء فهما. قال تعالى ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

وإذا كان خصوم الإسلام قد دهشوا لروعة القرآن فإن النبي ﷺ كان أشد الناس تأثراً بمنطقه، وكان يتلوه تلاوة تظهر معانيه ظهوراً رائعاً أخذاً فضلاً عن كونه دائم التفكير في بيان القرآن المعجز الذي نزل على قلبه، وكان يزن كل آية بميزان دقيق بحيث تنكشف له عن دلالات عميقة لا يلمحها سواه لذلك كان دائم الخشوع غزير الدمع حين يتلو القرآن وحين يسمعه، وكان في حله وترحاله وقيامه وقعوده يفكر في القرآن ويستحضر آياته في كل موقف يمر به.

ومما ورد في سيرته العطرة - صلوات الله عليه - أنه كان متأثراً بالقرآن بصورة عجيبة، وأنه كان للقرآن الأثر البالغ في روحه الطاهرة، وأنه كان يفتخر بأن الله تعالى أعطاه ما لم يعطه نبياً من أنبيائه، ومن تلك العطايا القرآن الكريم فقد حُصّ من بين الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم إكراماً له فإذا كان النبي الكريم يباهي ويفاخر بالقرآن فإن أمتة الإسلامية تفتخر بذلك فكما إن الله قد حصّ محمداً ﷺ بالقرآن فقد حصّ أمته بذلك من بين الأمم فهم أمة مختارة قد اختارها الله تعالى وأنزل لها القرآن الكريم.

ويُذكر في سيرته العطرة أنه كان يهتم بقراءة سور خاصة من القرآن في كل ليلة، وكان أيضاً يتلو آيات القرآن الحكيم على الناس فقد كان واسطة الفيض الإلهي بين الله والناس فهو أول من يأخذ الوحي ثم يتلوه للناس ويعرفهم معانيه على أنه كان يستقرئ أصحابه ويأمرهم أن يقرؤوا عليه القرآن، وما ذلك إلا لأن قلبه كان متعلقاً به فكان يحبّ استماعه، ومن أحبّ شيئاً أحبّ ذكره .

وقد خصّه الله في كتابه العزيز بالكثير من الخصائص منها بأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهذا مستفاد من قوله تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. فضلاً عن ذلك فقد خصه بكونه رحمةً للعالمين في قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ إذ إنه بعث رحمة للبر والفاجر ورحمة للكفار بتأخير العذاب وعدم معاجلتهم بالعقوبة بنحو الخسف والمسح والغرق كسائر الأمم المكذبة وأن الله تعالى لم يخاطبه باسمه كما خاطب غيره من الأنبياء عليهم والسلام بل خاطبه بـ (يا أيها النبي، ويا أيها الرسول، ويا أيها المدثر، ويا أيها المزمّل، وغيرها) وخاطب الأنبياء بأسمائهم بقوله (يا آدم، ويا نوح، ويا إبراهيم، ويا داود، ويا زكريا، ويا يحيى، ويا عيسى، وغيرهم).

ويدلّ ذلك على أن سياق النبي ﷺ في القرآن الكريم سياق متعدد ومتنوع في ذاته بحسب التعبير القرآني بين التهذئة والتثيت، واللوم والعتاب، والتقريع والتهديد أيضاً، وأمثلة ذلك وقوله ﴿طه مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

ولتعظيم الله حبيبه المصطفى وتبجيله إياه وتخصيصه عن سواه من الأنبياء لم يناده بـ (يا محمد) في حين نادى الأنبياء بأسمائهم كقوله مثلاً:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾، وقوله ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ﴾، وقوله ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.

ومن خصائصه الأخرى في القرآن الكريم أنه رحمة للعالمين، وأن معجزته روحية عقلية المتمثلة بالقرآن الكريم والمعراج، ولم تكن معجزته مادية كالأنبياء السابقين، واختصه جلّ وعلا بالعصمة والمقام المحمود - وهو الشفاعة - وكذا اختصاصه بأمين الوحي، وغير ذلك من الخصائص التي لم يسع المجال لذكرها بالتفصيل.

الهوامش:

- ١ - الآية ٤٢ من سورة فصلت.
- ٢ - ينظر: أعلام الهداية - محمد المصطفى خاتم الأنبياء / لجنة التأليف ١/ ٢١٤ - ٢١٨.
- ٣ - ينظر: العترة والقرآن / الشيخ علي الكريمي الجهرمدي ٣٦.
- ٤ - ينظر: البيان النبوي / د. محمد رجب البيومي ٢٧٧-٢٧٨.
- ٥ - إشارة إلى الآية ٢٤ من سورة الأحقاف (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطَرِّئُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ).
- ٦ - سنن أبي داود / سليمان بن الأشعث السجستاني ٢/ ٤٩٨.
- ٧ - الآية ٦١ من سورة يونس.
- ٨ - مجمع البيان ٥/ ٢٠٣.
- ٩ - كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء / الشيخ جعفر كاشف الغطاء ٣٠٠.
- ١٠ - بحار الأنوار ٨٩/ ١٤.
- ١١ - السنن الكبرى / النسائي ٦/ ١٧٨.
- ١٢ - ينظر: العترة والقرآن ٣٨.
- ١٣ - المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء / الفيض الكاشاني ٢/ ٢٣٢.
- ١٤ - الآية ٤١ من سورة النساء.
- ١٥ - بحار الأنوار ٦/ ٢٩٤.
- ١٦ - المصدر نفسه ٧٨/ ٦٨.
- ١٧ - ديوان أبي طالب ٦٧.
- ١٨ - الآية ١٤٤ من سورة آل عمران.
- ١٩ - بحار الأنوار ٢٢/ ٤٧٠.
- ٢٠ - رسائل الشريف المرتضى / الشريف المرتضى ٣/ ٢٥٣.
- ٢١ - المواقف / الإيجي ٣/ ٦١٥.
- ٢٢ - ينظر في يا أيها النبي (الأنفال/ ٦٤، و٦٥ و٧٠ والتوبة/ ٧٣ والأحزاب/ ١ و٢ و٨ و٤٥ و٥٩ و٥٠، والحجرات/ ٢، والممتحنة / ١٢، الطلاق/ ١) ، ويا أيها الرسول (المائدة/ ٤١، و٦٧)، ويا أيها المدثر (المدثر/ ١)، ويا أيها المزمّل (المزمّل/ ١).
- ٢٣ - ينظر: النص والسلطة والحقيقة - إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة/ د. نصر حامد أبو زيد ١٠٣.
- ٢٤ - يُنظر: البرهان في علوم القرآن/ الزركشي ٢/ ٢٢٨.

- ٢٥- ينظر: نفحات محمدية / الشيخ محمد جواد مغنية ١٩-٢٠.
- ٢٦- ينظر: خصائص النبي الأكرم في القرآن الكريم / الشيخ علي بن حيدر الافتخاري ١٦٧.
- ٢٧- مجمع البيان / الشيخ الطبرسي ٥٥٧-٥٥٨/٦.
- ٢٨- ينظر: تفسير الرازي / فخر الدين الرازي ٣١/٢١.
- ٢٩- الميزان في تفسير القرآن / الطباطبائي ١٦٩/١٣.
- ٣٠- ينظر: التفسير البنائي للقرآن الكريم / الدكتور محمود البستاني ٣/٣٨.
- ٣١- ينظر: خصائص النبي الأكرم في القرآن الكريم ١٤٩.
- ٣٢- مجمع البيان ٥١١/٦.
- ٣٣- المصدر نفسه ٥١٠/٦.
- ٣٤- ينظر: خصائص النبي الأكرم في القرآن الكريم ١٥٩.
- ٣٥ ٥٦٢/٦.
- ٣٦- المصدر نفسه ٥٦٢-٥٦١/٦.
- ٣٧- التبيان في تفسير القرآن / الشيخ الطوسي ٥١٢/٦.
- ٣٨ ٢٦٦/٧.
- ٣٩- ينظر: الميزان ٣١٦/١٥.

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم.

* أعلام الهداية - محمد المصطفى خاتم الأنبياء، لجنة التأليف، ط ٣، مطبعة ليل، مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت (عليه السلام)، ١٤٢٧ هـ. ق.

* بحار الأنوار، العلامة المجلسي، تح/ محمد مهدي السيد حسن الموسوي الخرسان، السيد إبراهيم الميانجي، محمد الباقر البهبودي، ط ٢، ١٤٠٣ - ١٩٨٣ م. * البرهان في علوم القرآن، الزركشي، تح / محمد أبي الفضل إبراهيم، ط ١، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٧.

* البيان النبوي، الدكتور محمد رجب البيومي، ط ١، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م. * التبيان في تفسير القرآن، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، تح/ أحمد حبيب قصير العاملي، دار إحياء التراث العربي، (د.ت).

* التفسير البنائي للقرآن الكريم، الدكتور محمود البستاني، ط ١، مؤسسة الطبع التابعة للأستانة الرضوية المقدسة، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد، ١٤٢٣ هـ. ق - ١٣٨١ هـ. ش.

* تفسير الرازي، فخر الدين الرازي، ط ٣، مكتبة أهل البيت، (د.ت).

* خصائص النبي الأكرم في القرآن الكريم، الشيخ علي بن حيدر الافتخاري، تح/ الشيخ مرتضى محمود مهدي، ط ١،

دار القرآن الكريم، الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة، ديوان الوقف الشيعي، ١٤٣٩ هـ - ٢٠١٨ م.

* ديوان أبي طالب عم النبي، جمعه وشرحه: الدكتور محمد التنوجي، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

* رسائل الشريف المرتضى، الشريف المرتضى، تح/ السيد أحمد الحسيني، إعداد : السيد مهدي الرجائي، مطبعة الخيام - قم، دار القرآن الكريم - قم، ١٤٠٥ هـ. * سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق وتعليق : سعيد محمد اللحام، ط ١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٠ - ١٩٩٠ م.

* السنن الكبرى، النسائي، تحقيق : عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، ط ١، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان، ١٤١١ - ١٩٩١ م.

* العترة والقرآن، الشيخ علي الكريمي الجهرمي، دار القرآن الكريم، قم، ١٤١٣ هـ.

* كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، انتشارات مهدي - أصفهاني، (د.ت).

* مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط ٣، تح/ الحاج السيد

* هاشم الرسولي المحلاقي، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي،

- بيروت، لبنان، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- * المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء،
الفيض الكاشاني، تح/ علي أكبر
الغفاري، ط٢، المطبعة : مهر - قم، دفتر
انتشارات اسلامي وابسته به جامعة
مدرسين حوزة علميه قم، (د.ت).
- * المواقف، الإيجي، تح/ عبد الرحمن
عميرة، ط١، دار الجيل، بيروت، لبنان،
* ١٤١٧ - ١٩٩٧م.
- * الميزان في تفسير القرآن، العلامة السيد
محمد حسين الطباطبائي، ط١، مؤسسة
- الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان،
١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- * النص والسلطة والحقيقة- إرادة المعرفة
وإرادة الهيمنة، د.نصر حامد أبوزيد،
ط١، المركز الثقافي العربي، بيروت،
لبنان، ١٩٩٥م.
- * نفحات محمدية، الشيخ محمد جواد
مغنية، دار الجواد، بيروت ، لبنان،
١٩٨٦م.





التنمية البشرية في حياة الرسول الأعظم ﷺ

أ.د. أحلام عبدالله الحسن
استشاري ادارة اعمال وادارة موارد بشرية
جامعة البحرين/ مملكة البحرين



Human development in the life of the Great Prophet (may God bless him and his family)

Prof. Dr. Ahlam Abdullah Al-Hassan
Consultant of Business Administration and
Human Resources Management
University of Bahrain/Kingdom of Bahrain

ملخص البحث:

- ١- مدخلٌ تعريفيٌّ عن مصطلح التنمية البشرية.
- ٢- مفهوم التنمية البشرية عند الرسول ﷺ في صناعة الفرد.
- ٣- إدارة الذات عند الرسول الأعظم ﷺ.
- ٤- الإسلام وتنمية الموارد البشرية.
- ٥- مهارات التنمية البشرية التي استعملها الرسول ﷺ.
- ٦- الرسولُ القائد ﷺ ومبدأ الشورى.
- ٧- التنمية البشرية عند الرسول ﷺ في اجتثاث الحقد من النفوس.
- ٨- التنمية البشرية عند الرسول ﷺ والحث على طلب الرزق.
- ٩- مهارات التفويض الفعال وتوزيع المسؤوليات.
- ١٠- التنمية البشرية لدى الرسول ﷺ والحث على طلب العلم.
- ١١- التنمية البشرية في حل المشكلات المعترضة قبل النبوة.
- ١٢- الحنكة القيادية عند الرسول ﷺ في تنمية الدولة الإسلامية.

Abstract

1-An introduction to the term of “Human development”.

2-The concept of human development according to the Prophet in the individual industry.

3-Self-management according to the greatest messenger.

4-Islam and human resource development.

5-Human development skills that the Prophet used.

6- The Prophet, the Leader and the Principle of Shura.

7- Human development according to the Messenger in eradicating hatred from souls.

8- Human development according to the Messenger and the urge to seek sustenance.

9- Effective delegation skills and the distribution of responsibilities.

10- Human development of the Messenger and the urge to seek knowledge.

11- Human development in solving the problems encountered before the prophethood.

12- The leadership acumen of the Prophet in the development of the Islamic state.

مدخل:

يعدُّ مفهوم التنمية البشرية من المفاهيم الحديثة التي شاعت في العقود الأخيرة من خلال الدراسات العلمية والتقارير الدولية التي ترصد حياة الإنسان وتسعى إلى إيجاد بيئة أفضل للعيش وممارسة الحياة، وعلى الرغم من حداثة استخدام المفهوم، فإن فكرة التنمية البشرية ليست حادثة على الإنسان بل تمتد بامتداد الوجود الإنساني نفسه، فالسعي للتنمية والتطور والنماء ملازم لمسيرة الإنسان في حياته، وقد شكل إحدى الوسائل التي تطورت بها الحياة البشرية على كوكب الأرض، وقد شهدت الحياة البشرية تطوراً في مفهوم التنمية البشرية حتى استقر إلى ما وصلت إليه تقارير الأمم المتحدة التي ترصد هذه التنمية منذ خمسينيات القرن الماضي.

إن تعريف التنمية البشرية يتطلب منا الإحاطة بمفهوم التنمية أولاً باعتبارها الأساس الذي يتم فهم المصطلح من خلاله، فقد تطور تعريف التنمية وتعددت رؤية الباحثين له باختلاف رؤيتهم وتخصصهم واهتمامهم، فبعضهم كان يرى فيه الجانب الاقتصادي، وبعضهم نظر إلى التنمية من جانبها الاجتماعي، إلا أن هذه التعريفات لم تصمد طويلاً؛ إذ سريعاً تطور التعريف ليشمل جميع جوانب الحياة الإنسانية، ولذا يصعب إعطاء المفهوم تعريفاً محدداً، لكن يمكننا تحديد مفهوم تنمية الموارد البشرية بأنه «عملية واسعة وشاملة ومستمرة ومتعددة الجوانب لتغيير حياة الإنسان وتطويرها إلى الأفضل»^(١).

فالتنمية البشرية^(٢) Human Development هي عملية توسيع اختيارات الشعوب والمستهدف بهذا هو أن يتمتع الإنسان بمستوى مرتفع من الدخل وبحياة طويلة وصحية بجانب تنمية القدرات الإنسانية من خلال توفير فرص ملائمة للتعليم.

بدأ مفهوم التنمية البشرية يتضح عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية وخروج البلدان التي شاركت في الحرب مصدومة من الدمار البشري والاقتصادي الهائل وخاصة الدول الخاسرة. فبدأ بعدها تطور مفهوم التنمية الاقتصادية وواكبها ظهور التنمية البشرية لسرعة إنجاز التنمية لتحقيق سرعة الخروج من النفق المظلم الذي دخلت فيه بسبب الحروب. تطور مفهوم التنمية البشرية ليشمل مجالات عديدة منها: التنمية الإدارية والسياسية والثقافية، ويكون الإنسان هو القاسم المشترك في جميع المجالات السابقة. ولهذا فتطور الأبنية: الإدارية والسياسية والثقافية له مردود على عملية التنمية الفردية من حيث تطوير أنماط المهارات والقيم، والمشاركة الفعالة للإنسان في عملية التنمية إلى جانب الانتفاع بها. وعلى هذا يمثل منهج التنمية البشرية الركيزة الأساسية التي يعتمد عليها المخططون وصانعو القرار لتهيئة الظروف الملائمة لإحداث التنمية الاجتماعية والاقتصادية. وبعد كل هذا يمكن إجمال القول: إن التنمية البشرية هي المنهج الذي يهتم بتحسين نوعية الموارد البشرية في المجتمع وتحسين النوعية البشرية نفسها^(٣).

أهم عوامل التنمية البشرية^(٤):

١. الأوضاع السكانية: الاستغلال الأمثل للموارد البشرية.
٢. الأوضاع السكانية: ارتفاع مستويات المعيشة وانخفاض الكثافة السكانية.
٣. الأوضاع الصحية: تحسن مستويات الرعاية الصحية وانخفاض الوفيات وارتفاع معدلات الحياة.
٤. أوضاع العمل: تطور تقسيم العمل وارتفاع المهارات الفنية والإدارية.
٥. الأوضاع التقنية: استخدام التقنية وتوطينها.

٦. الأوضاع الإدارية: تطور أساليب الإدارة واعتماد أسلوب التخطيط.
٧. الأوضاع الاجتماعية: نمو ثقافة العمل والإنجاز وتغير المفاهيم المقترنة ببعض المهن والحرف.
٨. الأوضاع الطبقيّة: مرونة البناء الاجتماعي والمساواة الاجتماعية.
٩. الأوضاع السياسية: عدم احتكار السلطة وتحقيق الديمقراطية.
١٠. الأوضاع النفسية: ضرورة تهيئة المناخ النفسي العام والتشجيع على التنمية.

ويرى بعضهم أن هناك - بوجه عام - منظورين لمفهوم التنمية: الأول اقتصادي تقائي يركز على نواحي الاستثمار والإنتاج ، وإن تطرق إلى الجوانب الاجتماعية التي تحدّد هاتين الناحيتين من النشاط المجتمعي^(٥). أما المنظور الثاني فهو في الأساس حضاري واجتماعي وسياسي وإن لم يهدر الجانب الاقتصادي ، ويرى أن النواحي الاقتصادية هي من الوظائف الاجتماعية المهمة وليست بالضرورة أهمها ، فهي تابع للكيان الحضاري وللبنى الاجتماعية السياسية تتكيف بها أهدافاً وفعالية في عملية تاريخية تستهدف ترقية الرفاه الاجتماعي للبشر في مجتمع متخلف بصورة جوهرية. وهناك من يعرف التنمية بمفهومها الشامل بأنها ((الجهود المنظمة التي تبذل وفق تخطيط مرسوم للتنسيق بين الإمكانيات البشرية والمادية المتاحة في وسط اجتماعي معين بقصد تحقيق مستويات أعلى للدخل القومي والدخول الفردية ومستويات أعلى للمعيشة والحياة الاجتماعية في نواحيها المختلفة كالعليم والصحة والأسرة والشباب... ومن ثم الوصول إلى تحقيق أعلى مستوى ممكن من الرفاهية الاجتماعية))^(٦).

فالتنمية الاجتماعية بوصفها مفهوماً تشير إلى عمليات مخططة وموجهة يتم بواسطتها إحداث تغير اجتماعي مقصود ومرغوب في أبنية المجتمع

وظائفه وفي مواقف الأفراد والجماعات نحو أنفسهم ونحو المجتمع. وبناء على ما تقدم فإن التنمية الاجتماعية لا تعطي الرفاه المادي الأولوية - وإن لم تهمله - إلا أنها تضع الإنسان وتمتعه بالحرية والمساواة وغيرها من القيم الإنسانية في مصاف الغايات الأسمى، فهي تعد الناس بشرا وليسوا آلات، فالناس وإن كانوا أداة التنمية إلا أنهم بوصفهم بشرا ينبغي أن يكونوا غاياتها، وبذلك تكون التنمية أسلوبا من أساليب النهوض بالمجتمعات، وعلى هذا الأساس فهي لا تعد غرضا في حد ذاتها، وإنما هي وسيلة لتحقيق أغراض معينة يبتغيها المجتمع.

إذن، فالتنمية الاجتماعية ليست مجرد تقديم نوع معين من أنواع الخدمات، بل هي عملية تغيير للأوضاع الاجتماعية القديمة وإحلال أوضاع اجتماعية جديدة محلها، أي بمعنى أدق: تغيير الأبنية الاجتماعية القديمة التي أصبحت غير قادرة على مسايرة أنماط الحياة العصرية وإقامة أبنية اجتماعية جديدة مختلفة كل الاختلاف عن الأبنية الاجتماعية القديمة، ويتبع ذلك ظهورٌ ونشوءٌ لعلاقات وقيم اجتماعية جديدة تحقق لأفراد المجتمع كل ما يصبون إليه من إشباع لحاجاتهم المادية والمعنوية. وهكذا يمكن القول: إن للتنمية البشرية بعدين هما^(٧):

- البعد الأول: يهتم بمستوى النمو الإنساني في مختلف مراحل الحياة، لتنمية قدرات الإنسان، وطاقاته البدنية، والعقلية، والنفسية، والاجتماعية، والمهارية، والروحانية... إلخ.
- أما البعد الثاني: فهو أن التنمية البشرية عملية تتصل باستثمار الموارد والمدخلات والأنشطة الاقتصادية التي تولد الثروة والإنتاج لتنمية القدرات البشرية عن طريق الاهتمام بتطوير الهياكل والبنية المؤسسية التي تتيح المشاركة والانتفاع بمختلف القدرات لدى كل الناس.

المبحثُ الأول

مفهوم التّمنية البشريّة عند الرّسول الأعظم ﷺ وصناعة الفرد المسلم
أولاً - القرآنُ وتنمية الذات بدءاً بنفسه الكريمة ﷺ:

وبعد اكتمال الاستعداد الإيماني والروحي وكلّ الجوانب والعوامل
المؤثّرة في إيصال الدعوة الإلهيّة جاء الخطاب الإلهي للنبي ﷺ بالتكليف
بحمل الرسالة الإسلاميّة وأدائها علناً ، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمُذَنَّبُ * فَمَنْ فَنَذِرْ * وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾^(٨) ، ومن هذا الخطاب الإلهي بدأت
الخطوة الأولى في رحلة تغيير المسيرة الإنسانيّة المعذبة والمضطهدة التي
كانت تعاني الضياع والتشتت والفراغ الروحي والإيماني؛ والمجرّدة من كلّ
هدف نبيلٍ وعظيمٍ تعمل من أجل الوصول إليه والتمسك به ، وكانت
بحاجة إلى المرشد والدليل والشاهد والمبشر والنذير والسراج المنير الذي
يضيء لها السبيل وينير لها طريق الحق الواضح والجلي ، والتميز عن باقي
الطرق التي كانت الإنسانيّة ملتزمةً بها سواء عن اقتناعٍ كما هو الحال عند
فئة الحاكمين ، أو عن ضعفٍ وقلة إرادةٍ وعدم وضوح السبيل الصحيح
عند الفئات المهورة والمعذبة .

ومن أجل إصلاح الجانب الإيماني والروحي عند الأمّة ، بدأت حركة
النبي ﷺ من خلال حملة التبشير القائمة على الدعوة إلى عبادة الله الواحد
الأحد الفرد الصمد ، وترك عبادة الأصنام ونبذها عن عقول الناس وقلوبهم
، وتعليم الناس والأمة طرق الاتصال والارتباط بالله وحده سبحانه وتعالى
؛ لأنّه المعبود الحقيقي الذي لا يقاس بغيره من مخلوقاته ولو ابتدعها الناس ،
وجعلوا منها آلهةً تُعبد وتُقدّم لها الهدايا والقرايين ، ولذا ورد في القرآن قوله
تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٩) .

ثانيا - الإسلام وتنمية الموارد البشرية في القرآن وصناعة الفرد المسلم^(١٠):

لم يغب عن الرسول الأعظم ﷺ ما لصناعة الفرد من أهمية قصوى في مسيرة الحياة اجتماعيًا، ودينياً، واقتصادياً، ومعرفياً لما للمعرفة من أهمية قصوى، تزيده خبرةً وعلماً، وتجنّبه الكثير من مطبات التجارب، كما تجنّبه الكثير من الوقت، والذي يذهب هباءً في الأخطاء والتجارب والإفادة منها، وكانت نظرة الرسول ﷺ ثاقبةً من منطلق: لنكن نحن من يُفيد من تجارب الآخرين السابقة ويتعلّم منها، لا ممن يرتكب الأخطاء ليتعلّم منها الآخرون، ومن هنا يُعرف ما للمعرفة من أهمية شعارها: (اعرف الخطأ ممن سبقك وتجنّبه)، لا تصنع الخطأ لتعرف الصواب، فقد صنعه من قبلك فتعلم من تجاربه، فالمعرفة من أكثر العلوم فعاليةً، ولقد راجت أهمية المعرفة عالمياً وتسابق إليها طالبوها، ولقد برزت إدارة المعرفة الضمنية في المجالات كافة، وأهمها في إدارة الأعمال والاقتصاد، فهي تحرص على قوامها الاقتصادي؛ للمحافظة على جودة العمل، وجودة الإنتاج، وتجنّب الأخطاء الصناعية، والإدارية، التي ستكلّف الدولة الكثير من المال والجهد.

فكلما ازداد اكتساب المعرفة ازدهر النمو الاقتصادي؛ لكون الإنسان هو مركز التنمية البشرية، فإن الإسلام قد سبق كل الرؤى لذلك، إذ إنّ اختيار الإنسان لحمل الرسالة الإسلامية جعله المحور الذي تقوم عليه عملية البناء والتنمية والتطوير في المجتمعات الإسلامية، فهو الحامل للأمانة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾^(١١).

وهذا الحمل للأمانة يقتضي استعداداً لدى الإنسان المسلم لذلك، وهو ما تتجه إليه الرؤية الإسلامية لمفهوم التنمية البشرية. فعلى الرغم من أن مصطلح التنمية لم يرد في المصادر الإسلامية، نجد أن المفهوم حملته مصطلحات أخرى وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية ومن ذلك:

١ - التزكية:

في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾^(١٢). قال الطبري: ﴿قد أفلح من زكّاها﴾، قد أفلح من زكى نفسه فكثرت تطهيرها من الكفر والمعاصي وأصلحها بالصالحات من الأعمال.

وقد كان رسول الله ﷺ يقول: ((اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم وعذاب القبر، اللهم آت نفسي تقواها وزكّها أنت خير من زكّاها أنت وليها ومولاها))، ((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها)). والتزكية هنا بمعنى النماء والزيادة والصلاح والطهر، وهي المعاني التي تتضمنها التنمية بمفهومها الإسلامي فليس المقصود هو الزيادة فقط، بل المقصود أن تكون هذه الزيادة صالحةً ونافعة.

٢ - الإعمار:

فقد قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾^(١٣). قال ابن كثير: ((استعمركم فيها أي جعلكم عماراً تعمرونها وتستغلونها)).

وقد شرح القرطبي معنى الأعمار بقوله: «أي جعلكم عمارها وسكانها، والاستعمار طلب العمارة، والطلب المطلق من الله تعالى على الوجوب، كما أن ﴿استعمركم فيها﴾: خلقكم لعمارتها».

ولا شكَّ أنَّ عمارة الأرض تتطلب عنصراً فاعلاً ومؤثراً وهو الإنسان، إذ لا يمكن أن تتم عملية الإعمار إلا بإنسانٍ قادرٍ يتحلَّى بالإيمان والعلم والفكر والمهارة، التي تمكنه من القيام بعملية الإعمار، وهذا لبُّ التنمية البشرية التي تركز على تطوير الإنسان بجميع مكوناته النفسية والعملية^(١٤).

٣ - التنشئة:

قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ﴾^(١٥)، وقال سبحانه: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُم فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾^(١٦). والتنشئة تأتي بمعنى التربية والزيادة والإيجاد والتنمية، قال ابن منظور: «نشأ ينشأ... ربا وشب، وارتفع».

* أهم أسس تنمية الموارد البشرية عند الرسول الأعظم ﷺ:

تقوم تنمية الموارد البشرية في الإسلام على أسسٍ تدور حول الإنسان باعتباره الهدف الرئيس لعمليات التنمية البشرية وبرامجها المختلفة، وتقوم هذه البرامج على عدد من الأسس من أبرزها^(١٧):

١ - الاستخلاف:

فقد اختار الله سبحانه وتعالى الإنسان ليقوم بمهمة الاستخلاف في الأرض انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١٨).

فقد كلف الله سبحانه وتعالى الإنسان بهذه المهمة العظيمة للقيام بدوره في الأرض وهياً له سُبُل القيام بهذه المهمة، ومكّن له في الأرض بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُم فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾^(١٩). قال الرازي: أي جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً ومكاناً فيها وأقدرناكم على التصرف فيها وجعلنا لكم معاش.

وهذا الاستخلاف يقتضي قيام الإنسان بدوره كما أمره الله سبحانه وتعالى من خلال تنمية مكونات الإنسان الإيمانية والنفسية والعملية، وهي السّمة الأساسية للتنمية البشرية^(٢٠).

٢ - التسخير:

وعملية إعمار الأرض لا تأتي إلّا من خلال توكيل الاستخلاف، والاستخلاف يقتضي التسخير؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بمهمته في الأرض دون أن تُسخّر له كلّ الإمكانيات، وقد يسّر له الله سبحانه وتعالى ذلك بتسخير عامة المخلوقات والكائنات في الأرض ليقوم الإنسان بمهامه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾^(٢١)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾^(٢٢).

إن هذا التسخير يقتضي من الإنسان حسن التعامل مع المُسَخَّرَات له ، بحيث يُحسن استخدامها فيما يرضي الله (عزّ وجل)، على وفق الأحكام التي شرّعها في التعامل مع المخلوقات والكائنات والطبيعة، وحينما ينحرف الإنسان عن الالتزام بعملية الإنماء فقد خالف مهمة التسخير، وهذا ما نجده في سوء الاستخدام للموارد الطبيعية، والتعامل مع الكائنات المختلفة، فقد اختلّت الموازين، وانتشرت ظواهر تهدد حياة الإنسان نفسه كالظواهر الطبيعية مثل: الاحتباس الحراري، والتغير البيئي، وظهور أمراض في الحيوانات والطيور^(٢٣)، وقد حذر الله سبحانه وتعالى من ذلك بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢٤).

إن التسخير يقتضي إعداد الإنسان إعداداً جيداً بتنمية مهاراته وقدراته وتصوراتهِ للتعامل مع ما سَخَّرَ اللهُ له حتى يستطيع أن يقوم بذلك على الوجه الذي أمر سبحانه وتعالى به^(٢٥).

٣ - المعرفة:

لكي يقوم الإنسان برسائلته التي كلفه الله سبحانه وتعالى بها لا بد له من اكتساب العلم والمعرفة، إذ إنَّ الجَهِلَّ حائِلٌ دون ذلك، والمعرفة تقتضي الإحاطة بما كُلف الإنسان به، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾^(٢٦)، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٢٧)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢٨).

وتتوالى الآيات القرآنية التي تتحدث عن العلم والمعرفة في إشارة إلى أهمية ذلك في عملية التنمية البشرية لحياة الإنسان^(٢٩)؛ ولذا اعتنى الإسلام بالعلم ودعا إليه، وأمر أتباعه بتعلم كل العلوم النافعة حتى يستطيع المسلم أن يؤدي دوره نحوربه بإخلاص العبودية، وتأدية الواجبات المفروضة، وكذلك بتعمير الحياة، ونفع الناس، وجعل الإسلام العلم مدخلاً لمعرفة الله سبحانه وتعالى فقال عز وجل: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾^(٣٠).

وإذا أراد المسلم أن يقوم برسائلته في الحياة فلا بد له من علمٍ ومعرفةٍ مستمرةٍ ودائمةٍ يتابع خلالها ما استجد من العلوم والمعارف والحاجات، وذلك لا يأتي إلّا من خلال تنمية مهاراته وقدراته^(٣١).

إنَّ غياب العلم والمعرفة يفسح المجال لأن يتقدّم الجهلُ والجهلاء وفي ذلك فسادٌ وإفسادٌ للحياة، وقد حذّر النبي ﷺ من ذلك بقوله: (إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء،

حتى إذا لم يُتَّقَ عالماً، اتخذ الناس رُءوساً جُهاًلاً فَسَّئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا) (البخاري).

٤ - التخطيط:

إنَّ تنمية الموارد البشرية في القرآن الكريم تقوم على التخطيط وحسن التدبير، وذلك يقتضي دراسة الواقع الذي يعيشه الفرد والمجتمعات وتحليله بإيجابياته وسلبياته، ووضع الحلول لمعالجة المشكلات ودراسة التوقعات المستقبلية بالمقاييس العلمية واقتراح الرؤى لذلك والإعداد الجيد للبرامج والخطط المستقبلية، وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالإعداد في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ﴾ (٣٢).

وقد وردت الآية في شأن الحرب، إلا أنَّ دلالتها عامة في وجوب الاستعداد والتخطيط، فإذا كان الأمر يوجب التخطيط للحرب ومواجهة العدو وهو أمرٌ طارئٌ ومؤقَّتٌ فإنَّ التخطيط للحياة في غير الحرب واجبٌ كذلك؛ لأنها الفترة الدائمة والممتدة والتي فيها معاش الناس وحياتهم مما يتطلب الاستعداد المبكر لها، وقد علَّمنَا القرآن الكريم أهمية التخطيط في قصة يوسف عليه السلام، بقوله تعالى: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرَوْهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٣٣).

كما حثَّ النبي ﷺ على أهمية التخطيط المستقبلي حيث قال: (إنَّكَ إن تذرَّ ورثتك أغنياء خيرٌ من أن تذرهم عالةً يتكفَّفون الناس). وإذا كان التخطيط لمستقبل الورثة وهم أفرادٌ محدِّدون مأمور به، فإنَّ التخطيط لمستقبل المجتمعات والشعوب والدُّول أهم وأكثر حاجة (٣٤).

٥ - المسؤولية:

تُشكّل المسؤولية إحدى الأسس التي تقوم عليها تنمية الموارد البشرية في الإسلام ، وإذا كانت مسؤولية الفرد تتطلب منه أن يطورَ مهاراته ويمجّد علمه فإنّ مسؤولية الدولة تدعوها أن تولي الموارد البشرية أهميةً خاصّةً بحيث توفّر لهم سبل التنمية والتطوير والإبداع، فعلى المستوى الفردي تؤكد الآيات الكريمة أهمية المسؤولية الفردية، فقد قال تعالى: ﴿وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (٣٥).

ولقد حذّر النبي ﷺ من الغفلة عن المسؤولية الفردية فقال ﷺ: «لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل: عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه» (سنن الترمذي).

أما عن المسؤولية العامة قال ﷺ: «ألا كلّكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤولٌ عنهم، والمرأة راعيةٌ على بيت بعلها وولده وهي مسؤولَةٌ عنهم والعبْدُ راعٍ على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلّكم راعٍ وكلّكم مسؤول عن رعيته».

ولذا فإنّ اهتمام الدولة بتنمية الموارد البشرية يأتي ضمن مسؤوليتها العامة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم وأشارت إليه السُّنة النبويّة الشريفة ﷺ.

٦ - العمل:

هو المحور الذي تدور عليه عملية تنمية الموارد البشرية، إذ إنّ الإنسان الذي يؤدّي العمل يحتاج إلى كفاءة مهنيّة وعقليّة وتربويّة تؤهّله للقيام بدوره في المهام والوظائف العملية، ولذا اهتم الإسلام بالعمل وحثّ عليه

سواء كان عملاً تعبدياً أو مهنيّاً، ورفع من قيمة العمل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾^(٣٦)، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^(٣٧).

وحث النبي ﷺ صحابته وأتباعه على العمل فقال: «ما كسب الرجل كسباً أطيب من عمل يده، وما أنفق الرجل على نفسه وأهله وولده وخادمه فهو صدقة». وعنه ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

ولا شك أن الإنسان الذي يراود له أن يؤدي عمله ويتقنه لا بد له من مهارة وإعداد، وذلك من صلب عملية تنمية الموارد البشرية.

٧ - التغيير^(٣٨):

فتنمية الموارد البشرية تسعى لتغيير إمكانيات الإنسان ومهاراته نحو الأفضل، فهي تهيئ له فرصة التدريب والتوجيه والسعي نحو اكتساب كل جديد في حياته، ما أمكنه ذلك.

والتغيير سنة الحياة، لكن التغيير المقصود هو الذي يعود بالنفع والصالح على الإنسان، فليس التغيير مطلوباً لذاته، وإنما هو مطلوب لغاية إيجابية يعمل من أجلها؛ ولذلك جعل الله سبحانه وتعالى إرادة التغيير وهو القادر على كل شيء بإرادة الإنسان نفسه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٣٩)، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤٠).

٨ - الأمانة:

إذ عليها المَعُول في ضبط أيّ سلوكٍ إنسانيٍّ للفرد المسلم، وليست الأمانة حفظ الحقوق والأموال فقط، بل الأمانة في كل شيء، ومن أبرزها أمانة الدين ثم أمانة العمل.

إنّ ما تعانيه كثيرٌ من المؤسسات العالمية والمحلية من فسادٍ وخللٍ وانهيارٍ إنّما يعود في كثير منه إلى فقد الأمانة، أو ما يطلق عليه غياب أخلاقيات المهنة، إذ بفقد ذلك تنهار قيم العمل وضوابطه، وتشيع قيمٌ أخرى هي للفساد أقرب منها للصالح، ولا شك أنّ غياب الأمانة إنّما يعود في جزءٍ كبيرٍ منه إلى غياب الإيمان، كما يعود أيضًا إلى غياب مفاهيم التنمية البشرية الصحيحة التي تقوم على البناء الأخلاقي للإنسان.

وقد أعطى الإسلام أهميةً كبرى للأمانة فقال سبحانه وتعالى ممتدحًا المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾^(٤١). ولقد حذّر النبي ﷺ من تضييع الأمانة فقال: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة، قالوا: كيف إضاعتها يا رسول الله؟ قال إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» (البخاري).

٩ - الإصلاح:

إنّ مهمة تنمية الموارد البشرية لدى النبي الأعظم ﷺ تقوم على إصلاح الفرد بحيث يكون عنصرًا فاعلاً عاملاً لخدمة دينه ومجتمعه والبشرية جمعاء، إنّ الإسلام نظر إلى عملية الإصلاح نظرةً شاملةً إذ يمتد الإصلاح في الإنسان المسلم إلى إيمانه وأخلاقه وسلوكه ومعاملاته، ولذلك كانت رسالات الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه جميعًا تقوم على الإصلاح انطلاقًا من قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾^(٤٢).

* الرسول القائد ﷺ :

لابد أننا نجزم ونؤكد أنّ رسولنا الكريم ﷺ هو رجل دين ودولة من الدرجة الأولى: سياسياً وعسكرياً، وفي كل مرة كانت قراراته في القمة، ولا بدّ أنّ لنجاح القيادة السياسية نقاط توقّف نختصرها كما يأتي^(٤٣):

١. استيعاب هذه القيادة النبوية الشريفة لدعوتها وثقتها بها وبأحقيتها، وثقتها بانتصارها، وعدم تناقض سلوك هذه القيادة مع ما تدعو إليه.

٢. قدرة القيادة على الاستمرار بالدعوة تبليغاً وإقناعاً.

٣. قدرة القيادة في استيعاب المستجيبين للدعوة تربيةً وتنظيماً وتسييراً.

٤. وجود الثقة الكاملة بين القيادة وأتباعها.

٥. قدرة القيادة على التعرف على إمكانية الأتباع وعلى كيفية الإفادة من كلّ إمكاناتهم العقلية والجسمية أثناء الحركة.

٦. قدرة القيادة على حلّ المشاكل الطارئة بأقل قدر ممكن من الجهد.

٧. أن تكون هذه القيادة بعيدة النظر مستوعبة للواقع.

٨. قدرة هذه القيادة على الوصول إلى النصر والإفادة منه.

٩. قدرة هذه القيادة أن تحكم أمر بناء دولتها إحصائياً يجعلها قادرة على

الصمود والنمو على المدى البعيد.

وما عرف التاريخ إنساناً كملت فيه هذه الجوانب كلها إلى أعلى درجات الكمال غير رسول الله ﷺ، مع ملاحظة أنّ كماله هنا جانب من جوانب كماله المتعددة التي لا يحيط بها غير خالقها.

ولنستعرض جوانب سيرة رسول الله ﷺ تلك الجوانب العملية لنرى براهين ذلك جليّة واضحة من خلال طرق تعامله مع أصحابه وأتباعه، فقد كان واضحاً تماماً في أنّ منطلق دعوته هو أنّ الحاكم الحقيقي للبشر لا يجوز أن يكون غير الله (عز وجل)، وأنّ خضوع البشر لغير سلطان الله

(عزوجل) شرك، وأن التّغيير الأساسي الذي ينبغي أن يتمّ في العالم هو نقل البشر من خضوع بعضهم لبعض إلى خضوعهم لله الواحد الأحد، وأورد بعض هذه البراهين فيما يأتي:

البرهان الأول:

طالب المشركون رسول الله ﷺ أكثر من مرة أن يطرد المستضعفين من المسلمين حتى يجلسوا إليه، وفي كلّ مرة كان يتنزل قرآنً ويكون موقف رسول الله ﷺ الرّفص، ومن هذا ما أخرجه أبو نعيم عن ابن مسعود قال: مرّ الملاء (أي السادة) من قريش على رسول الله ﷺ وعنده صهيب وبلال وخباب وعمار - رضي الله عنهم - ونحوهم وأناس من ضعفاء المسلمين فقالوا (أي الملاء مخاطبين رسول الله): أرضيت بهؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء الذين منّ الله عليهم؟ اطردهم عنك فلعلك إن طردتهم اتبعناك، قال: فأنزل الله (عزوجل): ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾.

* مهارات التنمية البشرية لدى النّبي ﷺ في معالجة المشاكل المعترضة:

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ﴿٤٥﴾. إنّ مهارات التنمية البشرية التي استعملها النّبي الكريم ﷺ كثيرة جداً وهي:

- التخطيط الاستراتيجي / إدارة الذات / فنّ الإقناع / اتخاذ القرار /
- حلّ المشكلات / فنّ الحوار / الاستماع والتركيز / التوازن والتغيير / وفنّ الاتصال / التحفيز والتشجيع / إدارة الأولويات / اكتشاف الطاقات /
- المرونة والحسم / فنّ القيادة الفعالة. وكلها مهارات لم يغفل عنها النّبي الأعظم ﷺ.

وأودّ أن أنبّه إلى أنّ الرابط بين المهارات وأحداث السيرة النبويّة الشريفة هو من أهمّ مقومات نجاح رسول الله ﷺ في إحداث عملية تغيير أخلاقيات المجتمع الجاهلي لما بعد الجاهلية وبعد بزوغ الإسلام، وأهمّ هذه المهارات هي مهارات التخطيط الاستراتيجي التي كانت على ثلاث مراحل هي (٤٦):

الأولى: المرحلة الآنيّة وتشمل الدعوة ووضع الخطة الاستراتيجية لها وهي تحديد الرسالة، وهي عبارة عن مهمة ذات صيغة عامّة غير مقاسيّة تعتمد على القيم والمبادئ التي تؤمن بها ونعيش من أجلها. فرسالة النبي ﷺ هداية البشر إلى العقيدة الخالصة والشريعة الصحيحة. ومدار سيرته كلها هي تحقيق هذه الرسالة التي بدأها بعد اختيار الله له رسولاً إلى الناس إلى أن توفاه الله (عز وجل).

الثانية: المرحلة اللاحقة وتشمل إعداد الفرد المسلم فكرياً، ويقوم بناء هذه الخطة الاستراتيجية على تحديد الأهداف التي تحقق الرسالة عملياً في صناعة الفرد المسلم، والهدف المرجو هو النتيجة المعيارية المحدودة، والمراد تحقيقها.

الثالثة: وتشمل المرحلة البعيدة المدى، وتهدف إلى تحميل الفرد المسلم مسؤولياته تجاه دينه، ونفسه، ومجتمعه، وتكوين دولة الإسلام والعمل على امتدادها وتوسيعها، وتربية الجيل المؤمن القيادي الذي يحمل الدعوة في حياته وبعد وفاته.

فالتخطيط الاستراتيجي عبارة عن قرارات ذات أثرٍ مستقبلي، وهي عملية مستمرة ومتغيّرة، ذات فلسفة إدارية ونظام متكامل.

وفي حالة استقراء السيرة النبويّة الشريفة نجد أنّ تفكير النبي ﷺ وتخطيطه كان تفكيراً استراتيجياً له صفة التميّز، إذ إنّ نجاحاته المتتالية حتى

وفاته ﷺ تدلُّ دلالةً واضحةً على أنَّ هناك خطةً واضحةً المعالم بعناصرها وخطواتها، وأنَّ هذا النجاح ليس عفويًّا، وأنَّ تصرفاته ليست ردود أفعالٍ تتحكم فيها الظروف، كما لا يمكن أن يؤدِّي عدم التخطيط إلى ما حققه من إنجازٍ عظيم.

هذه الاستراتيجيات شكَّلت رؤيته الدَّعويَّة والمتلازمة لرؤيته ﷺ في تبليغ الوحي، وإسلام الناس، وتكوين الدولة، وتربية الجيل المؤمن. ولتحقيق الرسالة والرؤية والأهداف واجه النَّبيُّ ﷺ تحدِّياتٍ كبيرةً متمثلةً في أعداء الدعوة وهم ستة أصنافٍ: قريش، والقبائل العربية، والمنافقون، واليهود، والفرس، والروم.

المبحث الثاني

التطبيقُ الفعليُّ لأساليب التنمية البشرية لدى الرسول الأعظم ﷺ
لقد حدّد النبي ﷺ استراتيجيةً خاصةً للتعامل مع كلّ صنفٍ من
الفئات المعارضة والمعادية، ومع المسالمة منهم من غير المسلمين، ومع من
دخلوا في الإسلام من المسلمين في كيفية التعامل معهم، ووضع دراسةً
ومنهجيةً لكلّ أزمةٍ ومعضلةٍ تواجه الرسالة الإسلامية.

ولقد عمد النبي ﷺ في هذه المنهجية إلى تطبيق منهجين مختلفين للفئة
نفسها من الناس وعلى فترتين مختلفتين، وعلى وفق تدفق القوة لدى
المسلمين وامتداد المد الإسلامي، إذ إنه قد تصلح خطةٌ في زمنٍ ما، وتفشل
في زمنٍ آخر، وعلى وفق التغيّرات الآتية لكلّ فترةٍ من فترات الزمن^(٤٧).
وأورد هنا بعض الأمثلة على تلك الخطط النبوية للمصطفى ﷺ:

١- مع قريش في العهد المكي:

دعوتهم إلى الإسلام ومحاوله أن تكون مكة المكرمة نواة الدولة
الإسلامية. وفي العهد المدني: العمل على إخضاع قريش لدولة الإسلام
في المدينة.

٢- مع القبائل العربية:

دعوتهم إلى الإسلام بالحكمة. والتّحدّي الحاسم لحركاتهم العسكرية
ضدّ الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة.

٣- مع المنافقين في المدينة:

العمل على إصلاحهم والمرونة في تحمل تصرفاتهم العدائية، مع محاولة
علاج تداعياتها حتى لا يقال: (إنّ محمداً يقتل أصحابه).

٤- معالجة مشاكل الأسرة داخل البيت النبوي الشريف: التي أحدثتها

بعض أزواجه، بالحكمة، والإرشاد، والموعظة الحسنة تارةً، وبالإعراض عن العتاب والجدال تارةً أخرى.

٥- التنمية البشرية عند الرسول الأعظم ﷺ في اجتثاث الحقد من النفوس:

مع فتح مكة والطلاق وما اتخذهُ رسول الله ﷺ من تدابير الحكمة في تفريق شمل الخصماء وتقليص عدد المواجهين له، وفي الوقت نفسه كان هنالك رسالة تحفيز لهم على الكف عن القتال من خلال قوله ﷺ: (من دخل دار أبي سفيان كان آمناً).

ولابد من النظر إلى تصرفه ﷺ مع أهل مكة حين جمعوا له بعد فتحها، فخطبهم وأعلن عليهم مبادئ المساواة التي جاء بها الإسلام، وأنه لا غالب أكرم من مغلوبٍ لأنه غلب، ثم منحهم حريتهم حيث قال لهم: (يا معشر قريش إن الله (عز وجل) قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس لآدم، وآدم من تراب، (يا أيها الناس) إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم). يا معشر قريش ما ترون أي فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. قال: فاذهبوا فأنتم الطلقاء^(٤٨).

وانظر إليه حين جمع من تمكنت في قلوبهم أحقاد الجاهلية ولم يصف فيها الإيمان بعد، فأخذ يُغدق عليهم من الأموال إلى أن انتزع آخر قطرة من حقد على الدولة الإسلامية في قلوبهم^(٤٩).

٦- دور التنمية البشرية في تطيب القلوب لدى النبي الأكرم ﷺ:

قد يضطر رئيس الدولة إلى أن يتصرف تصرفاً يخرج فيه عن المألوف، أو يخالف به سنن القياس لمصلحةٍ عليها يراها، حتى يُظن أنه منع الخير عمن يُظن بأن له حقاً في هذا الخير، وفي هذه الحالة لابد له من بيان وجه

المصلحة في تصرفه هذا لمن تضرّروا من هذا التصرف، ولا بدّ من تطيب قلوبهم؛ لأن كسب القلوب هو أثمن ما يحصل عليه رئيس الدولة، وقد كان رسولُ الله ﷺ يفعلُ هذا ويحرص عليه، فإنّه ﷺ ما أن يلاحظ تذرُّماً أو عدم رضا من شعبه لموقفٍ من المواقف أو تصرفٍ من التصرفات حتى يُسرّع لبيانه وتطيب قلوب الشعب^(٥٠).

انظر تصرفه يوم دخل سعد بن عبادَة - في الجعرانة - على رسول الله فقال: يا رسول الله إن هذا الحيّ من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفياء الذي أصبت، قسمت في قومك - يريد أهل مكة - وأعطيت عطايا في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحيّ من الأنصار منها شيء، قال ﷺ: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلاّ من قومي، قال: فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فأتاهم رسول الله فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا معشر الأنصار، ما قالَةُ بلغتني عنكم، وجدّةُ وجدتموها عليّ في أنفسكم، ألم آتكم ضلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألّف بين قلوبكم؟. قالوا: بلى يا رسول الله، والله ورسوله آمن وأفضل. قال: ألا تحببوني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله، لله ولرسوله المنّ والفضل. قال: أما والله لو شتّم لقلتكم، فلصدقتكم ولصدقتكم: أتيتنا مكذباً فصدّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فأويناك، وعائلاً فأسيناك. أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم على لعاعةٍ من الدنيا تألّفت بها قومًا يُسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهبَ الناس بالشاة والبعير، وترجعون برسول الله إلى رحالكُم، فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لولا الهجرةُ لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلكَ الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلكت شعبَ الأنصار، اللهم ارحم الأنصارَ وأبناءَ الأنصار، وأبناءَ أبناءِ الأنصار».

وسمع الأنصارُ ما قال رسولُ الله، ورسموا - بسرعة البرق - صورةً ذهنيّةً لما قاله رسول الله «قومٌ يُشرون بالإيمان، يقابلُهم قومٌ يشرون بالجمال» و«قومٌ يصحبهم رسول الله يقابلهم قومٌ يصحبهم الشّاةُ والبعير» وتوقظهم الصورةُ من إغماءٍ فكريّةٍ كانوا فيها، ورسول الله ماثلاً أمامهم، ويدركون أنهم وقعوا في خطأٍ ما كان لأمثالهم أن يقع فيه، فتنتلق حناجرهم بالبكاء وماقيهم بالدموع ويصيحون: رضينا برسول الله قسماً وحظاً.

٧- التنمية البشرية عند الرسول الأعظم ﷺ وحثّ الطلب على الرزق:

اهتم الإسلام بتطوير العنصر البشري، والعمل على قوته، حيث قال الرسول ﷺ: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلّ خير). وكذلك اهتم الإسلام بالجودة وإتقان العمل بوصفها ثوابت للعمل في الإسلام حيث قال الرسول ﷺ: (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه).

وهكذا نجد الإسلام قد كرم العنصر البشري وحثّ على العمل وحدّد كيفية اختيار الأفضل للتوظيف، واهتم بالعدل في تقييم الأداء واهتم بتطوير العنصر البشري، ووضع الجودة والإتقان كأسس وثوابت للعمل. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ يَسْأَلُهُ، فَقَالَ: «أَمَا فِي بَيْتِكَ شَيْءٌ؟» قَالَ: بَلَى، حِلْسٌ نَلْبَسُ بَعْضُهُ وَنَبْسُطُ بَعْضُهُ وَقَعْبٌ نَشْرَبُ فِيهِ مِنَ الْمَاءِ، قَالَ: «اَتَيْنِي بِهِمَا»، قَالَ: فَأَتَاهُ بِهِمَا فَأَخَذَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ، وَقَالَ: «مَنْ يَشْتَرِي هَذَيْنِ؟» قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذُهُمَا بِدَرْهَمٍ، قَالَ: «مَنْ يَزِيدُ عَلَى دَرْهَمٍ» مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، قَالَ رَجُلٌ: أَنَا أَخَذُهُمَا بِدَرْهَمَيْنِ، فَأَعْطَاهُمَا إِيَّاهُ وَأَخَذَ الدَّرْهَمَيْنِ وَأَعْطَاهُمَا الْأَنْصَارِيَّ، وَقَالَ: «اشْتَرِ بِأَحَدِهِمَا طَعَامًا فَأَنْبِذْهُ إِلَى أَهْلِكَ وَاشْتَرِ بِالْآخَرِ قَدُومًا فَأَتِنِي بِهِ»، فَأَتَاهُ بِهِ، فَشَدَّ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُودًا يَدِهِ، ثُمَّ قَالَ لَهُ: «اذهب

فَاحْتَطَبُ وَبِعَ وَلَا أَرَيْتَكَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا ، فَذَهَبَ الرَّجُلُ يَحْتَطَبُ وَيَبِيعُ فَجَاءَ وَقَدْ أَصَابَ عَشْرَةَ دَرَاهِمَ فَأَشْتَرَى بِبَعْضِهَا ثَوْبًا وَبِبَعْضِهَا طَعَامًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « هَذَا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَحِجَّ الْمُسَالَةَ نُكْتَةً فِي وَجْهِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّ الْمُسَالَةَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِثَلَاثَةٍ: لِذِي فَقْرٍ مُدْفِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُقْطَعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ »^(٥١).

٨- التنمية البشرية في تحمل الفرد المسلم المهام وتوزيع المهام:

سعى رسول الله ﷺ إلى صناعة الفرد المسلم ليتحمل مسؤوليته بوصفه مسلمًا نافعًا لمجتمعه ودينه ، ومن يُوكل إليه المهام فيكون أهلاً لها، هذه هي التربية التي ربَّى رسول الله ﷺ أتباعه وهيَّأهم ليكونوا على مستوى من النمو والتطور البشري، فكان المرءيُّ لهم ليتحملوا تلك المهام الموكلة إليهم. فالسعي الأول هو إعداد تلك النفوس المسلمة على وفق أساليب لم يعتادوا عليها في الجاهلية، وأهم تلك الأساليب التي قام ﷺ بتطبيقها على وفق ما يتمتع به من مزايا معرفية هي^(٥٢):

أ- الرشاقة التنظيمية:

وهي قدرة القيادة التحصيلية والخبرية لدى النَّبيِّ ﷺ على حسن القيادة وجودة الإدارة بصورها كافة.

ب- الرشاقة الفكرية:

وهي امتلاك سرعة البديهة والفطنة والذكاء والقدرة على وضع استراتيجية مستقبلية للمهام، وامتلاك القدرة لوضع الخطط المستقبلية الناجحة للدولة، وعدم التخبط العشوائي والارتجالي في اتخاذ القرارات.

ت- الرشاقة البدنية:

وتعني اختياره ﷺ لأصحاب القدرات الجسدية التي تؤهلهم لسرعة إنجاز العمل المطلوب منهم ، لما يتميزون به من صحة وجسم معتدل

وشجاعةً بدنية، مما يزيد من تحملهم للمهام والعمل اليدوي.

٩- مهارة التفويض الفعال ، و توزيع المسؤوليات:

إنَّ الأكتاف القوية لا تنمو إلا بالتدريب، والمساعدون الأكفاء لا يولدون من فراغ، والقيادة القوية هي التي تُحسن إدارة عملية تفويض المسؤوليات والاختصاصات، ولا تعتمد على مستوى إداري واحد تُحسن إعدادة فحسب؛ إنما تبني كل منطلقاتها وحركاتها على إدارة عملية التفويض، حتى لا يمر في أية مرحلة من مراحلها بمنعطفاتٍ أو مشكلاتٍ تنبع من عدم وجود المستوى المؤهل لتناول القيادة من سابقه، كما أنَّ نجاح الفرد يكمن في إدراكه لأهمية هذا الأمر وفي إدارته له.

ولذلك أدرك الرسول ﷺ أهمية هذا الأمر ، ومن ثمَّ أوجد لكلِّ طاقةٍ من الطاقات البشرية ما يناسبها من عمل ، ووزع المسؤوليات ، وفرض المهام ومنح أجزاءً متساويةً من المسؤولية والسلطة لأصحابه؛ ففي عهده ﷺ تولَّى الامام علي بن أبي طالب عليه السلام كتابة الوحي، كما قام بذلك أيضًا أبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وكان الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يقومان بكتابة أموال الصدقات، وكان حذيفة بن اليمان يعدُّ تقديرات الدخل من النخيل ، وكان المغيرة بن شعبة والحسن بن نمر يكتبان الميزانيات والمعاملات بين الناس.

وفي هذا إشارة إلى أصحاب المسؤوليات في تفويض المهام، وأن يعهد ببعض مهامه إلى أحد معاونيه، ويعطيه سلطة اتخاذ القرارات اللازمة للنهوض بهذه المهمة على وجهٍ مُرضٍ. ومما لا شكَّ فيه أنَّ النَّبيَّ ﷺ إذا ما أدَّى كلَّ هذه الأدوار بنفسه الشريفة فإنه سيكون أسرع وأفضل، ولكن على المدى القصير، وسيتحمل أكثر من طاقته البشرية، ويغرق في كثير من التفاصيل الروتينية وتصبح المسؤولية عبئًا ثقیلاً^(٥٣).

إنَّ القيادةَ الحكيمةَ للقائد تجعله كيف يرسم وكيف يخطط للإفادة من كلِّ الإمكانيات العقلية والجسمية لدى أتباعه ، مع المعرفة الدقيقة لإمكانية كلِّ واحدٍ منهم و وضعه في محله المناسب .

إنَّ عبقرية القيادة لا تظهر في شيءٍ بقدر ظهورها في معرفة الرجال ، ووضع كلِّ في محله ، واستخراج طاقات العقول بالشورى ، واستخلاص الرأي الصحيح ، وفي هذين النظامين كان الرسول ﷺ الأسوة الحسنة لأصحابه .

١٠ - الرسولُ القائد ومبدأ الشورى :

إنَّ الشورى فنٌّ من فنون السياسة وعمليةٌ تُكتشفُ فيها طاقات العقول ومكنونات النفوس لاستخلاص الرأي الصالح والأصوب ، ويتحمل فيها كلُّ فردٍ مسؤولية القرار النهائي ، ويقتنع فيها كلُّ الأفراد بالنتيجة ، فيندفعوا نحو المراد تحقيقه بقوةٍ وهمةٍ ، وترتفع بها ملكات الفرد ومعنوياته وروح الجماعة ، ويبقى الإنسان فيها على صلةٍ بمشاكل أمته وجماعته . ولذلك جعل الله (عز وجل) أمرَ المسلمين شورى بينهم ، حتى يتحمَّل كلُّ فردٍ من المسلمين المسؤوليةَ كاملةً ولا يبقى مسلمٌ مهملاً .

والظاهرة التي نراها في حياة الرسول ﷺ حُبُّه للشورى وحرصه عليها ، ومحاولته توسيع دائرتها واستخلاص الرأي الأخير في النهاية . وخير دليلٍ على ذلك ما حصل قبيل غزوة بدر ، فقد استشار النبي ﷺ أصحابه فأشار المهاجرون ، فلم يكتفِ ، ثم استشار ثانيةً فأشار الخزرج والأوس ، ثم أخذ قراره الأخير حتى يمحوا أيَّ ترددٍ عن أيِّ نفسٍ .

وقبيل يوم أحد استشار ﷺ أصحابه وأخذ برأي الأكثرية ، ويوم الأحزاب أخذ ﷺ برأي سلمان الفارسي ، ويوم الحديبية أشارت عليه ﷺ أم سلمة زوجته فأخذ برأيها .

إنها القيادة الحكيمة للرسول الأعظم ﷺ، لا تتكبر من أن تنزل على رأي مسلم كائنا من كان، ما دام الرأي سليماً. والقيادة الصالحة هي التي تعمم الشورى حتى لا يبقى رأي عند أحدٍ إلا قاله.

١١ - التنمية البشرية لدى الرسول الأعظم ﷺ والحث على طلب العلم:

أمر رسول الله ﷺ بالحث على طلب العلم والتعلم؛ لما له من أهمية ومردوداتٍ نافعةٍ تعود على المجتمع بالنفع والتطور والرفق، فلم يترك ﷺ جانباً من جوانب الحياة إلا وحث عليه من خلال أحاديثه وسنته ﷺ ومن خلال أخلاقياته ليكون الأسوة الحسنة للأمة، قال ﷺ: ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)). أثنى شيء يملكه الإنسان حياته، فهذا الدم الذي يهرق في سبيل الله لا يقل عنه المداد الذي يستخدمه العلماء لنشر العلم. وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات والأرض والحيتان في جوف الماء))؛ لذلك فرتبة العلم أعلى الرتب، وقيمة العلم أعلى القيم، قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (٥٤).

وقال ﷺ: ((طلب العلم فريضة على كل مسلم))، وفي هذا الحديث النبوي الشريف دلالة على حرص النبي على تشجيع أمته وأصحابه. والشاهد من كتاب القرآن قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْوَاقٌ خَالٍ مِنَ النَّاسِ وَهُوَ قَائِمٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ يَكْفُرُ بِالْكَافِرِينَ﴾. والحكم والنسبة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرون (٥٥).

١٢ - التنمية البشرية للرسول الأعظم ﷺ في حلّ المشكلات المعترضة

قبل النبوة:

استعمل رسول الله ﷺ أساليب التنمية البشرية من قبل النبوة، ففي رواية ابن اسحاق للحادث قال: «ثم إن القبائل جمعت الحجارة لبنائها كلّ قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البناء موضع الركن فاختموا فيه كلّ قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تجاوزوا وتحالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاهدوا هم وبنو عدي بن كعب بن لؤي على الموت وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة فسموا عقدة الدم. فمكثت قريش على ذلك أربع ليالٍ أو خمسا ثم إنهم اجتمعوا في المسجد وتشاوروا وتناصفوا فزعم (إذ يروى أن المشير على قريش مهشم بن المغيرة، ويكنى أبا حذيفة) بعض أهل الرواية: أن أبا أمية بن المغيرة عبد الله بن عمر بن مخزوم وكان أسنّ قريش كلها، قال: يا معشر قريش، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ففعلوا. فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد. فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: «هلم إليّ ثوبا، فأتي به، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال: لتأخذ كلّ قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه^(٥٦).

١٣ - تأسيس القاعدة الاقتصادية في المدينة وإبراز التنمية البشرية

المسلمة على أسس أهمها^(٥٧):

أ - الإسلام والقرآن هما الحياة: وأي مجتمع إسلامي لا يهتم بالعلم، ولا يهتم بالاقتصاد مجتمع ضعيف مغلوب على أمره، وما تفوق النبي عليه ﷺ في دعوته إلا لجعل العلم غذاءً للعقل، ولجعل محبة الله (عز وجل) والعمل

للجنة غذاء للقلب، ثم رأى في الإنسان جسماً يحتاج إلى طعام وشراب، فأرسى مبادئ الاقتصاد، فالإسلام هو الحياة.

ب - وضع الحلول الاقتصادية في توزيع الثروات:

المشكلة كانت في أن الاقتصاد لم يكن نتاجاً ناقصاً ضعيفاً، بقدر ما كان علاقات سيئة، فالمشكلة الاقتصادية آنذاك ليست في حجم الثروات، المشكلة كانت في طرق توزيع هذه الثروات، قال الله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ أي متداولاً: ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾^(٥٨). فإذا تداول الأغنياء المال فهناك مشكلة كبيرة، وفي المجتمعات المتخلفة الأغنياء يقدررون كل شيء، ولا شيء يهزمهم.

ج - مقياس نجاح المجتمع اقتصادياً يقوم على عدم اتساع الهوة بين الفقراء والأغنياء.

* الاقتصاد عبادة تعاملية في الإسلام:

من القواعد الاقتصادية التي جاء بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الاقتصاد دينٌ، وأقرب شيء لتلك العبادة التعاملية، ألا تكذب، ألا تغش، ألا تدلس، ألا ترفع السعر، ألا تستغل، ألا ترابي، ألا تحتكر، ألا تزين السلعة بما ليس فيها، فأكثر من مئة معصية في البيع والشراء.

ونراه ﷺ يقرر أن الاقتصاد دينٌ، أي أن العمل الاقتصادي جزء لا يتجزأ من الدين؛ لذلك أثبت القرآن هذه القاعدة فقال: (كَيْ لَا يَكُونَ)، أي المال، (دُولَةً)، أي متداولاً، (بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ).

إذن، كانت هناك مشكلة يعاني منها المجتمع الجاهلي؛ لذلك اهتم النبي ﷺ اهتماماً لا حدود له بتشكيل قاعدة اقتصادية وتنظيم نظام اقتصادي متوازن يحقق تنمية بشرية للفرد والمجتمع.

* الاقتصاد المنهك في المدينة قبل مجيء رسول الله ﷺ:

١- سيطرة اليهود على موارد التجارة وتعاملهم بالربا، وتحكمهم بالأسعار، وكان عامة الناس ما بين مزارع، وراعٍ للشيء والإبل، وصيَّاد، وصانع، وجامع للحطب، هكذا كان وضع الاقتصاد قبل مجيء رسول الله ﷺ.

٢- هؤلاء الذين يتعاملون في الاقتصاد لا تحكمهم قيمٌ أخلاقية، ولا شريعةٌ دينية، إنما يسود بينهم الاستغلال، والسيطرة، والغش، والفساد، والظلم، وتوارث الأساليب القديمة التي وجودوها في مجتمعهم.

٣ - شدة حاجة المدينة إلى الموارد الاقتصادية المادية والبشرية: كانت المهمة النبوية شاقة جداً؛ لأن اقتصاد المدينة بحاجةٍ إلى أمرين هما: الأول: النهوض بالموارد البشرية والاستثمارية والاقتصادية، وثانياً: إقرار الضوابط التي أقرها النبي ﷺ لمعالجة الاقتصاد. وإنَّ أيَّ أمةٍ ما لم تعالج مشكلاتها الاقتصادية هي أمةٌ تدمر نفسها^(٥٩).

قامت الحنكة القيادية للرسول الأعظم ﷺ في تنمية موارد الدولة الإسلامية لأفرادها البشرية على^(٦٠):

• إعداد القواعد الشعبية المؤمّنة قبل إقامة الدولة، حتى إذا ما قامت هذه الدولة أخذت هذه القاعدة الشعبية المؤمّنة دفعة إدارة أجهزة الدولة بكفاءة وإخلاصٍ، والدفاع عنها بفدائية لا نظير لها.

• اختيار مكان إقامة الدولة الاستراتيجي لما في ذلك من أهميةٍ تقوم عليه أعمدة الدولة الإسلامية، ولم يغب ذلك عن فكر النبي ﷺ.

• أهمية وجود الموارد الطبيعية التي تؤمّن الكفاية الذاتية والرخاء الاقتصادي للفرد.

• اتصاف أهلها بالفروسية والنجدة، والخبرة بالحرب وتأهلهم لها.

لذلك كان رسول الله ﷺ حريصاً على استقدام كل الكفاءات المخلصة لتساهم في بناء دولة الإسلام ورقيها وازدهارها، فجعل الله تعالى هجرة المؤمنين إلى المدينة المنورة مقر الدولة الإسلامية، فرضاً على المسلمين آنذاك بشهادة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(٦١).

ولا شك بأنه يجب أن يكون النبي ﷺ في أداء هذه المهمة «رجل دولة» بكل ما تعنيه هذه الكلمة وتحتويه من مضامين وأبعاد، فهو المصطلح المتعارف إطلاقه على الإنسان الذي يمتلك المؤهلات والقدرات على إدارة المجتمع في الحالات المختلفة، ونقله من حالة متدنية على كل المستويات إلى حالة عالية ومميزة في كل المجالات المناسبة؛ مع الأهداف المطلوب الوصول إليها بواسطة قيادة «رجل الدولة» الحكيم والمتوازن والعالم إلى أين يريد أن يصل بشعبه وأمتّه وكل من هو تحت لوائه وقيادته^(٦٢).

فالدولة هي الكيان السياسي والإطار التنظيمي لوحدة المجتمع وحياته الاجتماعية والاقتصادية، وهي التي تمتلك حق إصدار القوانين والسهر على تنفيذها وتطبيقها بما يحقق الأهداف المطلوبة عبر ضبط حركة المجتمع ككل، والسهر على رعايته وحمايته من كل من يحاول إبعاده عن أهداف الدولة الملتزمة بخطها ونهجها^(٦٣).

وهذه المفاهيم لها في الإسلام دلالات ومعانٍ مختلفة من حيث المضمون والفكر والسلوك، وإن تشابهت الأسماء؛ لأنها صارت متعارفة من حيث أصل المعنى الذي يُشير إليه كل مفهوم فيها^(٦٤).

فالمطلوب - أولاً- من «رجل الدولة» في الإسلام السهر على تحقيق هدفين أساسيين لا يمكنه تجاوزهما أو إهمالهما، وهما:

١- إبقاء حركة المجتمع على تواصلٍ دائمٍ مع الله (عزّ وجل) من خلال فتح كلّ الطرق والأساليب التي تربط الناس بخالقها من خلال «نظام العبادات» وتشجيع كل الناس على الاهتمام بهذا الجانب الرئيس والمهم في عقيدتنا الإسلامية.

٢- السهر الدؤوب والتخطيط السليم للحفاظ على مصالح الأمة ودرء المفسد عنها، وتشجيع كلّ حركةٍ بناءةٍ في المجتمع للوصول إلى الحياة الأفضل والأرقى من خلال الاستغلال الجيد والنافع للإمكانات والموارد والثروات بما يعود بالنفع والمصلحة لكلّ أفراد المجتمع ليعيش الجميع ومن كلّ المستويات وهو متمتع بالحدّ الأدنى من مقومات الحياة السعيدة والأمنة والمستقرة.

ونحن بوصفنا مسلمين نعتقد أن «رجل الدولة» و «الدولة» و«الدستور» لهم مرجعيةٌ واحدةٌ وهي «العقيدة الإسلامية» لا غير، وهي التي طبّقها رسول الله ﷺ في المجتمع الإسلامي الأول في «المدينة المنورة» وهو الحجة علينا على مدى العصور، وإلى آخر يوم من أيام الإنسانية في هذه الدنيا الفانية. وقد ظهرت إدارة النبي ﷺ كرجل دولةٍ على أرفع طرازٍ من خلال قيادته الحكيمة والرشيّدة التي يمكن تلخيصها في العنوانات العامة الآتية (٦٥):

الأول: توحيدُ صفّ المسلمين، فقد جَمَعَهُمْ ولمّ شملهم في المدينة المنورة بعد الهجرة من مكة، وقَرَّبَ بالتآخي بين المهاجرين والأنصار الوحدة بينهم، ونشر الألفة والمودة والتعاون الإيجابي لما فيه خير الجميع، وليقول النبي ﷺ بأن الإسلام هو الذي يوحد ويجمع ويؤلف بين الناس؛ ولذا

نجد الله سبحانه قد امتدح نبيه ﷺ على جمعه للقبائل المتناحرة والمتنافرة تحت لواء «التوحيد» وقد قال سبحانه في ذلك: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾^(٦٦).

الثاني: تحصين المجتمع المدينة لأنه كان النواة الأولى، والبذرة الأساسية للدولة الإسلامية، بعناصرها المتنوعة وقبائلها المتعددة، لقد كان بحاجة إلى أجواء من الأمن والسلام لتنظيم شؤون تلك الدولة الفتية وتقوية صمودها لتكون قادرة على مواجهة التحديات والعقبات والصعوبات التي كانت موجودة حولها وترصدها لإسقاطها والانتهاز منها، وعلى رأس هؤلاء «قريش» التي رأت في دولة الإسلام تهديداً لحاكميتها وسلطانها على الأمور في الجزيرة العربية آنذاك، ثم اليهود الذين كانوا في المدينة وعلى مقربة منها وكانوا يتآمرون عليها كذلك^(٦٧).

الثالث: إدارة قضايا الحرب والسلم والعلاقات مع الدول الأخرى في ذلك العصر، ولذا جهّز النبي ﷺ المجتمع المدينة ليكون قادراً على الدفاع عن عقيدته وعن دولته، خصوصاً أن المتربصين بدولة الإسلام كانوا قد شرعوا باعتداءاتهم وإبراز كراهيتهم وضيق صدورهم من تلك الدولة؛ ولذا وضع النبي ﷺ أولوياته في هذا المجال، فكانت «قريش» التي تمثل الخطر الأول الذي سقط على يد المسلمين بقيادة النبي ﷺ، هذا السقوط غير الكثير من الموازين للقوى في كل المنطقة؛ لأنها كانت «رأس الحربة» في التجيش لقتال المسلمين والنبي ﷺ^(٦٨)، ومع تكرار الاعتداءات أذن الله لنبيه ﷺ بالجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾^(٦٩).

الرابع: التسامح واللين مع الأمة، وهذه الصفة كانت بارزة في شخصية النبي ﷺ ولعبت دوراً مهماً في دخول الكثيرين في الإسلام، وثبتت إيمان المسلمين بدينهم، وقد امتدح الله هذا الخلق من النبي ﷺ بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾^(٧٠). وهذا التسامح كان نابغاً من خلق النبي ﷺ ومن حكمته في التعامل مع الأمور والسلبيات واستيعابها وتحويلها إلى إيجابيات لمصلحة الإسلام والمسلمين، ولذا ورد عنه قوله ﷺ: (أمرت بمداراة الناس كما أمرت بتبليغ الرسالة). فاللين والتسامح من أهم صفات رجل الدولة الذي يعرف أهدافه التي يريد الوصول إليها ويعرف الأساليب التي توصله لبلوغ ما يصبو إليه، ولذا لم يستغل النبي ﷺ قوة المسلمين للانتقام والتشفي، بل عمل بمقولة « العفو عند المقدرة » واستعمل القوة للبناء والأمن وحماية المسلمين من الأعداء.

الخامس: الالتزام الدقيق بتطبيق أحكام الإسلام على الجميع من دون أية استثناءات أو إعفاءات أو مجاملات، وفي هذا المجال برزت الإدارة الرشيدة والحازمة للنبي ﷺ ضد المخالفين لأحكام الإسلام من دون مراعاة للمكانة أو المنزلة الاجتماعية أو أي ميزان آخر كان معمولاً به في الجاهلية؛ لأن الإسلام لا يعترف إلا بموازين الله القائمة على: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(٧١)، وليس أكثركم مالاً أو جاهاً أو عشيرة أو شهرة.

خاتمة البحث:

وفي ختام بحثي المتواضع هذا الذي أشرت فيه لأهم الخطوات التي اتخذها الرسول الأعظم ﷺ في معالجة الظواهر الجاهلية السلبية في الصحابة، وفي محاولاته ﷺ الإصلاحية في التنمية البشرية وبناء الهيكلية السلوكية الإيجابية للصحابة، أسأل الله العلي العظيم أن ينال بحثي المتواضع هذا استحسان القارئ الكريم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش البحث

- ١- د. أحلام الحسن / فنُّ إدارة الأعمال، مؤسسة النيل والفرات للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية.
- 2-United Nation/ Economic Bulletin for Asia and the far East , social Development planning , vole , Xlv , NO. 2 , sept.1963.p.10.
- ٣- د. نبيل السمالوطي / علم اجتماع التنمية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١، ص ١١٩.
- ٤- د. أحلام الحسن / الرأسمالية البشرية « الكتاب لم يطبع بعد ».
- ٥- د. نبيل السمالوطي، مصدر سابق، ص ٦٣.
- ٦- د. عبد الباسط محمد حسن، التنمية الاجتماعية المطبوعة العالمية / القاهرة ١٩٧٠ ص ٩٣.
- ٧- د. عبد الباسط محمد حسن، مصدر سابق، ص ٩٢.
- ٨- سورة المدثر: الآية ١-٣.
- ٩- سورة الجمعة: الآية ٢.
- ١٠- د. حسن شحاتة سعفران/ أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، ط ٥، ٦٠ - ١٩٦١. ص ص ٢٩٥-٢٩٦.
- ١١- سورة الأحزاب: الآية ٧٢.
- ١٢- سورة الشمس: الآية ٧-١٠.
- ١٣- سورة هود: الآية ٦١.
- ١٤- د. قيس النوري، آفاق التغير الاجتماعي النظرية التنموية، جامعة بغداد، بغداد ١٩٩٠ ص ٤٣.
- ١٥- سورة هود: الآية ٦١.
- ١٦- سورة المؤمنون: الآية ١٩.
- ١٧- د. أحمد زكي بدوي / معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي فرنسي عربي، غير مفهرس، الناشر مكتبة لبنان، سنة النشر ١٩٨٢، عدد المجلدات ٢١، ص ٣٨٤.
- ١٨- سورة البقرة: الآية ٣٠.
- ١٩- سورة الأعراف: الآية ١٠.
- ٢٠- د. محمد زكي شافعي: محاضرات في التنمية والتخطيط، دار الأحد للطباعة، بيروت ١٩٧٣، ص ص ٤٩-٥٠.

- ٢١- سورة لقمان: الآية ٢٠.
- ٢٢- سورة الملك: الآية ١٥.
- ٢٣- د. أحمد زكي بدوي، مصدر سابق، ص ٢٨٩.
- ٢٤- سورة الروم: الآية ٤١.
- ٢٥- د. حسن شحاتة سعفان، مصدر سابق، ص ١٣٩.
- ٢٦- سورة الزمر: الآية ٩.
- ٢٧- سورة يونس: الآية ٣٥.
- ٢٨- سورة البقرة: الآية ٢٨٢.
- ٢٩- د. محمد زكي شافعي، مصدر سابق، ص ٨٩.
- ٣٠- سورة محمد: الآية ١٩.
- ٣١- د. عبد الباسط محمد حسن، مصدر سابق، ص ١٠٩.
- ٣٢- سورة الأنفال: الآية ٦٠.
- ٣٣- سورة يوسف الآية ٤٧.
- ٣٤- د. محمد زكي شافعي، مصدر سابق، ص ٩٩.
- ٣٥- سورة النجم: الآية ٣٩.
- ٣٦- سورة الكهف: الآية ٣٠.
- ٣٧- سورة التوبة: الآية ١٠٥.
- ٣٨- د. هدى مجاهد ود. فهمي فهمي / أسس تقويم الأسلوب التكاملي في التنمية الاجتماعية الريفية، المجلة الاجتماعية القومية، العدد الثالث، سبتمبر ١٩٧٤، المجلد الحادي عشر، المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، جمهورية مصر العربية، ص ٣٩٢.
- ٣٩- سورة الرعد: الآية ١١.
- ٤٠- سورة الأنفال: الآية ٥٣.
- ٤١- سورة المؤمنون: الآية ٨.
- ٤٢- سورة هود: الآية ٨٨.
- ٤٣- عدلي سليمان وعبد المنعم هاشم / الجماعات بين التنشئة والتنمية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة ١٩٧٣، ص ٥٤.
- ٤٤- سورة الأنعام: الآية ٥١-٥٢.
- ٤٥- سورة الأحزاب: الآية ٢١.
- ٤٦- د. محمد زكي شافعي، مصدر سابق، ص ١٤٩.
- ٤٧- محمد ضياء الدين عوض / التلفزيون والتنمية الاجتماعية، الدار القومية للطباعة

- والنشر القاهرة، ١٩٦٦، ص ٢٠.
- ٤٨-د. عبد الحميد لطفي / الآثار المتبادلة بين الخصائص السكانية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، دراسة غير منشورة، القاهرة، التاريخ غير مذكور ص ٢.
- ٤٩-د. محمد السويدي / دور علم الاجتماع في مواجهة مشكلات التنمية في الوطن العربي، مقالة في كتاب حلقة النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي، الجزائر، ١٩-٢٦ مارس، ١٩٧٣، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة ص ٢٤٧.
- ٥٠-د. عبد الحميد لطفي، مصدر سابق، ص ٦.
- ٥١-د. محمد عبد المنعم نور/ الحضارة والتحضر، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٧٠، ص ٢٢١.
- ٥٢-محمد عبد الشفيق / قضية التصنيع في إطار النظام الاقتصادي العالمي الجديد، دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٦.
- ٥٣-السيد عبد العاطي السيد / علم الاجتماع الصناعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص ١١-١٢.
- ٥٤-سورة النساء: الآية ١١٣ .
- ٥٥-سورة آل عمران : الآية ٧٩ .
- ٥٦-كلارك كير وآخرين / الصناعة وأثرها في المجتمعات والأفراد، ترجمة إبراهيم دجاني / المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢، ص ٤٩.
- ٥٧-د. عبد المنعم الحسني / التخطيط للتنمية في أقطار العالم الثالث بين نظريات التحديث ونظريات التبعية، بحث غير منشور، ١٩٩٦، ص ٢.
- ٥٨-سورة الحشر: الآية ٧.
- 59-Encyclopaedia of the Social sciences. vol. 7. The Mac Millan company , New York. 1963.p 564.
- ٦٠-د. نادر فرجاني: البشر والتنمية في الوطن العربي مصدر سابق، ص ٥.
- ٦١-سورة النساء: الآية ٩٧.
- ٦٢-حسن سعيان / اتجاهات التنمية في المجتمع العربي، مقال في كتاب «حلقة النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي» ، الجزائر، ١٩-٢٦ مارس، ١٩٧٣، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة، ص ٢٢٥.
- ٦٣-د. نادر فرجاني: مصدر سابق، ص ٩٥.
- ٦٤-د. نادر فرجاني / عن البشر والتنمية في الوطن العربي، المستقبل العربي، السنة الحادية عشر، العدد ١١٣، تموز / يوليو ١٩٨٨ ص ٤.

65-International Social Service Review, NO. 9 , April , 1963 United Nations , New York , p. 3.

٦٦-سورة آل عمران: الآية ١٠٣ .

٦٧-جامعة الدول العربية، الأمانة العامة ، الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية والثقافية ، المؤتمر الخامس عشر للشؤون الاجتماعية، بغداد، ٢٢-٢٧ ديسمبر ١٩٧٣ ، ص ٢٨ .

٦٨-د. محمد السويدي : دور علم الاجتماع في مواجهة مشكلات التنمية في الوطن العربي، مقالة في كتاب حلقة النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي، الجزائر، ١٩-٢٦ مارس، ١٩٧٣، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة ص ٢٤٧ .

٦٩-سورة الحج: الآية ٣٩-٤٠ .

٧٠-سورة الفتح: الآية ٢٩ .

٧١-سورة الحجرات: الآية ١٣ .

المصادر والمراجع:

- * Encyclopaedia of the Social sciences. vol. 7. The Mac Millan company , New York. 1963.
- * International Social Service Review, NO. 9 , April, 1963 United Nations , New York.
- * United Nation/ Economic Bulletin for Asia and the far East , social Development planning , vole , Xlv , NO. 2 , sept.1963.
- * بدوي، أحمد زكي: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انجليزي فرنسي عربي، غير مفهرس، الناشر مكتبة لبنان، سنة النشر ١٩٨٢، عدد المجلدات ٢١.
- * جامعة الدول العربية: الأمانة العامة، الإدارة العامة للشؤون الاجتماعية والثقافية، المؤتمر الخامس عشر للشؤون الاجتماعية، بغداد، ٢٢-٢٧ ديسمبر ١٩٧٣.
- * الحسن، أحلام: الرأسمالية البشرية «الكتاب لم يطبع بعد».
- * الحسن، أحلام: فن إدارة الأعمال ، مؤسسة النيل والفرات للطباعة والنشر، جمهورية مصر العربية.
- * حسن، عبد الباسط محمد: التنمية الاجتماعية المطبعة العالمية / القاهرة ١٩٧٠.
- * الحسني، عبد المنعم: التخطيط للتنمية في أقطار العالم الثالث بين نظريات التحديث ونظريات التبعية، بحث غير منشور، ١٩٩٦.
- * سـعان، حسن شحاتة: اتجاهات التنمية في المجتمع العربي، مقال في كتاب «حلقة النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي»، الجزائر، ١٩-٢٦، مارس، ١٩٧٣ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة.
- * سـعان، حسن شحاتة: أسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، ط ٥، ٦٠ - ١٩٦١.
- * سليمان، عدلي وعبد المنعم هاشم: الجماعات بين التثنية والتنمية، مكتبة القاهرة الحديثة، القاهرة.
- * السـالوطي، نبيل: علم اجتماع التنمية، دار النهضة العربية ، بيروت، ١٩٨١.
- * السويدي، محمد: دور علم الاجتماع في مواجهة مشكلات التنمية في الوطن العربي، مقالة في كتاب حلقة النهوض بعلم الاجتماع في الوطن العربي، الجزائر، ١٩-٢٦ مارس، ١٩٧٣، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إدارة الثقافة.
- * السيد، عبد العاطي السيد: علم الاجتماع الصناعي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ، ١٩٨٥.
- * شافعي، محمد زكي: محاضرات في التنمية والتخطيط، دار الأحد للطباعة، بيروت، ١٩٧٣.
- * عبد الشفيـع، محمد: قضية التصنيع في إطار النظام الاقتصادي العالمي الجديد،

- الخصائص السكانية والتنمية الاقتصادية والاجتماعية، دراسة غير منشورة، القاهرة، التاريخ غير مذكور.
- * نور، محمد عبد المنعم: الحضارة والحضر، دراسة أساسية لعلم الاجتماع الحضري، مكتبة القاهرة الحديثة.
- * النوري، قيس: آفاق التغير الاجتماعي النظرية التنموية، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٩٠.
- دار الوحدة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١.
- * فرجائي، نادر: عن البشر والتنمية في الوطن العربي، المستقبل العربي، السنة الحادية عشر، العدد ١١٣، تموز / يوليو ١٩٨٨.
- * كلارك كير وآخرين: الصناعة وأثرها في المجتمعات والأفراد، ترجمة إبراهيم دجاني / المكتبة الأهلية، بيروت، ١٩٦٢.
- * لطفي، عبد الحميد: الآثار المتبادلة بين





صحيفة المدينة المنورة
وإسهامها في إرساء قيم التعايش الديني وحماية الشباب
من آفة التطرف
أ.د. كريمة نور عيساوي
كلية أصول الدين وحوار الحضارات
جامعة عبد الملك السعدي/ تطوان / المغرب



The Charter of Medina (the Constitution of Medina) and its Contribution for Setting the Religious Coexistence Values

Prof. Dr. Karima Nour Essaoui
Faculty of Oussoul Eddine and Dialogue of Civilizations
Abdelmalek Essaâdi University in Tetouan

الملخص

إن «صحيفة المدينة» هي دستور كفل جميع الحقوق الإنسانية كحق الاعتقاد وممارسة الشعائر والمساواة والعدل. إنها رؤية خاصة لكيفية التعايش داخل المجتمع. وهي أنموذج لثقافة التسامح والعيش بسلام في ظل واقع عملي يسوده الحوار بين كل الأطراف التي تجمعها مصالح مشتركة. إنها ترسيخ لحوار داخلي بين مكونات المجتمع، فهي صالحة لكل زمان ومكان. إذ أبرزت بوضوح المكانة التي احتلتها الأقليات الدينية، وكانت الوثيقة مثالا نستشف من خلاله بنودا للحريات والحقوق والمساواة. فالكل سواسية في الحقوق والواجبات. إنها ثمرة من ثمرات الحوار الذي أسسه الرسول ﷺ بالموازاة مع تأسيس الدولة الإسلامية. مما يعكس أهمية الحوار بوصفه أداة لمد الجسور بين أبناء الأمة الواحدة وبين الأفراد والجماعات. فلا تنمية سواء على المستوى المحلي أو الدولي دون حوار. ولم تكن «صحيفة المدينة» إلا لبنة أولى أعقبها لبنات أخرى أسهمت على امتداد تاريخ الإسلام في تحديد علاقة الإسلام بالأديان الأخرى. الأمر الذي أفضى إلى مشاركة اليهود والمسيحيين وغيرهم من أتباع الديانات الأخرى في نشأة التراث العربي الإسلامي وتطوره.

غير أن مصارحة الذات تقتضي منا الخروج من مأزق جلد الذات الملازمة لنا إلى آفاق أوسع ألا وهو تعقب النصوص الدينية واستنطاقها التي تُقدم دلائل ملموسة على أن الإسلام بريء من التهم الباطلة التي تُنسب إليه. سنحاول في هذا الإطار أن نُبرز من خلال ورقتنا العلمية أهمية «صحيفة المدينة» التي تعتبر أقدم دستور مدون في العالم، حدد في صيغة أولية غير مسبقة الملامح العامة لدولة الإسلام الجديدة دون أن أي تمييز بين مواطنيها من حيث اللون أو العرق أو الجنس. وقد نظمت

الصحيفة العلاقة بين جميع مكونات المجتمع المدني (المهاجرون والأنصار واليهود...)، مع التركيز في هذه المداخلة على العلاقة بين المسلمين واليهود في ظل نظام إسلامي يطبعه التسامح والتعايش والتكافل ونصرة المظلوم، بعيدا عن كل مظاهر الإقصاء والتطرف. والغاية المثلى أن نجعل هذه الصحيفة وغيرها من العقود والمواثيق مرجعا أساسيا أو خارطة طريق واضحة المعالم تُرشد شباب أمتنا إلى المنهج القويم للديانة الإسلامية السمحة، وتحذرهم من مخاطر التطرف ومزالق العنف. فما يجمع بين الإرهابيين ليس هو الدين، وإنما الجهل به لأن الدين الإسلامي هو نور ومعرفة وحكمة وسبيل للسلام.

Abstract

In recent decades, none can deny that terrorism has become the feature of the modern era; there is no year can passes without terrorist attacks and bloody events and assassination that took place here or there. The victims of these accidents are innocent people, and their only guilt is that they are different in color, religion, sect or race from terrorists. However, the most heinous and painful terrorist attacks are hidden under the name of religion.

It is the misfortune of Muslims that various factors have combined to form a stereotypical image about Islam, which reflects how the other - the West - see Muslims. This stereotypical image is directly associated with violence and the undoubtable belief that terrorism is an Islamic industry.

The fast spreading of this stereotype has come as a result of the unprecedented development of the media means, which are often directed to serve, in a thoughtful and professional manner, the interests of the stronger party. Nor should we forget that the historical animosity between Islam and the West is widening, despite the efforts made by both parties to overcome this uncomfortable situation.

However, in this situation we have to be frankly clear with ourselves in order to get out of the dilemma of self-flagellation to broader horizons, this help us trace and interrogate the religious texts that provide an tangible evidence that Islam is innocent of the false accusations.

In this context, we will try to highlight, through this academic paper, the importance of the charter of Medina, which is the oldest written constitution in the world that defined unprecedentedly the general features of the new Islamic state

without any discrimination between its citizens in terms of color, race or gender. The charter of Medina organized the relationship between all members of Median society (immigrants (Al-Muhajirin, supporters (Al-Anssar) and Jews...).

In this paper, I will focus on the relationship between Muslims and Jews under an Islamic system characterized by tolerance, coexistence, interdependence and the support of the oppressed people, away from all manifestations of exclusion and extremism.

The main goal is to make this charter of Medina and other contracts and charters as basic reference, or a clear roadmap, that guides the youth of our nation to the correct approach of Islam as a tolerant religion, meanwhile warning them of the dangers of extremism and the pitfalls of violence. What makes the terrorists together is not religion, but the ignorance of religion, because the Islamic religion is a knowledge, wisdom and a path to peace.

المقدمة:

لا أحد يُمكنه أن يُنكر أن الإرهاب أصبح، في العقود الأخيرة، من سمات العصر الحديث. ولا تمر السنة دون أن تبلغ أسمعنا وقائع أحداث دامية وقعت هنا أو هناك، وكان من ضحاياها أبرياء لا ذنب لهم سوى أنهم يختلفون عن مقترف الجريمة الإرهابي في اللون أو الدين أو المذهب أو العرق. غير أن أشد هذه العمليات الإرهابية بشاعة، وأكثرها إيلا ما هي تلك التي تختبئ تحت قناع دين معين. ومن سوء حظ المسلمين أن عوامل شتى تضافرت كلها في تشكيل صورة نمطية يحملها الآخر / الغرب عن الإسلام تتلخص في اقترانه المباشر بالعنف، والاعتقاد الذي أصبح من المسلمات غير القابلة للترزع أو الشك بأن الإرهاب صناعة إسلامية. ومما أسهم في ترويح هذه الصورة النمطية هو التطور غير المسبوق لوسائل الإعلام والتواصل التي كثيرا ما تكون مُوجهة لتخدم، بشكل مدروس واحترافي، مصالح الطرف الأقوى. ولا ينبغي أن ننسى أن العداء التاريخي تزداد شقته اتساعا بين الإسلام والغرب، وذلك على الرغم من الجهود التي بُذلت من الطرفين لتجاوز هذه الوضعية غير المريحة.

وإذا كان للغرب يد في توجيه أصابع الاتهام إلى الإسلام، واعتباره مسؤولا عن كل هذا الشر الموجود في العالم (التضييق على المرأة، اضطهاد الأقليات...)، لاسيما أنه يحتكر كبريات شركات الإعلام العملاقة فإن مصارحة الذات تقتضي منا الخروج من مأزق جلد الذات الملازمة لنا إلى آفاق أوسع ألا وهي تعقب النصوص الدينية واستنطاقها التي تُقدم دلائل ملموسة على أن الإسلام بريء من التهم الباطلة التي تُنسب إليه. ومن النصوص التي ينبغي الالتفات إليها ودراستها «صحيفة المدينة» التي حددت في وقت مبكر من تاريخ الإسلام العلاقة بين المسلمين وغيرهم

من أصحاب الديانات الأخرى (اليهود على وجه التحديد). غير أن هذه العملية برمتها قد تكون دون جدوى ما لم يصل تأثيرها إلى أوساط الشباب الذين كثيرا ما يكونون ضحايا فكر إقصائي فيتحولون من بناء حضارة تؤمن بالتعدد الديني، والتسامح وغيرها من القيم الإسلامية الكبرى إلى دعاة حرب.

سنحاول في هذه الدراسة أن نتناول العناصر الآتية:

الوضعية الدينية لشبه الجزيرة العربية

النصوص القرآنية المؤسسة للحوار بين الأديان-

«صحيفة المدينة»: ظروف النشأة

«صحيفة المدينة» في ضوء مناهج النقد التاريخي

علاقة المسلمين باليهود من خلال «صحيفة المدينة»

مدى حضور «صحيفة المدينة» في أوساط الشباب

الوضعية الدينية لشبه الجزيرة العربية

لم يظهر الإسلام في مجتمع يتألف من الوثنيين فقط الذين يعبدون الأصنام، وإنما وجد نفسه أمام ديانات أخرى، لاسيما في يثرب/ المدينة المنورة التي كانت تضم قبائل يهودية مشهورة مثل بني قريظة وبني قنيقاع وبني النضير. وهذا ما يوضحه هيربرت بوسه: «أما في المدن الواقعة في القسم الشمالي لطريق البخور فوجدت جماعات يهودية لا يُعرف عن بداياتها إلا القليل أو لا يعرف عنها شيئا البتة. والمدن الأكثر شهرة من الشمال حتى الجنوب هي تيماء وخيبر ويثرب/ المدينة. وكانت الجماعات اليهودية في المدينة مقسمة إلى «عشائر»، ولعبت ثلاث جماعات منها دورا خاصا في حياة النبي وهم بنو قنيقاع وبنو النضير وبنو قريظة»^١.

ناهيك عن وجود جماعات نصرانية في مناطق أبعد عن محيط مكة والمدينة، وتحديدًا في شمال شبه الجزيرة العربية من قبائل غسان وقضاعة. فلم يكن حسب فاروق حمادة للنصارى «استقرار كبير أو حضور كثيف بقرب النبي ﷺ في مكة والمدينة، وقد يكون هناك منهم عابر سبيل مترحل، أو تاجر ساعة متنقل، ولم يثبت عندي أن طائفة من النصارى كبيرة أو صغيرة كانت تسكن مكة أو المدينة أو ما حولها، قبل الإسلام أو بعده سوى ما قدمت، أما مكة فعربية خالصة، وأما يثرب فسكنها يهود في مجتمعات معروفة قبل الإسلام»^٢. وكان عرب الجزيرة، بالإضافة إلى ذلك، على اتصال وثيق بالأمم الأخرى، وذلك من طريق التجارة. وهو الأمر الذي سيُمكنهم من الاتصال بأديانها، والتعرف إليها.

النصوص القرآنية المؤسسة للحوار بين الأديان

إن هذه الوضعية التي تتميز بتعدد الأديان، والتي كثيرا ما يتم تجاهلها أو التقليل من أهميتها، ستدفع النبي محمد ﷺ إلى تحديد موقف الإسلام منها. وبما أن الإسلام دين السلام فإنه لا يمكن إلا أن يُقر بالحوار بين الأديان منهجا في التعامل مع الغير. إن الحوار كما أكد ذلك عبد الهادي بوطالب يُنظم بعناية من طريق الوحي في آيات قرآنية واضحة الدلالة لضبط هدفه وطرائق استعماله. وبذلك أصبح الحوار نهجا ربانيا، أي جزءا من عقيدة المسلم ومن بين ثوابتها التي لا تقبل التغيير، وألزم به صاحب الرسالة أولا ثم من تبعه من المسلمين فيما بينهم^٣.

ومن هنا فما أكثر النصوص القرآنية المؤسسة للحوار بين الأديان، والتي تتفق في مجملها على المبادئ الآتية:

وحدة الأصل الإنساني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ

الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا^٤.

تكريم الإنسان بصرف النظر عن جنسه أو دينه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا^٥﴾.

الدعوة إلى التعارف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ^٦﴾.

الاختلاف كامن في طبيعة الكون وجبله الخلق: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ^٧﴾. ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ^٨﴾.

حرية المعتقد وممارسة الشعائر الدينية: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ^٩﴾.

حرية الدعوة إلى الدين: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ^{١٠}﴾.

إستراتيجية التعايش: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ^{١١}﴾.

ويجب التأكيد أن فكرة التعايش السلمي بين الأديان التي دعا الإسلام إليها، والتي ستجد طريقها إلى التنفيذ على يد النبي محمد ﷺ فيما يُعرف بصحيفة المدينة لم تكن مقبولة. ويكفي أن نعود إلى حقبة ما قبل ظهور الإسلام لنلاحظ أن الانغلاق على الدين الواحد، ونبذ ما عداه كان هو السمة الغالبة التي ميزت العلاقة المتوترة والمتبادلة بين النصرانية

واليهودية. فقد كان نصارى الإمبراطورية الرومانية، بعد إعلانها المسيحية ديناً رسمياً في القرن الرابع الميلادي، يضطهدون اليهود انتقاماً منهم لاضطهادهم المسيح، والحكم عليه بالصلب. وتنوعت أساليب الاضطهاد ما بين الصلب أو التحريق بالنار. وفي القرن السادس الميلادي، وتزامناً مع قيام حكم باليمن على رأسه ذو نواس الذي تخلى عن النصرانية، واعتنق اليهودية، تعاظمت بين يهود فلسطين نزعة الثأر من نصارى اليمن الموجودين خاصة في نجران، ووجدوا من هذا الحاكم تأييداً لهم. وتجلّى ذلك في تحريق كنائسهم، وجمع معتنقي النصرانية في واد باليمن سباه القرآن الكريم بالأخدود، وتصفيتهم بإحراق أجسادهم ودفنهم جملة فيه. وكانت هذه أول محرقة جماعية يتعرض لها معتنقو النصرانية^{١٢}. وقد وردت هذه القصة في سورة البروج ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ (٢) وَشَهِدِ وَمَشْهُودِ (٣) قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (٤) النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٨) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٩)﴾^{١٣}

«صحيفة المدينة»: ظروف النشأة

كان التناحر بين الأديان مُتفشياً قبل ظهور الإسلام، ولم تكن المدينة المنورة التي هاجر إليها الرسول ﷺ بأحسن حال. فقد عرفت هي كذلك أنواعاً أخرى من التناحر القبلي أو غيره الذي تُسهب كتب الأخبار في ذكر صور منه. وحينما نستحضر هذه الصور وتأمل مضامينها سندرك، لا محالة، التغيير الجذري الذي سيطر عليها بمجرد استقرار النبي بها، وشروعه في إشاعة روح المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وتقريب شقة الخلاف بين المسلمين واليهود، وأن يحولها في مدة قياسية إلى «مدينة» تنعم

بقسط وافر من الأمن والاستقرار والتعايش السلمي، ولم يمنعه من تحقيق هذه الغاية النبيلة تعدد أنسابها القبلية، واختلاف أديانها. غير أن الخطوة العملاقة في مجال ترسيخ قيمة التعايش السلمي بين الأديان ستتحقق في «صحيفة المدينة» التي نظمت علاقات المسلمين مع المشركين واليهود في أسلوب حضاري رفيع غير مسبوق. وتُعتبر هذه الصحيفة في نظر الكثيرين (محمد حميد الله وعبد الهادي بوطالب وغيرهما) أقدم دستور مدون في العالم، حدد في صيغة أولية الملامح العامة لدولة الإسلام الجديدة دون أي تمييز بين مواطنيها من حيث اللون أو العرق أو الجنس أو الدين^{١٤}. لكن قبل الحديث عن مضمونها، وخاصة البنود التي تُحدد العلاقة بين المسلمين واليهود أو الأقليات إذا ما أردنا استعمال هذا المصطلح الجديد في العلوم الإنسانية، سيكون من المفيد أن نتناولها باعتبارها وثيقة مكتوبة أثارت، منذ بداية الاهتمام بها في العصر الحديث، جدلاً كبيراً بين الباحثين تأرجح ما بين الاعتداد بها والتشكيك في صحتها. ويقف على رأس المشككين في صحتها المستشرق جولتسهير I. Golziher الذي نظر إليها في ظروف لم تكن بالنسبة إليه ملائمة للمحافظة على النص المكتوب، وخاصة في سياق اشتهر بوضع الحديث النبوي^{١٥}.

وما ينبغي التركيز عليه هو أن كتابة صحيفة المدينة أو الوثائق بصفة عامة هو امتداد لتقليد سابق يتمثل في تحرير قريش مكة لبعض العهود والمحالفات بينهم وبين القبائل المجاورة، إلا أن ذلك كان بحسب حميد الله منحصراً في دائرة محدودة لا يتعداها^{١٦}. ومن المؤكد أن ظهور الإسلام، وبداية انتشاره كان يحتاج إلى تحرير مثل هذه الوثائق، وذلك للتعبير عن طبيعة العلاقات السياسية أو الدولية التي تربطه بالأمم الأخرى. والواقع أن أغلب هذه الوثائق ضاعت، ولم تصل إلينا في صورتها الأصلية. وما بقي

منها إلا الشيء اليسير مثل كتاب النبي إلى المقوقس وكتاب النبي إلى المنذر بن ساوى وكتاب النبي إلى النجاشي. غير أن رواة الحديث والمؤرخين اعتنوا بنقل أجزاء منها.

وما يسري على هذه الوثائق ينطبق أيضا على «صحيفة المدينة» التي نجد لها ذكرا في الكثير من المصنفات الإسلامية البكرة والوسيلة سواء تعلق الأمر بمصنفات في التاريخ أو الحديث أو السياسة الشرعية والأحكام السلطانية أو الفقه الإسلامي أو غير ذلك من المصادر الأخرى. يقول هشام جعيط معلقا: «من المدهش أن يمر عليها كبار المؤرخين القدامى من دون ذكرها، وهناك آخرون لا يبنطونها بأهمية كبرى، إذ يكتفون بالقول إن النبي حل مشكلة الديات (المعاقل) ليس إلا. زد على ذلك أنه لا توجد أية إشارة إليها البتة في القرآن، ربما لأن الأمر يتعلق بعمل سياسي وليس بفرض ديني»^{١٧}.

«صحيفة المدينة» في ضوء مناهج النقد التاريخي

ولاشك في أن أقدم مصدر لهذه الوثيقة هو سيرة رسول الله لمحمد بن إسحاق (ت ١٥١هـ) وكتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ). وقد تكرر ذكرها بعد ذلك في صيغ مختلفة، وبإسناد وبدون إسناد في مصادر أخرى مثل سنن البيهقي (ت ٤٥٨هـ)، عيون الأثر في فنون المغازي والشمال والسير لابن سيد الناس (ت ٧٣٤هـ)، والبداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٤٤هـ)، وفي أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية (ت ٧٥٨هـ). فيما تسكت مصادر مهمة عن الإشارة إليها مثل طبقات ابن سعد (ت ٢٣٠هـ)، وأسد الغابة لابن الأثير (ت ٦٣٠هـ)، وسير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي (ت ٧٤٨هـ).

وقد اختلف الباحثون في تاريخ كتابة صحيفة المدينة، وتساءلوا عن إمكانية أن تكون قد كُتبت على مراحل. ويذهب وليام مونتجموري واط

William Montgomery Watt إلى القول بأن بداية كتابتها كان في ٦٢٢م أو ٦٢٤م . ولم تعرف صيغتها النهائية إلا في ٦٢٧م أي في السنة الخامسة من الهجرة بعد أن تم تغيير أو حذف أو إضافة بعض البنود لتناسب مع التخلص من القبائل اليهودية الثلاث (قريظة، بني قنيقاع، بني قريظة)، والإحجام عن الإشارة إليهم بالاسم في هذه الوثيقة^{١٨}. ويرى فلهاوزن أن الوثيقة كُتبت قبل معركة بدر، أي بعد هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة، معللاً ذلك بأن كتابة العهود والمواثيق كانت مألوفة بالنسبة إليه باعتباره قادماً من مكة. أما جريم فيعتقد أنها كُتبت بعد معركة بدر، أي بعد السنة الثانية من بعد الهجرة، مبيناً أن بعض البنود تُظهر السلطة التي امتلكها النبي في المدينة، والتي لا يمكن فهمها إلا في سياق انتصار المسلمين في معركة بدر. الأمر الذي سيرفع من شأن المسلمين، ويزيد من من قوتهم في المدينة وما يحيطها.

والأرجح أن الوثيقة كُتبت على شكل دفعات وفي أوقات متعددة. والمنعم النظر في بنودها (٤٧) حسب فلهاوزن أو (٥٣) حسب حميد الله يرى أنها لا تمثل طرفين اثنين فقط مثلما هو في الاتفاقيات والمعاهدات، بل هناك أطراف متعددة عملت الوثيقة على تنظيم العلاقة فيما بينها. يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات: مجموعة تنظم العلاقة بين المهاجرين والأنصار، ومجموعة ثانية تحدد العلاقة بين المسلمين واليهود، ومجموعة ثالثة توضح طريقة تعامل المسلمين مع مشركي قريش باعتبارهم أعداء. والظاهر أن هذه الاتفاقيات التي كُتبت في أوقات متفرقة لم تُدمج في وثيقة واحدة ومشتركة إلا في وقت لاحق.

وعلى الرغم من كل الأدلة التي تطعن في صحة «صحيفة المدينة» بدعوى أن مصادر إسلامية أساسية سكنت عن ذكرها، وأن الخلل يعترها

من حيث المتن والسند فإن حضورها المتكرر في مصادر أخرى لا يشكك في أصالتها التاريخية. وربما يرجع عدم الالتفات إليها قديما، وتوجيه الأنظار إليها إلى أن موضوع تحديد العلاقة بين المسلمين وغيرهم لم يكن يحظى آنذاك بالأولوية لدى العلماء المسلمين. القدامى، فلم يكن لمؤرخي الوثيقة ومؤرخيها الأول أو اللاحقين تلك النظرة للدولة والمجتمع من حيث الإقليم والسلطة بأنواعها، والشعب، وما يرتبط بكل ذلك من مبادئ السيادة والمواطنة، والعلاقات الدولية، وحقوق الإنسان، والتعددية الدينية والثقافية وغيرها^{١٩}. وسيختلف الأمر تماما مع المفكرين المسلمين في العصر الحديث الذين رأوا في الوثيقة إنجازا عظيما في مجال تحديد العلاقة بين مكونات المجتمع بمعزل عن انتماءاته القبلية أو العرقية أو الدينية. و لا يتردد محمد حميد الله في أن يطلق على «صحيفة المدينة» بأنها أقدم دستور مسجل في العالم، وهي في نظره مثال طريف للغة القانونية وكتابة الوثائق في ذلك العصر. وقد حسب لها النصارى الأوروبيون من الحساب أكثر مما حسب المؤرخون المسلمون وعلقوا عليها أهمية كبيرة^{٢٠}.

علاقة المسلمين باليهود من خلال «صحيفة المدينة»

ورد في «صحيفة المدينة» ما يلي: «وأنه من تبغنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم....» [٢٤]. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. ٢٥. وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليتهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يوتغ (أي لا يهلك) إلا نفسه وأهل بيته. ٢٦. وأن لليهود بني النجار مثل ما لليهود بني عوف. ٢٧. وأن لليهود بني الحارث مثل ما لليهود بني عوف. ٢٨. وأن لليهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف. ٢٩. وأن لليهود بني جشم مثل ما لليهود بني عوف. ٣٠. وأن لليهود بني الأوس مثل

ما ليهود بني عوف. ٣١. وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته. ٣٢. وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم. ٣٣. وأن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم. ٣٤. وأن موالي ثعلبة كأنفسهم. ٣٥. وأن بطانة يهود كأنفسهم. ٣٦. وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ. ٣٦/ب. وأنه لا ينحجز على ثار جرح، وأنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا. ٣٧. وأن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم. ٣٧/ب. وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم. ٣٨. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين»^{٢١}.

استهلت «صحيفة المدينة» بالدباجة الآتية: «هذا كتاب من محمد النبي رسول الله» بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل «يثرب ومن تبعهم وجاهد معهم». فقد أحدثت تغييرا كبيرا في مجتمع المدينة المنورة الذي انتقل من نظام الأسرة والقبيلة والعشيرة والطائفة إلى نظام الأمة الواحدة، وأسست لمبدأ المواطنة الذي اتخذ مسارين اثنين: أولهما يتعلق بالمسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله وانقادوا لشرع الله يعملون به ويطبقونه، وثانيهما يتعلق بالتآلف والتعايش السلمي بين المسلمين وبين من لم يعتنق الإسلام من الوثنيين من الأوس والخزرج وأهل الكتاب^{٢٢}. ولاشك في أن كل طرف أو متعاقد هو مسؤول عن أعضائه مثلما يظهر في البنود من ١ إلى ١١. وتركز البنود من ١٣ إلى ٢١ على ضرورة تعاونهم جميعا في الحروب. فيما اشترطت على المتعاقدين في البنود ١٤ و ١٧ و ١٩ و ٤٤ أن يهبوا لنصرة المدينة إن داهمها المعتدون.

ولاشك في أن تحديد العلاقة بين المسلمين واليهود الذي يُشكل قسما

من «صحيفة المدينة» استأثر باهتمام الباحثين في العصر الحديث، وإن لم تخلُ نظراتهم إليها من تساؤل عن عدم ذكر القبائل اليهودية الثلاث الأكثر شهرة. إذ من المعلوم أن الصحيفة اقتصرت على ذكر قبائل اليهود منفردة بأسمائها، وذلك في صيغة الخطاب الخاص المتعلق بفروع وبطون القبائل اليهودية (بنو عوف، بنو ساعدة، بنو جشم...) المتحالفة مع بطون الأنصار. أما الصيغة الثانية من خطاب صحيفة المدينة فقد جاء بصيغة الخطاب العام مثلما يظهر في بعض البنود: وأنه ممن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

إن عدم الإشارة بالاسم في الصحيفة إلى القبائل اليهودية الرئيسة لا يعني حسب ميكائيل لكير Michael Lecker أنها لم تعقد عهداً مع النبي محمد. بل على العكس من ذلك تماماً فقد سارعت بعد الهجرة قبائل بني قنيقاع وبني النضير وبني قريظة إلى إبرام موثيق مستقلة معه. لكنها كانت تضمن لهم فقط نوعاً من الحماية وعدم الاعتداء. بخلاف الالتزامات الكبرى التي وُضعت على عاتق اليهود المنصوص عليهم في الصحيفة^{٢٣}. ويبدو حسب محمد حميد الله أن اليهود لم يشتركوا في هذه المملكة الاتحادية بصفة جماعة بل دخلت فيها كل قبيلة كوحدة منفردة. وكان من نتائج ذلك أن المسلمين لما حاربوا بعض قبائل اليهود أو أمروا بإجلائها عن المدينة لم تكتف سائر القبائل اليهودية بالسكوت فحسب بل ساعدوا المسلمين في بعض الأحيان مساعدة حربية، ورغماً عن محاربة بعض القبائل بقيت هذه المعاهدة أو الدستور ثابتة في القبائل اليهودية الأخرى ولم يعد ذلك نسخاً لها^{٢٤}.

وترتكز «صحيفة المدينة» في نظرتها إلى اليهود على مجموعة من الأسس:
مساواة اليهود وغيرهم من أهل الكتاب في الحقوق السياسية والمدينة
مع المسلمين:

وهو ما يعني أن المواطنة لم تعد منحصرة في المسلمين وحدهم، بل امتدت لتشمل غير المسلمين، معتبرة أهل الكتاب، وتحديدًا اليهود الذين يشاركونهم السكن، والذين اختاروا الانضمام إليهم، مواطنين، وأنهم أمة مع المؤمنين، ماداموا قائمين بالواجبات المترتبة عليهم، فاختلاف الدين لا يجب أن يكون سببا للحرمان من مبدأ المواطنة^{٢٥}.

ويذهب جوان كول Juan Coll إلى القول إن الرسول ﷺ أقام أمتين إحداهما ضيقة تضم عموم المؤمنين ومن يخضع لهم والثانية أوسع تجمع داخلها اليهود والمتحالفين معهم من أتباع الديانات التوحيدية. ويعتقد جوان كول في السياق نفسه أن الأمة الثانية في نظر الرسول أمة إبراهيمية. فالقرآن الكريم يعتبر النبي إبراهيم عليه السلام هو الجد الأعلى للمسلمين وليس أبا من آباء اليهودية كما تذهب إلى ذلك اليهودية. ولهذا فإن القرآن الكريم يسمح للمسلمين بأن يتزوجوا اليهوديات والنصرانيات وأن يتقاسموا الأكل معهم. في حين أن القانون الروماني المسيحي كان يمنع اليهود من الزواج من المسيحيات مهددا كل من اخترق هذا القانون بالقتل. كما أن علماء المسيحية انتقدوا بشدة تناول الطعام اليهودي واعتبروه مخزيا ومدنسا. وأسهم القانون المسيحي في خلق «عرق» مسيحي لا يقبل سوى المسيحيين. في حين أن القرآن الكريم كان له الفضل في خلق «عرق» يتسم بالتنوع ويتسع لكل الإبراهيميين. ومن هنا فإن صحيفة المدينة تختلف تماما عن قوانين الكنسية المسيحية الرومانية. فهي تقدم رؤية لمجتمع غير قائم على العقيدة، متنوع من

الناحية الدينية، ويرتكز على الوفاء والأمن.^{٢٦٠}

ويؤكد هيربرت بوسه أن الدولتين الزرادشتية والنصرانية لم تعرفا قوانين دستورية مضمونة تتعلق بالأقليات الدينية مثلما هو الحال في الإسلام. مضيفاً أن هذه الحقوق معروفة في القرآن أي القانون الإلهي^{٢٦١}.

التعددية الدينية وضمان حرية المعتقد

ربطت صحيفة المدينة بين المسلمين واليهود في عدد من البنود بعلاقة الولاء أو الحلف. وأقرت بأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين. وهو حق ينطبق على يهود بني النجار، ويهود بني الحارث، ويهود بني ساعدة، ويهود بني جشم، ويهود بني ثعلبة، ويهود بني الأوس، ويهود جفنة، ويهود بني الشطيبة، بل هو حق لبطانة اليهود فضلاً عن بطونهم ومواليهم. واعترفت بالتعددية الدينية بعبارة مباشرة: "ليهود دينهم وللمسلمين دينهم"، وهذا يذكر بما ورد في القرآن الكريم - ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ (الكافرون: ٦). وقد أعطى بند آخر لليهود بجانب استقلالهم بعقيدتهم استقلالهم الاقتصادي إذ نصت على أنهم ينفقون على أنفسهم مثلهم في ذلك مثل المسلمين، لكنهم يشتركون معهم في أداء نفقات الدفاع عن أمة يشرب لأن لضمان السلم واجباته وتكاليفه^{٢٦٢}. ومن هنا يمكن القول إن صحيفة المدينة كفلت حق المواطنة لكل من هو على أرض المدينة، وهذا يعني حسب الشيخ عبد الله بن بيه أن مجرد الانتماء إلى الأرض هو أحد مقومات المواطنة. وهو ما وضع الأساس لمجتمع متعدد الأعراق والديانات.

مدى حضور «صحيفة المدينة» في أوساط الشباب

على الرغم من أهمية ما جاء في «صحيفة المدينة» من مبادئ تؤسس لمفهوم المواطنة والتعددية الدينية، والتي حظيت بمكانة مرموقة في الكتابات الإسلامية الحديثة، فإن تداولها في أوساط الشباب ما يزال محدوداً.

والأدهى من ذلك أنه لم يتم بعدُ استلهاهما في مواجهة كل أشكال العنف الذي اتخذ في العقود الأخيرة أبعادا متعددة. وقد لخصها الشيخ بن بيه في كتابه ما هذه بطريق الجنة، نصيحة للشباب، فيما يلي: البعد النوعي المتمثل في ارتفاع درجة العنف وتعدد مظاهره وتوظيفه ضد أبناء الوطن الواحد، والبعد المكاني والمقصود به اتساع رقعة العنف في البلاد العربية والإسلامية، والبعد الزمني المتمثل في استمرار وتفشي هذا العنف إلى درجة أنه أصبح شيئا مألوفا، والبعد الفكري والنفسي الذي أدى إلى ظهور أشد الأفكار تطرفا وأكثر الفتاوى شذوذا وتعصبا وتحريضا، والبعد الدولي المرتبط بالأبعاد السابقة إذ شوهت صورة الإسلام عالميا وأصبح يوصف بأنه دين إرهاب^{٢٩}.

ومن هنا فمن واجبا اليوم استثمار السيرة النبوية الشريفة، ولا سيما في تحديدها الجلي لعلاقة المسلم بالآخر المختلف عقديا، وجعلها مرجعا أساسيا أو خارطة طريق واضحة المعالم تُرشد شباب أمتنا إلى المنهج القويم للديانة الإسلامية السمحة، وتحذرهم من مخاطر التطرف ومزالق العنف. ولا يتأتى ذلك إلا من خلال إدراج «صحيفة المدينة» في الكتب المدرسية المختلفة (كتب التربية الدينية أو الإسلامية وكتب التربية المدنية، وكتب التاريخ..)، مع إعطائها الأهمية التي تليق بها حتى تنزاح من ذهن الشاب المسلم فكرة أن الإسلام لا يقبل الآخر. والتعريف بها على نطاق واسع في وسائل الإعلام التقليدية وفي منصات التواصل الاجتماعي، ثم مقاومة كل أشكال التطرف التي تُغذيها بعض التيارات الدينية المتشددة، وما صاحبها من انتشار وذبوع بعض الفتاوى المحرصة على انتهاك حقوق الأقليات الدينية واضطهادها باسم الدين. هذا الدين الحنيف الذي أوصى بالأقليات الدينية خيرا، بل جعلهم في ذمة المسلمين. فقد عاشوا في ظل

الحضارة العربية الإسلامية تاريخاً يتسم بالتعايش والتسامح والتفاهم. وأي اعتداء أو إكراه في الدين فهو غير مقبول. والإسلام منه براء. قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ومن هنا فإسلام المكره لا يصح. فما يجمع بين الإرهابيين ليس هو الدين، وإنما الجهل به لأن الدين هو نور ومعرفة وحكمة وسبيل للسلام. فما أحوجنا لمراكز تعنى بتدريس السيرة النبوية الشريفة، وتعمل على تطبيقها في الواقع.

الهوامش

- ١- هيربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن الكريم، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمود هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٤٠
- ٢- فاروق حمادة: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم دمشق، ص ١٠
- ٣- عبد الهادي بوطالب: حقيقة الإسلام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٨، ص ٨١
- ٤- سورة النساء، الآية ١
- ٥- سورة الإسراء، الآية ٧٠
- ٦- سورة الحجرات، الآية ١٣
- ٧- سورة هود، الآية ١١٨
- ٨- سورة الروم، الآية ٢٢
- ٩- سورة البقرة، الآية ٢٥٦
- ١٠- سورة النحل، الآية ١٢٥
- ١١- سورة آل عمران، الآية ٦٤
- ١٢- عبد الهادي بوطالب، مرجع سابق، ص ٨٥
- ١٣- سورة البروج من الآية ١ إلى الآية ٩
- ١٤- سعيد كفايتي: الحوار في الإسلام، الدروس المستخلصة، منشورات مقاربات، فاس، ٢٠١٦، ص ٩.
- ١٥- The Constitution of Medina, Muhammad's : Lecker Michael First Legal Document, The Darwin Press, Inc, Princeton, New Jersey, 2004, p 2
- ١٦- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥، ص ٢٣.
- ١٧- هشام جعيط، في السيرة النبوية (٣) مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت، ص ٦١
- ١٨- William Montgomery Watt : Mahomet à Médine, Payot, Paris, 1959, p 412
- ١٩- عمرو عثمان: دستور المدينة: قراءة في تاريخ نص، أسطور للدراسات التاريخية، ع ٣، يناير، ٢٠١٦، الدوحة، ص ٨٤

- ٢٠- محمد حميد الله: أقدم دستور مسجل في العالم، وثيقة نبوية مهمة، تعريب أبو الحسن الندوي، ١٩٣٨، ص ٩٩
- ٢١- نقلا عن محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥، ص ٦١-٦٢.
- ٢٢- رشيد كهوس: فقه السيرة النبوية، المفهوم والأسس والنماذج، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٧، ص ٣٥٣
- ٢٣- The Constitution of Medina, Muhammad's : Lecker Michael First Legal Document, The Darwin Press, Inc, Princeton, New Jersey, 2004, p 48
- ٢٤- محمد حميد الله: أقدم دستور مسجل في العالم، وثيقة نبوية مهمة، مرجع سابق، ص ١٤
- ٢٥- رشيد كهوس: مرجع سابق، ص ٣٥٤
- ٢٦- Juan Cole : Muhammad, Prophet of Peace Amid The Clash of Empires, Nation Nooks, New York, 2018, p 43
- ٢٧- هيربرت بوسه: أسس الحوار في القرآن الكريم، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمد وهويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ١٧٩
- ٢٨- عبد الهادي بوطالب ص ٨٩
- ٢٩- الشيخ عبد الله بن بيه: ما هذه بطريق الجنة، نصيحة للشباب، منشورات تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة، ص ٨-٩

المصادر والمراجع:

(بالعربية)

القرآن الكريم برواية ورش

* بن بيه، عبد الله : ما هذه بطريق الجنة، نصيحة للشباب، منشورات تعزيز السلم في المجتمعات المسلمة.

* بوسه، هيربرت : أسس الحوار في القرآن الكريم، دراسة في علاقة الإسلام باليهودية والمسيحية، ترجمة أحمد محمدو هويدي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٧

* بوطالب، عبد الهادي : حقيقة الإسلام، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، بيروت، ١٩٩٨

* جعيط، هشام في السيرة النبوية (٣) مسيرة محمد في المدينة وانتصار الإسلام، دار الطليعة، بيروت
* حمادة، فاروق: العلاقات الإسلامية النصرانية في العهد النبوي، دار القلم دمشق

* حميد الله، محمد : أقدم دستور مسجل في العالم، وثيقة نبوية مهمة، تعريب أبو الحسن الندوي، ١٩٣٨

* حميد الله، محمد: مجموعة الوثائق السياسية للعد النبوي والخلافة الراشدة،

دار النفائس، بيروت، ١٩٨٥

* عثمان، عمرو: دستور المدينة: قراءة في تاريخ نص، أسطور للدراسات التاريخية،

ع ٣، يناير، ٢٠١٦، الدوحة
* كفايتي، سعيد : الحوار في الإسلام، الدروس المستخلصة، منشورات مقاربات، فاس، ٢٠١٦

* كهوس، رشيد : فقه السيرة النبوية، المفهوم والأسس والنماذج، دار الكلمة للنشر والتوزيع، القاهرة،
* (بلغات أجنبية)

* Cole, Juan : Muhammad, Prophet of Peace Amid The Clash of Empires, Nation Nooks, New York, 2018

* Lecker, Michael : The Constitution of Medina, Muhammad's First Legal Document, The Darwin Press, Inc, Princeton, New Jersey, 2004

* Montgomery Watt, William : Mahomet à Médine, Payot, Paris, 1959





**تجليات الخاتمية والعالمية وأبعادهما
من خلال سيرة المصطفى ﷺ في دولة المدينة
الهجرة من منطق دولة الإكراه إلى دولة منطق الرحمة**

أ.د. عبد الرحمن طيبي
أستاذ العقيدة والفكر الإسلامي
كلية العلوم الإسلامية/ جامعة الجزائر/ بن يوسف بن خدة/ الجزائر



**The manifestations of the epilogue and the universal
and their dimensions Through the biography of the
Prophet (may God bless him and his family) in the
state of Medina Migration from the logic of the state
of coercion to the state of the logic of mercy**

Prof. Dr. Abdul Rahman Taibi
Professor of faith and Islamic thought
Faculty of Islamic Sciences/ University of Algiers / Ben
Youssef Ben Khedda/ Algeria

ملخص البحث:

سيبقى المعين النبويّ شلالاً متدفقاً وبحراً لا ينضب، يروم المرء عبره الاستلھام استمداداً واستدراكاً ومراجعة من أجل صناعة إنسان على مراد الله تعالى، وما أھوجنا إلى ذلك في ظل السياقات التي يعيشها المسلمون وغيرهم اليوم، ولنا في سيد الخلق محمد ﷺ الأسوة الحسنة والقدوة الأنموذج والإنسان الكامل، فقد كان خلقه القرآن بل كان قرآناً يمشي على الأرض كما جاء في المرويات الصحيحة، فسنته ﷺ هي ترجمة واقعية من جنابه للوحي الشريف على مراد الله تعالى.

ومقاربة الرسول الأعظم ﷺ الذي جسد الإنسان الممثل لمراد الله في الأرض من السهل الممتنع، سهل بتسهيل الله تعالى له عبر مكانته من الله تبارك وتعالى ومنزلته وشرفه، ممتنع في بعض جوانبه بالنظر إلى المعوقات التي صاحبت نقل بعض الأحداث ومقاصدها من سيرته ﷺ، ولا سيما في ظل ظھور تيار الوضع والكذب على سيدنا رسول الله ﷺ من جانب، وقصور بعض القراءات لسيرته من تيار آخر رام أو زعم نصرة الدين والملة أصابه الحور جراء قراءته التجزيئية لنصوص الوحي قرآناً وسنة، فضلاً عن إقصائه الأبعاد المقاصدية للتصرفات النبوية، مما جعل المنتج المعرفي لهؤلاء المتعلق بسيرة خير الخلق ﷺ لا يصمد ولا يقوى على حفظ مقاصد الدين ولا تجلية خاتمية وعالمية نبوة سيد المرسلين ﷺ بل كان فريقهم مطية ولقمة سائغة في أيدي الطاعنين والحاقدین على رسالة الإسلام ورسوله ﷺ.

ومن هذا المنطلق تسعى هذه المداخل لبيان تجليات خاتمية الرسالة وعالميتها من خلال سيرة سيدنا رسول الله ﷺ عبر منجزاته في المدينة المنورة، مستنطقين الزمان والمكان والإنسان، وكيف كان فعله ﷺ ناطقاً

فصيحاً في الدلالة على تلك الأبعاد المغلفة بكل معاني الرحمة والرأفة بالخلق كونهم عيال الله بغض النظر عن عرقياتهم وأديانهم ومشاربهم، بالإجابة عن الإشكالية الرئيسة الآتية:

ما مقاصد ومميزات المنجز النبوي في المدينة المنورة من خلال سيرة المصطفى ﷺ في سياق منجزات مشابهة في الشكل مشارق الأرض ومغاربها بل في قريش نفسها، وكيف أبانت في تميزها الخاتمية والعالمية؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، يستدعي المقام التطرق إلى جملة من النقاط عبر سيرة الرسول الأعظم ﷺ وتحت ظلال القرآن الكريم وتوجيهاته لأهمية الزمان والمكان وعلاقتها بالتكليف والتسخير، ثم مرتكزات الدولة عبر ثلاثية المسجد والمؤاخاة والوثيقة وتعبيرها عن روح صناعة الإنسان على مراد الله تعالى.

Abstract

The prophetic aid will remain a flowing waterfall and an inexhaustible sea, through which one seeks inspiration to draw, rectify and review in order to make a human being according to the will of God Almighty, and what we need to do in light of the contexts in which Muslims and others live today, and we have in the master of creation Muhammad (peace and blessings of God be upon him and his family) The good example, the role model and the perfect human being, his creation was the Qur'an, rather he was a Qur'an walking on the earth as it came in the authentic narrations.

The approach of the Greatest Messenger (may God's prayers and peace be upon him and his family) who embodied a human being who complied with God's will on earth is easy and impossible, facilitated by God Almighty through his stature from God the Blessed and Exalted, and his status and honor. His biography (may God's prayers and peace be upon him and his family), especially in light of the emergence of the current of falsehood and lying against our master, the Messenger of God (peace and blessings of God be upon him and his family) on the one hand, and the lack of some readings of his biography from another current, Ram, or claiming to support religion and sect, he became confused as a result of his partial reading of the texts of revelation The Qur'an and Sunnah, in addition to its exclusion of the intentional dimensions of the Prophet's actions, which made the knowledge product of those related to the biography of the best of creation (may God's prayers and peace be upon him and his family) not enduring and not being able to preserve the purposes of religion, nor the manifestation of Khatamiah and the universality of the prophethood of the Master of the Messengers (peace and blessings of God be upon him and his family). Their group

was a mount and an easy morsel in the hands of the slanderers and haters of the message of Islam and its Messenger (may God bless him and his family).

From this point of view, this intervention seeks to explain the manifestations of the finality of the message and its universality through the biography of our master, the Messenger of God (peace and blessings of God be upon him and his family) through his achievements in Medina, questioning time, place and man, and how his actions (peace and blessings of God be upon him and his family) were an eloquent speaker in indicating the Those dimensions that are enveloped in all the meanings of mercy and compassion in creation, being the children of God, regardless of their ethnicities, religions and sects, answer the following main problem:

What are the purposes and characteristics of the Prophet's achievement in Medina through the biography of the Prophet (peace and blessings of God be upon him and his family) in the context of similar achievements in the form of the east and west of the earth, and even in Quraysh themselves, and how did they show in their final and universal distinction?

In order to answer this problem, the place calls for addressing a number of points through the biography of the Great Messenger (may God bless him and his family and grant them peace) and under the shades of the Holy Qur'an and its directives to the importance of time and place and its relationship to assignment and subjugation, then the foundations of the state through the trilogy of the mosque, fraternity and the document and its expression of the spirit of human making according to the will God.

١- توطئة:

يعدُّ مجيء الإسلام والهجرة محطتين فارقتين في تاريخ الإسلام والدعوة المحمدية، فالأولى إعلان لخاتمة الديانات وإعادة ربط صلة الوصل بين الأرض والسماء من أم القرى مكة المكرمة، والثانية تأمين مخرجات هذه الصلة عبر المحيط المكاني بما يحويه من معطيات في المدينة المنورة عبر آلية الهجرة^١، بل جعلت بعض الباحثين يعدُّها لحظة صناعة جماعة مستقلة سياسياً^٢ وما يتبع ذلك من ممارسات بمضامين مختلفة عرفتها العرب سابقا في مكة أو في غيرها اعتبرت في أغلبها ممارسات منافية للفطرة ولأسس دين التوحيد، فكيف عبّرت الهجرة النبوية الشريفة عن خاتمية الرسالة وعالميتها، وكيف انتقلت بالمنظومة الفكرية الإنسانية من منطق الإكراه إلى منطق الرحمة في دولة المدينة؟.

٢- علاقة التكليف بالمكان.. من السُّخرة^٣ إلى التَّسخير:

ارتبطت التعاليم الإسلامية بالتكليف على بساطته وعمق التّصور فيه، فهو بمنزلة الأمانة التي حُمِّلها كل راشد ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: ٧٢) وما سمي التكليف أمانة إلا للحاق الغرامة لمن قصّر فيه، واتصاف صاحبه بالكرامة إذا أدّاه^٤، وما سمّيت أمانة إلا لعزّتها وقيمتها^٥، وكيف لا؟ وهي معبرة عن أصول الدين وفروعه^٦، وما أعطيها الإنسان إلا للامتحان^٧، وذلك في سياق كلي يروم من الإنسان أداء وظيفته الوجودية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٦)، حيث ما خلق إلا لأجل العبادة والطاعة^٨.

ويكفي الوقوف عند البنية المعرفية للمصادر المدونة في العلوم الإسلامية بأجمعها (عقيدة، فقه، تفسير، سلوك، فلك رياضيات... إلخ) فيجدها تتمحور حول هذه الغاية، إذ مثل الإسلام نقلة نوعية من السخرة والعبودية لغير الله تعالى، إلى تسخير الكون عبودية لله تعالى ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ (هود: ٦١) واستعمركم بمعنى جعل البشر عمّاراً لها^{١٠}، وفق آليات وشروط جعلت من الأرض بمنزلة المسجد فتتطبق عليها أحكامه ومقاصده.

وقد وضح ما سبق الحديث الشريف المرفوع إلى سيدنا محمد ﷺ: [وجُعِلَت لي الأرض مسجداً وطهوراً]^{١١}، و(ال) التعريفية في الأرض دلالة على الاستغراق والعموم لتشملها جميعاً ما لم يرد التخصيص، وذلك زيادة على المعاني الفقهية والأحكام الشرعية المستنبطة من هذا النص بخصوص شعيرة الصلاة، إلا أنها تعدّها لتشير إلى أهمية المكان في التكليف واحتكام التكليف في نجاحه من عدمه إلى العمارتين المعنوية والمادية^{١٢} على مراد الله تبارك وتعالى «أي جعلكم قادرين على عمارة الأرض، ومكنكم من عمارتها والحاجة إلى سكنها. والاستعمار جعل القادر يعمر الأرض كعمارة الدار»^{١٣} التي تشمل كل ما من شأنه تيسير سبل العمارة «من المساكن والزراعات وغرس الأشجار... لأنّه سبحانه امتنّ على عباده بأن مكنهم من عمارة الأرض»^{١٤}؛ عمارة تعزّيها الأحكام الشرعية الخمسة^{١٥}، وهي في مقدور الإنسان المكلف وإن كان مأموراً بها في سياق مقتضيات التكليف^{١٦}، والمفروض عمارة الدار على أحسن الوجوه، ولا يكون على أحسن الوجوه إلا إذا كان على مراد الله عز وجل باعتباره من مقتضيات الخلق^{١٧}، والذي يُنال بأداء الإنسان المكلف لوظيفته الوجودية.

ومقام شرف هذه الأرض التي جعلت مسجدا للنبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ في سياق المفاهيم الشاملة للعبودية، ولها شرف آخر باعتبارها المادة الأساسية المكوّنة لهذا الإنسان المكرّم ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ (هود: ٦١) لتشمل سيدنا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام وذريته..، فلهجرة صححت صورة رمزية المكان المرتبط بالتكليف من السخرة ومن مظاهرها الشّرك والظلم والاستبداد الذي كان طاغيا في مكة المكرّمة. فلقد واجه أرباب منطق الإكراه ممن يمتلكون سلطة الحل والعقد السياسي والاجتماعي والديني في مكة دعوة الإسلام ممثلة في نبيه ﷺ بكل ما أسعفوا به؛ للوقوف في وجهها بل وأدها والقضاء على رموزها وأتباعها، محاولين إيقافها بشتى السبل والآليات^{١٨}؛ من تحييد وإزالة المساند والمناصر، وإيذاء المسلمين وخاصة الضعفاء، وعرض المغريات ﴿ودّوا لو تدهنوا فيدهنون﴾ (القلم ٩)، ومطالب التحدي ﴿وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا﴾ (الفرقان: ٧)، ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما رعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولكن نؤمن لِرُقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ (الفرقان: ٩٠-٩٣)، المساومة باقتسام العبادة بين دين الإسلام وديانة الشرك ﴿قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابدٌ ما عبدتُم، ولا أنتم عابدون ما أعبد، لكم دينكم ولي دين﴾ (الكافرون: ١-٦)، ثم الاستعانة باليهود لإيذاء النبي ﷺ في المدينة، فضلا عن التشويه بالدعاية الإعلامية في المواسم، والإيذاء النفسي لشخص النبي الأعظم

والبطش به ومحاولة تصفيته، ناهيك عن الحصار الاقتصادي والاجتماعي. وما لبث أن عاد المكان إلى طبيعته المسجدية بعد الهجرة إلى المدينة المنورة فالتحم الشرفان، شرف الإنسان الساعي والمكرم مع شرف الأرض الطيبة الطاهرة، لتبدأ مرحلة جديدة يؤدي فيها الإنسان المسلم فرداً ومجتمعاً وظيفته الوجودية التي خلق من أجلها.

٣- مميزات ومرتكزات دولة الرحمة العالمية في المدينة:

تعدُّ الهجرة النبوية من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة نقطة تحول في مسار الرسول والرسالة، حسّنت من وضعها وأكسبتها قوة سياسية وأذرعاً اقتصادية وعسكرية، وكأنَّ الهجرة تحمل في طياتها المبشرات بفتح مكة والعالم، فلقد عدَّ سيدنا محمد ﷺ «الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على كلا المستويين الديني والديني. من خلال إمكانات متواضعة استطاع محمد أن يؤسس وينشر واحدة من أعظم ديانات العالم، ويصبح قائداً سياسياً ذا تأثير بغير حدود. واليوم بعد وفاته بثلاثة عشر قرناً لا يزال تأثيره قوياً وشاملاً»^{١٩}، وكان للمكان المتمثل في المدينة المنورة الدور البارز في تغيير الموازين، خاصة عندما ندرك أن الهجرة المباركة الهجرة إلى المدينة أمنت القاعدة الشعبية والعصبية المؤمنة القوية للدعوة والدولة^{٢٠}، التي تعهدها النبي ﷺ بالرعاية والتوجيه حتى قبيل الهجرة، وما المضامين الأخلاقية السامية التي حملتها بيعة العقبة الأولى إلا دليل على ذلك^{٢١}، في حين كانت بيعة العقبة الثانية على السمع والطاعة والنصرة والمنعة والولاء في المنشط والمكره^{٢٢}، وكأنَّ مرحلة المدينة المنورة كانت تتهياً لاحتضان ثلثي القرآن الكريم المتبقي^{٢٣}.

ولعلّ قراءة سريعة للموقع الجغرافي للمدينة المنورة يقف على استراتيجية المكان؛ بكثرة مصادر مياهها وتعدد آبارها، وخصوبة أراضيها، فضلا عن كونها ملقى لقوافل التجارة نحو الشام، بتركيبة اجتماعية تعدّدية من حيث الأعراق والديانات والعادات والتقاليد والاهتمامات^{٢٤}، ممّا يجعل من طبيعة المكان الجغرافي والتضاريسي والتجاري وتركيبته السكانية تشوفا نحو الانفتاح والتهيؤ للعالمية، وفي الوقفات الآتية مزيد توضيح وجلاء أفهام.

أ- الرحمة بالخلق صفة رسولية:

يعدّ الفاعل الرئيس في الهجرة ممثلاً في شخص سيدنا رسول الله ﷺ مفتاحاً في بيان عالمية الرسالة عبر صفة الرحمة التي تميّز بها^{٢٥} بوصفها عطاء ربانياً ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَهَيْتُ هُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)، ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، فضلاً عن كون الآيات التي تتحدث عن عالمية الدعوة والرسالة وخطاب النبي ﷺ آيات نزل بعضها قبل الهجرة في العهد المكي^{٢٦}، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف مكية: ١٥٨)، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: ٣٣)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء مكية: ١٠٧)، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبا مكية:

(٢٨)، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (الصف: ٩)، بل أصبح خلق الرحمة مطلوباً من المسلمين في جميع تصرفاتهم فهو من بين أهم العوامل المساعدة على التألف والتآخي^{٢٧}، حتى أصبح مبدأ من المبادئ التي عُرف بها المسلمون في التأسيس لعلاقاتهم البينية (الرحم الإيمانية) ولللاقات مع غيرهم من المخالفين في الملة (الرحم الإنسانية).

ب-الهجرة فعل حضاري بأبعاد عالمية:

ترتبط كثير من الحضارات في التاريخ بحركة الهجرات، والهجرة النبوية إيذان بفجر حضارة الإسلام التي مبنها التوحيد والعدل، ويكفي ارتكازها على التوحيد والعدل إعلانا لعالميتها^{٢٨}، فواء كل هجرة حضارة كما أشار إلى ذلك شريعتي إذ يقول: «إنَّ الهجرة قطع علاقة المجتمع بالأرض تغيير رؤية الإنسان للعالم، وتحولها إلى رؤية شاملة. وفي المحصلة تذيب جليد الجمود والانحطاط الاجتماعي والفكري والعاطفي... بحكم كون الهجرة بذاتها حركة ونقله إنسانية كبرى فهي تبث في رؤية المجتمع روح الحركة، وبالتالي تهز المجتمع، وتنقله من إطاره الجامد إلى سلم الرقي والكمال المتصاعد»^{٢٩}، ويكفي الوقوف عند بعض الملاحظات في بيان الأبعاد العالمية لفعل الهجرة بغض النظر عن كونه تكليفا شرعيا ماديا ومعنويا ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٨)، يعمل على تحرير الإيمان مما يضاده (التكليف بالهجرة)، فهي أيضا بوابة لقراءة العالم خارج المكان المؤلف من جميع النواحي الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والجغرافية مما يساعد في إعداد الخطط الكفيلة بتبليغ الدعوة ومخاطبة المدعوين^{٣٠}، فالمسلمون الأوائل ممثلين في النبي الأكرم وصحبه

السابقين عليهم الرضوان عمل كل فرد منهم على «أن يهاجر من الخارج وأن يهاجر من الداخل، سفر على الأرض وسفر في عمق الروح، أن يهاجر من المكان الذي لم يبق محلاً للقرار، وأن يذهب عنه حينما لا يكون مؤهلاً لاتخاذ منطلقاً. والهجرة لا تنحصر في الاغتراب عن مسقط الرأس بل تعم أيضاً الاغتراب عن الذات... الهجرة الآفاقية والهجرة الأنفسية»^{٣١}، استعداداً لأداء الوظيفة المجتمعية التكليفية التي جعلت منهم أمة شاهدة على الناس، والتي لا يمكن لها أن تتحقق أو تجسد على هذه الأرض دون شهادة على النفس، فهي بمنزلة (أي الشهادة على النفس) الأهلية للشهادة على الناس^{٣٢}، لذلك لم يكن اعتباراً تسمية المسلمين الأوائل في هذا السياق بالمهاجرين، بل كانت الهجرة صفة تفاضل بين الصحابة لما يتسم به المهاجر المستعد لمغادرة وطنه من أجل الفكرة والعقيدة بالإخلاص والثبات والتضحية وتحمل الأذى والطموح والشموخ، وكأن المهاجر عبر هذه الصفات التي يتميز بها خيرة الدولة والنهضة والحضارة بل الخلافة بمفهومها القرآني^{٣٣}، ولعظمتها وعظم مدلولاتها اتخذت مبدأ في التأريخ للمسلمين وحضارتهم.

ج- بناء المسجد وتجسيد الرؤية الكونية:

تعدُّ خطوة بناء المسجد من أولى الخطوات التي باشرها سيد الخلق محمد ﷺ فهو نقطة الانطلاق نحو العالمية والإعلان عن خاتمة الرسالات عبر الحمولة العقدية التوحيدية التي يعبر عنها الإسلام ورسوله^{٣٤}، فلقد احتضن المسجد عبادات المسلمين، وكان محلاً للشورى والقضاء والتخطيط العسكري واستقبال الوفود وإبرام المعاهدات^{٣٥}، داعياً عبر الآيات المتلوة فيه والخطب التي كان يلقيها الرسول الأعظم ﷺ إلى للتأمل في العالم ومعرفة شعوبه وقبائله وديانته ونحله مما يتطلب معرفة

بالواقع العالمي وهذا من عالمية الإسلام وخاتمة دعوته^{٣٦}، أضف إليها محطة تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة المكرمة في استقلالية معبرة عن خصوصية وحدوية بأبعاد عالمية^{٣٧}، ساهم المسجد في تجليتها وتوجيه الناس إليها بوصفه مركزاً رئيساً في جسم أمة التوحيد؛ ساهم في بث روح الوحدة في ممارسة العبادة وإدارة الشؤون العامة^{٣٨} كتجلٍ من تجليات عقيدة التوحيد (وحدة مجتمعية).

د- المسؤولية الحضارية عبر المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

بعد استقرار سيدنا النبي ﷺ في المدينة باشر بخطوة مهمة متمثلة في المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ومضمون المؤاخاة يختلف عن الحلف، لأنّها أبعاداً سياسية واجتماعية وإنسانية ومالية كالميراث مثلاً؛ تتطلب الحماية وتقوم على الحق والمؤاساة، ومسؤولية إضافية على الأنصار من حيث الرعاية والحماية وتوثيق الصلة بالإسلام^{٣٩}، بل عدّ بعض الباحثين المؤاخاة الضمانة المجتمعية لالتزام الشرائع والقوانين والتنظيمات^{٤٠}، في مجتمع متلاحم موحد عقائدياً وتشريعياً.

وعندما اجتمع عاملاً بناء المسجد والمؤاخاة في سياق الهجرة ساهما في تجلية العلاقة بين النبوة والخلافة في الأرض (أداء الوظيفة الوجودية للفرد والأمة في جميع شعاب الحياة) كإشارة إضافية للبعد الخاتمي والعالمي للرسالة المحمدية^{٤١} المهيمنة على غيرها من الرسالات، والشاملة في خطابها لجميع بني البشر لوضوح خطابها ورؤيتها الكلية المبنية على الدقة والبساطة والاستيعاب، ومرجع هذا كله إلى وضوح العلاقة في الرؤية الإسلامية بين الله الخالق المستحق للعبادة والمخلوق إنساناً وكوناً.

ويستشف من الخطوة النبوية المتمثلة في المؤاخاة حضور قواعد الاستخلاف والابتلاء والأمانة والتسخير ضمن الأفق الإنساني مع استحضر ختم النبوة ركناً من أركان الإيمان^٢، وهو ما جسده السيرة النبوية وأحوال المسلمين الأوائل بعد الهجرة إلى المدينة المنورة التي جعلت منهم قوة حضارية عالمية في بضع سنين، فلولا وجود هذه الأبعاد الحاتمية والعالمية في منظومة القيم والشرائع الإسلامية في معاني الاستخلاف والتسخير والأمانة والشهادة على الناس ما كان لذلك الجيل النبوي أن يحقق تلك القفزة النوعية في مسار تصحيح التاريخ الإنساني.

هـ- صحيفة المدينة^٣ والارتقاء بالعقد الاجتماعي إلى العهد الإلهي:

اختلفت المصادر الإسلامية حول وثيقة العهد التي أجزاها النبي سيدنا محمد ﷺ بين المهاجرين والأنصار وقبائل المشركين واليهود في المدينة بعد الهجرة، إلا أن المصادر التاريخية تشير إليها وتذكرها، وليس هذا محل الحديث عن هذه المسألة لكنها تبقى حقيقة واقعية وإن تنازع المهتمون بالسنة النبوية حولها، لكن يشير بعضهم إلى أنه من بين أهم أسباب عدم الاهتمام بها الصراع الذي شهده العهد الأول بين مدرستي الوصية والاختيار في مسألة الخلافة^٤، في حين أعيد الاعتبار لها والاهتمام بها بعد ضعف شوكة المسلمين وانهيار دولتهم في ظل الهيمنة الغريبة.

ويبقى من المسلّم أنّ هذه الصحيفة أو الوثيقة أو العهد الذي أبرمه النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ بين مختلف المكونات المجتمعية والدينية في المدينة المنورة الدستور الحاكم، الذي يروم تنظيم الحياة في ربوع موطن ما بعد الهجرة، والاعتراف ببيئة يرجع إليها في حل الخصومات وإبرام المعاهدات والحفاظ على أمن واستقرار المدينة المنورة، بل هي ارتقاء بالعهد والعقد الاجتماعي إلى العهد الإلهي^٥ استحضرًا للرقيب والمحاسب والراعي

الحقيقي في سياق الاستخلاف (نبوة-خلافة قرآنية) تحمل في طياتها مبادئ الديمومة وإمكانية الشمول بأفق إنساني وعالمي.

وتكتسي أهميتها من خلال تطبيقها على الواقع حيث لم ترتفع الأصوات للتنديد بمخالفتها أو الإخلال بها، ولم تسجل شكاوى من المخالفين في الملة والعرق من سوء المعاملة، أو ملاحظة آثار سيئة على النسيج الاجتماعي^{٤٦} لمجتمع المدينة في دلالة أخرى على عالميتها انطلاقاً من خصوصيتها المكانية والزمانية، فهي تجربة المدينة المنورة المفعمة بالرحمة إلى الفضاء الإنساني الأرحب.

ومن بين أهم الأفكار التي تضمنتها الوثيقة أن أهل الوثيقة أمة متعاضدة ومستقلة وذات سيادة، تُحترم على أساسها التعددية السكانية والدينية بميزان العدل ومقارعة الظلم، مركزة على المسؤولية الفردية عن الجرائم والأخطاء، وذلك في ظل توحيد السياسة الخارجية والأمن المشترك، من خلال رفض التحالفات العسكرية لقبائل في المدينة مع أخرى خارجها.^{٤٧}

ويستشف من حديث الوثيقة عن القبائل ومعتقداتها تكريس للحرية الدينية واعتراف بمرجعياتها وأعرافها، تخللها إشارة إلى حرية التنقل، وتكريس التضامن والتآزر بين مختلف العرقيات والديانات، مع عدم إشارة الوثيقة إلى التحاكم إلى تفاصيل الشريعة، وإنما كان الأمر عاماً في الرد إلى الله ورسوله^{٤٨}، بمعنى الوثيقة غنية بالمبادئ التي تصلح للبشرية جمعاء لا بالتفاصيل.

وأعلنت الوثيقة ضمناً انتهاء مرحلة النضال والعمل الفرديين، وبداية مرحلة النضال الجماعي بمعنى تحضير الأمة لتكون في مرتبة الأمة الوسط الشاهدة على الناس، في سياق خصوصية سياسية وعقدية منفتحة

على الإنسانية عبر دفن الميثاق القبلي لصالح الميثاق الإيماني المستوعب للإنسانية^٩، مؤسسة لأخوة تتجاوز رابطة الدم لمصلحة الأخوة الإيمانية الشاهدة على الناس.

ولقد كرّست بنود الوثيقة مبدأ علاقة الفعل السياسي والاجتماعي والاقتصادي وغيره بمباحث الإيمان، بمعنى خضوع كل الفعل الإنساني بمحددات الإيمان التوحيدي^{١٠}، لا مناقشة المباحث السياسية في الكتب العقدية التي انجر عنها التكفير والتضليل، رغم أن المكان الأليق بها هي كتب الفروع^{١١} في تجل من تجليات الاستخلاف والتسخير المعبرين عن عالمية الإسلام وخاتمية رسالته، الذي يمكن من خلاله المراجعة والاستئناف والتمكين بعد الضعف.

٤ - الخاتمة:

بعد هذه الجولة في بعض محطات الهجرة النبوية الشريفة وتأسيس دولة المدينة المنورة، حاولت الورقة البحثية استنطاق بعض المحطات والخطوات المنتهجة آنذاك لبيان الأبعاد العالمية للرسالة الإسلامية الخاتمة في سياق الرحمة بالإنسانية، مستلهمين الخطى من القرآن الكريم أساساً ومن السيرة النبوية الصحيحة، فكان أن وقفت الورقة على ما يأتي:

١- إن أبرز مقاصد الهجرة النبوية الربط بين النبوة المختومة والخلافة القرآنية كتجل لها في سياق التأييد والشمول الرساليين.

٢- جسدت دولة المدينة المنورة منطق الرحمة وحاربت الإكراه والاستبداد، وجمعت بين الوظيفة الوجودية للإنسان المسلم والوظيفة الوجودية للأمة المسلمة الشاهدة على الناس كتجلٍ آخر من تجليات الخاتمة والعالمية.

٣- لم تلغ دولة المدينة الخصوصية الثقافية والمجتمعية بل أطرتها في سياق خدمة الكتاب والسنة الرسولية الحاكمة على تصرفات المسلمين على مر التاريخ والمستقبل، في إظهار واضح للأبعاد الإنسانية لدين الإسلام الحنيف.

٤- يعدُّ منطق دولة الرحمة في المدينة من خلال آلية الهجرة النموذج والقدوة المتحاكم إليها زمني التمكين والتكوين والضعف، بمعنى دوام الدافعية في الإنجاز والعمل على أداء أمانة الاستخلاف، وفي هذا أيضاً إشارة إلى تلك الأبعاد العالمية للرسالة الخاتمة.

٥- تنسجم جميع تلك المبادئ والآليات المشار إليها في الورقة مع طبيعة الرحمة التي ميزت الشخصية الرسولية والرسالة والأمة ومقصد البعثة.

٦- لا تخلو كتابات المسلمين على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم المعتمدة من هذه المعاني السامية، مما يجعل من الباب دائم الانفتاح للاستلهام من التجربة النبوية النموذج بما يحقق للمجتمعات الإسلامية الوحدة بمضامينها المختلفة في إطار عقيدة التوحيد.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين.

هوامش البحث

- ١- ينظر: صالح أحمد العلي، دولة الرسول ﷺ في المدينة دراسة في تكوينها وتنظيمها، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، دون بيانات. ص ٥.
- ٢- ينظر: مايكل كوك، محمد نبي الإسلام، ترجمة: نبيل فياض، دار الرافدين للنشر والتوزيع، بيروت. د.ت. ص ٨٠.
- ٣- السخرة إذا اضطهدت الرجل وكلفتة عملاً بلا أجر، بمعنى هضمته حقه وهذه المضامين شمولية لكل باطل في استعمال هذا اللفظ في هذه الورقة، ينظر على سبيل المثال: محمد بن الحسن بن دريد، جهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين. بيروت، ط ١، ١٩٨٧ م. ج: ١، ص ٥٨٤.
- ٤- ينظر: أبو عبد الله محمد فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤٢٠ هـ. ج: ٢٥، ص ١٨٧.
- ٥- المرجع نفسه، ج: ٢٥، ص ١٨٧.
- ٦- ينظر: أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير مجمع البيان، المجمع العالمي لأهل البيت، ج: ٨، ص ١٦٣.
- ٧- ينظر: محمد الحسيني الشيرازي، تبين القرآن، ط ١، مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر، ج: ٣، ص ٣٥.
- ٨-
- ٩- ينظر: أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب قصير العاملي، ج: ٥، ص ٣٥، الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج: ٢٨، ص ١٩٢.
- ١٠- ينظر: الرازي، مفاتيح الغيب، مرجع سابق، ج: ١٨، ص ٣٦٧.
- ١١- رواه البخاري عن جابر بن عبد الله رقم: ٤٣٨. ومسلم عن جابر بن عبد الله رقم: ٥٢١. مستدرک الوسائل ج: ٢، ص ٤٠٢. الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، مستدرک الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط ١، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث. بيروت. ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧ م.
- ١٢- ينظر: عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت. ١٤١٦ هـ- ١٩٩٥ م. ص ٣٩٦.
- ١٣- الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، مرجع سابق، ج: ٦، ص ١٢.
- ١٤- الطبرسي، تفسير مجمع البيان، مرجع سابق، ج: ٥، ص ٦٤-٦٥.
- ١٥- ينظر: جار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط ٣، دار

الكتاب العربي. بيروت. ١٤٠٧هـ. ج: ٢، ص ٤٠٧. أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم. ١٤١٨هـ. ج: ٢، ص ١٩٩.

١٦- ينظر: عبد الله بن عمر بن محمد البضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشي، ط ١، دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٤١٨هـ. ج: ٣، ص ١٣٩.

١٧- ينظر: عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط ١، دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٤١٨هـ. ج: ٣، ص ٢٨٨.

١٨- في تفاصيل التضييق الذي مورس على رسول الإسلام ﷺ وسلم وأتباعه، ينظر: عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، تاريخ صدر الإسلام رؤية جديدة لدراسة عصري النبوة والخلافة الراشدة، ط ٨، دار الإحسان، صنعاء. ١٤٣٥هـ-٢٠١٤م. ص ١٠٧ وما بعدها.

١٩- ميشيل هارت، لماذا محمد ﷺ وسلم هو الأعظم؟، تقديم: أحمد ديدات، ترجمة: رمضان الصفناوي، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة. ١٩٩٨م. ص ١٣.

٢٠- ينظر: صالح أحمد العلي، دولة الرسول ﷺ في المدينة دراسة في تكوينها وتنظيمها، مرجع سابق، ص ٦.

٢١- ينظر: المرجع نفسه، ص ٧٥.

٢٢- ينظر: المرجع نفسه، ص ٧٦.

٢٣- ينظر: المرجع نفسه، ص ١١.

٢٤- ينظر: سليمان بن صالح السليمان، حقوق الإنسان في وثيقة المدينة دراسة مقارنة بالمواثيق الدولية، رسالة ماجستير في العدالة الجنائية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية. ١٤٣٤هـ-٢٠١٣م. ص ٤٥.

٢٥- ينظر: محمد حسين فضل الله، موسوعة الفكر الإسلامي السيرة النبوية وأهل البيت، ط ١، دار الملاك، بيروت ١٤٣٤هـ-٢٠١٢م. ج: ٤، ص ٣٦.

٢٦- ينظر: المرجع نفسه، ص ٦١-٦٢.

٢٧- ينظر: حيدر حب الله، إدارة الاختلاف في القرآن الكريم بين منهجي الوصل والقطع، تحرير وتنظيم سعيد نورا، محاضرة في جامعة الزهراء بإيران ٢١/٠٤/٢٠١٣م. ص ١٨.

٢٨- ينظر: محمد رضا حكيمي، العدالة أساسا ومقصدا تأملات في بناء المجتمع

- القرآني، ترجمة: مسعود فكري، ومحمد جواد غوديني، ط ١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت. ٢٠١٦م. ص ٦٣.
- ٢٩- علي شريعتي، محمد ﷺ وسلم خاتم النبيين من الهجرة حتى الوفاة، ترجمة: أبو علي الموسوي، تقديم: إبراهيم دسوقي شتى، ط ٢، دار الأمير، بيروت. ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م. ص ٣٧.
- ٣٠- ينظر: المرجع نفسه، ص ٤٢.
- ٣١- ينظر: المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٥.
- ٣٢- ينظر: الشاهد البوشيخي، مصطلح الأمة بين الإقامة والتقويم والاستقامة، مطبعة آنفو، فاس، المغرب. ٢٠١٠م. ص ٢٠.
- ٣٣- ينظر: شريعتي، محمد ﷺ وسلم خاتم النبيين من الهجرة حتى الوفاة، مرجع سابق، ص ٤٥-٤٦.
- ٣٤- ينظر: المرجع نفسه، ص ٦١.
- ٣٥- ينظر: محمد ممدوح العربي، دولة الرسول ﷺ وسلم في المدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ١٩٨٨م. ص ١٦٤-١٦٥.
- ٣٦- ينظر: فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتعليم، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، عمان، ١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م. ص ٨٦-٨٧.
- ٣٧- ينظر: إيتيان دينيه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود، دون بيانات. ص ١٢٤ وما بعدها.
- ٣٨- ينظر: حسن خالد، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م. ص ١٢٣-١٢٤.
- ٣٩- ينظر: صالح أحمد العلي، دولة الرسول ﷺ في المدينة دراسة في تكوينها وتنظيمها، مرجع سابق، ص ٩١-٩٢-٩٣.
- ٤٠- ينظر: حسن خالد، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، مرجع سابق، ص ١٣٥.
- ٤١- ينظر: طه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، ط ١، دار الهادي، بيروت. ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م. ص ٤٣-٤٤.
- ٤٢- ينظر: المرجع نفسه، ص ٤٤-٤٥. ملاحظة: كان فيه تعامل حازم مع المتنبيين في العهد النبوي كحفاظ على مبدأ الخاتمية.
- ينظر: الشجاع، تاريخ صدر الإسلام رؤية جديدة لدراسة عصري النبوة والخلافة الراشدة، مرجع سابق، ص ٢٤٦ وما بعدها.

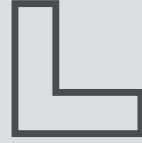
- ٤٣- للاطلاع على بنود الوثيقة يمكن الرجوع إلى: محمد حميد الله، مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط٥، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م. ص ٥٩-٦٠-٦١-٦٢.
- ٤٤- ينظر: لؤي صافي، الرشد السياسي وأسسهِ المعيارية، ط١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. ٢٠١٥م. ص ٥٦.
- ٤٥- ينظر: محمد حسين فضل الله، موسوعة الفكر الإسلامي السيرة النبوية وأهل البيت، مرجع سابق، ج: ٤، ص ٣٣-٣٤.
- ٤٦- ينظر: المرجع نفسه، ج: ٤، ص ٣٣-٣٤.
- ٤٧- ينظر: لؤي صافي، الرشد السياسي وأسسهِ المعيارية، مرجع سابق، ص ٦٤-٦٥-٦٦-٦٧-٦٨-٦٩-٧٠-٧١-٧٢.
- ٤٨- ينظر: المرجع نفسه، ص ٥٧-٥٨-٥٩-٦٠-٦١-٦٢.
- ٤٩- ينظر: شريعتي، محمد ﷺ وسلم خاتم النبيين من الهجرة حتى الوفاة، مرجع سابق، ص ٦٩-٧٠-٧١-٧٢-٧٣.
- ٥٠- ينظر: طه جابر العلواني، التوحيد والتزكية والعمران، ط١، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م. ص ٨٣.
- ٥١- ينظر: المرجع نفسه، ص ٨٧.
- لا نتحدث في هذا المقام عن الشرع السياسي المعبر عن المبادئ العامة التي تحويها كتب العقائد والإيمان، وإنما المقصود هي السياسة الشرعية باعتبارها تفاصيل وجزئيات مرتبطة بالتجربة التاريخية.

المصادر والمراجع :

- * أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، تحقيق وتصحيح : أحمد حبيب قصير العاملي. دون بيانات.
- * أبو عبد الله محمد فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤٢٠هـ.
- * أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، ط ١، مؤسسة النشر الإسلامي، قم. ١٤١٨هـ.
- * أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، تفسير مجمع البيان، المجمع العالمي لأهل البيت.
- * : إيتيان دينيه، سليمان بن إبراهيم، محمد رسول الله، ترجمة: عبد الحليم محمود، دون بيانات.
- * جبار الله الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط ٣، دار الكتاب العربي. بيروت.
- * الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي، مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ط ١، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث. بيروت. ١٤٠٨هـ- ١٩٨٧م.
- * حسن خالد، مجتمع المدينة قبل الهجرة وبعدها، دار النهضة العربية، بيروت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.
- * حيدر حب الله، إدارة الاختلاف في القرآن الكريم بين منهجي الوصل والقطع، تحرير وتنظيم سعيد نورا، محاضرة في جامعة الزهراء بإيران ٢١ / ٠٤ / ٢٠١٣م.
- * الشاهد البوشيخي، مصطلح الأمة بين الإقامة والتقويم والاستقامة، مطبعة أنفو، فاس، المغرب. ٢٠١٠م.
- * سليمان بن صالح السليمان، حقوق الإنسان في وثيقة المدينة دراسة مقارنة بالموثيق الدولية، رسالة ماجستير في العدالة الجنائية، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، السعودية. ١٤٣٤هـ- ٢٠١٣م.
- * صالح أحمد العلي، دولة الرسول ﷺ في المدينة دراسة في تكوينها وتنظيمها، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، دون بيانات
- * طه جابر العلواني، التوحيد والتركيز والعمران، ط ١، دار الهادي، بيروت، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- * طه جابر العلواني، الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، ط ١، دار الهادي، بيروت. ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- * عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير، تحقيق: أحمد شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية بيروت. ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
- * عبد الرحمن الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط ١، دار إحياء التراث العربي. بيروت. ١٤١٨هـ.

- * عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، تاريخ صدر الإسلام رؤية جديدة لدراسة عصري النبوة والخلافة الراشدة، ط ٨، درا الإحسان، صنعاء. ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.
- * عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط ١، دار إحياء التراث العربي، بيروت. ١٤١٨هـ.
- * علي شريعتي، محمد ﷺ وسلم خاتم النبيين من الهجرة حتى الوفاة، ترجمة: أبو علي الموسوي، تقديم: إبراهيم دسوقي شتى، ط ٢، دار الأمير، بيروت. ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- * فتحي حسن ملكاوي، رؤية العالم حضور وممارسات في الفكر والعلم والتعليم، ط ١، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، عمان، ١٤٤٢هـ- ٢٠٢١م.
- * لؤي صافي، الرشد السياسي وأسسها المعيارية، ط ١، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت. ٢٠١٥م.
- * مايكل كوك، محمد نبي الإسلام، ترجمة: نبيل فياض، دار الرافدين للنشر والتوزيع، بيروت. د.د.
- * محمد بن الحسن بن دريد، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين. بيروت، ط ١، ١٩٨٧م
- * محمد حسين فضل الله، موسوعة الفكر الإسلامي السيرة النبوية وأهل البيت، ط ١، دار الملاك، بيروت ١٤٣٤هـ- ٢٠١٢م .
- * محمد رضا حكيمي، العدالة أساسا ومقصدا تأملات في بناء المجتمع القرآني، ترجمة: مسعود فكري، ومحمد جواد غوديني، ط ١، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت. ٢٠١٦م.
- * محمد الحسيني الشيرازي، تبين القرآن، ط ١، مؤسسة المجتبى للتحقيق والنشر. دون تاريخ
- * محمد حميد الله، مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، ط ٥، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
- * محمد ممدوح العربي، دولة الرسول ﷺ في المدينة، الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر. ١٩٨٨م.
- * ميشيل هارت، لماذا محمد ﷺ وسلم هو الأعظم؟، تقديم: أحمد ديدات، ترجمة: رمضان الصفناوي، مؤسسة الأهرام للنشر والتوزيع، القاهرة. ١٩٩٨م.





سيرة النبي ﷺ بين البعدين الإنساني والوحياني قراءة في مضامين ومدلولات الحجاج النبوي الشريف

أ.د. خالد عمر محجوب
كلية العلوم الإسلامية / جامعة الجزائر



The biography of the Prophet (may God bless him and his family) between the human and divine dimensions A reading of the contents and implications of the Prophet's pilgrims

Prof. Dr. Khaled Omar Mahgoub
Faculty of Islamic Sciences / University of
Algiers

الملخص

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب ٤٥، ٤٦]... وهكذا لما كانت حياة النبي ﷺ بالأهداف وللأهداف فقد انتفت عنها أي شائبة من شوائب العبث أو العشوائية، وكانت سيرته خير شاهد على هذه القيم المقاصدية الربانية، ولأن النبي ﷺ بشر اصطفاه الله (عز وجل) لأداء الرسالة وتبليغها للناس كافة، فهذا معناه أن ثمة تداخلا بين قيمتين معرفيتين في هذا البشر هما الإنسانية والوحيانية، ومن هنا فقد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: كيف صور القرآن الكريم ومرويات السيرة الصحيحة حجاج النبي ﷺ للناس؟ وما مؤشرات العلاقة بين البعدين الإنساني والوحياني في هذا الحجاج؟ وما الأهداف المعرفية والتربوية المستفادة من مضامين هذا الحجاج ومدلولاته؟

للإجابة على أسئلة هذا الموضوع نحتاج إلى عرضه في أربعة مباحث:-

المبحث الأول: النبي ﷺ بين مقامي التعالي والتساوي

المبحث الثاني: تصوير القرآن الكريم ومرويات السيرة لحجاج النبي ﷺ

مع الناس

المبحث الثالث: الحجاج النبوي والتأسيس لعلم الكلام

Abstract

In fact, the Prophet (PBUH) is a human being chosen by God Almighty to deliver the message and convey it to all people, and this means that there is a relationship between two cognitive values in this human being, namely humanity and the recipient of revelation, and from this standpoint the following question may come to mind: How did the Holy Qur'an and the narratives of the correct biography argue with the Prophet For people? What are the indicators of the relationship between the human and revelation dimensions in this argument? What are the cognitive and educational benefits derived from the implications and implications of this argument?

To answer the questions of this topic, we need to present it in four sections:

The first topic: The Prophet (may God bless him and his family) between the stations of transcendence and equality

The second topic: depicting the Holy Qur'an and the biographical narratives of the pilgrims of the Prophet (may God bless him and his family) with people

The third topic: Al-Hajjaj the Prophet and the foundation of theology

المقدمة:

قال الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب ٤٥، ٤٦]... وهكذا لما كانت حياة النبي ﷺ بالأهداف وللأهداف فقد انتفت عنها أي شائبة من شوائب العبث أو العشوائية، وكانت سيرته خير شاهد على هذه القيم المقاصدية الربانية، ولأن النبي ﷺ بشر اصطفاه الله (عز وجل) لأداء الرسالة وتبليغها للناس كافة، فهذا معناه أن ثمة تداخلا بين قيمتين معرفيتين في هذا البشر هما الإنسانية والوحيانية، ومن هنا فقد يتبادر إلى الذهن السؤال الآتي: كيف صور القرآن الكريم ومرويات السيرة الصحيحة حجاج النبي ﷺ للناس في أعظم جوانب هذا الدين وهو جانب الإيمان والاعتقاد الصحيح؟ وما مؤشرات العلاقة بين البعدين الإنساني والوحياني في هذا الحجاج؟ وكيف يمكن لدارس هذه السيرة العطرة أن يستخلص الدعائم والأسس التي بُنيت عليها العلوم المتولدة من رحم النص الوحياني قرآنا كان أو مرويات نبوية صحيحة؟

تأتي هذه الورقة البحثية الموسومة بـ «سيرة النبي ﷺ بين البعدين الإنساني والوحياني - قراءة في مضامين ومدلولات الحجاج النبوي -» لتجيب على الإشكالات السابقة، وقد فرضت علينا طبيعة الموضوع أن ندرسه وفقا للمنهج الوصفي التحليلي، بعد تقسيمه إلى ثلاثة مباحث رئيسة، نتناول في المبحث الأول قضية مركزية يقوم عليها البناء المعرفي والمنهجي للمبحث وهي حقيقة النبي الأكرم ﷺ بين مقامي التعالي والتساوي، وسنعرض في هذه القضية حقيقة النبي ﷺ في المنظومة القرآنية ومرويات السيرة الصحيحة، وكيف أن هذه الحقيقة كانت متراوحة بين مقامي التعالي والتساوي، تساوقا وانسجاما مع الوظيفة التي أنيطت

بهم، والتي تجعلهم في مقام الواسطة بين عالم الملكوت وعالم الناسوت، وأن أعظم ما انعكست عليه هذه الحقيقة وظيفة الحجاج عن الحق التي مارسها النبي الأكرم ﷺ، ثم انتقلنا إلى المبحث الثاني الذي خصصناه لبيان تصوير القرآن الكريم ومرويات السيرة لهذين المقامين من خلال دراسة نماذجية للمواقف الحجاجية التي عاشها النبي ﷺ مع الناس خلال دعوته، سواء أكان هؤلاء الناس من أتباعه المؤمنين أو من غيرهم من أصحاب الملل والنحل، ثم ختمنا الورقة بالمبحث الثالث الذي خصصناه لبيان أن نصوص القرآن ووقائع مرويات السيرة الصحيحة التي تدرج تحت عنوان « الحجاج النبوي عن العقيدة » يمكن أن تتخذ مستنداً معرفياً لإثبات أصالة علم الكلام الإسلامي بمختلف مدارسه، وهو ما اصطلاحنا عليه في العنوان بعبارة « الحجاج النبوي والتأسيس لعلم الكلام » حتى نستوعب الحقيقة القرآنية: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب ٢١] وحتى يتسع أفقنا الاستيعابي لبعضنا عملاً بالقاعدة القرآنية: ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴾ [الإسراء ٨٤].

المبحث الأول: النبي ﷺ بين مقامي التعالي والتساوي

لقد تجلت حقيقة النبي ﷺ في المنظومة القرآنية ومرويات السيرة الصحيحة، وكانت هذه الحقيقة متراوحة بين مقامي التعالي والتساوي، وهي الحقيقة المتساوقة مع الوظيفة التي أنيطت بهم، والتي تجعلهم في مقام الوساطة بين عالم الملكوت وعالم الناسوت، فلا جرم أن كانوا متراوحين بين مقامي التعالي والتساوي، ومقام التعالي هو المقام الذي يتميز فيه الأنبياء ﷺ عن بقية البشر بحفظ الله (عز وجل) لهم واصطفائهم من بين الخلق.

وأما مقام التساوي فهو المقام الذي يشترك فيه الأنبياء مع بقية البشر، وهو الذي يؤهلهم لمقام التواصل والحجاج لنشر حقائق الدين وإيصالها إلى المخاطبين بها، ولقد أشار القرآن الكريم ومرويات السيرة إلى كلا هذين المقامين، ففي القرآن الكريم نقرأ قوله تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم ١١] كما نقرأ قوله تعالى في حق نبينا ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [فصلت ٦].

ثم جاء علماء الكلام واصطلحوا على هذين المقامين بمصطلحين اثنين: أطلقوا على مقام التعالي عبارة الصفات الواجبة والمستحيلة في حق الأنبياء، وأطلقوا على مقام التساوي عبارة الصفات الجائزة في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقرروا أن النبي في المقام الثاني وهو مقام التساوي هو كغيره من البشر يأكل ويشرب ويتزوج ويمرض ويتعب. وقرروا أن النبي ﷺ في مقام التعالي يتميز من غيره من البشر بصفات واجبة ويتنزه عن صفات مستحيلة وبهذا التميز والتنزه تتحقق لهم النبوة والرسالة بفضل الله عز وجل، قال شارح جوهرة التوحيد: «ولما كانوا من البشر وأرسلوا إلى البشر كانت ظواهرهم خالصة للبشرية، يجوز

عليهم من الآفات والتغيرات ما يجوز على البشر، وهذا لا نقيصة فيه، وأما بواطنهم فمنزهة غالبا عن ذلك معصومة منه، متعلقة بالملا الأعلى والملائكة لأخذها عنهم وتلقيها الوحي منهم^١.

ولما حكى لنا القرآن الكريم احتجاج المشركين وتكذيبهم للأنبياء ومنهم نبينا محمد ﷺ لأنهم مجرد بشر، لم ينف القرآن الكريم هذه الحقيقة بل أثبتها، لأنها لا تشكل مانعا بالنسبة للقدرة الإلهية في تلقيهم الوحي الإلهي كيفما شاء الله (عز وجل) ذلك، فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلقاءِ الْآخِرَةِ وَآثَرْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ ﴾ [المؤمنون ٣٣، ٣٤] والواقع أن القرآن الكريم لم يكتف بإثبات حقيقة بشرية الأنبياء والرسل، التي ادعى المكذوبون للرسول أنها تشكل مانعا من تلقي الوحي، بل حاجج الله (عز وجل) هؤلاء المكذبين ولم يقف معهم عند مستوى تفكيرهم الساذج، وذهب في حجاجهم إلى أبعد من تصورهم القاصر لقضية الوحي والنبوة، وضرب لهم من الأمثال ما يقرب لهم المسألة، ويذهب عنهم شبهة استبعادهم إرسال نبي من البشر، باستحالة ما طلبوه من جهة قصور قدراتهم لا من جهة قصور قدرة الله (عز وجل) فقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨) وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴾ [الأنعام ٨، ٩] وقد ذكر الرازي في تفسير الآيتين أن الله تعالى أجاب عن هذه الشبهة من وجهين:

الوجه الأول: قوله ﴿وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ ﴾ ومعنى انقضاء الأمر أن إنزال الملك على البشر آية باهرة، فبتقدير إنزال الملك على هؤلاء الكفار فربما لم يؤمنوا وإذا لم يؤمنوا وجب إهلاكهم

بعذاب الاستئصال، فإن سنة الله جارية بأنه عند ظهور الآية الباهرة إن لم يؤمنوا جاءهم عذاب الاستئصال، فههنا ما أنزل الله تعالى الملك إليهم لئلا يستحقوا هذا العذاب، وهناك معنى آخر لانقضاء الأمر وهو أنهم إذا شاهدوا الملك على حقيقته زهقت أرواحهم من هول ما يشهدون، وذلك أن الآدمي إذا رأى الملك على صورته الأصلية لم يبق الآدمي حياً، ألا ترى أن رسول الله ﷺ لما رأى جبريل عليه السلام على صورته الأصلية غشي عليه.

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي لجعلناه في صورة البشر والمعنى أنا إذا جعلنا الملك في صورة البشر فهم يظنون أن ذلك الملك بشر فيعود سؤلهم أنا لا نرضى برسالة هذا الشخص^٢ وزاد الطبرسي هذا المعنى بيانا فقال: «لو أنزلنا ملكا فأريناهم الملك رجلا، لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق ضَعَفَتِهِمْ منهم، أي فإنهم طلبوا حال لبس لا حال بيان، وهذا احتجاج عليهم بأن الذي طلبوه لا يزيدهم بيانا، بل يكون الأمر في ذلك على ما هم عليه من الحيرة»^٣

بعد أن بينا أن مقام النبي ﷺ يتراوح -تبعا لوظيفته - بين مقامي التعالي والتساوي نأتي الآن إلى بيان تصوير القرآن الكريم ومرويات السيرة لهذين المقامين من خلال دراسة نهاذجية للمواقف الحجاجية التي عاشها النبي ﷺ مع الناس خلال دعوته، سواء أكان هؤلاء الناس من أتباعه المؤمنين أو من غيرهم من أصحاب الملل والنحل، وهو ما يتجلى لنا من المبحث الثاني من هذه الورقة البحثية.

المبحث الثاني: تصوير القرآن الكريم ومرويات السيرة لحجاج النبي ﷺ

مع الناس

لقد أرسل الله (عز وجل) نبيه محمداً ﷺ مبلغاً للناس جميعاً ما أوحى الله (عز وجل) به إليه فقال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام ١٩]، وكان من الناس الذين بلغتهم دعوة النبي ﷺ من لا يكتفي بمجرد التصديق والتسليم، وهذا ليس عيباً في نفسه، فقد سأل سيدنا إبراهيم ربّه أن يريه كيف يحيي الموتى بحثاً عن برد اليقين فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة ٢٦٠] كما أن التصديق بالنبي ﷺ ابتداء ليس عيباً في نفسه بسبب ما عُرف عليه قبل النبوة من الصدق والأمانة حتى قال فيه الشاعر: «لو لم تكن فيه آيات مبينة... كانت بديهته تنبيك بالخبر»^٤ فإذا كان سؤال النبي ﷺ وجداله ليس عيباً في نفسه، إلا أن أحوال السائلين لم تكن واحدة فمنهم الباحث عن برد اليقين، ومنهم المجادل بالباطل والباحث عن الزلات والثغرات من خلال ما يثيره من شبهات ومشكلات، وكلا الصنفين كان موجوداً في عهد النبي ﷺ وما زال موجوداً في زماننا، لذلك ينبغي على العلماء أن ينهلوا من معين سيرته ما يعينهم على التعامل مع هذه الأصناف بما يعود بالنفع على الدعوة الإسلامية جذبا للباحثين عن الحق ودحضا للمشككين والباحثين عن الباطل، وهو أسلوب قديم جديد يستعمله المعاند الفاقد للحجة أمام صاحب البينة والحق، وهذا الأسلوب يقوم على السفسطة أحياناً، كما يقوم على النفي المجرد عن الدليل أحياناً أخرى، لذلك فهو أسلوب ضعيف أمام العلماء الراسخين في العلم، ناهيك عن ضعفه أمام حجاج النبي الأكرم ﷺ.

يتبين لنا مما سبق ذكره أن تناولنا لإشكالية هذا المبحث يكون على مستويين مختلفين باختلاف الفئة المستهدفة، ولكن بينهما من التداخل ما يتناسب وطبيعة حجج القرآن وصلاحتها لكل الناس كما ذكر ذلك ابن الوزير اليميني عن أدلة القرآن بأنها: « مثل الغذاء الذي ينتفع به كل إنسان، بل كالماء الذي ينتفع به الصبي والرضيع والرجل القوي »^٥ وبسبب هذا التداخل فإننا سنعرض حديث القرآن الكريم ومرويات السيرة عن حجاج النبي ﷺ مع الناس سواء أكانوا من الباحثين عن برد اليقين أو من المشككين والمجادلين بالباطل من خلال عدة صور نذكر بعضها ونعلق بما يناسب المقام ونترك ما يستفاد منها من قيم معرفية انعكست على أصالة درس الكلام الإسلامي إلى المبحث الأخير.

ولكن نشير إلى أنه لما نزل الوحي على النبي ﷺ وبلغه للناس، وردت عليه أسئلة وإشكالات من الناس المختلفين في نياتهم ومقاصدهم، ولكن يبدو لنا في المقابل أن القرآن الكريم، ومرويات السيرة الصحيحة قد ردّا على هذه الأسئلة والإشكالات بطريقتين مختلفتين، شكل أحدهما إجابات قطعية على المستوى الملي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان، وسنصطلح على هذه الطريق عبارة « الحجاج الماهوي »^٦ وشكل الثاني منهما قواعد عامة يستفيد منها العلماء في مختلف الأزمنة والأمكنة ما يعززون به دين الإسلام عقيدة وشريعة، وسنصطلح على هذه الطريق عبارة « الحجاج الوقائعي » والواقع أن بين الطريقتين تداخلا معرفيا بسبب القراءات المتعددة التي مارسها علماء الملة الإسلامية في مقام التأسيس للآراء العقدية والدفاع عنها وإثباتها مقابل الرد على الآراء المخالفة، وهو ما يدفعنا إلى القول إن الحجاج الماهوي وإن كان يمثل إجابات قطعية بالنظر إلى جوهره وروحه إلا أنه يمكن أن يتطور ليصبح حجاجا وقائعيًا يختلف باختلاف

أحوال الناظر في الدليل ومنهجه في الاستدلال، وستبين لنا طبيعة التداخل بين الطريقتين من خلال النماذج المقدمة، ومنها على سبيل المثال سورة الإخلاص التي بدأت بكلمة حجاجية تقريرية هي « قل » والتي ورد فيها الأمر على سبيل الإجمال للنبي ﷺ لحجاج المخاطبين بما يجب لله (عز وجل) من صفات العزة والكمال وما يستحيل في حقه من صفات العجز والنقص، وهذه السورة وإن وردت جواباً عن سؤال للمشركين^٧ إلا أنها قد شكلت قاعدة استناد لدى المؤمنين الباحثين عن برد اليقين فيما يتعلق بالصفات الواجبة والمستحيلة في حق الله عز وجل، ويحسن أن نورد هنا ما نقله الملا علي القاري عن علي كرم الله وجهه لما سئل عن معنى التوحيد فأجاب: « التَّوْحِيدُ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ مَا خَطَرَ بِبَالِكَ أَوْ تَوَهَّمْتَهُ فِي خِيَالِكَ أَوْ تَصَوَّرْتَهُ فِي حَالٍ مِنْ أَحْوَالِكَ فَاللَّهُ تَعَالَى وَرَاءَ ذَلِكَ »^٨، ثم إذا ما أتينا إلى تفاصيل هذا الحجاج الماهوي الذي قدمه النبي الأكرم ﷺ في سورة الإخلاص، نجد أن تطورا دلاليا حصل فيما بعد وترتب عنه تحول هذا الحجاج الماهوي إلى حجاج وقائعي، يستند إليه كل فريق في إثبات دعواه حول التوحيد الصحيح في باب الصفات، إذ ذهب فريق أهل السنة إلى إثبات صفات بمعانيها زائدة على معنى الذات الإلهية، وقالوا تبعاً لذلك بأن الصفات غير الذات، وهو ما رأى فيه المعتزلة والشيعة قولاً بتعدد القدماء فنفوا أن تكون لله صفات زائدة عن الذات، وقالوا تبعاً لذلك بأن الصفات عين الذات، وهو معنى التوحيد الخالص عند المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة، وبالرغم من الاختلاف الحاصل في التفاصيل إلا أن الأفق الاستيعابي كان حاصلاً لدى كثير من المتقدمين، مما صرنا نفتقده عند المتأخرين، وهو ما نلمسه مثلاً من عبارة للسعد التفتزاني يقول فيها: "فإن قيل: المعتزلة لا يقولون بالقدرة القديمة. قلنا: لا، بل إنها ينازعون

في كونها صفة زائدة على الذات»^٩، ولم يسمّ هذا الموقف تعطيلاً للصفات كما ذهب إلى ذلك ابن تيمية^{١٠} ومن سار على نهجه، بل سباه مبالغة في التوحيد وهو ما نلمسه من عبارته التي قال فيها: «وأما المعتزلة فقد بالغوا في التوحيد، فنفوا القدم الزماني أيضاً عما سوى ذات الله تعالى، ولم يقولوا بالصفات الزائدة القديمة»^{١١}

ومن صور الحجاج الماهوي أيضاً قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد ١٩]، وهذا حجاج في مقام إثبات وحدانية الله (عز وجل) ونفي ما سواه من الشركاء في ذاته وصفاته في كل زمان ومكان، فلا يأتي أحد من المختلفين في تفاصيل الاعتقاد ويقول لنا أن في الآية قولين أو أقوالاً مختلفة قياساً على ما يمكن أن يُقال في الآية التي تذكر فيها اليد مثلاً منسوبة إلى الذات الإلهية، كقوله عز وجل: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ [ص ٧٥]، إذ من العلماء من حملها على ظاهرها وأثبت صفة زائدة على الذات سماها «اليد» وفوض الكيفية إلى الله، ومنهم من فوض الكيف والمعنى وقال لم يكلفنا الله الخوض في هذا المتشابه، ومنهم من أوّل اليد في الآية بما يتطلبه السياق وتحتمله اللغة وقال بأن المقصود باليد هنا النعمة أو القدرة.

-ونجد في مرويات السيرة الصحيحة ما يمكن إدراجه في هذا سياق الحجاج الماهوي الذي تطورت صورته إلى حجاج وقائعي، وقد عقد البخاري باباً في صحيحه سماه «باب التوحيد» وأدرج فيه جملة من الأحاديث التي يمكن اعتبارها حجاجاً نبوياً ماهوياً، تطور فيما بعد ليصبح حجاجاً وقائعيّاً لدى المتسبين إلى ملة الإسلام ممن اختلفوا في تفاصيل صورة الحجاج لا في جوهره، ومن هذه الأقوال حديث معاذ بن جبل قال: قال النبي ﷺ: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟»، قال:

الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، أتدري ما حقهم عليه؟»، قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن لا يعذبهم»^{١٢}، وهذا الحديث مما يمكن أن يدرج في الحجاج الوقائعي بسبب ما دار بين العلماء من نقاشات حول مسألة «الوجوب العقلي» على الله عز وجل، وإنما أدرجناه هنا بسبب البعد الوحياني المتضمن فيه والمعبر عنه بالوجوب الشرعي وهو ما أوجبه الله (عز وجل) على نفسه في القرآن الكريم أو على لسان نبيه ﷺ، ولهذا قال ابن التين: «يريد بقوله حق العباد على الله حقاً علم من جهة الشرع لا بإيجاب العقل فهو كالواجب في تحقق وقوعه أو هو على جهة المقابلة والمساكلة كقوله تعالى فيسخرهم منهم سخر الله منهم»^{١٣} ومن صور هذا الحجاج الماهوي ما رواه أسامة بن زيد، قال: كنا عند النبي ﷺ إذ جاءه رسول إحدى بناته، يدعوها إلى ابنها في الموت، فقال النبي ﷺ: «ارجع إليها فأخبرها أن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمرها فلتصبر ولتحتسب»^{١٤}

الحجاج الوقائعي

يندرج في هذا الضرب من الحجاج كل الصور الحجاجية التي يمكن اتخاذها مستنداً تأسيسياً للاجتهاد في عرض العقيدة الإسلامية تأصيلاً ودفاعاً، ومن صور هذا الحجاج الأدلة القرآنية العقلية التي تبين إذعان العقول السليمة لنداء التوحيد كقوله عز وجل: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ الأنبياء ٢٢ وقوله أيضاً: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ الطور ٣٥ وهو المبدأ نفسه الذي ألزم به الخليل إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم قومه حين كسر أصنامهم، وفي مرويات السيرة نجد ذلك الحوار الذي دار بين النبي الأكرم ﷺ ووالد عمران بن حصين حين سأله النبي ﷺ «كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِهْمًا؟» قَالَ: سَبْعَةٌ، سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «فَأَيُّهُمْ تَعْبُدُ لِرَغْبَتِكَ وَلِرَهْبَتِكَ؟» قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ^{١٠}، ومن صور هذا الحجاج أيضاً الحجاج بضرب الأمثلة فقد وردت في القرآن الكريم الكثير من الأمثلة التقريرية التي تبين للعقلاء من الناس أن التوحيد يحفظهم من الاضطراب النفسي والتذبذب الفكري كقوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الزمر ٢٩ وقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج ٧٣]، فهذه الآية جاءت في مقام التحدي على أنه لا خالق إلا الله تعالى حتى لو كان المخلوق حقيراً وصغيراً كالذباب، وقد جاء ضرب المثل في هذه الآية تبعاً لما كان معروفاً عند المخاطبين، وهذا لا يمنع من دخول غيره من الأمثلة التي تشترك معه في الضعف والحقارة لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص

السبب، ولا بأس أن نستأنس في بيان تطور توظيف هذه الآلية باكتشاف العالم السويسري فرانك ألن^{١٦}، فلكي يثبت فرانك ألن أن الحياة قد نشأت بحكمة وتصميم سابق ولم تنشأ من طريق المصادفة، يعطي مثالا باستحالة تشكل جزيء بروتين حقيق بالصدفة، ذلك أن البروتين يتكون من خمسة عناصر كيميائية هي: الكربون والهيدروجين والنيتروجين والأوكسجين والكبريت. ويبلغ عدد الذرات في الجزيء البروتيني الواحد ٤٠٠٠٠ ذرة. ولما كان عدد العناصر الكيميائية في الطبيعة ٩٢ عنصرا موزعه كلها توزيعا عشوائيا، فإن احتمال اجتماع هذه العناصر الخمسة لكي تكون جزيئا من البروتين، فنحن بحاجة إلى عدة أمور يُعد تحصيلها أمرا مستحيلا وهي حساب كمية المادة التي ينبغي توفرها ليتم خلطها خلطا مستمرا لكي تؤلف هذا الجزء، ثم معرفة طول المدة الزمنية اللازمة لكي يحدث هذا الاجتماع بين ذرات الجزيء الواحد.

وقد حسبت وفقا لقوانين الاحتمالات الرياضية، إذ ينبغي أن تكون كمية المادة التي تلزم لحدوث هذا التفاعل بالمصادفة لإنتاج جزيء بروتين واحد أكثر مما يتسع له كل هذا الكون بملايين المرات. ويتطلب تكوين هذا الجزيء على سطح الأرض وحدها من طريق المصادفة بلايين لا تحصى من السنوات مقدرة بعشرة مضروبة في نفسها ٢٤٣ مرة من السنين. ثم إن البروتين يتكون من سلاسل طويلة من الأحماض الأمينية. فكيف تتألف ذرات هذه الجزيئات؟ إنها اذا تألفت بطريقة أخرى غير التي تتألف بها، تصير غير صالحة للحياة، بل تصير في بعض الأحيان سموما، وقد حسبت الطرق التي يمكن أن تتألف بها الذرات في أحد الجزيئات البسيطة من البروتينات فوجد أن عددها يبلغ البلايين (١٠ قوة ٤٨). ومع كل هذه الأرقام الرهيبة فإنه من المحال عقلا أن تتوافق كل هذه المصادفات لكي

تبني جزئيا بروتينيا واحداً. وبعد كل ذلك فإن البروتينات ليست إلا مواد كيميائية عديمة الحياة، ولا تدب فيها الحياة إلا عندما يحل فيها ذلك السر العجيب الذي لا ندري من كنهه شيئاً، إنه العقل اللانهائي بتعبير فرانك ألن، وهو الله وحده في اعتقادنا، الذي علم ببالغ حكمته أن مثل ذلك الجزيء البروتيني يصلح لأن يكون مستقراً للحياة فبناه وصوره وأغدق عليه سر الحياة.^{١٧} وصدق الله (عز وجل) إذ تحدى الخلق بأن يخلقوا أحقر مخلوق وترك مجال التحدي مفتوحاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة ٢٦] وقد مال المفسرون إلى معنى المبالغة في التحقير والتصغير في قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ وقالوا المراد بما فوقها في الصغر أي بما هو أصغر منها^{١٨}

وهكذا يتبين لنا أن باب الحجاج الوقائعي وإن كان قد وُضع أساسه في آيات القرآن ومرويات السيرة الصحيحة، إلا أنه لا زال مفتوحاً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى علماء الإسلام، وخاصة علماء الكلام منهم أن ينهلوا من واقع البحث العلمي بمختلف جوانبه وتخصصاته ما يدعمون به صحة العقيدة الإسلامية، ويدحضون شبهات المشككين والمجادلين بالباطل، فإن لهم في رسول الله أعظم القدوة وأحسن الأسوة.

المبحث الثالث: الحجاج النبوي والتأسيس لعلم الكلام

قد يبدو عنوان هذا المطلب طريفاً وغريباً بسبب الفارق الزمني بين ظهور دعوة النبي ﷺ، وظهور علم الكلام علماً مستقلاً يتولى الدفاع عن عقائد الإسلام بالأدلة اليقينية، ومحل الغرابة في المطلب أن النبي ﷺ كان أمياً يتلقى الوحي ويثبه في الناس، ولم يكن يوماً ما متكلماً يحتاج عن عقيدة التوحيد بالأدلة اليقينية العقلية والنقلية، والجواب عن هذا الإشكال متضمن في العنوان نفسه، إذ وردت فيه عبارة «التأسيس» والمقصود بذلك إثبات أصالة علم الكلام لا إثبات أن النبي ﷺ كان متكلماً بالمعنى الذي صار عند المتأخرين، والفرق بين المقامين واضح وجلي، ولهذا حين نقول أن حجاج النبي ﷺ للموافق أو المخالف كان فيه تأسيس لعلم الكلام، فهذا معناه أن المادة الخام التي نتج منها علم الكلام هي مادة إسلامية أصيلة أو «نبذة إسلامية خالصة»^{١٩} بتعبير المستشرق فلها وزن ولنا على هذا الكلام جملة من الأدلة والمباني، مستخلصة من سيرة النبي الأكرم ﷺ وقد وردت في المرويات الصحيحة عند أهل السنة والشيعة على حد سواء، حتى وإن اختلفت تأويلات كل فريق لهذه النصوص تبعاً لاستقلالية كل فريق في منهج استدلاله، ففي صحيح مسلم عن جابر، قال: جاء سراق بن مالك بن جعشم قال: يا رسول الله بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام، وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: «لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير» قال: ففيم العمل؟ قال زهير: ثم تكلم أبو الزبير بشيء لم أفهمه، فسألت: ما قال؟ فقال: «اعملوا فكل ميسر»^{٢٠}، وهذا الحديث قد ورد فيه الحجاج النبوي في أعوص مسألة عرفها الفكر البشري وهي مسألة القدر التي تناولها علم الكلام فيما بعد حسب طبيعة الإشكالات الجزئية الواردة حول الموضوع، وتبعاً لمنهج كل متكلم

ومستدل في الانتصار لرأيه على حساب رأي المخالف وليس على حساب النص القرآني أو النبوي الصحيح، ويتجلى معنى ما نقول أكثر في رواية أحمد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص قال: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذاتَ يَوْمٍ وَالنَّاسُ يَتَكَلَّمُونَ فِي الْقَدَرِ، قَالَ: وَكَأَنَّمَا تَفَقَّأُ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُمْ: « مَا لَكُمْ تَضْرِبُونَ كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؟ بِهَذَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » قَالَ: « فَمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَشْهَدُهُ، بِمَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ، أَنِّي لَمْ أَشْهَدُهُ » وورد الحديث بطريق آخر دون ذكر القدر وزيادة عبارة: « إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ، انْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ، فَاعْمَلُوا بِهِ، وَالَّذِي تُهَيِّئْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »^{٢١}، وهناك مسألة أخرى يمكن أن نتخذها مستنداً معرفياً لإثبات الدعوى التي أثارناها في هذا المبحث، وهي مسألة « حدوث العالم أو قدمه » وهي المسألة التي ورد الحجاج النبوي حولها في أحاديث صحيحة بألفاظ مختلفة ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: « كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض »^{٢٢} وعن النبي ﷺ أنه قال: « كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء »^{٢٣} ومع اختلاف الروايات بين « القبل » و « المعية » تمخض عن هذا الاختلاف جدال طويل وعريض في علم الكلام الإسلامي حول مسألة قدم العالم وحدوثه ليس المجال مجال تفصيلها، وإنما قصارى ما أردنا إثباته في هذا المبحث هو أصالة علم الكلام الإسلامي استناداً إلى واقع الحجاج النبوي الوارد في القرآن الكريم ومرويات السيرة الصحيحة.

ومن هنا يتبين لنا أن نصوص القرآن ووقائع السيرة المختلفة التي تندرج تحت عنوان « الحجاج النبوي عن العقيدة » يمكن أن تتخذ مستندا

معرفياً لإثبات أصالة علم الكلام الإسلامي، وهو ما اصطلحنا عليه في العنوان بعبارة «الحجاج النبوي والتأسيس لعلم الكلام»، وهذا الإثبات ليس ضرباً من الترف الفكري، بل ينبغي أن يستثمر في رأب الصدع الواقع في الأمة وتضييق الخرق على الرقاع الذين يسعون للم شمل الأمة الإسلامية التي كانت بدايتها بالوحي ولا خيار لها إلا بالعودة إلى الوحي، في ظل كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة والاشتغال بالعمل ترشيداً من الوحي وسيرة النبي المعصوم، وفقاً لمنهج التسديد والمقاربة الذي دعت إليه الآية الكريمة: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ [الإسراء ٨٤].

وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحابته المنتجبين وعلى من سار على هديهم إلى يوم الدين.

الخاتمة:

بعد هذا العرض المفصل لموضوع سيرة النبي ﷺ بين البعدين الإنساني والوحياني

- قراءة في مضامين ومدلولات الحجج النبوي - والتي تبين لنا من خلالها أن النبي الأكرم ﷺ كانت له مواقف حجاجية تهدف إلى بناء العقيدة الإسلامية التوحيدية في النفوس وحمايتها من الشبهات البشرية والوساوس الشيطانية، وقد كانت تلك المواقف تعبيرا واضحا عن البعدين الإنساني والوحياني اللذان اجتمعا في شخص النبي ﷺ ليكون مؤهلا لأداء وظيفة النبوة والرسالة، التي عبرت عنها الآيات الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب ٤٥، ٤٦]، وفي نهاية هذا البحث تم الخلوص إلى النتائج الآتية:

١/ النبي ﷺ بشر اصطفاه الله (عز وجل) لأداء الرسالة وتبليغها للناس كافة، وقد اجتمعت في شخصه الكريم قيمتان معرفيتان هما الإنسانية والوحيانية، فبالإنسانية يتواصل مع الناس في عالم الشهادة، وبالوحيانية يتواصل مع الله (عز وجل) في عالم الغيب.

٢/ تجلت العلاقة بين قيمتي الإنسانية والوحيانية في حجج النبي ﷺ للناس في أعظم جوانب هذا الدين وهو جانب الإيمان والاعتقاد الصحيح، وقد نقلت إلينا نصوص القرآن الكريم ومرويات السيرة الصحيحة كثيرا من صور هذا الحجج.

٣/ بينت لنا المنظومة القرآنية ومرويات السيرة الصحيحة، أن حقيقة النبي الأكرم كانت متراوحة بين مقامي التعالي والتساوي، تساوقا

وانسجاماً مع الوظيفة التي أنيطت بهم، وهي وظيفة أداء رسالة السماء إلى أهل الأرض.

٤/ المواقف الحجاجية التي عاشها النبي ﷺ في دعوته، كانت مع صنفين من الناس هما: الصنف الأول: أتباعه المؤمنين تعليماً لهم ودفعاً للشبهات عنهم والصنف الثاني: أصحاب الملل والنحل إلزاماً لهم وإقامة للحجة عليهم.

٥/ تبين لنا أن نصوص القرآن ووقائع مرويات السيرة الصحيحة التي تدرج تحت عنوان «الحجاج النبوي عن العقيدة» يمكن أن تُتخذ مستنداً معرفياً لإثبات أصالة علم الكلام الإسلامي بمختلف مدارسه، وهذه قيمة تربوية عظيمة تعين على الانفتاح الاستدلالي لدى المسلمين على اختلاف مدارسهم، وهذا الانفتاح سيؤدي إلى الاستيعاب المعرفي للمخالف في المذهب وهو ما يؤدي بدوره إحياء وبعث صلة الرحم الإيمانية وهو ما سينعكس إيجاباً على الوظيفة الوجودية للأمة المسلمة. نسأل الله أن يلهمنا الحق ويرزقنا العمل به ويبعدنا عن مواطن التفرق والزلل وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿وَاَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران ١٠٣]

الهوامش

- ١- عبد الحميد محمد محيي الدين، شرح جوهرة التوحيد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٢ / ١٩٥٥ م، ص ١٨٣
- ٢- ينظر: الرازي فخر الدين، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ، ج ١٢ ص ٤٨٦، ٤٨٧
- ٣- الطبرسي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، دار المرتضى بيروت لبنان، ط ١ / ٢٠٠٦ م، ج ٤، ص ١٢
- ٤- القسطلاني شهاب الدين، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة- مصر، ج ٢ ص ٥٧٩
- ٥- ابن الوزير اليميني، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، مطبعة المعاهد، القاهرة، دت، ص ٢٤
- ٦- ينظر: يحيى محمد، جدلية الخطاب والواقع، دار الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط ١ / ٢٠٠٢ م، ص ٤٩
- ٧- ورد في سبب نزول الآية عن أبي بن كعب، أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأنزل الله: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد﴾ والحديث حسن رواه الترمذي باب ومن سورة الإخلاص رقم ٣٣٦٤
- ٨- الملا علي القاري الرد على القائلين بوحدة الوجود، المحقق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق الطبعة: الأولى ١٩٩٥ م، ص ١٦
- ٩- التفتراني سعد الدين، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميرة (عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان ط ٢، ١٩٩٨ م) ج ٢ ص ٣٥٦
- ١٠- يرى ابن تيمية أن المعتزلة ابتدعوا هذا التعطيل الذي يسمونه توحيداً. [ابن تيمية تقي الدين، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، ج ١ ص ٢٨٤]
- ١١- التفتراني سعد الدين، شرح المقاصد مرجع سابق، ج ٢ ص ٩
- ١٢- البخاري باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى، رقم ٧٣٧٣
- ١٣- العسقلاني ابن حجر فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، ج ١٣ ص ٣٥٥
- ١٤- البخاري باب قول الله تبارك وتعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما

تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴿[الإسراء: ١١٠]، رقم ٧٣٧٧

١٥- البخاري محمد بن إسماعيل، خلق أفعال العباد، المحقق: د. عبد الرحمن عميرة،

الناشر: دار المعارف السعودية - الرياض، ص ٤٣

١٦- عالم الطبيعة البيولوجية، متحصل على ماجستير ودكتوراه من جامعة كورنل -

أستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا من سنة ١٩٠٤ إلى سنة ١٩٤٤ - إحصائي

في أبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام

توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا.

١٧- جون كلوفر مونسيما، الله يتجلى في عصر العلم تأليف: نخبة من العلماء

الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض، ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد

المجيد سرحان، الناشر: دار القلم، بيروت - لبنان، ص ١٥، ١٦

١٨- الرازي فخر الدين، التفسير الكبير، مرجع سابق ج ٢ ص ٣٦٤

١٩- بن حمدة عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، مطبعة دار

العرب، تونس، ط ١ / ١٩٨٦م، ص ٧٤

٢٠- مسلم باب كيفية خلق آدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته

وسعادته، رقم (٢٦٤٨)

٢١- حديث صحيح، مسند الإمام أحمد بن حنبل المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل

مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي (مؤسسة الرسالة الطبعة:

الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م) رقم ٦٨٤٥ ج ١١ ص ٤٣٤

٢٢- البخاري باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو

أهون عليه﴾ رقم: ٣١٩١

٢٣- البخاري باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾ رقم: ٧٤١٨

المصادر والمراجع:

* ابن الوزير اليمني، ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، مطبعة المعاهد، القاهرة، د ت
* ابن تيمية تقي الدين، درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: الدكتور محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية ١٩٩١ م
* بن حمدة عبد المجيد، المدارس الكلامية بإفريقية إلى ظهور الأشعرية، مطبعة دار العرب، تونس، ط ١ / ١٩٨٦ م
* التفتزاني سعد الدين، شرح المقاصد، تحقيق عبد الرحمن عميرة (عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان ط ٢، ١٩٩٨ م
* جون كلوفر مونسيما، الله يتجلى في عصر العلم تأليف: نخبة من العلماء الأمريكيين بمناسبة السنة الدولية لطبيعات الأرض، ترجمة: الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان، الناشر: دار القلم، بيروت - لبنان
* الرازي فخر الدين، مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، الناشر: دار إحياء التراث

العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ

* الطبرسي الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع، دار المرتضى بيروت لبنان، ط ١ / ٢٠٠٦ م
* عبد الحميد محمد محي الدين، شرح جوهرة التوحيد، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط ٢ / ١٩٥٥ م
* العسقلاني ابن حجر فتح الباري شرح صحيح البخاري، الناشر: دار المعرفة - بيروت،
* القسطلاني شهاب الدين، المواهب اللدنية بالمنح المحمدية، الناشر: المكتبة التوفيقية، القاهرة - مصر
* الملا علي القاري الرد على القائلين بوحدة الوجود، المحقق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا، الناشر: دار المأمون للتراث - دمشق الطبعة: الأولى ١٩٩٥ م
* يحيى محمد، جدلية الخطاب والواقع، دار الانتشار العربي، بيروت لبنان، ط ١ / ٢٠٠٢ م



التجربة النبوية الشريفة في بناء المجتمع المسلم -أسسها ومسالكها وخصائصها-

أ.د. بودقزدام عمران
كلية العلوم الإسلامية/ جامعة الجزائر/ الجزائر



The Noble Prophetic Experience in Building a Muslim Society Its foundations, pathways, and characteristics

Prof. Dr. Budgazdam Amran
Faculty of Islamic Sciences/ University of
Algiers/ Algeria

الملخص

نسعى في هذه الورقة البحثية إلى تجلية المعالم الأساسية للمنظور القرآني والتجربة النبوية في بناء المجتمع. هذا المنظور الذي يشكّل الضابط والنسق الناظم الذي يحدّد منطلقات المجتمع ومناهجه وتوجّهاته، فتنبثق عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه، وقيمه الإيمانية والروحية، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته، وتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، وتنشق عنها منظومة قيمه وتشريعاته التي تضبط الجانب العملي لحياته في مختلف أنساق علاقاته، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري. ولهذا يشكل القرآن الكريم الذي جسّدته التجربة النبوية واقعا متحققا ومعيارا مطلقا، ومعينا لا ينضب يُستلهم منه تجارب بناء المجتمع منطلقا ومنهجيا ومقصدا عبر الزمان والمكان.

الكلمات المفتاحية: المنظور القرآني؛ التجربة النبوية؛ المجتمع؛ الأبعاد والخصائص.

Abstract

In this research paper, we seek to clarify the basic features of the Quranic perspective and the prophetic experience in building society. This perspective, which constitutes the regulator and the organizing system that determines the society's starting points, methods and orientations, from which emerge its system of ideas and concepts, and its faith and spiritual values. The various patterns of its relations, so that all these elements form the pillars of building the civilized edifice. For this reason, the Holy Qur'an, which was embodied by the Prophetic experience, constitutes an actual reality, an absolute standard, and an inexhaustible source from which the experiences of building society are inspired by a starting point, an approach, and a destination across time and space.

Keywords: Quranic perspective; prophetic experience; the society; Dimensions and characteristics.

المقدمة:

يعدّ المجتمع مدخلا أساسيا لتحقيق البناء الحضاري الراشد؛ بوصفه المكلف بتمثّل فلسفته للحياة وتفعيلها في أرض الواقع وفق منهجية شاملة ومتكاملة قصدا إلى تأسيس أنموذج نهضوي نوعي يستمدّ مضامينه ومناهجه من المرجعية العليا للمجتمع، ويلبي تطلّعاته ومقاصده في الحياة. ويعدّ القرآن الكريم المصدر الأساس الأوّل لهذه المرجعية، لما يتضمنه من رؤية كلّية متّسقة لأبعاد الوجود الإنساني - مبدأ ومنهجاً ومقصداً ونظراً وتدبيراً- تعد بوصلة توجّه المجتمع في الحياة فكرياً وحركة.

تشكّل هذه الرؤية الضابط والسّق الناظم الذي يحدّد منطلقات المجتمع ومناهجه وتوجّهاته، فتنبثق عنها منظومة أفكاره ومفاهيمه، وقيمه الإيمانية والروحية، وتتأسّس على قاعدتها منهجيته، وتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، كما تنبثق عنها منظومة قيمه الأخلاقية وتشريعاته التي تضبط الجانب العملي لحياته في مختلف أنساق علاقاته، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري. ولهذا يشكل القرآن الكريم معيناً لا ينضب يُستلهم منه تجربة بناء المجتمع منطلقاً ومنهجاً ومقصداً عبر الزمان والمكان.

كما تمثّل السنة النبوية -قولا وفعلا وتقريراً- تجربة تنزيلية نوعية، أثبتت بشكل جلي قابلية نقل المنظور القرآني من النظرية إلى التطبيق؛ مما أثمر بعد مدافعة مريرة مع تجارب جاهلية تأسيس مجتمع مسلم يعدّ أنموذجاً مثالياً، تُستلهم منه العناصر الحيوية للإصلاح، وتُستصحبه تجارب نهضوية لاحقة في شق مسالك تشدّ تجديد صلة الأمة بدينها.

نَسعى في هذه الورقة البحثية -في ضوء ما سلف- إلى بيان مسلك النبي ﷺ في تأسيس العلاقات ونسجها بين مختلف أطراف المجتمع في شتى أنساق علاقاته -العلوية والأفقية-، مُستحضرين أصالة المعالم الأساسية للمنظور القرآني في بناء المجتمع وكذلك الرصيد الثري للسنة النبوية -قولا وفعلا وتقريراً-، بوصفها التّزليل العملي لتعاليم الدين.

وفي ضوء الأهمية الحيوية للبحث نسعى للإجابة عن التساؤل المركزي الآتي:

ما تفسير التحوّل النوعي الذي طرأ في مجتمع الجزيرة العربية؟ هذا المجتمع الجاهلي الذي تنازعتهُ الأهواء والعصبيات والخرافات والشركيات. وحين أشرق نور الوحي على النبي ﷺ انصهر المجتمع في بوتقة واحدة، حيث أصبح كما وصفه مالك بن نبي رحمه الله بـ«النموذج ذي الحجر الواحد»، محرّرا إياه من جاذبية التراب إلى آفاق روحية وسلوكية وحركية رحبة.

يتفرّع عن هذا التساؤل المركزي، جملة من الأسئلة الفرعية، هي:

- أ- ما الأبعاد الكلية للمنظور القرآني في بناء المجتمع المسلم؟
- ب- ما الأسس التي أرسّت دعائم بناء المجتمع المسلم بمختلف تنوّعاته وأطيافه؟
- ج- أين تجلّى دور التجربة النبوية بوصفها التّزليل العملي للدين في بناء وتأسيس اللبنة الأولى للمجتمع المسلم، من حيث النظر والتدبير؟
- د- ما أبرز الخصائص وعناصر التمييز في التجربة النبوية استلهاها للمنظور القرآني لبناء المجتمع -نظرا وتديرا-؟

وسعيّا لتحقيق الأهداف المتوخاة، وللإجابة عن التساؤلات السابقة وظّفنا خطة تضمّنت العناصر المنهجية الآتية:

أولاً: الأبعاد الكلّية للمنظور القرآني في بناء المجتمع المسلم.

ثانياً: التجربة النبوية في تشكيل لبنة المجتمع المسلم -أسسها ومسالكها- .

ثالثاً: التجربة النبوية في بناء المجتمع -خصائصها ومميزاتها- في ضوء القرآن الكريم وما صح من المرويات.

الخاتمة: تتضمن أهم النتائج.

أولاً: الأبعاد الكلّية للمنظور القرآني في بناء المجتمع المسلم:

يمكن تحديد هذه الأبعاد في العناصر الآتية:

١- البعد التّصوري العقدي:

هياً القرآن الكريم للمجتمع أرضية فكرية تضمّنت رؤية كلية متّسقة للوجود، تشكّل بمجموعها عامل تحريك ودفع له نحو تفعيل رؤيته للحياة في أرض الواقع.

ويعدّ التوحيد^(*) حجر الزاوية في هذه الأرضية؛ لأنه يمثل جوهر المرجعية الإسلامية الأصيلة، وروح الدين كلّ ونواته، لما تضمّنه من رؤية كلية مطلقة ومتّسقة للوجود كلّ، مبدئاً، وماهية، ومقصداً، ووسائل، مبناها إفراد الله عزّ وجلّ بالوحدانية في الذات والأسماء والصفات والأفعال، والعبادة، والحكم والتّشريع.

فالله عزّ وجلّ -وفق هذه الرؤية- مبدأ كل شيء، ومنتهى كل شيء، وبهذا «فوجوده تعالى وإرادته وأفعاله هي الأسس الأولى التي عليها يقوم بناء كل الكائنات، وكل المعارف، وكل أنظمتها. سواء أكان موضوع المعرفة هو عالم الذرة الصغيرة، أم النجوم الكبيرة، أم أعماق النفس، أم سلوك

المجتمع، أم مسيرة التاريخ»^(٢).

رسمت هذه الرؤية الطريق لكل جوانب الحياة البشرية، ملبّية تطلّعات الإنسان الروحية ورغباته المادية بشكل متوازن ودقيق، ومحقّقة لكرامته ومكوّنة لشخصيته، في انسجام مع الفطرة الإنسانية، وهو ما يثمر نظاماً متكاملاً للحياة البشرية بمختلف أطوارها.

وعلى هذا الأساس يستمدُّ كل الخلق وجوده، وماهيته من هذه الحقيقة العظمى، إنشاءً، وتدبيراً وعنايةً، وإفناءً، وحساباً، وجزاءً. وبهذه الرؤية الكلية المتّسقة يشكّل التوحيد «سقف المنطق الإنساني في فهم أبعاد الحياة والوجود، وما وراء الحياة والوجود»^(٣).

كذلك حدّدت هذه الرؤية المتّسقة بوضوح وظيفة الإنسان والمجتمع في الحياة، وأنساق علاقتهم بالموّجد، والموّجد؛ فالإنسان مخلوق لله، أُرسِل إلى الأرض لمقصد هو المقصد الأعظم المتمثّل في العبودية المطلقة لله تعالى، مصداقاً لقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(٤)، وهو خليفته المكلف بتعمير الكون التزاماً ببنود عقد وعهد الاستخلاف في الأرض^(٥).

ولأهمية العقيدة والموقع المركزي للتوحيد شكّلت عملية ضبط تصور المجتمع ومعتقداته عن الله والكون، والحياة، أولوية قصوى في المنهج القرآني؛ لأنّها تمثّل الأرضية الصلبة التي يُشَيّد عليها صرح سمو المجتمع الأخلاقي، والروحي، والفكري، في توافق وتناغم مع قوانين الكون؛ ممّا يؤهّل لبناء حضارته.

تتبوّأ العقيدة بهذه الأدوار المهمة مكانة مفصلية بارزة في الضمير الجمعي للمجتمع، لتشكّل الضابط، والنسق الناظم الذي يحدّد منطلقاته، ومناهجه، وتوجّهاته، فتنبثق عن العقيدة منظومة أفكاره، ومفاهيمه،

وتتأسس على قاعدتها منهجيته وشريعته، وتتشكّل معالم ثقافته وشبكة علاقاته، ونظمه المختلفة، لتكوّن كل هذه العناصر ركائز بناء الصرح الحضاري.

وقد حرص القرآن الكريم في هذا الإطار على تحقيق الثمرة من تفاعل المجتمع مع عقيدته وهو أن تنعكس إيجابياً على المجتمع، دافعة له نحو فضاءات السعي السّني، والحركة الإيجابية، ممّا يحمله على تفعيل كليات الاعتقاد في أرض الواقع، لذا ستركّز جهوده بالخصوص على تنزيل كليات الاستخلاف التي تزواج بين السموّ الإيماني في مراتب العبودية، والرسوخ الفكري في منظومة التفكير، والترقي التعميري في عالم المادة على أساس المعرفة. وهو ما يحيلنا للحديث عن ثمرات التصور العقدي المتمثلة في الفعالية الإيمانية في الحياة.

٢- البعد الإيماني:

من المقاصد الأساسية لترسيخ التصور العقدي تعميق بُعد الإيمان في القلوب، عن طريق التحقّق بمفرداته الأساسية مثل: العبادة، والتّوكل، والمحبة، والإنابة، والتوبة، والتخلّق بأسمائه الحسنی، وكل ما من شأنه أن يوثق الصلة بالله، فتحقّق القلب بالإيمان بالله تعالى سـ«يصوغ كيان الفرد صياغة متميزة، فيجعله ينمو صعوداً في سلم الخير والإثمار والفعالية»^(٦). والدور في ذلك يعود للقرآن الكريم الشافي للأمراض النفسية والروحية التي لطالما عانى منها الإنسان، من قلق وحيرة ووساوس، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٧)، فمن وصل قلبه بالله، سكن واطمئنّ واستشعر الحماية والأمن^(٨)، كما يُشفي من «الهوى والدنس والطمع والحسد ونزغات الشيطان...، وهي من آفات القلب تصيبه بالمرض والضعف والتعب،

وتدفع به إلى التحطم والبلى والانهيار... ومن ثم هو رحمة للمؤمنين»^(٩). أسهمت الروح الإيمانية في تقويض بناء المجتمع الجاهلي القائم على العصبية للقرابة، والتقسيم الطبقي والقبلي على أساس اللون أو المال أو الجنس. وأقامت محلّ هذه العادات البائدة مقاييس جديدة تقوم على أسس معنوية سامية هي التقوى والفضيلة والإخاء الإنساني، والمساواة بين الناس في حق الحياة وحق الكرامة، والتفاضل على أساس التقوى. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١٠).

كما أحدثت هذه الروح الإيمانية نقلات نوعية في المجتمعات التي حلّت بها، تجلّت ثمارها في النقلة العقديّة من الشرك إلى التوحيد، والنقلة المعرفيّة من التفكير الخرافي القائم على التقليد والجمود إلى الرؤية التوحيدية القائمة على النظر السنني والسببي، والنقلة الحضارية من الانعزالية والسلبية والخمول، إلى الفعالية والحركة الإيجابية، المنضبطة بقواعد وكليات الاستخلاف من التسخير والتعمير والشهادة.

وعلى هذا الأساس فإن استعادة الباعث الإيماني وتنميته لأجل تفعيله، وترسيخ الروح الإيمانية في المجتمع، يعدّ أقوى ضمانات تماسكه وتلاحمه، وأمتن أسباب وحدته ومناعته؛ لما له من دور فعّال في صهر الشعوب، والقبائل، والأعراق، واللغات، في رحاب المجتمع التوحيدي الواحد على أساس الأخوة الإيمانية، التي تثمر أداءً اجتماعياً نوعياً، يقوم على أساس التعاون، والتناصح والتكافل، لا على التنافس المذموم، والتجاذب، والتنافر، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾^(١١).

وهذا التمثّل الفعّال يُصبح الإيمان أساس حياة المجتمع الرسالي، وجهته الأساسية التي تسنده في كل مراحل سعيه وحركيته، خاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة.

۳- البعد التربوي السلوكي:

يُقصد بالأخلاق منظومة المبادئ القيمة أو المعيارية التي ترسم للسلوك البشري -الفردى والمجتمعى- طريقه القويم بما ينسجم مع بواعث النهوض ومقاصده.

تضمّن القرآن الكريم منظومة قيمية أسست لنظرية نوعية متكاملة في البناء التربوي للإنسان والمجتمع، تمتلك القابلية للتجسيد، حيث سعت إلى تحديد سلوك الإنسان عبر عمليتين هما:

أ- التخلية: تتجه إلى تطهير النفس من العلل والآفات التي تظلمس إنسانيتها، وتفكك مجتمعتها، وتفسد كونها.

-ومدار هذه العملية التحقق الكامل بمقامات إيمانية رفيعة على أساس العبودية المطلقة لله تعالى، وهو ما من شأنه أن يستأصل مُهلكات القلب من جذورها، نذكر من هذه المقامات على سبيل المثال لا الحصر: المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمعاتبة، والتوبة والإنابة، والتواضع، والقناعة، والخوف والرجاء، والإخلاص.

نذكر من الآيات القرآنية الواردة في هذا المسلك قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١٢). وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١٣). وقوله أيضا: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(١٤). وقوله جلّ جلاله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(١٥).

ب- التحلية: تقصد تعبيد الطريق للنفس صوب ترقّيها في مقامات إيمانية، نذكر منها: الصدق، والتوكلّ والمحبة، والتقوى، والشكر، والصبر، وكذلك تخلّقها بأسماء الله الحسنى، وصفاته العلى على أساس العبودية الكاملة لله تعالى.

نورد من الآيات التي تُستحضر في تمثل هذه المقامات قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾^(١٦). وقوله عز وجل: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾^(١٧). وقوله جل جلاله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١٨).

ومن أهم الوسائل المشروعة في هذه العملية أداء العبادات القلبية والبدنية، مثل الصلاة، والحج، والذكر، والتدبّر. تتجلّى ثمار هاتين العمليتين في السلوك العملي للإنسان والمجتمع بمختلف أنساق علاقاتهم، والتي تتركّز في الأنساق الآتية:

أ- نسق علاقته بالله (عز وجل): بتمثّل الكليات الإيمانية التي تؤثّق صلته بالله (عز وجل) مثل: التوكلّ والاستعانة، والمحبة، والخوف والرجاء، والتوبة والإنابة، وغيرها من الكليات التي ترفع منسوب الإيمان لديه، وتبوّئه مرتبة سامية.

ب- نسق علاقة الإنسان مع نفسه: تقوم بالأساس على الخضوع والافتقار، والعجز المسجّي بالمحبة.

ج- نسق علاقة الإنسان مع مجتمعه: يتحقّق هذا النسق عن طريق تنمية مهارات الاتصال والتواصل الاجتماعي والثقافي مع مجتمعه، على أساس الانتساب الإيماني الذي يجعله منجذباً إلى شركائه في الإيمان، مرسّخاً ومعزّزاً النزعة الاجتماعية الكامنة فيه، كما تجعله غير معزول عن تيار الوعي العالمي، ومعتزاً بثقافته وتراثه وتاريخه^(١٩).

وقد نمّت العقيدة هذه النزعة بأساليب عدّة منها: إيقاظ حسّ الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين، وتنمية روح التضحية والإيثار لديه، ودفعه للانصباب في قالب الجماعة. وبهذه التنشئة يندمج الفرد في المجتمع، يحافظ على تماسكه، ومتناغما في حركيته مع منطلقات مجتمعه وتوجّهاته.

د- نسق علاقته مع الإنسانية: يتجلّى هذا النسق في علاقة المجتمع مع ما سواه من الأناسي- من أفراد الأسرة الإنسانية-، حيث يمثلون بالنسبة إليه مشروع مسلم، ينبغي إيصال أنوار التنزيل إليه، لأجل استعادة فطرته. هـ- نسق علاقة الإنسان مع كونه: تكون على أساس الرّفق به، والحفاظ على توازنه، وتجنّب الإفساد فيه، عبر التّسخير الوسطي لموارده وثرواته، والحفاظ على ديمومتها للأجيال اللاحقة.

زواج القرآن الكريم في البناء التربوي للمجتمع بين عدّة أساليب. نذكر منها: التربية بالقُدوة، والتربية بالوعظ والإرشاد والتذكير، والتربية بالترغيب والترهيب، والتربية بالقُدوة الحسنة، والتربية بسرد القصص وضرب الأمثال. تتجلّى مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقديا، وتربويا، ومنهجيا، في تمثّل نوعي للحضارة، من حيث التحقق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا يفضي إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتّوافق والتّناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقىّ التعميري المادي.

٤- البعد التشريعي الإجرائي:

تنزّلت الرسالة الإسلامية في مجتمع طغت فيه عبادات وتشريعات وثنية منحرفة اتخذت أشكالا مختلفة من سجود للأصنام وتقرب لها بالذّبائح، والأنصاب والأزلام، وانتشار الربا وأكل أموال الناس بالباطل وغيرها من الرذائل والموبقات.

وفي هذا الجوّ الوثني الملوّث أعاد الإسلام للعبادة دورها الحيوي، لكي تعبّر عن الفطرة التي فُطر عليها بنو آدم، ولتلبّي تطلّعات الإنسان الروحية العلوية التي توطّد صلته بالسماء، كما أعاد الاعتبار للضوابط والقواعد التشريعية التي يستعين بها الإنسان والمجتمع في مختلف أنساق علاقاته.

أكّد القرآن الكريم في هذا الإطار أنّ العبادة هي الغاية التي خلق من أجلها الإنسان، وهو ما يتجلّى في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ﴾^(٢٠)، كما بيّن عز وجل في الآية التالية أنه مستغن عن خلقه، فلا ينتفع بأوبة المؤمنين، ولا يتضرّر بإعراض الجاهلين، لذلك فكلّ ثمرات العبادة يجنيها صاحبها.

ومما لا شك فيه أنّ «الأصل في العبادات أنها تؤدّي امتثالاً لأمر الله (عز وجل)، وقياماً بحق الله على عباده وشكراً لنعمه التي لا تنكر، وليس من اللازم أن يكون لهذه العبادات ثمرات ومنافع في حياة الإنسان المادية، وليس من الضروري أن يكون لها حكمة يدركها عقله المحدود»^(٢١)، فهي في محصلتها ابتلاء للإنسان، كما دلّت عليه الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(٢٢). لذا يتوجب على كل مسلم أن تكون غايته في كل عبادة إرضاء الخالق جلّ وعلا، وامتثال أمره في كل حركاته وسكناته، سواء علم آثار العبادات وأسرارها أم جهلها. والنّاظر في التشريع الإسلاميّ، يجد من الحكم والفوائد التي لا يحيط بها إلا العليم الحكيم، حيث تضمّنت ما تنصلح به جميع أحوالهم النفسية، والفكرية، والجسدية، والاجتماعية والاقتصادية، قال الله (عزّ وجلّ): ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢٣)، وقال أيضاً: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾^(٢٤). لذلك فالله لم يخلق الخلق ليعذبهم، ولا ليجدوا التّعاسة في حياتهم، وإنما زوّدهم بكل ما يقيم حياتهم على الخير والسعادة.

وتحقّقاً لهذه الحُكم والأسرار نجد أنّ "الإسلام حرص على تصفية هذه العبادات جميعاً من كل شائبة، ورقيّ كل نوع منها إلى غايته، وأودع فيها الأسرار، وربط بها من الآثار، وجعل لها من التأثير في الحياة ما يليق بدين عام خالّد، مهمته إصلاح الفرد، وإسعاد البيت، واستقرار الجماعة، وتوجيه الدولة، وهداية العالمين" (٢٥).

فالشريعة إذن، جاءت لتحقيق مصلحة الإنسان في العاجل والآجل. أما في الآجل فهو الفوز بالجنة مع الأبرار، ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ (٢٦)، وأما في العاجل فينال جزاء عمله الصالح من الصلة بالله والثقة به، والاطمئنان إلى رعايته وستره ورضاه.

كذلك تبعث العبادات في الإنسان الشعور بالرضا والأمن، وطمأنينة القلب، وترزق البركة والصحة، والسرور بالعمل الصالح؛ مما يحدث أثراً في الضمير والحياة (٢٧). قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (٢٨)، جاء في تفسيرها «يعني في الدنيا» (٢٩).

ولا تنحصر العبادة في الإسلام في مفهومها الخاص، أي في أداء الشّعائر التّعبدية بل هي «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة» (٣٠)، فيدخل في هذا المعنى أعمال تستوعب يوم الإنسان منذ طلوع الفجر إلى نهايته، بل تستوعب حياته كلها من بلوغه إلى مماته.

٥ - البعد الفكري المعرفي:

سعى القرآن إلى تنمية ملكة التفكير عند الإنسان عبر صياغة تفكيره وبرمجته على أساس قوانين العقل الفطرية المودعة فيه، وهو ما يمكنه من اكتساب مهارات الاستقراء والاستنباط والنقد، مستثمرا كل ذلك في فهم الظواهر الإنسانية والكونية على أساس فقه علاقتها السببية، وكشف قوانينها المودعة فيها؛ مما يثمر منظومة تفكير مؤهلة للتفاعل مع الكون تسخييرا وتعميرا. نذكر من أوجه عناية القرآن بتنمية ملكات العقل ما يأتي:

أ- الترغيب في التفكير والحث عليه:

لقد أعلّى القرآن الكريم من شأن التفكير، حيث وردت مادة «فكر» في القرآن الكريم في نحو عشرين موضعاً، ولكنها بصيغة الفعل، ولم ترد بصيغة الاسم أو المصدر؛ من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾^(٣١)، وقوله عز وجل: ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣٢)، وقوله جل جلاله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣٣). قال ابن عاشور في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣٤): «وقوله ﴿لعلكم تتفكرون﴾ غاية هذا البيان وحكمته... لِيَحْصُلَ لَكُمْ فِكْرُ أَيِّ عِلْمٍ فِي شُؤْنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٣٥). وقال أيضاً في تفسير قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣٦)، «أي مثل هذا التفصيل نُفَصِّلُ؛ أي نُبَيِّنُ الدَّلَالَاتِ كُلِّهَا الدَّالَّةَ عَلَى عُمُومِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَإِتْقَانِ الصَّنْعِ... وَاللَّامِ فِي (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) لَامٌ لِأَجْلِ. والتفكر: التأمل والنظر»^(٣٧). فلاجل أن تتفكروا نفصل الآيات.

يمكن القول: إن التفكير وفق الرؤية القرآنية هو تنشيط وتفعيل للذهن في آيات الله الواضحات في الأنفس والآفاق من أجل أداء مهام الاستخلاص والعبودية لله تعالى.

ب- إيراد القرآن لنماذج التفكير السليم:-

ومّا يبرز اعتناء القرآن الكريم بإعمال العقل أن ضَرَبَ لنا نماذج المتفكرين وما كان لتفكيرهم من ثمرات، فيقتدي الإنسان بهم رغبة فيما توصلوا إليه، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٣٨). قال الإمام محمد عبده في تفسير الآية: «ربنا ما خلقت هذا باطلا: هذه حكاية لقول هؤلاء الذين يجمعون بين تفكيرهم وذكر الله عز وجل، ويستنبطون من اقترانها الدلائل على حكمة الله، وإحاطة علمه سبحانه بدقائق الأكوان، التي تربط الإنسان بربه حق الربط. وقد اكتفى بحكاية مناجاتهم لربهم عن بيان نتائج ذكرهم، وفكرهم، فَطَيَّ هذه وَذَكُرْ تلك من إيجاز القرآن البديع، وفيه تعليم المؤمنين كيف يخاطبون الله تعالى، عندما يهتدون إلى شيء من معاني إحسانه وكرمه، وبدائع خلقه، كأنه يقول: هذا هو شأن المؤمن الذاكر المتفكر، يتوجه إلى الله في هذه الأحوال بمثل هذا الثناء والدعاء والابتهاال... فذكر الله حالهم، وابتهاهم، ولم يذكر قصتهم، وأسماءهم لأجل أن يكونوا قدوة لنا في علمهم، وأسوة في سيرتهم»^(٣٩).

كذلك ركّز القرآن الكريم في الجانب المعرفي على تنمية مهارات التفكير العلمي المنطقي، ونعني بها إعادة صياغة تفكير الإنسان وبرمجته على أساس قوانين العقل الفطرية التي أودعها فيه متمكنا من فقه عمليات

القياس والتحليل والتركيب، والنقد، والاستقراء، والاستنباط، والمقارنة مستثمرا كل ذلك في فهم الظواهر الإنسانية والكونية على أساس فقه علاقتها السببية، وكشف قوانينها المودعة فيها؛ مما يثمر منظومة تفكير مؤهلة للتفاعل مع الكون تسخيرا وتعميرا.

تُثمر عملية بناء الإنسان على أساس تمثل كليات التوحيد وقواعد الاستخلاف انضباط منظومة تفكيره بنسق وناظم واحد توحيدي في التفسير والتحليل، بحيث ينسب كل الظواهر والحوادث الكونية -الاجتماعية والمادية- على تعددها وتعقدها إلى مبدأ واحد وعلة واحدة، فلا تلبس عليه كثرتها، وتعدد نوااميسها، وبهذا يكون منهج الرؤية التوحيدية ونسقتها أشبه بعمل البوصلة، النازمة والضابطة لتصورات الإنسان ورؤاه وحركيته في الواقع، مما يكرّس هيمنة الرؤية التوحيدية في كل شعاب الحياة المعنوية والمادية.

يحوّل للإنسان المسدّد بالرؤية التوحيدية أن يتبوأ مرتبة الإشراف والسلطنة على الحياة في المستوى الإنساني ماضيا وحاضرا ومستقبلا، حيث ينظر في الماضي بهدف الاعتبار، وتسديد مسيرة الإنسانية وتصويبها في الحاضر والمستقبل، كما يهيمن على الحياة في المستوى المادي، فيستثمر قوانين الكون لتعمير الأرض في إطار قواعد الاستخلاف وكلياته^(٤٠).

تعدّ هذه الرؤية المتميّزة هندسة قرآنية خالصة، أثمرت ثورة منهجية، في نظم تفكير الإنسان، وطرائق عمله، حيث انطلقت من استنفار العقل لتحصيل المعرفة اليقينية الشاملة لعالمي الغيب والشهادة، والوجود الروحي والمادي بالتفكير والتدبر والاعتبار، والتعقل، والبينة والبرهان، وذمّت في السياق نفسه تعطيل ملكات العقل، بالتلبس بآفات التقليد، والتعصب، والجمود.

نقل القرآن الكريم بهذه الصياغة النوعية تفكير الإنسان من طور الغرق في المثاليات التي آلت به إلى الركود والانعزال عن الواقع، إلى طور العقل الفعّال الذي يمضي بالإنسان قدما نحو استثمار نوااميس الكون - المادية والاجتماعية - لأداء مهام الخلافة في إطار العبودية المطلقة لله تعالى. ممّا يثمر بناء حضاريا شامخا، تتجلّى فيه الثمرة المرجوة من تفاعل الإنسان - المسدّد بالرؤية التوحيدية وكمليات الاستخلاف - مع الكون، وهي العلم المنضبط بالتوحيد.

٦- البعد السنني الحركي:

تضمّن القرآن الكريم توجيهات تبعث الوعي بالسنن في الفرد والمجتمع، حيث حثّ على التعمّق في فهم السنن واستيعابها، عبر النظر إلى آيات الله في عالم الأنفس والآفاق نظرة الكاشف لقوانينها، المحيط بأبعادها وآثارها، بهدف تسخيرها وتعمير الأرض على هداها في إطار تفعيل القواعد الكلية للاستخلاف في الأرض؛ ممّا يثمر مجتمعا فاعلا، متكيفا مع واقعه، ومنضبطا بالنوااميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده .

وفي هذا الإطار وصف عماد الدين خليل القرآن الكريم بأنه: «قدم أصول منهج متكامل في التعامل مع التاريخ البشري، يتنقل من مجرد العرض والتجميع، إلى محاولة استخلاص القوانين التي تحكم الظواهر الاجتماعية التاريخية»^(٤١). نذكر من التوجيهات القرآنية الواردة في هذا الشأن ما يأتي:

أ- التنبيه إلى وحدة السنن:

تجري نوااميس الكون والحياة في نسق مطّرد، وضعها الله سبحانه وتعالى لحفظ نظام الحياة ودوام بقائها، لذا «فإن كل ما يقع فيه من كائنات وظواهر وتصاريف إنما هي راجعة إلى نوااميس موحّدة»^(٤٢).

هذا التركيز على النزعة التوحيدية في تفسير نواميس الكون هو الذي أرشد إليه الله تعالى في سياق المؤاخذه لفرعون وآله بسبب فكرهم المشتت تبعاً لعقيدتهم المتلبسة بالشرك، قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحُسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ... الْآيَةُ﴾^(٤٣)، فالفكر التوحيدي يفسر ظواهر القحط والرخاء بمبدأ موحد راجع لله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾^(٤٤)، «ولكن آل فرعون عدّدوا في ذلك أسباباً موهومة من التطير بموسى ومن معه في حال القحط، ومن استحقاقهم الذاتي في حال الرخاء»^(٤٥).

وخضوعاً لوحدة نواميس الكون فإن بني آدم مصيرهم واحد وهو الموت، بل كل من على ظهر هذه المعمورة، قال تعالى: ﴿أَلْهَأَكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾^(٤٦). فهي دار لا مفر من ولوجها.

وما دام مصيرهم واحداً وهو السير نحو الموت، فلم التكبر والأنانية والغرور، والتمييز عن سائر الناس؟، إنها بسبب الغفلة عن الحقائق التي يريد القرآن ترسيخها في قلوب البشر وعقولهم^(٤٧).

وقد نبّههم الخالق في القرآن الكريم إلى أنهم تناسلوا بطريقة واحدة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾^(٤٨). وهذه الحقيقة أثرها النفسي، فهي تقتل الكبر والتعجرف من القلوب، وبالتالي ينضبط كل سلوكهم فيما بينهم على أساس التعاون والتراحم.

وإذا أدرك الإنسان وجود قانون يحكم الكون فإن حركته فيه ستسّم بمرونة وسلاسة، فيحدد الهدف، ويعلم الطريق المناسب للوصول إليه من دون شك أو قلق أو خوف، وبوقوف الإنسان المسلم في العهد المكّي وما

جاء بعده من العهد المدني مروراً بالفتوحات الإسلامية على حقيقة السنن الكونية والتاريخية وإفادته منها يوماً بعد يوم، استطاع تجاوز العراقيل وتقليص الزمن للوفاء بالأمانة القائم عليها على أكمل وجه.

ب- التأمل في أحوال الأقوام السابقين للوصول إلى اكتشاف السنن الحاكمة:

قرّر القرآن الكريم أن التاريخ البشري يخضع إلى سنن ثابتة، فهو: «لا يتحرك من فوضى وعلى غير هدف، وإنّما تحكمه سنن ونواميس كتلك التي تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء... سواء بسواء...، وإنّ الوقائع التاريخية لا تخلق بالصدفة، وإنّما من خلال شروط خاصة تمنحها هذه الصفة أو تلك، وتوجهها صوب هذا المصير أو ذاك...»^(٤٩)، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجْدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٥٠)، أي قدر الله أن غضي هذه النواميس في طريقها لا تتبدل ولا تتحول، لتحقيق حكمته في الخلق والتكوين.

ولهذا أوجب على الأمة أفرادا ومجتمعات النظر والتدبّر والتفكر في أحوال الأمم الغابرة، واستخلاص العبر من مآلها. نذكر من هذه الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٥١).

إنه تتبع لأحوال الأقوام؛ رصداً لمواقف وأسباب ونتائج، تتكرر مُشْكَلَةٌ سُنَّةً مُطَّرِدَةً، ووقفاً على العامل الحقيقي في تكرار السُنَّة، ثم بعد ذلك يتوعد القرآن الكفار بأن السُنَّةَ لن تتأخر، ما دامت أسبابها متوفرة. نذكر من السنن التي أشار إليها القرآن الكريم في إطار التدبر في أحوال الأمم

والمجتمعات سنن التدافع، والابتلاء، والتداول، والتجديد. وسنكتفي في هذا السياق بذكر أنموذجين هما:

- سنة التدافع: وهي سنة مطردة في الحياة البشرية^(٥٢)، ومعناها «تسابق وتزاحم وتغالب دائب بين الرغبات والإرادات، وبين الحاجات والتحديات، وبين الأفراد والجماعات، وبين الثقافات والحضارات»^(٥٣). أما التدافع بين الأفراد فيكون دائماً بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل أي بين المؤمنين وغيرهم، فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع، وذلك لأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته، أو على الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة، وقد «قضت إرادة الله تعالى أن تحكم هذه السنة الاجتماعية حركة الاستخلاف البشري»^(٥٤) بناءً على حضوره في ساحة التدافع، كما نبهت على ذلك القاعدة القرآنية، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٥٥).

وقضت سنة الله في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والسحق للباطل وأهله، قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾^(٥٦)، وهذا من تمام عدل الله سبحانه وتعالى.

- سنة التداول: يقصد بالتداول أو المداولة هنا «حركة توالي وتعاقب الجماعات والثقافات البشرية على مسرح الحركة الاستخلافية المفتوح على تجارب حضارية متواصلة بلا هوادة»^(٥٧)، وهي هدف تتجه نحوه كل الجهود البشرية من خلال سنة التدافع^(٥٨)، والتداول سنة حتمية لا يمكن التخلص منها أو الإعراض عنها بحال، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٥٩)، وقال أيضاً: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾^(٦٠)، إذ توضع في حلبة التدافع كل الأمم والشعوب للوصول إلى

القيادة الحضارية، وكلما كانت فعّالية الإنسان، وبذله في إطار خصوصيته الثقافية وتميزه الحضاري كان الوصول إلى التفوق الحضاري والاستخلافي.

٧- بعد الشهود الحضاري:

حث القرآن الكريم الأمة على التحقق بمرتبة الشهود الحضاري، بوصفها الأمة الوسط كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا...﴾^(٦١). ويمتلك المجتمع في إطار سعيه للتحقق بالشهود في بنيته من عناصر القوة ما يحوّل له تبوّء مرتبة الشهادة، من أهمّها على الإطلاق ثراء منظومته الفكرية -العقيدة-، والقيمة -الأخلاق- النابعة من مصادر يقينية مطلقة، تمكّنه من تقديم بديل حضاري يرتكز بالأساس على منظومة قيمة وروحية سامية، وهو الجانب الذي تفتقده الحضارة الغربية القائمة على أساس ماديّ صرف.

نذكر من أهمّ مفاصل هذه المنظومة: الكليّات الإيمانية القائمة على أساس براهين العقل، وحقائق الوحي، وصفاء الفطرة، وشفافية الوجدان، والكليّات الأخلاقية التي تتضمّن مسلك السير القلبي إلى الله عبر الترقّي في مراتب العبودية، ومسلك تزكية النفس، ومسلك الأدب مع الخلق، والكليّات التشريعية التي رسمت أنساق علاقة الإنسان مع ربّه، ومع نفسه، وأخيه الإنسان، وكونه.

تكوّن كل هذه المقوّمات نظرية متكاملة لبناء الإنسان والمجتمع من الناحية الفكرية -التصورات والعقائد، ومناهج التفكير-، ومن الناحية العملية السلوكية -الأخلاق، والعبادات، والتشريعات-.

كما تشكّل هذه المنظومة التّوعية التي رسمها المنظور القرآني من كليّات اعتقادية، وقيمة، وتشريعية سقّف التحرك الإنساني على المستويين: التّظري

والتنفيذي، مقدما بديلا شاملا، وأنموذجا حضاريا عالميا، يعالج مشاكل العصر الأساسية، مقدّما لها حلولاً تفوق نوعياً الحلول التي يقدمها الغرب. وعلى أساس تمثّل هذه المنظومة في الفهم والتطبيق تتوجّه الأمة والمجتمع والأفراد صوب فضاء واسع هو فضاء الإنسانية جمعاء على امتدادها في الزمان والمكان، واضعا نصب عينيه رؤية مستقبلية، تبعث فيه حركية إيجابية نحو تحقيق مشروع عالمي يستهدف تصويب مسار الإنسانية وتسديده، وتكميل جوانب النقص فيها، ممّا يدفع بالحركة الإنسانية نحو مزيد من التكامل والرقى البشري في عالمي الروح والمادة.

واستشعارا بأهمية الفصل الاجتماعي في معادلة تأسيس الدولة أولى النبي ﷺ عملية بناء المنظومة الاجتماعية اهتماما كبيرا، حيث جعلها موازية لبناء الجانب العقدي والفكري والأخلاقي، وهذا بإرساء الأسس أو الأصول المبدئية التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية استلهاما من المنظور القرآني، ممهدا للمرحلة المدنية وهي مرحلة التأسيس الإجرائي التشريعي للمجتمع المدني.

ثانيا: التجربة النبوية في تشكيل لبنة المجتمع المسلم -أسسها ومسالكها-

انبتت التجربة النبوية على الإنسان بوصفه العنصر الجوهري، وحجر الزاوية في إحداث عملية التغيير، والشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي^(٦٢)، تمثّلا بالقانون القرآني الذي ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية^(٦٣).

وهنا شكّلت سيرة النبي ﷺ نموذجا متميّزا في تمثّل هذا القانون عندما «عمل على ربط الناس بالرؤية التوحيدية، وبالتالي بالأهداف الحضارية الكبرى للإسلام، كبديل عن الأهداف الصغرى والبسيطة للجاهلية القديمة...، لقد سعى الرسول ﷺ عن طريق عمليات «الربط

الحضاري^(٦٤) الأول إلى بناء جماعة إسلامية قاعدية (الصحابية) على أساس الأنموذج الحضاري التّوحيدي، تلك الجماعة التي ستكون قاعدة البناء الحضاري الإسلامي، والذائدة عن حمى الإسلام، ورسالته ومشروعه^(٦٥). لقد قام النبي ﷺ بصياغة جذرية لشخصية المسلم، بداية بتصفيتها من كل الشوائب والمعوقات^{(٦٦)*} التي كبّلت طاقاته وعطلّت إرادته وفاعليته في الحياة، وأخبت جذوته الإيمانية، ثم وفّر جوار روحيا ملائما حرّره من قيوده، وأرشده إلى سبل التمكين في الأرض.

قوّمت هذه الصياغة رؤية الإنسان والمجتمع للكون والحياة، وأعدت برمجة نظام تفكيره ومعرفته، لتثمر في آخر المطاف عقلا فاعلا منضبطا بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده.

كما جسّد النبي ﷺ المبادئ والمثل القرآنية أعظم تجسيد، بداية من تمثله لمنظومة الأخلاق، حيث كان الأنموذج القدوة في تمثّلها إلى درجة الكمال، فاستحقّ من الله سبحانه وتعالى تزكية وشهادة عظيمة، تجلّت في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(٦٧)، وكذلك بما وصفته به عائشة لما سئلت عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ)^(٦٨).

وعلى هذا كانت تزكية النفس وبناء الأخلاق من صميم دعوة الرسول ﷺ، وهو ما شهد المولى عز وجل به في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٦٩).

وهنا تحمّل النبي ﷺ مسؤولية جسيمة تجاه أمته، فكان عليه أن يبدأ مهمة تربية المجتمع الجديد، على أساس قيم أخلاقية رفيعة، مستمدة من رسالة السماء، مع المحافظة وتكميل الفضائل والمكارم، التي عرفتها المجتمعات الإنسانية السابقة، وتطهير المجتمع من كل رواسب الماضي

وانحرافات الناس الخلقية، والاجتماعية، والنفسية.

ثم توجب علي النبي ﷺ تحويل الطاقة المبعثرة والكامنة للأفراد إلى بناء متكامل وشامل يسمو بالمجتمع روحيا وأخلاقيا، ويرتقي به تعميريا وماديا، على وفق تصوّر الوحي وقيمه وتشريعاته، ونموذجه الواقعي الحي سيرة النبي ﷺ، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(٧٠).

وعلى وفق هذه الرؤية تأسس منهجه في الصياغة الجذرية الشاملة للمجتمع الجاهلي على ثلاث دعائم هي:

١ - الصياغة العقدية والروحية للمجتمع:

وظّف النبي ﷺ لتحقيق هذا الهدف مجموعة من الخطوات هي:

أ- صياغة العقيدة: شكّلت عملية ضبط تصور المجتمع ومعتقداته عن الله والكون، والحياة، وألوية قصوى في المنهج النبوي؛ لأنها تمثل الأرضية الصلبة التي يُشيد عليها صرح سمو المجتمع الأخلاقي، والروحي، والفكري، في توافق وتناغم مع قوانين الكون؛ ممّا يؤهل لبناء حضارته. وتقوم هذه الصياغة على عمليتين هما:

- التخلية: تطهر عقيدة المجتمع من كل الشوائب التي عكّرت صفو تصوره لحقيقة الوجود مبدأً ومسلكاً ومصيراً.

- التحلية: تقصد بناء تصوّر عقدي على أساس من اليقين الخبري، والعقلي، وبتعبير أدق على أساس حقائق الوحي، وقواطع العقل.

من المقاصد الأساسية في هذه العملية تعميق بُعد الإيمان في القلوب، عن طريق التحقق بمفرداته الأساسية مثل: العبادة، والتوكل، والمحبة، والإنابة، والتوبة، والتخلّق بأسمائه الحسنی، وكل ما من شأنه أن يوثق الصلة بالله، حتى يصبح الإيمان أساس حياة المجتمع الرسالي، وجهته

الأساسية التي تسنده في كل مراحل سعيه وحركيته، خاصة في أوقات الابتلاءات والصعوبات القاهرة.

ب- خلق الدافعية في العقيدة: ليست العقيدة أفكاراً مجردة، قابضة في زوايا الدماغ، بل لا بد أن تنتقل إلى مستوى تكون فيه قوة دافعة محرّكة لكيان الإنسان والمجتمع.

تمثل هذه الدافعية محصلة تفاعل النفوس مع الدين المستمد من الوحي، فمنه تستقي ماهيتها ومقاصدها في الوجود، وهو ما ينعكس إيجابياً على ملكات الأناسي الوجدانية والعقلية والجسمية؛ ممّا يؤهلها لأداء رسالتها وتبليغ أمانتها على أكمل وجه، ويحملها على التضحية والبذل والعطاء من أجل تحقيق مشروعها الاستخلافي في الحياة، دافعة لها نحو فضاءات السعي السني، والحركة الإيجابية، والفعالية الواقعية، محدثة انقلاباً هائلاً في التصورات، والقيم، والنظم.

ولتكوين الدافعية وفرّ النبي ﷺ شروطاً نفسية واجتماعية أحدثت التفاعل بين المجتمع ومبدئه الأصلي سببت فعّاليته وحركيته، تمثلت في الآتي:

- حضور الأنموذج القدوة، المتمثل في النبي ﷺ الذي تمثل تعاليم الإسلام في الفهم والعمل، ممّا جعله محورا يستقطب أفراد الأمة بغية تمثل نهجهم، والتأسي بسيرتهم.

- الاستمداد المباشر لحقائق الوحي دون وسائط، واستثمارها في التكوين الشامل للأناسي من النواحي الروحية والتربوية والعقلية.

- النسج على منوال القرآن الكريم في مخاطبة واستنفار قوى الأناسي وملكاتها المختلفة.

ج- تفعيل عقيدة المجتمع في أرض الواقع: إذا تحقق المجتمع بالعنصرين السابقين سيمضي قدما نحو ترجمة ذلك في سلوك حركي عملي. وهو ما تجلّى في المجتمع المؤسس الذي أرسى دعائمه النبي ﷺ، حيث كان نموذجا فعّالا في نقل تعاليم الوحي من النظرية إلى التطبيق وتجسيده واقعا معيشا، ممّا يعد مؤشرا على درجة الانسجام بين الفكر والسلوك، والحياة في جوّ التوافق والتناغم الذي يطوره ويرقيه ويسمو به في مدارج السالكين لسبل النبوة ومراقبها.

أثمر هذا التوافق والتناغم نموذجا حضاريا نوعيا -الحضارة الإسلامية- تميّز بالقدرة على تفعيل كليات الاعتقاد في أرض الواقع، وتنزيل كليات الاستخلاف التي تزوج بين السموّ الإيماني في مراتب العبودية، والرسوخ الفكري في منظومة التفكير، والترقي التعميري في عالم المادة على أساس المعرفة.

بعد استكمال النبي ﷺ لصياغة عقيدة الإنسان فهما وتفاعلا وتفعيلا، مضى قدما نحو توظيف عمل تربوي نوعي شامل يعدّ عنصرا معضدا، يرسّخ الإيمان في الأنفس، ويحافظ على الشعلة الإيمانية متوقّدة في القلوب. وهو ما من شأنه أن يستثمر كلّ قوى الإنسان -بوصفه نواة التغيير- المعرفية والوجدانية والجسمية موجّها إياها نحو أداء مهامه المنوطة به في الحياة.

٢- الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع:

يُقصد بالأخلاق منظومة المبادئ القيمة أو المعيارية التي ترسم للسلوك البشري -الفردى والمجتمعى- طريقه القويم بما ينسجم مع بواعث النهوض ومقاصده.

شكّلت السنّة النبوية أقوالاً وأفعالا وتقاريرات مادة استمدت منها أسس التربية ومبادئها وأهدافها، ووسائلها وأساليبها، باعتبارها القدوة الحسنة أو التطبيق العملي لكل التربية الإنسانية المتضمنة في القرآن الكريم، بحيث يمثل ﷺ واقعا حيا وسلوكا طبيعيا يزواج بين القول والفعل. قال النورسي في هذا السياق: «إن اتّباع السنّة النبوية المطهرة هو أجمل وألح طريق موصلة إلى مرتبة الولاية من بين جميع الطرق، بل أقومها وأغناها. والاتباع يعنى: تحري المسلم السنّة السنية وتقليدها في جميع تصرفاته وأعماله، والاستهداء بالأحكام الشرعية في جميع معاملاته وأفعاله. فإنّ أعماله اليومية ومعاملاته العرفية وتصرفاته الفطرية الاعتيادية تأخذ بهذا الاتباع شكل العبادة، فضلا عن أن اتّباع السنّة وتحري شرع الله في شؤون المؤمن جميعها يجعله في صحوة دائمة، وتذكر للشرع مستمر، وتذكّر الشرع هذا يؤدي إلى ذكر صاحب الشرع الذي يؤدي إلى تذكّر الله سبحانه، وذكر الله سبب لسكينة القلب واطمئنانه»^(٧١).

زواج النبي ﷺ في عمله التربوي بين عدّة أساليب مستلها في ذلك طريقة القرآن الكريم. نذكر من هذه الأساليب: التربية بالقدوة، والتربية بالوعظ والإرشاد والتذكير، والتربية بالترغيب والترهيب، والتربية بالقدوة الحسنة، والتربية بسرد القصص وضرب الأمثال.

وهنا ركّز النبي ﷺ في هذه العملية بالأساس على القيم التي تدعّم تلاحم شبكة علاقات المجتمع في اتّجاه تحقيق الهدف المرسوم، حيث تمثّل

مسلك الإسلام في إرساء دعائم قيم الوحدة بين أفراد الأمة على أساس منهج متميز يضبط سلوك الفرد في توازن بين الكوابح والمحفزات^(٧٢)، مثل: توظيف أسلوب الترغيب والترهيب، الذي يزيّن لأفراد المجتمع طريقاً سهلاً موصلاً لتحقيق السعادة في الدارين، ونيل رضوان الله عن طريق محبة الآخرين، يتجلى هذا في قوله ﷺ: (لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوْ لَا أَدُلُّكُمْ عَلَى شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ)^(٧٣). وقوله أيضاً: (المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مِنْ كُرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)^(٧٤).

فجعل الإسلام شيوع المحبة المتبادلة بين أفراد المجتمع، أمانة على تحقق الإيمان، مرتباً عليها دخول الجنة، وهو ما يشكل حافزاً يدفع المسلم نحو التفاعل الإيجابي مع مجتمعه عبر مد جسور المودة والرحمة مع أفرادها، مستحضراً المسؤولية المنوطة به تجاههم، مما يقوّي أواصر المحبة والتسامح والتناصح والإيثار، وكفّ الأذى بين أفراد المجتمع، مدّعماً نظم المجتمع ومبرزاً معالم الانضباط فيه.

لقد شكّل الرسول ﷺ لحمة المجتمع في المدينة بالروح القرآنية، فكانت هذه العصبة منّة عظيمة من الله تعالى، حيث قال في محكم تنزيله: ﴿لَوْ أَنفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا آَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ آَلَفَ بَيْنَهُمْ﴾^(٧٥). وقد اتّخذ الرسول عليه الصلاة والسلام العقيدة الإسلامية أساساً لتوحيد المجتمع الذي كان مشكلاً من المهاجرين والأنصار، بحيث أصبحت أفكارهم ومشاعرهم وتنظيم علاقاتهم واحدة. وهذا الأساس العقدي هو الذي ظلّ يقيم عليه بنيانه طوال ثلاث عشرة سنة.

أثمرت هذه الصياغة العقدية بناءً اجتماعياً شامخاً ظهرت مآثره في حياة الفرد كما في حياة الجماعة^(٧٦)، فتحوّل المجتمع كما وصفه المفكر مالك بن نبي إلى «النموذج ذي الحجر الواحد»^(٧٧)، الذي اتخذ صورة واحدة، كما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَشَبَكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ)^(٧٨).

ولا شك أن أهم آلية فعّالة وظّفها النبي ﷺ في بناء المجتمع المسلم هي المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، حيث كان حريصاً على إقامة روابط خاصة بينهم يواسي بعضهم بعضاً، ويعوض بعضهم بعضاً ما فقد من المال والأهل والأصحاب نتيجة إسلامه أو هجرته...، وكانت هذه المؤاخاة للارتفاق والمساعدة والتفقد والتعليم والتعاون على الخير^(٧٩). وقد كانت هذه المؤاخاة بعد خمسة أو ثمانية أشهر أو أقل أو أكثر من مقدمه ﷺ المدينة^(٨٠).

لقد آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلاً، نصفهم من المهاجرين، ونصفهم الآخر من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت، دون ذوي الأرحام، إلى حين غزوة بدر، في رمضان من السنة الثانية للهجرة^(٨١).

وبتفعيل النبي ﷺ لقيمة المؤاخاة في المجتمع المسلم حقق مجموعة من الأهداف الخيرة التي لعبت دوراً حاسماً في التمكين للدولة الإسلامية الفتية، نذكر منها ما يأتي:

أ- شد أزر المؤمنين بعضهم ببعض:

إنّ توطيد العلاقات بين أفراد المجتمع المسلم على أساس الأخوة الإيمانية يزيد النسيج الاجتماعي متانة، ممّا يجعله في مأمن من حدوث التراخي في وحدته العضوية؛ باعتبار أن رابطة الإيمان من أقوى عوامل التماسك الاجتماعي. يقول عليه الصلاة والسلام: (حقّت محبتي للمتحابين

فِيّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِّلْمُتَوَاصِلِينَ فِيّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِّلْمُتَنَاصِحِينَ فِيّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِّلْمُتَزَاوِرِينَ فِيّ، وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِّلْمُتَبَاذِلِينَ فِيّ، الْمُتَحَابُّونَ فِيّ، عَلَى مَنَابِرٍ مِّنْ نُّورٍ يَغْبِطُهُمْ بِمَكَانِهِمُ النَّبِيُّونَ وَالصَّدِيقُونَ وَالشَّهَدَاءُ^(٨٢).

ب- ذهاب وحشة غربة المهاجرين:

كَانَ الْغَرَضُ مِنَ الْمُوَاخَاةِ ذَهَابَ وَحْشَةِ غُرْبَةِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ فَارَقُوا دِيَارَهُمْ وَأَهْلَهُمْ، وَتَرَكَوا أَمْوَالَهُمْ وَمَتَاعَهُمْ نَصْرَةً لِلدَّعْوَةِ، وَهُمْ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِقَوْلِهِ: (إِنَّ الدِّينَ بَدَأَ غَرِيبًا، وَيَرْجِعُ غَرِيبًا، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ الَّذِينَ يُصْلِحُونَ مَا أَفْسَدَ النَّاسُ مِنْ بَعْدِي مِنْ سُنتَيَّ)^(٨٣).

ج- تلبية حاجة الأنصار إلى التفقه في الدين:

إِنَّ لِلْمُوَاخَاةِ مَقَاصِدَ أَبْعَدَ وَأَشْمَلَ، فَلَا بَدَّ لَتَلْبِيَةِ حَاجَةِ الْأَنْصَارِ إِلَى التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، مِنَ الْقِيَامِ بِمُوَاخَاةِ بَيْنِ صَحَابِي قَطْعِ شَوْطَا كَبِيرٍ فِي التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ، وَاسْتِنَارَ بِصَحْبَةِ النَّبِيِّ ﷺ زَمَنًا غَيْرَ يَسِيرٍ، وَصَحَابِي حَدِيثِ عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ يَفْتَقِرُ إِلَى تَفَقُّهِ أُمُورِ دِينِهِ. وَعَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الْإِيمَانِيَّةِ يَحْصُلُ التَّكَامُلُ فِي مُمَارَسَةِ التَّدِينِ تَعْلِيمًا وَتَعَلُّمًا. يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَى خِزْفٍ ثُمَّ تَذَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾^(٨٤).

د- تحقيق القدوة الصالحة:

يَقُومُ التَّدِينُ الصَّحِيحُ عَلَى أَسَاسِ الْقُدْوَةِ الصَّالِحَةِ، لِذَلِكَ كَانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَتِمَّ تَوْزِيعُ الْمُهَاجِرِينَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ عَلَى عَشَائِرِ الْأَنْصَارِ يَعِيشُونَ مَعَهُمْ حَيَاتِهِمْ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا، لِيَتِمَّكَنُوا مِنْ صِنَاعَةِ الْقُدْوَةِ الْحَسَنَةِ، وَالْوَحْدَةِ التَّرْبَوِيَّةِ النَّبَوِيَّةِ بَيْنَ الْجَمِيعِ، وَلَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُ ذَلِكَ بَغَيْرِ الْعِيشِ الْمَشْتَرَكِ الَّذِي يَتَجَاوَزُ الْمَصَاعِبَ الَّتِي تَفْرُضُهَا مَشْكَالَاتُ الْمَأْوَى وَالتَّكَسُّبِ وَالصَّحْبَةِ، فَبِالْمُوَاخَاةِ أَصْبَحَ الْمُهَاجِرُ أَخًا لَا يَبْعُدُهُ عَنْ أَخِيهِ الْأَنْصَارِيِّ الْعَادَاتِ وَالتَّقَالِيدِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، وَغَيْرِهَا.

هـ- تحقيق التكافل والتعاون الاجتماعي:

من مقاصد عملية المواخاة تحقيق التكافل والتعاون بين الأنصار والمهاجرين، في مختلف صوره، وهو التكافل الذي يعزز قيم الإيثار والتضحية ونكران الذات^(٨٥) في سبيل تحقيق المقاصد العليا للأمة الإسلامية. نذكر من أبرز الصور المشرقة لتفعيل قيمة التكافل بين الأفراد في المجتمع المسلم ما يأتي:

- بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف:

جاء في صحيح البخاري قال: (حَدَّثَنَا قُتَيْبَةُ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَعْفَرٍ عَنْ حُ مَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ أَنَّهُ قَالَ قَدِمَ عَلَيْنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَآخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ وَكَانَ كَثِيرَ الْمَالِ فَقَالَ سَعْدٌ قَدْ عَلِمْتُ الْأَنْصَارُ أَنِّي مِنْ أَكْثَرِهَا مَالًا سَأَقْسِمُ مَالِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ شَطْرَيْنِ وَلِي امْرَأَتَانِ فَاَنْظُرْ أَعْجَبَهُمَا إِلَيْكَ فَأُطْلِقَهَا حَتَّى إِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجَتْهَا فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ فَلَمْ يَرْجِعْ يَوْمَئِذٍ حَتَّى أَفْضَلَ شَيْئًا مِنْ سَمْنٍ وَأَقِطٍ فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهِ وَضْرٌ مِنْ صُفْرَةٍ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَهْمٌ قَالَ تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ مَا سَقَيْتَ إِلَيْهَا قَالَ وَزَنَ نَوَآةً مِنْ ذَهَبٍ أَوْ نَوَآةً مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ أَوْلَمْ وَلَوْ بِشَاةٍ)^(٨٦).

- مشاركة الأنصار مع المهاجرين في أشجار النخيل:

روى البخاري: (حَدَّثَنَا الْحَكَمُ بْنُ نَافِعٍ أَخْبَرَنَا شُعَيْبٌ حَدَّثَنَا أَبُو الزَّ نَادٍ عَنْ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَتِ الْأَنْصَارُ لِلنَّبِيِّ ﷺ أَفِيسْمَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا النَّخِيلِ قَالَ لَا فَقَالُوا تَكْفُونَا الْمُؤَنَةَ وَنَشْرُكُمْ فِي الثَّمَرَةِ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا)^(٨٧).

فهنا اقترح الأنصار أن يكون نخل المدينة مشاركة مع إخوانهم المهاجرين، قالوا: لا، قال: تكفوننا المثونة، وتشاركوننا في التمر، الأنصاري عرض أن يملك المهاجر نصف أشجار النخيل، قال: لا، نحن نعتني بهذه الأشجار بجهدنا، أعطونا بعض الثمار، ولتبق الأشجار لكم. وهذا يدل على عزة نفوسهم التي تأنف الهوان وأن تكون عالية على الآخر.

و- تحقيق التكامل والتعاون بين المهاجرين والأنصار:

من مقاصد المؤاخاة تحقيق التكامل والتعامل بين المهاجرين والأنصار، وهذا يقتضي لا أن تكون المؤاخاة بين متماثلين، فكانت بين مهاجر له سبق في العلم والتدين وأنصاري حديث عهد بالإسلام؛ لتحقيق القدوة الحسنة والتعلم، وكانت أيضا بين الغني والفقير، وبين الصحيح والمريض. ولذلك كانت المؤاخاة تعاوننا خلافا بين المسلمين كل واحد يكمل جوانب النقص في الآخر، وهذا المنهج يحمل في طياته عبقرية التخطيط النبوي.

استمرت هذه المؤاخاة حتى بعد وفاة النبي ﷺ، فكان كل صحابي يشعر نحو من أخى الرسول ﷺ معه بشعور خاص، حتى أن بعضهم قد أوصى بجزء من تركته للآخر عند وفاته^(٨٨). وبعد الفتوح وانتشارهم في الأرض ظلوا يتراسلون ويسأل بعضهم عن بعض ما بين فارس والشام وغيرهما استمرارا لهذه المؤاخاة التي أرسى دعائمها النبي ﷺ على أساس الإيمان^(٨٩).

يتبين مما سلف فعالية القيم النبوية المستمدة من التوحيد في تشكيل لبنة المجتمع المسلم الذي تأسس في المدينة، وهو النموذج المثالي الذي تستلهم منه الأمة الإسلامية عناصر الإصلاح والتجديد لبعث الحياة فيها من جديد، فما أحوجنا إلى هذه القيم في عصر هيمنت فيه النزعة المادية وأصبحت موجهة ومبرجة لحياة الإنسانية جمعاء.

وهذا السمو الإيماني الروحي استحق مجتمع المدينة ثناء من الله جل جلاله، فقال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَالَّذِينَ بَبَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٩٠). ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «الْأَنْصَارُ لَا يُحِبُّهُمْ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُمْ إِلَّا مُنَافِقٌ. مَنْ أَحَبَّهُمْ فَأَحَبَّهُ اللَّهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَأَبْغَضَهُ اللَّهُ»^(٩١).

ولم يقتصر عمل النبي ﷺ على تعزيز نسيج المجتمع، بل وظف آليات وقائية أصيلة مستمدة من تعاليم الإسلام^{(٩٢)*}، منوطة بها حماية الشبكة من محاولات إحداث شرخ في النسيج الاجتماعي للأمة. تجلّت مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقدياً، وتربوياً، ومنهجياً، في تمثّل نوعي للحضارة، من حيث التحقق بمبادئها فكرياً، ووجدانياً، وسلوكياً، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا أفضى إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتوافق والتناغم في أنساق علاقته بالله (تبارك وتعالى)، والإنسان، والكون، في توازن بين السمو الإيماني الأخلاقي، والراقيّ التعميري المادي.

٣- الصياغة التعبديّة التشريعية:

حرص النبي ﷺ على أن يمثل مجتمعه للتعليمات القرآنية في جانب العبادات، حيث كان يحث أصحابه على أدائها في أرقى صورة، ونهاهم عن التقصير فيها؛ لأنها الوسيلة التي تعقد الصلة بين العبد وربّه، وهي المسلك الذي يقصد تزكية نفس الإنسان، وبلغها مقامات إيمانية رفيعة. نذكر من الشواهد في ذلك على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

وعن عبد الله بن سلام أن النبي ﷺ قال: (أيها الناس، أفشوا السلام،

وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام) (٩٣).

كذلك حرص النبي ﷺ على حث أمته على أداء صلاة الجماعة في المسجد، حيث جعلها نظاما جماعيا لتراص الصفوف في المجتمع المسلم، قاصدا أن يكون الخضوع لله تعالى ظاهرة عامة في المجتمع، لا مجرد مسلك فردي خاص فحسب، لذا إقامة صلاة الجماعة من أهم الأعمال التي تبرز هذه الظاهرة وتحافظ على دوام تحقيقها؛ لما فيها من ترسيخ لوحدها وتقوية لنسيجها الاجتماعي، وتطعيمها من الأوبئة التي تبعثها على التفرق والتشردم (٩٤).

روى الإمام مسلم في صحيحه عن عبد الله بن مسعود قال: (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غَدًا مُسْلِمًا فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلَاءِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ حَيْثُ يُنَادِي بِهِنَ - يَعْنِي: فِي الْمَسَاجِدِ - فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لِنَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ سُنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ لَتَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ فَيُحْسِنُ الطَّهَوْرَ ثُمَّ يَعْمَدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلَّا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ حَسَنَةً، وَيَرْفَعُهُ بِهَا دَرَجَةً، وَيَحِطُّ عَنْهُ بِهَا سَيِّئَةٌ، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاقِ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهْدَى بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ) (٩٥).

وركز النبي ﷺ في مسلكه للصياغة التشريعية للمجتمع المسلم على عبادة الزكاة، بوصفها وسيلة محورية في تحقيق التلاحم الاجتماعي وزرع روح المسؤولية في نفوس الأغنياء تجاه الفقراء، لذا رغب النبي ﷺ في توزيع الصدقات والزكوات على الفقراء والمساكين تحقيقا لقيم التكافل والتآزر بين مختلف فئات المجتمع.

قال ﷺ: (ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الْإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ) ^(٩٦). وَقَالَ أَيْضًا ﷺ: (ثَلَاثٌ أَقْسَمَ عَلَيْهِنَّ: مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلَا ظَلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمَةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عِزًّا، وَلَا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ) ^(٩٧).

وهكذا تحقق المقصد من امتثال المجتمع المسلم للعبادات والتشريعات، بتوحيد مصدر التلقي، وتمتين شبكة علاقاته الاجتماعية، وتوجيهه صوب غاية واحدة هي العبودية المطلقة لله تعالى، التي يدخل في رحابها تفعيل كليات الاستخلاف من التسخير والتعمير.

٤ - الصياغة المعرفية العلمية:

هياً النبي ﷺ المناخين النفسي والعقلي اللذين تنبّت فيهما المعرفة العلمية، بحيث تترسخ أصولها، وتمتد فروعها لتثمر رقياً معنوياً ومادياً في كل شعاب الحياة.

ومن هنا اعتنى النبي ﷺ بتنمية القدرات المعرفية والعلمية لأصحابه التي قوامها النظر والتأمل والتفكير والتدبر، مستلهاً من القرآن الكريم مسلماً يقوم على الإعلاء من قيمة العقل الذي يعد أبرز ملكة أودعها الله في الإنسان جاعلاً إياها مناط التكليف. نذكر من أبرز ملامح التجربة النبوية في تنمية الجانب المعرفي والعلمي في المجتمع ما يأتي ^(٩٨):

أ- تكوين العقلية العلمية: يقوم على مجموعة من الأسس هي:

- عدم قبول الدعوى من غير دليل مهما كان مصدرها: الدليل هو البرهان النظري في العقليات. قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(٩٩)، وصحة الرواية وتوثيقها في النقليات قال تعالى: ﴿أَتُؤْنَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ^(١٠٠).

- رفض الظن في كل موضع يطلب فيه اليقين والجزم والعلم الموثوق: جاء في الحديث الصحيح: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث) (١٠١).
- توظيف القواعد العلمية في الحكم على الظواهر الإنسانية والكونية بهدف الوصول إلى حكم صحيح فيها: يُستشف من خلال تتبع سيرة النبي محمد ﷺ أنه أول إنسان في العالم طبق المنهج العلمي، حيث أخضع ظاهرة نفسية للملاحظة المنهجية، كما يفعل علماء النفس في العصر الحديث، متوسلاً بقواعد النظر العلمي القائمة على الملاحظة، ثم الفرضية ثم الوصول إلى إصدار الحكم. طبق هذا المنهج حين أراد التأكد من شخصية ابن صياد هل هو حقيقة المسيح الدجال أم لا (١٠٢).
- رفض الأحكام المبنية على العواطف والأهواء والاعتبارات الشخصية: يكون هذا باستصحاب الحياد والموضوعية، وكذلك التعامل الواقعي مع طبائع الأشياء وقوانين الوجود أيًا كانت نتائجها. قال تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (١٠٣) (١٠٤).
- الثورة على الجمود والتقليد، والتبعية الفكرية للآخرين: سواء كانوا من الآباء والأجداد أم من السادة والكبراء، أم من العامة والجماهير. جاء في السنة تحذير من اتباع الجمهور وإن كانوا على خطأ، وإدانة لعقلية من يرضى لنفسه أن يكون تابعا، وقد خلقه الله سيداً قال النبي ﷺ: (لَا تَكُونُوا إِمْعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنًا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطَنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلَا تَظْلِمُوا) (١٠٥).
- إن هذا الموقف الأخلاقي الذي يتميز باستقلال الشخصية في السلوك، يدعو الإسلام إلى مثله في الفكر أيضا.
- ج- نشر التعليم ومحاربة الأمية: من التعاليم التي تُهيء تربة المجتمع لظهور التفكير والبحث العلمي نشر التعليم والحد من الأمية.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حمل معه رسالة العلم والتعليم، ولقد كان الصحابة يتلون قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرَفِعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠٦﴾، فيدركون أسباب الرفعة والرقى ونيل الدرجات في الدنيا والآخرة.

وكان الرسول ﷺ يأمر المتعلم بتعليم الآخرين، فقد حث وفد عبد القيس على تعليم قومهم، فقال لهم: (ارجعوا إلى أهلكم فاعلموهم) (١٠٧). وقد قال الرسول ﷺ: (لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا فَاسْلَطَهُ عَلَى هَلَكْتِهِ فِي الْحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ حِكْمَةً فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا) (١٠٨).

والناظر بتمعن في التجربة النبوية سيجد اهتماما كبيرا بقضية محاربة الأمية التي كانت منتشرة في جزيرة العرب. وحينما أتحت للنبي ﷺ فرصة لتعليم بعض المسلمين الكتابة والقراءة، اغتنمها ولم يدعها تفوت، وذلك في غزوة بدر، حيث كان بعض أسرى قريش ممن يعرفون الكتابة والقراءة، فجعل فداء الواحد منهم ليخرج من أسرهِ أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين الكتابة (١٠٩).

د- تعلم اللغات عند الحاجة: خاصة إذا كانت وعاء لعلم يؤخذ أو حكمة تقتبس، كما تكون الحاجة ماسة إلى تعلم اللغات لتبليغ الدعوة وإقامة الحجة على الناس. وهنا كان النبي ﷺ حريصا هذا الجانب، فكان من أصحابه من يعرف الفارسية والرومية، والحبشية.

ولما رأى حاجته لمعرفة اللغة السريانية التي يكتب بها اليهود أمر كاتب وحيه زيد بن ثابت، ليتقنها قراءة وكتابة، ليستغني بها عن الوسطاء من اليهود. قال زيد: (أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ أَتَعَلَّمَ لَهُ كَلِمَاتٍ مِنْ كِتَابِ يَهُودَ، قَالَ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا آمَنُ يَهُودَ عَلَى كِتَابِي، قَالَ: فَمَا مَرَّ بِ نِصْفِ شَهْرٍ حَتَّى

تَعَلَّمْتُهُ لَهُ قَالَ: فَلَمَّا تَعَلَّمْتُهُ كَانَ إِذَا كَتَبَ إِلَى يَهُودَ كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ كِتَابَهُمْ^(١١٠).

د- الحملة على الأوهام والخرافات: عشعت في البيئة الجاهلية الأوهام والخرافات، حيث كانت سوقا مزدهرة يتحكم فيها العرافون والكهنة والسحرة، فجاء الإسلام وأغلق بقوة هذه السوق، معلنا بوضوح أن السنن في الكون لا تتبدل، وأن الغيب لا يعلمه إلا الله، وأن الخير كل الخير في احترام السنن، ورعاية قانون الأسباب والمسببات. (عن المغيرة بن شعبة قال كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ يوم مات إبراهيم، فقال الناس كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم فصلوا وادعوا الله»)^(١١١). وبذلك طارد النبي ﷺ الأوهام التي شاعت عند الناس في الجاهلية، مثبتا أن الكسوف ظاهرة كونية تجري على وفق سنة أودعها المولى جل جلاله في الكون.

ومن هذه الشواهد أيضا ما نُقِلَ عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات)^(١١٢). وقال ﷺ: (مَنْ أَتَى عَرَافًا، أَوْ سَاحِرًا، أَوْ كَاهِنًا فَسَأَلَهُ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)^(١١٣).

ولا شك أن هذه التعاليم ستهيئ أفضل مناخ نفسي وعقلي واجتماعي لقيام فكر علمي، وحياة علمية. وقد أثمرت هذه القواعد العلمية المتضمنة في القرآن والسنة بناء حضاريا شامخا وازن بين السمو الإيماني الأخلاقي والرفقي التعميري المادي.

٥ - الصياغة السَّنيَّة:

لا يقتصر استمداد الأمة من التجربة النبوية على التَّصورات والقيم والتَّشريعات فحسب، بل هناك جوانب مهمة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمدخل السَّني للتمكين، حيث تضمَّنت التجربة النبوية توجهات قيمة مستلهمة من المنظور القرآني تصب في منحى صناعة وعي المجتمع بأهمية السنن بوصفها حجر الزاوية في بناء الصَّرح الحضاري للأمة.

لا شك أن التجربة النبوية قد عززت الوعي بالسنن في الفرد والمجتمع بما تضمَّنته من توجهات قولية وفعلية؛ مما يؤكد موقعها المفصلي في معادلة التمكين للأمة.

إن نظرة متفحصة في التجربة النبوية لبناء مجتمع الصحابة الذي كان وقود النصر في التمكين للدولة الإسلامية، يدرك منها بأن فقها نبويا عظيما في الإعداد والبناء على وفق خطة تراكمية واضحة المعالم والأهداف، وجليّة الوسائل والأدوات، كانت الممهد للوصول إلى القابلية للنصر التي تسبق العطاء الرباني بالإمداد. فالقانون الرباني يؤكد ارتباطاً وثيقاً بين ثنائيات: الاهتمام والهدى، والإعداد والإمداد، والجهد والتمكين، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا...﴾ الآية ﴿١١٤﴾.

أيقن الرسول الله ﷺ أن معيار النصر على مستوى الدول والمجتمعات لن يكون إلا بالاستثمار في بناء الإنسان بناء يغيّره بطريقة لا رجعة فيها وتأهيله اجتماعياً وجعله لبنة للبناء القوي لمجتمع الريادة وصناعة جيل التمكين.

ومن هنا إذن، انبنت التَّجربة النبوية في التمكين للأمة على الإنسان بوصفه العنصر الجوهري، وحجر الزاوية في إحداث عملية التغير، والشرط النفسي في كل تغيير اجتماعي^(١١٥)، ممثلاً بالقانون القرآني الذي ورد

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ.. الآية﴾^(١١٦).
لقد قام النبي ﷺ بصياغة جذرية لشخصية المسلم، بداية بتصفيتها من كل الشوائب والمعوقات التي كبّلت طاقاته وعطلت إرادته وفاعليته في الحياة، وأخبت جذوته الإيمانية، ثم وفرّ جوار روحيا ملائما حرّره من قيوده، وأرشده إلى سبل التمكين في الأرض.

قوّمت هذه الصياغة رؤية الإنسان والمجتمع للكون والحياة، وأعادت برمجة نظام تفكيره ومعرفته، لتثمر في آخر المطاف عقلا فاعلا منضبطا بالنواميس الشرعية الكونية، ومتناغما مع غاياته ومقاصده.

وعقب وصول الرسول ﷺ إلى يثرب توجّب عليه تحويل الطاقة المبعثرة والكامنة للأفراد إلى بناء متكامل وشامل يسمو بالمجتمع روحيا وأخلاقيا، ويرتقي به تعميريا وماديا، على وفق تصوّر الوحي وقيمه وتشريعاته، وأنموذجه الواقعي الحي سيرة النبي ﷺ، قال عز وجل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾^(١١٧). ثم شرع عليه الصلاة والسلام في وضع الأسس المدنية لبناء الدولة الإسلامية؛ مثل بناء المسجد الجامع. كما تقوّت الرابطة الاجتماعية بعد ذلك بعملية التآخي بين الأوس والخزرج وبين المهاجرين والأنصار لحاقا، وصولا إلى وضع ميثاق أشبه بالدستور، يوضح فيه طبيعة العلاقات داخل المجتمع الناشئ؛ بين المسلمين بعضهم مع بعض من ناحية، وبينهم وبين غير المسلمين المقيمين معهم في المجتمع نفسه من ناحية أخرى.

والمتفحص للسيرة النبوية الشريفة سيرصد إشارات كثيرة تؤكد على محورية السنن في التجربة النبوية للتمكين للأمة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

أ- المراجعة والتّقويم: يُقصد بها التفكير في الأمور قبل الإقدام عليها، مع أخذ الحيطة والحذر، والاعتبار بما سلف من الأخطاء والعثرات، وهذا كله متضمّن في قوله ﷺ: (لا يُلدَغ المؤمن من جحرٍ واحد مرتين) (١١٨).

ب- بذل الأسباب مع توفير الإمكانات للوصول إلى المقاصد المتوخاة: وهذا مستوحى من قوله ﷺ: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خيرٍ، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز).

هـ- توظيف أسلوب الإحصاء: يعدّ هذا من أبرز دلال الطريقة العلمية في معالجة الأمور، فقد روى الشيخان عن حذيفة بن اليمان، قال كنا مع رسول الله ﷺ، فقال: (أحصوا لي: كم يلفظ الإسلام، وفي رواية البخاري أنه قال: اكتبوا لي: من يلفظ بالإسلام من الناس، قال حذيفة: فكتبت له ألفاً وخمسمائة رجل) (١١٩). «فهذا إحصاء كتابي يراد تدوينه وتثبيته، وذلك ليعرف عليه الصلاة والسلام، مقدار القوّة البشرية الضاربة التي يستطيع بها مواجهة المتربّصين بالدعوة، ولهذا كان الإحصاء للرّجال فقط، أي القادرين على القتال» (١٢٠).

ويتجلى أيضاً في تنفيذ النبي ﷺ لما أشاره عليه سعد بن معاذ عندما اقترح على النبي ﷺ بناء عريش له، يكون فيه مشرفاً على المعركة من بعيد فأثنى عليه خيراً وبادر بالتنفيذ. والأمر نفسه حدث في غزوة الأحزاب عندما أشار سلمان الفارسي على النبي ﷺ بحفر خندق حول المدينة، فقبل النبي مشورته وبادر بتنفيذها (١٢١).

تبين هذه الشواهد مقدار عناية النبي ﷺ بالسنن بوصفها مدخلاً جوهرياً للتمكين في الأرض، كما تظهر حرصه على ترسيخ الوعي السنني في صف المجتمع المسلم الفتّي.

يتضح مما سلف البعد الشمولي والتكاملي للتجربة النبوية التي استوفت

كل متطلبات بناء المجتمع، ناقلة المنظور القرآني من النظرية إلى التفعيل في الواقع.

ثالثاً: التجربة النبوية في بناء المجتمع - خصائصها ومميزاتها - في ضوء القرآن الكريم وما صح من المرويات:

اتّصفت التجربة النبوية في بناء المجتمع التي جسدت المنظور القرآني واقعاً متحققاً في الحياة بعدة خصائص وعناصر تميّز، نذكر منها ما يأتي:

١ - الشمولية في النظر: المقصود استيعابها في عملية التنزيل في المجتمع لكل متطلبات بنائه منطلقاً، ومنهجاً، ومقصداً. وهو ما يتجلّى في عدة مناحٍ، نذكر منها ما يأتي:

أ- من حيث مصادر بناء المجتمع: التي ارتكزت على المرجعية الإسلامية بكلياتها العقدية والتشريعية والقيمية، فشكّلت المنطلق والمنهج والمقصد في عملية بناء المجتمع.

ب- من حيث استيعاب استعدادات المجتمع: تميزت بالقدرة على المخاطبة والاستقطاب لأفراد المجتمع بكل أطرافه وتنوعاته الثقافية والاجتماعية، كما راعت مجموع ملكات الإنسان وقواه المودعة فيه، بوصفه النّواة الأولى للمجتمع.

ج- من حيث المواثيق المكلف بها: وتتمثل في تفعيل كليات الاستخلاف وفق منهج الله في الأرض، الذي يعدّ بمثابة بوصلة توجيهه، يسير المجتمع وفقها في مسار أفقي يتعلق بروابطه الاجتماعية والكونية، وفي مسار تصاعدي يتعلق بروابطه العلوية الإلهية.

د- من حيث الإحاطة بمتطلبات بناء المجتمع: تشخيصاً لأدوائه، وعلاجاً لمشكلاته وتصويباً لمساره، ملياً لكل تطلعاته الروحية، ومذلاً لحركيته التسخيرية التعميرية.

هـ- من حيث المنهج المرسوم له والهدف المتوخى: سعت هذه التجربة إلى ضبط حركية المجتمع على أساس منظومة متكاملة تحوي أرضية فكرية، وقيم أخلاقية، وعناصر منهجية، تشكّل بمجموعها عامل بعث وتحريك للطاقات الاجتماعية في توافق وانسجام، تتناغم فيه حركية الفرد، مع النشاط الاجتماعي، من أجل تحقيق مقصد أساسي هو إقامة أنموذج حضاري متميّز، يزاوج بين السموّ الإِباني والأخلاقي، والترقيّ التعميري المادي، مفعلاً مرجعية الأمة في أرض الواقع.

٢- التكاملية في أنساق العلاقات: تميّزت التجربة النبوية في عملية التدبير بتناسق بنائي، وترابط وظيفي تكاملي بين وحداته، ابتداء من الإنسان، بوصفه النواة الأولى لعملية التغيير، ثم المجتمع في مختلف أنساق علاقاته العلوية الإلهية وروابطه الأفقية الإنسانية والكونية، وصولاً إلى بناء الصّرح الحضاري، الذي يمكّن الأمة من تبوّء مرتبة الريادة والشهود الحضاري.

٣- الفعّالية الواقعية: من عناصر التميّز في هذه التجربة صلتها الوثيقة بالواقع ومتطلّبات استيعابه وتحقيق تطلّعاته، بل إن من مقاصدها الكبرى التفاعل مع الواقع -الإنساني والكوني- هيمنة وإشرافاً، وتصويبا. وعلى هذا الأساس اتّجه منظورها إلى واقع الإنسان بوصفه فرداً وواقعه بوصفه عضواً في المجتمع، محاولة تشخيص مشكلاته وعلاجها، وفقه متطلّباته، وتلبية احتياجاته، وترتيب علاقاته، وتنظيم قوانينه العامة والخاصة. وعلى هذا لم تنظر للتعاليم القرآنية على أنها مجرد مبادئ مثالية نظرية، بل هي مثل وقيم عليا منسجمة مع العمل والتطبيق، وتمثل التجربة النبوية خير شاهد على قابليته للتنزيل وصوابية البديل الذي قدمه للإنسانية جمعاء.

كذلك تميّزت هذه التجربة بالقدرة على وضع المجتمع في دائرة الحركة والعطاء والتأثير، مانحة إياه طاقة وقوة حركية دافعة نحو السمو والتكامل في عالمي المادّة والروح. كما بيّنت استلهاما من التعاليم القرآنية المداخل المناسبة لبعث الفعالية في حياة المجتمع، عبر استثمار الطاقات المذخورة فيه وتحويلها إلى حركية إيجابية، وفعالية واقعية، تسعى وتضرب في الأرض في إطار ممارسة مهام الخلافة.

٤ - الفقه العميق بمدخل التغيير، والتدرّجية في عملية البناء:

خبر هذا المنظور وتجربته التنزيلية المعادلة المناسبة لبناء المجتمع، وهو ما تجلّى في امتلاك القدرة على التعامل مع واقع تداخلت فيه السنن الاجتماعية مع السنن الكونية.

يتطلّب تفعيل عملية التغيير في هذا المجال المعقّد، فقها عميقا بالمعادلة المناسبة للتكيّف الإيجابي مع تحديات الواقع، وحسن التعامل مع العوائق والمثبّطات بإيجاد المساحات الضيقة، والمناورة فيها لخدمة رسالة المجتمع، وتجنّب المصادمات التي تهدّم المنجزات.

كما يتطلّب مراعاة التدرّج في عملية التغيير، خاصة إذا تعلّق الأمر بتغيير التصورات والمفاهيم وأنماط التفكير، ممّا يتطلّب جهودا نوعية ممنهجة، وحكمة ومصابرة لتحصيل الثمرة المرجوة، وهي التكوين الشامل والنّوعي للإنسان الذي يتحمّل عبء بناء المجتمع الذي يعد مدخلا للمتمكين الحضاري في الأرض.

نذكر من نماذج تمثّل هذا المنظور لمبدأ التدرج النهج الذي سلكه القرآن الكريم في تأسيس منظومة تفكير الإنسان الجاهلي، فقد تنزّل الوحي في مجتمع لاحت فيه ملامح السذاجة والبدائية في التصور والتفكير والمشاعر والمشكلات^(١٢٢)، وهو ما يمكن ملاحظتها «في طريقة معارضتهم لدعوة

النبي ﷺ بادعائهم أنه مجنون، قال تعالى في شأنهم: ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ (١٢٣)، وهو اتهام لا حكمة فيه ولا براعة، فهو أسلوب من لا يجد إلا الشتمة الغليظة يقولها بلا تمهيد ولا برهان، كما يفعل السذج البدائيون» (١٢٤).

ولهذا سعى القرآن الكريم لأن يتدرج بهم في بناء تفكيرهم مراعيًا لمستواهم العقلي، ومخاطبًا إياهم بما تفهمه عقولهم إلى أن أوصلهم في مدة وجيزة إلى فهم «قانون السببية، والقانون التاريخي، ومنهج البحث الحسي التجريبي» (١٢٥)، وهو الفهم الذي يعدّ مدخلا لامتلاك البشرية مفاتيح التمكين في الأرض، ف«الطاقة الفكرية التي وهبها الإنسان، وهبها ليقوم بالخلافة في هذه الأرض، فهي موكلة بهذه الحياة الواقعة القريبة، تنظر فيها، وتعمّقها وتقصّها، وتعمل وتنتج، وتنمي هذه الحياة وتجمّلها» (١٢٦)، وما كان ذلك ليتحقّق لولاها.

٥- الأخلاقية: من المقاصد الأساسية لهذا المنظور وتجربته التنزيلية تعزيز القيم الاجتماعية وصيانتها، وتكميل المبادئ الأخلاقية المشتركة بين الأمم والثقافات والحضارات، كالعدل، والحرية، والمساواة، واعتمادها بوصفها منطلقات أساسية للإصلاح والبناء في الدائرة الإسلامية، وتقويم الانحراف الحاصل في الدائرة الإنسانية، ولهذا تعدّ منظومة الأخلاق الروح السارية في المجتمع المنشود.

٦- السننية: تُعدّ خاصية السننية عنصرا متجذرا في هذا المنظور وتجربته التنزيلية، تجلّت في التزامه الصّارم بالنواميس والقوانين التي تحكم عملية تغييره، تشخيصا لعوائقه وجذوره، وتصحيحا وتدعيما لمساره، وبهذا الانضباط يعدّ هذا المنظور فقه وتسخير السنن بشقيها الاجتماعي والكوني مفتاحا مهمّا لعملية التمكين الحضاري، حفاظا على منجزاته، وديمومة لريادته.

٧- المقصدية: تميز هذا المنظور وتجربته العملية بسعة أفق في استشراف مسار بناء المجتمع، حيث كان مقصده بناء صرح حضاريّ نوعيٍّ في قوة أسسه ومتانتها، وشمول مفرداته وتكاملها، وسموّ قيمه، وعلو مكانته، وشهود حضارته. يستوعب الحياة البشرية بمختلف مجالاتها وأطوارها، ملبيًا تطلّعات الأفراد الروحية ورغباتهم المادية بشكل متوازن ودقيق، ومحققًا لكرامتهم ومكوّنًا لشخصيتهم، في انسجام مع الفطرة الإنسانية.

الخاتمة:

نخلص من خلال العرض التفصيلي السابق إلى النتائج الآتية:

١- أثمرت عملية تكوين المجتمع المسلم على أساس عقديّ صحيح، ومنظومة تشريعية محكمة بناءً أخلاقياً شاملاً، تحرّر فيه الإنسان بتمثله لكليات إيمانية تعمق صلته بالله، ممّا أفضى إلى تناغم حركيته مع وسطه الاجتماعي، في كنف قيم أخلاقية وروحية جامعة تجلّت في التكافل، والتعاون على البرّ والتقوى، وتآلف القلوب، وكل ما من شأنه أن يرسّخ وحدة الأمة، ويدعم قوّة نسيجها الاجتماعي على أساس الانتساب للإيمان، ضامناً بذلك صلاحية المجتمع الإسلامي واستمراريته في أداء وظيفته في الحياة في إطار تمثّل كليات الاستخلاف، قصد تحقيق أعلى درجات التحضّر في عالمي الروح والمادة.

٢- تجلّى المنظور القرآني في بناء المجتمع في مجموعة من الأبعاد المتكاملة، بداية بالأبعاد التأسيسية التي تعدّ العمّد أو الدعامات الرئيسة، وهي: أ- الصياغة العقدية والإيمانية للمجتمع، ب- الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع، ج- الصياغة التشريعية الإجرائية، د- الصياغة الفكرية المعرفية. ثم يأتي: هـ- البعد السنني الحركي الذي يأخذ على عاتقه تنزيل الأبعاد العقدية والأخلاقية والتشريعية في أرض الواقع، على وفق فقه عميق بسنن التمكين والريادة، وصولاً إلى تحقيق الثمرة المرجوة وهي التحقق ب: و- بعد الشهود الذي يعبر عن المكانة اللائقة التي يتوجب على الأمة تمثيلها، بوصفها أمة الوسطية والشهادة التي تحمل أعباء تبليغ رسالة الإسلام وإقامة الحجة على الأناسي.

٢- من أبرز ثمار تأسيس المجتمع على هذه الدعامات -وفق المنظور القرآني وتجربته النبوية- تشكل معالم بناء أخلاقي شامل، يتحرّر فيه المجتمع

بتمثله لكليات إيمانية تعمق صلته بالله، ممّا يفضي إلى تناغم حركيته مع الروابط الإنسانية والكونية، في كنف قيم أخلاقية وروحية جامعة تتجلى في التكافل، والتعاون على البرّ والتقوى، وتآلف القلوب، وكل ما من شأنه أن يرسّخ وحدة الأمة، ويدعم قوّة نسيجها الاجتماعي على أساس الانتساب للإيمان، ضامنا بذلك صلاحية المجتمع الإسلامي واستمراريته في أداء وظيفته في الحياة في إطار تمثلّ كليات الاستخلاف، قصد تحقيق أعلى درجات التحضّر في عالمي الروح والمادة.

٣- تأسّس منهج النبي ﷺ في الصياغة الجذرية الشاملة للمجتمع الجاهلي على أربعة دعائم هي: أ- الصياغة العقدية والروحية للمجتمع، ب- الصياغة الأخلاقية والتربوية للمجتمع، ج- الصياغة التشريعية التعبدية للمجتمع، د- الصياغة السننية.

٥- تجلّت مخرجات عملية التكوين الشامل للمجتمع عقديا، وتربويا، ومنهجيا، في تمثّل نوعيٍّ للحضارة، من حيث التحقق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا أفضى إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتوافق والتناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقّيّ التعميري المادي.

٦- تتجلى مخرجات عملية بناء المجتمع وفق المنظور القرآني والتجربة النبوية في تمثّل نوعيٍّ للحضارة، من حيث التحقق بمبادئها فكريا، ووجدانيا، وسلوكيا، عبر تفعيلها في الحياة؛ ممّا يفضي إلى تحقيق أعلى درجات الانسجام والتوافق والتناغم في أنساق علاقته بالله، والإنسان، والكون، في توازن بين السموّ الإيماني الأخلاقي، والرقّيّ التعميري المادي.

٧- اتّصف المنظور القرآني في بناء المجتمع الذي جسده التجربة النبوية الميدانية بعدة خصائص وعناصر تميز، نذكر منها ما يأتي: أ- الشمولية في

النظر، ب- التكاملية في أنساق العلاقات، ج- الفعّالية الواقعية، د- الفقه العميق بمدخل التغيير والتدرّجية في عملية البناء، هـ- الأخلاقية، و- السننية، ز- المقصدية.

٨- إن المنظور القرآني في بناء المجتمع الذي أرسى دعائمه النبي ﷺ في تجربة نوعية أثمرت أنموذجاً فريداً، يتوجب على الأمة أن تستلهم منه العناصر الحيوية للإصلاح والتجديد، قصداً إلى بعث الحياة فيها من جديد، في عصر هيمنت فيه النزعات العصبية والعنصرية المقيتة والمادية الجاسية، التي أصبحت مُبرجة ومُحرّكة لحياة الإنسانية جمعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الهوامش

- ١-[*] ركّزنا على التوحيد في هذا السياق؛ لأنه يمثل حجر الزاوية في منظومة الاعتقاد، وبالتالي تستمد الكليات الاعتقادية الأخرى وجودها من التوحيد، وعلى هذا الأساس فإن الحديث عن التوحيد يتضمن الأصول الاعتقادية الأخرى.
- ٢-إسماعيل راجي الفاروقي، إسلامية المعرفة -المبادئ العامة، خطة العمل، الإنجازات- المعهد العالمي للفكر الإسلامي، (بيروت: دار الهادي، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م)، ص ٩١.
- ٣-عبد الحميد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية -المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني-، طبعة إلكترونية ١٤٢٩/٠٨/٠٨هـ-٢٠٠٨/٠٨/٠٩م، ص ١٠٠.
- ٤-سورة الذاريات: الآية: ٥٦.
- ٥-انظر: محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، (القاهرة: دار الشروق، ط ٢، ٢٠٠٩)، ص ٣٢.
- ٦-عبد المجيد عمر النجار، الإيمان بالله وأثره في الحياة، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٩٩٧م)، ص ١٩٦.
- ٧-سورة الإسراء: الآية: ٨٢.
- ٨-انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، (القاهرة: دار الشروق، الطبعة الشرعية ٣٢، ١٤٢٣/٢٠٠٣)، ج ٤، ص ٢٢٤٨.
- ٩-انظر: المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٢٤٨.
- ١٠-سورة الحجرات: الآية: ١٣.
- ١١-سورة المائدة: الآية: ٢.
- ١٢-سورة النور: الآية: ٣١.
- ١٣-سورة العنكبوت: الآية: ٦٩.
- ١٤-سورة آل عمران: الآية: ١٧٥.
- ١٥-سورة الكهف: الآية: ١١٠.
- ١٦-سورة آل عمران: الآية: ١٠٢.
- ١٧-سورة النحل: الآية: ١٢٧.
- ١٨-سورة إبراهيم: الآية: ٧.
- ١٩-انظر: عبد العزيز برغوث، موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحضّر عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي، المؤتمر العالمي الرابع لبيدع الزمان سعيد النورسي . www.nuronline.com بتاريخ: ٠٣-١١-٢٠١١.

- ٢٠- سورة الذريات: الآية: ٥٦ - ٥٧.
- ٢١- يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، (دار الشهاب- الدوحة، ط٢، ١٣٩١هـ- ١٩٧١م)، ص٢٠٧.
- ٢٢- سورة العنكبوت: الآية: ٢.
- ٢٣- سورة الملك: الآية: ١٤.
- ٢٤- سورة فاطر: الآية: ١٤.
- ٢٥- يوسف القرضاوي، العبادة في الإسلام، مرجع سابق، ص٢٠٦.
- ٢٦- سورة إبراهيم: الآية: ٢٣.
- ٢٧- انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج٤، ص٤٨٨.
- ٢٨- سورة النحل: الآية: ٩٧.
- ٢٩- محمد بن جرير أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، ج١٧، ص٢٩٠.
- ٣٠- ابن تيمية، العبودية، المكتب الإسلامي - بيروت، ط٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ص٤٤.
- ٣١- سورة المدثر: الآية: ١٨.
- ٣٢- سورة الأنعام: الآية: ٥٠.
- ٣٣- سورة الأعراف: الآية: ١٧٦.
- ٣٤- سورة البقرة: الآية: ٢١٩.
- ٣٥- ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون)، ج٢، ص٣٥٤.
- ٣٦- سورة يونس: الآية: ٢٤.
- ٣٧- التحرير والتنوير، ج١١، ص١١٤.
- ٣٨- سورة آل عمران: الآية: ١٩٠-١٩١.
- ٣٩- محمد عبده، تفسير القرآن الحكيم، (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، ١٩٩٠م)، ج٤، ص٢٤٦.
- ٤٠- انظر: عبد المجيد عمر النجار، فقه التحضر الإسلامي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٩م)، ص٦٥-٧٢.
- ٤١- خليل، عماد الدين، التفسير الإسلامي للتاريخ، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٩٨٣م)، ص٨.
- ٤٢- عبد المجيد عمر النجار، فقه التحضر الإسلامي، مرجع سابق، ص٦٦.
- ٤٣- سورة الأعراف: الآية: ١٣٠-١٣١.
- ٤٤- سورة الأعراف: الآية: ١٣١.

- ٤٥- عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، مرجع سابق، ص ٦٥.
- ٤٦- سورة التكاثر: الآية: ١-٢.
- ٤٧- عمار جيدل، ماهية الإنسان وعلاقتها بحريته وصلته الاجتماعية، (استنبول: شركة نسل، ط١، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م)، ص ٣٤.
- ٤٨- سورة الحجرات: الآية: ١٣.
- ٤٩- عماد الدين خليل، حول تشكيل العقل المسلم، الكتاب رقم ٤، (الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، رمضان ١٤٠٣هـ)، ص ٥١.
- ٥٠- سورة الأحزاب: الآية: ٦٢.
- ٥١- سورة الروم: الآية: ٩.
- ٥٢- انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، (الجزائر: دار قرطبة، ط١، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م)، ص ٧٤.
- ٥٣- بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتجديد عند طيب برغوث، موقع: [www . al-egories.php?id=3 . fikr.com/cat](http://www.al-egories.php?id=3.fikr.com/cat) التاريخ ١٢-٦-٢٠١٤.
- ٥٤- الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، مرجع سابق، ص ٧٤.
- ٥٥- سورة البقرة: الآية: ٢٥١.
- ٥٦- سورة الانبياء: الآية: ١٨.
- ٥٧- بوقفة رؤوف، نظرية التدافع والتجديد عند طيب برغوث، مقال سابق.
- ٥٨- انظر: الطيب برغوث، الفعالية الحضارية والثقافة السننية، مرجع سابق، ص ٧٥.
- ٥٩- سورة آل عمران: الآية: ١٤٠.
- ٦٠- سورة محمد: الآية: ٣٨.
- ٦١- سورة البقرة: الآية: ١٤٣.
- ٦٢- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، (دمشق، دار الفكر، ١٩٨٩م)، ص ٨٠.
- ٦٣- سورة الرعد: الآية: ١١.
- ٦٤- والمقصود به الصياغة العقدية والسلوكية للإنسان، التي تبني على أساس الاقتناع الراسخ والارتباط الوثيق بفكرة معينة.
- ٦٥- برغوث عبد العزيز بن مبارك، المنهج النبوي والتغيير الحضاري، (قطر: كتاب الأمة، ١٩٩٥م)، ص ١٢٥.
- ٦٦- [*] تشمل هذه المعوقات الأمراض الوراثية التي ورثها المسلمون عن أسلافهم، والتي تجلّت في مسالك تفكيرهم، وأساليب تدبيرهم، ونظامهم التعليمي والاجتماعي،

كما تشمل أيضا الأمراض الوافدة من الغرب.

٦٧- سورة القلم: الآية: ٤ .

٦٨- رواه أحمد، واللفظ له وأبو داود، وزاد مسلم: «يغضب لغضبه ويرضى لرضاه».

٦٩- سورة آل عمران: الآية: ١٦٤ .

٧٠- سورة الأحزاب: الآية: ٢١ .

٧١- النورسي: المكتوبات، المكتوب التاسع والعشرون، (مصر: دار النيل للطباعة، ط ١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٧م)، ص ٥٨١، وانظر سعاد الناصر، إحياء الأخلاق في الممارسة السلوكية عند الأستاذ النورسي، موقع / www.hiramagazine.com, ١٨/٠٩/٢٠١١م، الساعة: ١٦:٠٣.

٧٢- [*] أطلق علماء الاجتماع على هذه العملية مصطلح الضبط الاجتماعي، التي تعني ضرورة الوعي بشعور الآخرين، ومراعاة حقوقهم وانتهاج سلوك يتأثر بهذا الوعي وهذا السلوك، ومن هنا تأتي أهمية الأنظمة والضوابط التي تطلق نشاط الأفراد في مجالات، وتحبس نشاطهم في مجالات أخرى، وتضع لهم مقاييس للسلوك تقوم الأمور تبعاً لها، فتعد بعض الأمور كريمة محبة وتعد بعضها كريهاً مذموماً، وبذلك تعد عملية الضبط من أسس بناء المجتمع. انظر: محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، ص ٤١٠، وانظر كذلك: المصري، المجتمع الإسلامي، ص ١٣.

٧٣- صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم: [٥٤].

٧٤- رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، عَنْ يُحْيَى بْنِ بُكَيْرٍ، وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ، عَنْ قُتَيْبَةَ، كتاب الظلم، باب تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة.

٧٥- سورة الأنفال: الآية: ٦٣.

٧٦- انظر: سميح عاطف الزين، خاتم النبيين محمد ﷺ، (القاهرة، بيروت: دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ط ٤، ٢٠٠٦)، ص ٣٦.

٧٧- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص ١٢.

٧٨- متفق عليه رواه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم (١٦٣/٥) - باب نصر المظلوم، حديث رقم (٢٤٤٦)، وفي كتاب الأدب (١٠/٥٥٣). ٢٦ - باب تعاون المؤمنين بعضهم بعضاً، حديث رقم (٦٠٢٦)، ورواه مسلم في صحيحه (١٦/٣٥٥) بشرح «النووي» - كتاب البر والصلة ١٧ - باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاظدهم، حديث رقم (٦٥٦٨)، ورواه الترمذي في «السنن» (٤٧/٣) بشرح «التحفة»، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، حديث رقم (١٩٩٣)، وقال: «حديث صحيح»، وأخرجه النسائي (٨١/٥) بشرح «السيوطي»، كتاب الزكاة، ٦٧ -

باب أجز الخازن إذا تصدق بإذن مولاه، حديث رقم (٢٥٥٦).

٧٩- أشار القرآن الكريم إلى المؤاخاة في قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ». الأنفال: ٧٢. انظر: عبد العزيز العمري، رسول الله وخاتم النبيين - دين ودولة - القسم الثاني: الاضطهاد والهجرة والتنمية - (بيروت: بيسان، ط ١، ٢٠١١م) ص ٤٧١-٤٧٢. ٨٠- راجع: جعفر مرتضى العاملي، الصحيح من سيرة النبي الأعظم (بيروت: دار الحديث للطباعة والنشر، ط ٢، ٢٠٠٧م)، ج ٥، ص ٣٦٧.

٨١- لما أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، سورة الأحزاب: الآية: ٦. رُد التوارث إلى الرحم دون عقد الأخوة، ففي بداية الإسلام كان هناك أسر بعض الأبناء فيها مسلم، وبعض الأبناء مشرك، لذلك شاءت حكمة الله أن يكون التوارث بين الإخوة المؤمنين، ولكن بعد نزول: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ رُد التوارث إلى الرحم دون عقد الإخوة. وكانت المؤاخاة في شهر رمضان من السنة الأولى للهجرة، أي بعد الهجرة بخمسة أشهر. فكان الإرث في صدر الإسلام بالهجرة والمؤاخاة في الدين، فنسخ الله ذلك وجعل التوارث بالنسب والقرابة، روي عن الزبير أنه قال: لما قدمنا معشر قريش المدينة، قدمنا ولا أموال لنا، فوجدنا الأنصار نعم الإخوان فأخيناهم فأورثونا وأورثناهم، فأخى أبو بكر (خارجة بن زيد) وأخيت (كعب بن مالك) فوالله لو قد مات عن الدنيا ما ورثه غيري حتى أنزل الله: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فرجعنا إلى موارثنا. انظر: تفسير القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الفكر، ج ١٤.

٨٢- رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت.

٨٣- رواه الترمذي عن عمرو بن عوف بن زيد.

٨٤- سورة سبأ: الآية: ٤٦.

٨٥- [*] من شواهد هذا الخلق الإسلامي الرفيع ما رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة، أن رجلاً أتى النبي ﷺ، فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاءُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ يَضُمُّ أَوْ يُضِيفُ هَذَا؟»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَا، فَأَنْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ، فَقَالَ: أَكْرَمِي صَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتٌ صِبْيَانِي، فَقَالَ: هَيْئِي طَعَامَكَ، وَأَصْبِحِي سِرَاجَكَ، وَتَوَمِّي صِبْيَانَكَ إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً، فَهَيَّائِي طَعَامَهَا، وَأَصْبَحِي سِرَاجَهَا، وَتَوَمِّي صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَُا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأُطْفِئَتْ، فَجَعَلَ يُرِيَانِيهِنَّ يَأْكُلْنَ، فَبَاتَا طَاوِينَ، فَلَمَّا أَصْبَحَ عَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «صَحِّحَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ، أَوْ عَجَبَ، مِنْ فَعَالِكُمَا» فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ

- خَصَاصَةً وَمَنْ يُوَقَّ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾، الحشر: ٩.
- ٨٦- رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار.
- ٨٧- رواه البخاري في كتاب المزارعة باب إِذَا قَالَ أَكْفَنِي مَثْوًى النَّحْلِ وَغَيْرِهِ وَتَثْرُكُنِي فِي الثَّمَرِ.
- ٨٨- انظر: ابن سعد، السيرة النبوية من الطبقات، (القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٤٠٩هـ)، ج ١/ ٢٣٨.
- ٨٩- انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح: شعيب الأرناؤوط وآخرون- رسالة أبي الدرداء إلى سلمان الفارسي والعكس - (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ)، ج ١ / ٥٤٨-٥٤٩.
- ٩٠- سورة الحشر: الآية: ٩.
- ٩١- متفق عليه.
- ٩٢- [*] ويقصد هنا بالخصوص آية: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيَعْبِزْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِقْلَبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ. إضافة إلى الحدود، والقوانين الرادعة التي تعدل سلوكيات الأفراد المنحرفة تحقيقاً للأمن في المجتمع.
- ٩٣- رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.
- ٩٤- انظر: سميح عاطف الزين، خاتم النبيين محمد ﷺ، مرجع سابق، ص ٢٨، ٢٩.
- ٩٥- رواه مسلم.
- ٩٦- أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتَّبَهَقِيُّ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.
- ٩٧- رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.
- ٩٨- انظر لمزيد من التفصيل في بيان هذه الأسس: يوسف القرضاوي، السنة مصدرا للمعرفة والحضارة (القاهرة: دار الشروق، ط ٣، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م)، ص ١٨٠-١٨٤.
- ٩٩- سورة البقرة: الآية: ١١١.
- ١٠٠- سورة الأحقاف: الآية: ٤.
- ١٠١- متفق عليه.
- ١٠٢- ورد في الحديث الذي أخرجه البخاري في صحيحه من حديث عمر بن الخطاب أنه انطلق مع رسول الله ﷺ في رهط من أصحابه قبل ابن صياد حتى وجده يلعب مع الغلمان في أطم بني مغالة - بضم الهمزة والطاء - وقد قارب ابن صياد يومئذ الحلم

فلم يشعر حتى ضرب رسول الله ﷺ ظهره بيده ثم قال أتشهد أني رسول الله فنظر إليه فقال أشهد أنك رسول الأميين ثم قال ابن صياد أتشهد أني رسول الله فرضه النبي ﷺ ثم قال آمنت بالله ورسله ثم قال لابن صياد ماذا ترى قال يأتييني صادق وكاذب قال رسول الله ﷺ خلط عليك الأمر ، قال رسول الله ﷺ إني خبأت لك خبيثاً ؟ قال هو الدُّخُّ قيل - :الدخان، وقيل أن النبي ﷺ كتب آية الدخان في يده: «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين»، وقيل نبئت يكون بين البساتين - . قال رسول الله ﷺ: أخساً فلن تعدو قدرك. قال عمر يا رسول الله أتأذن لي فيه أضرب عنقه؟ قال رسول الله ﷺ: إن يكن هو لا تسلط عليه وإن لم يكن هو فلا خير لك في قتله. قال سالم فسمعت عبد الله بن عمر يقول انطلق بعد ذلك رسول الله ﷺ وأبي بن كعب الأنصاري يؤمان النخل التي فيها ابن صياد حتى إذا دخل رسول الله ﷺ طفق رسول الله ﷺ يتقي بجذوع النخل وهو يختل أن يسمع من ابن صياد شيئاً قبل أن يراه (ومعنى يختل يعني يتغافل ابن صياد من غير أن يشعر به)، وابن صياد مضطجع على فراشه في قطيفة له فيه رمرمة أو زمزمة (صوت خفي لا يكاد أن يفهم، أو لا يفهم) فرأت أم ابن صياد النبي ﷺ وهو يتقي بجذوع النخل فقالت لابن صياد أي صاف وهو اسمه هذا محمد، فتناهى ابن صياد. جاء في رواية مسلم فثار ابن صياد) قال رسول الله: لَوْ تَرَكَتُهُ بَيِّن. قال سالم قال عبد الله قام رسول الله ﷺ في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال إني أذكركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه لقد أنذره نوح قومه ولكنني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه تعلمون أنه أعور وأن الله ليس بأعور. رواه البخاري ومسلم ٥٣/١٨ .

١٠٣- سورة ص: الآية: ٢٦.

١٠٤- انظر: يوسف القرضاوي، السنة مصدراً للمعرفة والحضارة، مرجع سابق ص ٢٦.

١٠٥- رواه الترمذي بسنده عن حذيفة.

١٠٦- سورة المجادلة: الآية: ١١.

١٠٧- رواه البخاري في صحيحه، حديث رقم: ٨٧.

١٠٨- رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود، حديث رقم: ٧٣.

١٠٩- روى الإمام أحمد في مسنده من حديث ابن عباس قال: كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة.

١١٠- رواه الترمذي، كتاب الاستئذان والآداب، باب: ما جاء في تعليم السريانية

(٢٧١٥).

١١١- رواه البخاري، باب: الصلاة في كسوف الشمس (٩٩٦).

١١٢- رواه الشيخان.

١١٣- رواه أبو داود.

١١٤- سورة العنكبوت: الآية: ٦٩.

١١٥- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، تر: عبد الصبور شاهين، مرجع سابق، ص ٨٠.

١١٦- سورة الرعد: الآية: ١١.

١١٧- سورة الأحزاب: الآية: ٢١.

١١٨- أخرجه البخاري (٦١٣٣) في كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٩٨) في كتاب الزهد والرفائق.

١١٩- أخرجه مسلم حديث (١٤٩)، وأخرجه البخاري في «كتاب الجهاد»، «باب كتابة الإمام» حديث (٣٠٦٠)، وأخرجه ابن ماجه في كتاب الفتن «باب الصبر على البلاء» حديث (٤٠٢٩).

١٢٠- يوسف القرضاوي، السنة مصدرا للمعرفة والحضارة، مرجع سابق، ص ١٨٥.

١٢١- انظر: سيرة ابن هشام: ٢٢٤/٢، والسيرة النبوية وأخبار الخلفاء، لابن حبان: ٢٥٥/١.

١٢٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٦٥٤.

١٢٣- سورة القلم: الآية ٥١.

١٢٤- سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج ٦، ص ٣٦٥١.

١٢٥- انظر: عماد الدين، حول تشكيل العقل المسلم، مرجع سابق، ص ٤٨-٦١.

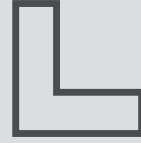
١٢٦- سيد قطب، في ظلال القرآن، مرجع سابق، ج ١، ص ٤٠.

المصادر والمراجع بطريقة شيكاغو (Chicago)

المصادر والمراجع: القرآن الكريم.

- * الترمذي. السنن.
- * الذهبي. (١٤٠٢هـ). سير أعلام النبلاء.
- تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون. - رسالة أبي الدرداء إلى سلمان الفارسي والعكس. - مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.
- * ابن سعد. (١٤٠٩هـ). السيرة النبوية من الطبقات. الزهراء للإعلام العربي. القاهرة. مصر.
- * البخاري. (د.ت). الصحيح.
- * مسلم. (د.ت). الصحيح.
- * العاملي، جعفر مرتضى. (٢٠٠٧م). الصحيح من سيرة النبي الأعظم ﷺ. ط٢. دار الحديث للطباعة والنشر. بيروت. لبنان. ط١. مؤسسة الرسالة. بيروت. لبنان.
- * القرطبي، محمد بن أحمد الأنصاري. (د.ت). الجامع لأحكام القرآن. ج١٤. دار الفكر.
- * خليل، عماد الدين. (رمضان ١٤٠٣هـ). حول تشكيل العقل المسلم، -كتاب الأمة رقم ٤. رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية. الدوحة.
- * الزين، سميح عاطف. (٢٠٠٦م). خاتم النبيين محمد ﷺ. ط٤. دار الكتاب المصري. دار الكتاب اللبناني. القاهرة. بيروت.
- * العمري، عبد العزيز. (٢٠١١م). رسول الله ﷺ وخاتم النبيين -دين ودولة-. القسم الثاني: الاضطرهاد والهجرة والتنمية-. ط١. بيسان. بيروت.
- * الفاروقي، إسماعيل راجي. ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م. إسلامية المعرفة -المبادئ العامة. خطة العمل. الإنجازات- المعهد العالمي للفكر الإسلامي. دار الهادي. بيروت. لبنان.
- * النجار، عبد المجيد عمر. ١٩٩٧م. الإيمان بالله وأثره في الحياة. ط١. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.
- * خليل، عماد الدين. ١٩٨٣م. التفسير الإسلامي للتاريخ. ط٤. دار العلم للملايين. بيروت. لبنان.
- * ابن عاشور، الطاهر. (لا.ت). تفسير التحرير ٦٦ والتنوير. دار سحنون. تونس.
- * عبده، محمد. ١٩٩٠م. تفسير القرآن الحكيم. د. ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر.
- * عبده، محمد. ١٣٣٤هـ. تفسير جزء عم. ط١. الجمعية الخيرية الإسلامية. القاهرة. مصر.
- * الطبري، أحمد بن جرير أبو جعفر. (١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م). جامع البيان في تأويل القرآن. تح: أحمد محمد شاكر، القرضاوي، يوسف. (١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م). السنة مصدرا للمعرفة والحضارة. ط١. دار الشروق. القاهرة. مصر.

- لبنان.
- * أبو سليمان، عبد الحميد. (٢٠٠٨/٠٨/٠٩ هـ - ٢٠٠٨/٠٨/٠٩ م). الرؤية الكونية الحضارية القرآنية - المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني - طبعة إلكترونية.
- * القرضاوي. (١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م). العبادة في الإسلام. ط٢. دار الشهاب. الدوحة. قطر.
- * ابن تيمية، تقي الدين أحمد. (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م). العبودية. ط٧. المكتب الإسلامي. بيروت. لبنان.
- * وافي، علي عبد الواحد. (د.ت). علم الاجتماع. نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- * برغوث، الطيب. (١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م). الفعالية الحضارية والثقافة السننية. ط١. دار قرطبة. الجزائر.
- * النجار، عبد المجيد عمر. (١٩٩٩ م). فقه التحصن الإسلامي. ط١. دار الغرب الإسلامي. بيروت. لبنان.
- * قطب، سيد. (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م). في ظلال القرآن. ط٣٢. دار الشروق، القاهرة. مصر.
- * جيدل، عمار. (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م). ماهية الإنسان وعلاقتها بحريته وصلته الاجتماعية. ط١. شركة نسل. استنبول. تركيا.
- * أبو عجوة، محمد نجيب. (٢٠٠٠ م). المجتمع الإسلامي دعائمه وآدابه في ضوء القرآن. مكتبة مديولي. القاهرة. مصر.
- * ابن حنبل، أحمد. (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م). المسند. دار إحياء التراث العربي. بيروت. لبنان.
- * عمارة، محمد. (٢٠٠٩ م). معالم المنهج الإسلامي. ط٢، دار الشروق. القاهرة. مصر.
- * النورسي، سعيد. (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧ م). المكتوبات. المكتوب التاسع والعشرون. ط١. دار النيل للطباعة. القاهرة. مصر.
- * برغوث، عبد العزيز بن مبارك. (١٩٩٥ م). المنهج النبوي والتغيير الحضاري. كتاب الأمة. قطر.
- * ابن نبي، مالك. (١٩٨٩ م). ميلاد مجتمع. دار الفكر. دمشق. سوريا.
- المقالات:
- ١) برغوث، عبد العزيز. (١١-٠٣-٢٠١١). موقع نظرية العلم في عملية الاستخلاف والتحصن عند الإمام بديع الزمان سعيد النورسي. المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي. www.nuronline.com
- * نظرية التدافع والتجديد عند الطيب برغوث. (١٢-٦-٢٠١٤). بوقفة رؤوف. موقع: alfikr.com/cat:egories.php?id=3



الرؤى والغايات النبوية في صلح الحديبية - دراسة تأريخية استشرافية -

أ.د. عبد الرحمن ابراهيم حمد الغنطوسي
كلية التربية/ الجامعة العراقية

أ.د. برزان مُيسر حامد الحميد
كلية التربية للعلوم الانسانية/ جامعة الموصل



Visions and goals of the Prophet in the Treaty of Hdaybiyah A prospective historical study

Prof.Dr.AbdulRahmanIbrahimHamadAl-Ghantousi
College of Education / Iraqi University

Prof. Dr. Barzan Moyser Hamed Al Hamid
College of Education for Human Sciences/
University of Mosul

ملخص البحث

جاءت هذه الدراسة لتسليط الضوء على الجانب الاستشرافي الذي ترتب على فعل النبي محمد ﷺ بعد صلح الحديبية الذي وقع في شهر ذي القعدة من العام السادس للهجرة / مارس ٦٢٧ م بين المسلمين ومشركي قريش، في وقف رحي الحرب ثم قيام الصلح الذي بمقتضاه عقدت الهدنة التي امدها عشر سنوات رغم ان جل الصحابة رفضوه حسب فهمهم، إذ إن المعطيات آنذاك تدل دلالة قطعية على تفوق المسلمين.

الكلمات المفتاحية: الرؤى النبوية، الغايات، صلح الحديبية، استشراف.

Abstract

This study came to shed light on the forward-looking aspect that resulted from the action of the Prophet Muhammad (may God bless him and grant him peace) after the Treaty of Hudaibiyah, which took place in the month of Dhu al-Qa'dah of the sixth year of migration / March 627 AD between Muslims and the polytheists of Quraish, in stopping the war and then establishing the peace according to which The truce, which lasted for ten years, was held despite the fact that most of the Companions rejected it, according to their understanding, as the data at that time indicated definitive evidence of the superiority of Muslims.

Keywords : visions, goals, reconciliation, al-Hudaybiyya, the Prophet, foresight .

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين
وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين .
وبعد ...

مما لاشك فيه ان استقراء النبي محمد ﷺ، للحدث يختلف اختلافاً
جذرياً عن فهم وقراءة الصحابة رضوان الله تعالى عنهم ، وذلك يعود
لكونه ﷺ إنما هو هداية لكل البشرية لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا
الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا
وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (النور: ٥٤) ، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ
لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ
كَثِيرًا﴾ (الاحزاب: ٢١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾
(الانبياء: ٧، ١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ: ٢٨) .

وإن جميع اقواله وافعاله إنما تتم بأمر من الله سبحانه وتعالى لذا فان
قراءته ونظرته الى الحدث تكون نظرة شمولية ذات بعد مستقبلي يترتب
عليه افعال لا يستطيع غيره ﷺ أن يدركها، لذا فقد جاءت هذه الدراسة
الموسومة (الرؤى والغايات النبوية في صلح الحديبية - دراسة تاريخية
استشرافية) لتسليط الضوء على هذا الجانب الاستشرافي الذي ترتب على
فعله ﷺ بعد صلح الحديبية من حيث ماكان لوقف رحي معركة ثم ما
بني على هذا الصلح، والذي من المعلوم ان جل الصحابة رفضوه حسب
فهمهم إذ إن المعطيات آنذاك تدل دلالة قطعية على تفوق المسلمين .

أقتضت طبيعة الدراسة أن نقسمها على مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة،
تضمن المبحث الاول: اسباب صلح الحديبية، حيث تطرقنا عبر هذا

المبحث الى مسيرة النبي محمد ﷺ الى مكة وخروج المشركين لمنعه ازاء ذلك واستعراض قوى الطرفين ورجحان كفة القوى بينهما، ثم موقف النبي محمد ﷺ الموافق للصلح وكذلك آراء الصحابة ومواقفهم إزاء الصلح لاعتبار ان نتائج الصلح لم تخدم قضيتهم الاساسية وهي اشعار مشركي قريش بما اصبح عليه المسلمون من القوة والمنعة .

أما المبحث الثاني: فقد تضمن استشراف النبي محمد ﷺ بدخول القبائل العربية في حلفه، حيث تركز الحديث فيه عن رؤيته ﷺ لما ترتب عن هذا الصلح من دخول قبائل في حلف النبي محمد ﷺ وانتشار دعوته بينهم على خلاف اهل مكة الذين بدوا يفقدون مكانتهم كمركز جذب لهذه القبائل العربية باعتبارهم مركزاً دينياً ومحج العرب اليها .

فيما جاء المبحث الثالث بعنوان: عالمية الدعوة الاسلامية، إذ بحثنا فيه استشراف النبي محمد ﷺ ورؤيته المستقبلية بنشر هذا الدين ونقله من محيطه الاقليمي الى كافة الممالك والامصار المنتشرة على انحاء المعمورة فكانت هذه الدعوة هي بمثابة خطاب عالمي لم يسبق احد من الدعاة والملوك ان جاء بهذا العمل، وقد باننت نتائج دعوة النبي ﷺ بعد وفاته اذ نجد ان الكثير من الشعوب والامم قد دخلوا في هذا الدين الجديد، وفي الوقت نفسه فان اكراه الناس على الاسلام ليس مشروعاً في الدين كما قال تعالى: ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ (البقرة: ٢٥٦) ، وقد نفذ المسلمون اوامر ربهم فلم يكرهوا احداً على الدخول في دينهم .

المبحث الأول : اسباب صلح الحديبية

١ - خروج النبي ﷺ إلى مكة و صلح الحديبية :

لم تحمد مشاعر المسلمين في المدينة شوقاً إلى مكة، التي حيل بينهم وبينها ظلماً وعدواناً، وما برحوا ينتظرون اليوم الذي تتاح لهم فيه فرصة العودة إليها والطواف ببيتها العتيق، إلى أن جاء ذلك اليوم الذي برز فيه النبي ﷺ على صحابته ليخبرهم برؤياه التي رأى فيها دخوله مكة وطوافه بالبيت، فاستبشر المسلمون بهذه الرؤيا لعلمهم أن رؤيا الأنبياء حق، وتهبأوا لهذه الرحلة العظيمة .

وفي يوم الاثنين من شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ يريد العمرة ومعه ألف وأربعمائة من الصحابة وليس معهم إلا سلاح السفر، السيوف في أغمادها، فاحرموا بالعمرة من ذي الحليفة وأرسل النبي ﷺ عيناً له إلى قريش ليرى ما هي صانعة فأتاه في غدير الأشطاط^٢ فأخبره أن قريشاً قد جمعت له الأحابيش^٣ وقد عزموا على قتاله وصدده عن البيت ومانعوه من دخوله، فاستشار النبي ﷺ أصحابه فأشاروا عليه بمواصلة السير إلى بيت الله الحرام فواصل سيره، إلا أن أهل مكة أرسلوا خيلاً بقيادة خالد بن الوليد ليقطعوا عليه الطريق، فلم يكن أمام المسلمين إن هم تقدموا في طريقهم ذلك إلا خوض معركة محققة مع خالد بن الوليد، وكان رسول الله ﷺ حريصاً على تحاشي القتال مع قريش، لذلك صرف أصحابه إلى طريق آخر لا يمر على خيل خالد، أفضى بهم إلى ثنية أنزلتهم على الحديبية^٤.

٢ - تحرشات قريش بالمسلمين وموقف المسلمين حيالها :

استقر النبي ﷺ بالحديبية يتحاشى الدخول إلى مكة، مخافة أن تحصل بينه وبين قريش مصادمات، وليثبت لهم نواياه السلمية غير العدوانية،

وانه لم يأت لقتالهم، وإنما جاء معظماً لحرمان الله، وليبته الحرام قال حين بركت ناقته القصواء وتكلم الناس وقالوا حل حل، فألحت ولم تنهض فقالوا خلأت القصواء قال ﷺ: ((ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل^٥، ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيه حرمان الله إلا أعطيتهم إياها، ثم زجرها فوثبت))^٦.

من هنا يتبين لنا انه ﷺ أطلق هذه الكلمات ليطمئن قريشاً انه ما أتى لقتالهم، بل فاتحاً أبواب السلام والموادعة والتعايش أمامهم على الرغم مما حصل بينهم عبر السنوات السابقة، من حروب وقتال وقع فيها من الطرفين ضحايا وخسائر، ليثبت لهم انه لم يكن رجل عنف أو حرب أو إرغام للناس على تغيير معتقداتهم بالقوة، بقوله: ((والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون به حرمان الله إلا أعطيتهم إياها))^٧، وكان هدفه في مكة هو دعوة الناس بالحكمة والموعظة الحسنة إلى دين الله وشرعه الحكيم، إذ بقي فيها ثلاث عشرة سنة يدعوهم، لم يصطدم يوماً من الأيام مع احد منهم، لكن أهل مكة منعوه وأجبروه على الخروج منها.

وحين علمت قريش بنزول المسلمين في الحديبية أخذت ترسل مجموعات من فرسانها عليهم يصادفون غرة من المسلمين يحققون بعض مآربهم المشينة فقد أخذ الحقد بمجامع قلوبها، فعن انس بن مالك^٨ أن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله من التنعيم متسلحين يريدون غزوة النبي ﷺ فأخذهم سلباً فأستحياهم، فانزل الله عز وجل ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَאֵيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبِطْنٍ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾^٩، بل ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قريشاً كانوا يبعثون أربعين رجلاً منهم أو خمسين رجلاً وأمروهم أن يطوفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً فأخذوهم أخذاً، فأتي بهم

رسول الله ﷺ فعفا عنهم وخلى سبيلهم، وقد كانوا رموا في عسكر رسول الله بالحجارة والنبل^{١٢} بل أرسلت قريش مئتي فارس بقيادة خالد بن الوليد على الطريق الرئيس لمكة لاعتراض المسلمين ومنعهم بالقوة، فحوّل النبي ﷺ وجهته ليتحاشى الصدام المسلح مع قومه ما أمكنه ذلك حرصاً منه على حقن الدماء التي ليس شيئاً ابغض إليه من إراقتها بدون مبرر^{١٣}.

من هنا يتبين لنا صدق نيات رسول الله ﷺ، وحرصه على دعوة الآخرين، من غير عنف أو إرغام، وإلا كان بمقدوره قتل كل هؤلاء، وقد أوقعهم الله اسرى بين يديه، فضلاً عن انه أراد أن يثبت لأهل مكة أن السلام والتعايش مع الآخر عنوان رسالته إلى البشرية، وأنه لا يزال منذ البدء بدعوته يفتح أمامهم أبواب الحوار للتوصل إلى حلول سلمية من دون إراقة قطرة دم واحدة، بوصف أن ذلك - أي التعايش - أحد أساليب الدعوة المهمة وليس إقراراً بواقع الشرك والقبول به، عملاً بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^{١٤}، ومثل هذا الأسلوب في الدعوة يتطلب أولاً العمل بالتعايش مع المدعوين.

٣- مبادرات النبي ﷺ السلمية حيال قريش :

لم يزل ﷺ منذ خروجه من المدينة متوجهاً إلى مكة يطلق مبادرات السلام لقريش رغبة منه في التوصل إلى حلول سلمية، وإفهامهم أنه لم يخرج لمقاتلتهم وإنما خرج معظماً لبيت الله الحرام، فقد جاءه بديل بن ورقاء الخزاعي من تهامة في نفر من قومه وكانوا عبيّة^{١٥} نصّح لرسول الله ﷺ فقال: إني تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي^{١٦} نزلوا أعداد^{١٧} مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل وهم مقاتلون وصادوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: إنا لم نجئ لقتال احد، ولكننا جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب،

وأضرت بهم فإن شاؤوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جموا^{١٨}، وقد انطلق بديل إلى قريش يخبرهم بما سمع من رسول الله ﷺ فاعرضوا عن ذلك^{١٩}. فهل هناك أوضح عبارة من أن يخبرهم بما يرونه ويختارونه من دون ضغط أو إكراه رغبة منه ﷺ في المعاشة السلمية حتى وإن خالفوه في العقيدة والمنهج، من غير تجاوز لأحد الطرفين على الآخر. وليثبت مثل هذه النيات السلمية الحسنة أرسل بشر بن سفيان وهو لا يزال في طريقه من المدينة إلى قريش رغبة منه في إحالة التوترات التي بينه وبين قريش إلى دائرة الحوار والنقاش للتوصل إلى حل سلمي يعطي لكلا الطرفين حقه دون اللجوء إلى استخدام السلاح وإراقة الدماء.

ولذلك قال لبشر بن سفيان بعد أن أخبره بخبر قريش: ((يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون...))^{٢٠} وتابع رسول الله ﷺ في إرساله الرسل إلى قريش محاولاً أن يفهمهم أنه لم يأت لقتالهم، وإنما جاء زائراً ومعظماً لبيت الله، فأرسل خراش بن أمية^{٢١} إلا أن قريش حاولت قتله فمنعهم الأحابيش^{٢٢} ثم أرسل عثمان بن عفان ليخبرهم بما جاء به رسول الله ﷺ لكن قريشاً احتبسته عندها لولا أنه دخل بجوار أحد أقاربه^{٢٣}.

وهكذا حاول ﷺ أن يتحاشى الصدام مع قريش بوسائل شتى، ليثبت لهم ولغيرهم من القبائل العربية أنه لم يشد الرحال إلى مكة لقتال أحد وإنما قصد تعظيم البيت والطواف به.

٤ - حيثيات قبول الصلح بين الطرفين :

مما لا شك فيه أن اللجوء إلى الصلح بين طرفين متنازعين له أسبابه

وحياته، وذلك لما تقتضيه مصلحة الطرفين، لأسبابها الخاصة والعامة، حتى وإن اختلفت في مضامينها، فهدف المسلمين الذين تمثلوا بقائدهم رسول الله ﷺ من هذا الصلح في الدرجة الأساسية هو حقن دماء الطرفين ما أمكن إلى ذلك سوى عناد قريش، فضلاً عما في نفوس المسلمين من شوق إلى دخول مكة والطواف بالبيت العتيق، لما توطنت عليه نفوسهم من حب هذا البيت، وأداء نسك العمرة. وفوق كل ذلك كانت هذه العمرة تهدف إلى إظهار مقدار ما بلغه المسلمون من قوة ونفوذ، ما يجعل المشركين يتحسبون للمسلمين كثيراً قبل المبادرة إلى قتالهم.

أما لقريش فكان دافعهم الأساسي في ذلك هوبيعة الرضوان التي عقدها رسول الله ﷺ مع صحابته الكرام، حين أشيع خبر مقتل عثمان بن عفان وسط قريش، فضلاً عن نقل بعض رسلهم حالة الحب والطاعة التي رأوها من صحابة رسول الله ﷺ لقاءهم، وأنهم سيبدلون نفوسهم دونه، فضلاً عن أن الطرفين قد أتعبتهما الحروب الطاحنة بينهما والتي دامت ما يقرب من ست سنوات راح ضحيتها الكثير من النفوس من لدن الطرفين، مع ضرورة التأكيد أن التعايش مع غير المسلمين لا يعني التسليم النهائي لما هم عليه، ولا سيما عند تعلق الأمر بالشرك، بل أن يكون التعايش وسيلة للدعوة العملية التي تقوم على تقديم النموذج الإسلامي الفذ وهو يتحرك أمام المشركين فيتأثرون به.

وهكذا نجح المسلمون في نشر دينهم في جنوب شرق آسيا، وفي إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى، إذ من المعروف تاريخياً أن هذه الأماكن لم يفتحها المسلمون عسكرياً، بل افتتحوها بالنموذج الإسلامي الحي يتحرك في أوساطهم عن طريق التجار والدعاة وغيرهم.

المبحث الثاني

استشراف الرسول ﷺ بدخول القبائل العربية في حلفه

١ - مقدمات الصلح :

بعد أن اقتنعت قريش ألا مجال أمامها إلا القبول بالصلح الذي يعرضه عليهم رسول الله ﷺ حلاً وسطاً للأزمة بينهم، شكلت وفداً من ثلاثة أشخاص للذهاب إلى النبي ﷺ لمناقشة الأمر، وهم حويطب بن عبد العزى^{٢٤} ومكرز بن حفص^{٢٥} ويرأسهما سهيل بن عمرو^{٢٦} الذي أعطته قريش صلاحيات مطلقة للتفاوض مع النبي ﷺ، شريطة أن يرجع المسلمون عن مكة عامهم هذا اذ قالوا له: ((ائتِ محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوةً أبداً))^{٢٧}، وتركت بقية التفاصيل لسهيل لما تعلمه فيه من القدرة والحنكة والدبلوماسية، فقد كان من خطبائهم الموهين، ولهذا حين رآه النبي ﷺ مقبلاً استبشر خيراً^{٢٨}.

ونقلت لنا كتب الحديث وكتب التاريخ تفاصيل الحوار الذي دار في أثناء الصلح، وكيف أن النبي ﷺ استطاع بحكمته وتسامحه وبعد نظره وعدم اهتمامه بالشكليات في المواقف المصيرية الخطرة وقدرته على تجاوز كل العقبات التي من شأنها أن تعيق أو تعرقل هذا الصلح، متخلياً عن بعض الأمور التي كان يرى بعض المسلمين أنها جوهرية اساسية.

من ذلك أنه ﷺ دعا الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) فقال له: ((اكتب بسم الله الرحمن الرحيم)) فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب ((بسمك اللهم)) كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا ((بسم الله الرحمن الرحيم)) فقال النبي ﷺ: اكتب ((بسمك اللهم))، ثم قال: ((هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله))

فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب ((محمد بن عبدالله)) فقال النبي ﷺ: والله إني لرسول الله وإن كذبتُموني، اكتب ((محمد بن عبدالله))^{٢٩} فضج المسلمون وارتفعت أصواتهم وقام رجال من أصحابه يقولون: لا نكتب إلا محمداً رسول الله، حتى إن بعضهم اخذ بيد كاتب الصلح يقولون: لا تكتب إلا محمداً رسول الله وإلا فالسيف بيننا، علام نعطي هذه الدنية في ديننا؟ فجعل رسول الله ﷺ يومئ بيده إليهم أن اسكتوا، حتى تعجب مفاوضو الكفار وقال احدهم: ما رأيت قوماً أحوط لدينهم من هؤلاء القوم^{٣٠}.

وقد عكس هذا الموقف المنهج الذي أراده النبي ﷺ لأمته في تعاملاتها وتعايشها مع المخالفين في العقيدة والمنهج، للوصول إلى غاية أسمى وهدف أرفع، على الرغم من تعالي أصوات المعارضين لكل بنود الصلح وعلى رأسهم عمر بن الخطاب، الذين أدركوا بعد ذلك غايات النبي ﷺ من عقده لهذا الصلح وتيقنوا ببعده نظره وتفكيره المستقبلي من أجل الدعوة والأمة معاً.

٢- شروط الصلح التي اتفق عليها النبي ﷺ مع القرشيين :

التجأت قريش إلى الصلح إلجاءً لأنها لم تكن راغبة في المسلمين ندأ لها في موقف مشترك، فيتحدث الناس عنها.

أما رسول الله ﷺ فكان يهدف من وراء الصلح إلى تحقيق مصالح للدعوة الإسلامية بعيداً عن السمعة والأغراض الشخصية، وليثبت لكل القبائل العربية أنه لم يكن رجل عنف وحرب، وإنما هو رجل سلام ودعوة، لكن قريشاً قوم يعتدون.

ويمكننا إجمال شروط الصلح بالنقاط الآتية:

- ١- على المسلمين أن يرجعوا إلى المدينة ولا يدخلوا مكة ذلك العام.
- ٢- من حق المسلمين أن يأتوا في العام القادم فيدخلوا مكة ليقضوا مناسك العمرة.
- ٣- تلتزم قريش بعدم التعرض للمسلمين حين يدخلون مكة، بأي نوع من أنواع التعرض.
- ٤- يلتزم المسلمون بأن لا يشهروا سلاحهم وهم بمكة، بل عليهم أن يتركوا السيوف في أعمادها ما داموا فيها.
- ٥- تترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أي المعسكرين شاءوا، ويدخلوا في عهد أي الفريقين أرادوا، ليكونوا جزءاً من ذلك المعسكر، فدخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ ودخلت بكر في حلف قريش^{٣١}.
- ٦- إنهاء حالة الحرب القائمة بين المسلمين وقريش، بقيام هدنة بين الطرفين لمدة عشر سنوات، يأمن الناس فيها على أنفسهم.
- ٧- إن بينهم عيبة مكفوفة^{٣٢}.
- ٨- انه لا إسلال ولا إغلال^{٣٣}.
- ٩- يلتزم النبي ﷺ بأن يرد إلى قريش كل من جاء إليه من أبنائها بعد إبرام هذه المعاهدة، إذا كان قد جاء بغير إذن أهله، وعلى النبي الالتزام بذلك حتى ولو كان اللاجئ مسلماً.
- ١٠- ليس على قريش أن ترد إلى النبي ﷺ من جاء إليها من المسلمين حتى ولو كان مرتدّاً عن دينه.
- ١١- تترك الحرية المطلقة للقبائل المجاورة للحرم لينضموا إلى أي المعسكرين شاءوا ويدخلوا في عهد أي الفريقين أرادوا، ليكونوا جزءاً من ذلك المعسكر فدخلت خزاعة في حلف النبي ﷺ ودخلت بكر في حلف قريش^{٣٤}.

المبحث الثالث: عالمية الدعوة الإسلامية

دلّ صلح الحديبية على مرونة الرسول ﷺ وبراعته وتفضيله المصلحة البعيدة المدى على المصلحة المؤقتة التي يمكن أن تكسب بالعاطفة، لكنها تفوت كثيراً من المكاسب السياسية، عملاً بالأساس الشرعي وهو معرفة خير الخيرين وشر الشرين. وفي هذا الصلح كان ﷺ لا يريد القتال بل يريد الطواف بالبيت الحرام، حتى إذا حصل ما قد حصل وأبدت قريش رغبتها في الصلح على الشروط التي اشرنا إليها سابقاً، وهي شروط لم يرضها المسلمون أول الأمر، اذ رأوا فيها ضعفاً وذلة، ولكن القائد الرسول ﷺ الذي يمتد بصره إلى ما لا يمتد إليه بصر جنوده المؤمنين، أصر على قبول الشروط، فلم يجد المسلمون بداً من القبول، وتبين فيما بعد أن هذه الشروط كانت من أسباب تعجيل النهاية المرتقبة للوثنية في جزيرة العرب، وإن صلح الحديبية كان الخطوة الأولى لفتح مكة واستسلام الوثنية استسلاماً لا قيام لها من بعده في جزيرة العرب.

هنا يجب أن يذكر الدعاة أن على القائد، أن يجنب الدعوة الأضرار والعقبات بأقل التضحيات، لأنه دفع الضرر مقدم على جلب المصلحة، وإن يتعامل مع الواقع مع حسن الاستعداد والاستفادة، كما فعل رسول الله ﷺ حين رأى إصرار قريش على أن لا يدخل المسلمون ذلك العام مكة أبداً، فرجع عنها هو وصحبه بعد أن أوشكوا على وصولها، وكان قادراً على أن يدخلها عنوة واقتداراً، ولكن المعركة يومئذ ستكلف المسلمين كثيراً من التضحيات، وما كسبه الإسلام من صلح الحديبية، كان أعظم سياسياً ودينياً وعسكرياً مما كان يكسبه لو دخل المسلمون آنذاك مكة عنوة، وما هو إلا انتظار ستين بعد ذلك حتى دخل الرسول ﷺ مكة فاتحاً، وقد استسلمت قريش، ثم دخلت في دين الله أفواجا، ولم يضع النبي ﷺ نصب

عينه سوى الثوابت الشرعية التي لا مساومة عليها وهي العمل على نشر الإسلام في جزيرة العرب، سواء كان ذلك عن طريق التعايش كأسلوب للدعوة أم باللجوء إلى القتال لقهر الوثنية اليائسة. وعبر هذا يمكننا تحليل التعايشات والتعاملات التي رسمها النبي ﷺ وحققتها مع الطرف الآخر عبر بنود الصلح:

أولاً: إشاعة الأمن والسلم: قال تعالى ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾^{٣٥}، فمن المعروف أن الأمن والاستقرار هو الجو المناسب والأكثر ملاءمة لعمل الدعوة حيث تسود أجواء (الحكمة والموعظة الحسنة) التي هي الأصل في الدعوة، فإذا أحال المشركون دون هذا المنهج فإن مقاتلتهم تصبح واجبة وضرورة لا بد منها. وهكذا نجد تأكيد كتب السيرة أن الذين دخلوا في الإسلام في سنتين من الهدنة مع مشركي مكة كان أكثر بكثير ممن دخلها في كل السنوات السابقة^{٣٦}.

ثانياً: تأكيد على أن الدخول في الدين يقوم على أساس حرية الإرادة الفردية للإنسان في اختيار دينه الذي يريد، عملاً بقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾^{٣٧} لذلك فإن المسلمين لما فتحوا البلاد لم يضعوا السيوف على رقاب الناس حتى يعتنقوا الإسلام، بل تركوا لهم حرية الاختيار، يقيناً منهم أن هؤلاء حين يجدون في الإسلام كل علامات الخير فإنهم سيختارونه، وهذا ما حصل بالفعل، بما في ذلك المجوس الذين كانوا (مشركين) فعلاً لعبادتهم النار واعتقادهم بأصلين قديمين للعالم، ولكن المسلمين وجدوا معهم (شبهة كتاب) فعدوهم من أهل الكتاب، لإتاحة الفرصة أمامهم للتعايش مع المسلمين فيفهموا عنهم دينهم. وهذا ما كان يبغيه النبي ﷺ من صلح الحديبية بإتاحة فرصة أفضل للمشركين للتعايش مع المسلمين ليفهموا منهم حقيقة دينهم وجوهره.

وذلك يتضمن تقرير حرية الفرد الدينية، ليصبح ذلك الصلح وسيلة هادئة من وسائل الاتصال بغير المسلمين تتيح أمامهم فرصة أفضل لمراجعة عقولهم وانفسهم.

ثالثاً: أعطت الهدنة فرصة لنشر الإسلام، وتعريف الناس به، مما أدى إلى دخول الكثير من القبائل العربية فيه، وهذا الأمر بالذات لم يكن ليحصل إلا من طريق تعايش وتعامل المسلمين مع غيرهم من المشركين ودعوتهم إلى دين الله، يقول الزهري: فما فتح في الإسلام فتح قبله، كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالإسلام عاقلاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تلك الستين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك^{٣٨}.

الخاتمة:

بوسعنا القول إن أهم النتائج التي توصل إليها الباحثان تكمن في النقاط الآتية :

- ١- إذا طلب المشركون وأهل البدع والطغاة والظلمة من المسلمين أمراً يعظمون فيه حرمة الله، أجيئوا لذلك وأعطوه وأعينوا عليه.
- ٢- خرج النبي ﷺ من المدينة متوجهاً إلى مكة لا يريد قتال أحد وإنما قاصداً الطواف بالبيت، وما يؤكد ذلك أنه لم يحمل معه عدة الحرب والمهجوم بل ما كان معه هو عدة الدفاع عن النفس والسيوف في اغمارها.
- ٣- تبين عبر معطيات الأحداث، والتنازلات التي قدمها رسول الله ﷺ للقرشيين عند عقد الصلح، أنه ﷺ لم يكن رجل عنف، بل رجل سلام وموادعة، غير أن الأمر إذا تطلب القتال فلا بد منه، وذلك ما حصل فعلاً في وقائع كثيرة عند عدم استجابة المشركون لداعي الحق.
- ٤- يتصرف القائد في بعض الأحيان بما قد يخالف رغبات جنوده، كما فعل ﷺ عند عقد الصلح، وذلك لمصلحة مستقبلية خفية.
- ٥- رسم ﷺ للمسلمين على مدار التاريخ، طريقاً في التعامل، وعقد الاتفاقات مع غير المسلمين، على وفق ما قد يرونه مناسباً في زمانهم، وموافقاً لمقتضيات عصرهم، واتساقاً مع الثوابت الشرعية المعروفة.
- ٦- يمكن الاستفادة من صلح الحديبية، لرسم الحدود التي يمكن للمسلمين أن يتعايشوا عبرها مع غيرهم وفقاً للضوابط الإسلامية، التي يمكن أن تحدد في حينها.

الهوامش

- ١- -
- ٢- ينظر: الحموي: معجم البلدان ٢ / ٢٩٥ .
- ٣- -
- ٤- -
- التجمع، وقيل حالفوا قريشا تحت جبل يسمى حيشاً، فسموا بذلك. ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث: ١ / ٣٢٤ .
- ٥- -
- ٦- ٢ / ٩٥ ؛ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣ / ٢٥٧ ؛ الزرقاني، شرح المواهب ألدنية بالمنح المحمدية للقسطلاني ، ضبطه وصححه: محمد عبد العزيز أخلالدي: ٣ / ١٧٤ ، والحديبية: بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وياء موحدة مكسورة، وياء اختلفوا فيها فمنهم من شددوها ومنهم من خففها، وهي قرية ليست بالكبيرة سميت بيئر هناك عند مسجد الشجرة التي بايع الرسول ﷺ تحتها بينها وبين مكة مرحلة بعضها في الحل وبعضها في الحرم. ينظر: الحموي، معجم البلدان: ٢ / ٢٢٩ .
- ٧- -
- لسان العرب: ٤ / ١٦٤ .
- ٨- -
- دخولها. ينظر: ابن حجر، فتح الباري: ٥ / ٣٣٦ .
- ٩- -
- ١٠- -
- فيه حرمة من حرمة الله تعالى، أجيئوا إليه وأعطوه، وأعينوا عليه، وان منعوا غيره، فيعاونون على ما فيه تعظيم حرمة الله تعالى. ينظر: زاد المعاد: ٣ / ٢٦٩ .
- ١١- -
- وأحد المكثرين من الرواية عنه، قال: قدم النبي ﷺ المدينة وأنا ابن عشر سنين، وأن أمه أم سليم أتت به النبي ﷺ لما قدم فقالت له: هذا أنس غلام يخدمك، فقبله، سكن بعد وفاة رسول الله في البصرة، ومات سنة (٩٢هـ) ينظر: ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة: ١ / ٢٧٥ .
- ١٢- -
- ٢ / ٢، ٢ ؛ ابن حنبل، المسند: ١٩ / ٢٥٨ ؛ والآية ٢٤ من سورة الفتح.

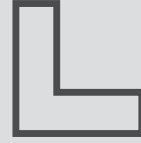
- ١٣- ٣١٤ / ٢ .
- ١٤- ١٣٢ / ٥ .
- ١٥- ١٢٥ .
- ١٦- ﷺ ((الأنصار عيبتني)) وهم مستودع السر . ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٢ / ٢٧٧ .
- ١٧- أنسابهم إليهما . فتح الباري: ٣٣٨ / ٥ .
- ١٨- أي قرب المياه الدائمة التي لا تنقطع . ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ١٦٦ / ٢ .
- ١٩- جموا: بمعنى استراحوا وكثروا . ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ١ / ٢٩٣ .
- ٢٠- ٤١٢ / ٥ .
- ٢١- ٢١٢ / ٣١ وقال عنه الشيخ شعيب إسناده حسن . السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ٤١ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٤ / ٣٧٦ .
- ٢٢- وحلق رأس رسول الله ﷺ وهو الذي حمل رسالة رسول الله ﷺ إلى مكة يوم الحديبية . ينظر: ابن حجر، الإصابة: ٢ / ٢٣١ .
- ٢٣- ٢١٢ / ٣١ وقال عنه الشيخ شعيب إسناده حسن .
- ٢٤- ٢٦٩ / ٢ ؛ السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ٤٧ ؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ٤ / ٣٧٩ ؛ باشميل، موسوعة الغزوات الكبرى، صلح الحديبية: ١٩٣ / ٥ .
- ٢٥- حينئذ، وكان من المؤلفه، كان احد المفوضين عن قريش في صلح الحديبية، عاش مائة وعشرين سنة، مات في خلافة معاوية سنة (٥٤هـ) ينظر: ابن حجر، الإصابة: ٢ / ١٢٤ .
- ٢٦- لافتداء سهيل بن عمرو في بدر من المسلمين . ينظر: ابن حجر، الإصابة: ٦ / ١٦٣ .
- ٢٧- في صلح الحديبية، اسلم بعد فتح مكة، ذكر ابن إسحاق أن النبي ﷺ أعطاه مائة من الإبل من المؤلفه، حسن إسلامه، خرج للجهاد في سبيل الله حتى مات بطاعون في الشام . ينظر: ابن حجر، الإصابة: ٣ / ١٧٧ .

- ٢٨- ٢٧ / ٢. ابن حبان، السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: ٢٨٣ / ١.
- ٢٩- ٤٨ / ٤. الجكني، السيرة النبوية من فتح الباري للعسقلاني: ٢ / ٢١١؛ باشميل، موسوعة الغزوات الكبرى، صلح الحديبية: ٥ / ٢١٦.
- ٣٠- ٤١٢ / ٥ وما بعدها؛ بحرق الحضرمي، حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، ص ٣٢٦.
- ٣١- ٦١١ / ٢.
- ٣٢- مع فتح الباري: ٧ / ٥٧٦. وما بعدها؛ مسلم، صحيح مسلم مع إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٦ / ١٤٨ وما بعدها؛ أبي داود، سنن أبي داود مع عون المعبود: ١ / ١٢٤٩ وما بعدها؛ ابن القيم، زاد المعاد: ٣ / ٢٦٦؛ وكتب التاريخ العام والخاص.
- ٣٣- بالصالح، والمكفوفة: المشرجة المشدودة، وقيل أراد بينهم مودة ومكافاة عن الحرب، تجريان مجرى المودة التي تكون بين المتصافين الذين يثق بعضهم إلى بعض. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٢ / ٢٧٧.
- ٣٤- الليل إذا انتزعه من بين الإبل، وهي السلة، وقيل هو الغارة الظاهرة. ينظر: ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: ٢ / ٣١٦.
- ٣٥- فتح الباري: ٧ / ٥٧٦ وما بعدها؛ مسلم، صحيح مسلم مع إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٦ / ١٤٨ وما بعدها؛ أبي داود، سنن أبي داود مع عون المعبود: ١ / ١٢٤٩ وما بعدها؛ ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد: ٣ / ٢٦٦؛ وكتب التاريخ العام والخاص.
- ٣٦- ٢٧.
- ٣٧- ٢٧٥ / ٢.
- ٣٨- ٢٥٦.
- ٣٩- ٢٧٤ / ٢.

المصادر والمراجع :

- ابن الأثير: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦هـ) * النهاية في غريب الحديث، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيحا، ط ٢، دار المعرفة، (بيروت - ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٢م).
- باشميل: محمد احمد * موسوعة الغزوات الكبرى، صلح الحديبية، ط ٣، المكتبة السلفية، (القاهرة - ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م).
- بحرق الحضرمي: محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي (ت: ٩٣هـ) * حقائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار، اعتنى به: محمد غسان نصوح عزقول، ط ٢، دار المنهاج للنشر والتوزيع (جدة - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م).
- البخاري: محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ) * صحيح البخاري مع فتح الباري، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، ط ٤، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م).
- ابن حبان: أبي حاتم محمد بن احمد البستي (ت: ٣٥٤هـ) * السيرة النبوية وأخبار الخلفاء، تحقيق: الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، ط ٣، دار الفكر (بيروت - ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م).
- ابن حجر: احمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) * فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحمد فؤاد عبد الباقي، ط ٤، دار الكتب العلمية (بيروت - ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٢م).
- ابن حنبل: احمد بن حنبل (ت: ٢٤١هـ) * المسند، تحقيق: الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط ٢، مؤسسة الرسالة (بيروت - ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م).
- الجكني: محمد الأمين بن محمد بن محمود * السيرة النبوية من فتح الباري للعسقلاني (ت: ٨٥٢هـ) دار ابن حزم (بيروت - ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م).
- * أبو داود: سليمان بن الأشعث (ت: ٢٧٥هـ) * سنن أبي داود مع عون المعبود، اعتنى به: أبو عبد الله النعماني، دار ابن حزم (بيروت - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م).
- * السهيلي: عبد الرحمن بن عبد الله بن احمد الخثعمي (ت: ٥٨١هـ) * الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام، دار الكتب العلمية (بيروت - بلا).
- ابن القيم: محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي (ت: ٧٥١هـ)

- * زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و عبد القادر الأرنؤوط ط ٤، مؤسسة الرسالة (بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٢ م).
- ابن منظور: (ت: ٧١١ هـ)
* لسان العرب، تصحيح: أمين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق ألبعدي، ط ٣، دار إحياء التراث العربي (بيروت - بلا).
* ابن هشام: عبد الملك (ت: ٢١٨ هـ)
* السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا و إبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، ط ٢، دار المعرفة (بيروت - ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م).
* زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط و عبد القادر الأرنؤوط ط ٤، مؤسسة الرسالة (بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٢ م).
- ابن كثير: أبي الفداء إسماعيل (ت: ٧٧٤ هـ)
* البداية والنهاية، تحقيق: دحي الدين ديب مستو و د علي أبو زيد أبو زيد، دار ابن كثير (بيروت - ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٦ م).
* الواقدي: محمد بن عمر بن واقد (٢٠٧ هـ)
* المغازي، عالم الكتب (بيروت - بلا).
* مسلم: مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١ هـ)



**موقف الرسول الاعظم ﷺ من العداء اليهودي للإسلام
في المدينة
- دراسة في التسامح النبوي -**

أ.د. فتحي سالم حميدي اللهيبي
رئيس قسم التاريخ / كلية التربية الاساسية / جامعة الموصل /
العراق



**The position of the greatest Messenger (may
God bless him and his family) on the Jewish
hostility to Islam in Medina
- A study of prophetic tolerance -**

**Dr. Fathi Salem Hamidi Al-Lahibi
Head of the Department of History / College
of Basic Education
University of Al Mosul / Iraq**

الملخص

لقد كان للتسامح الإسلامي مع اليهود كجزء من أهل الذمة بدءاً من عهد الرسول ﷺ وحتى يومنا هذا، أثره في أن يحيا حياة حرة كريمة في ظل الدولة العربية الإسلامية، بفضل المبادئ الإسلامية التي تدعو إلى الرحمة والمودة والتسامح مع أتباع الديانات الأخرى، إذ احتضنهم وعاملهم معاملة المسلمين في الحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم وصيانة كرامتهم، وهذا ما لم يمنحه لهم أي دين أو أمة عاشوا في كنفها، ودانوا بغير دينها عبر العصور، فقد ترك لهم الإسلام حرية ممارسة شعائرهم الدينية، وممارسة مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية، فلم يجدوا أمامهم أي عائق في امتحان أي عمل يرغبون به، فمارسوا شتى الأعمال والوظائف الرسمية الحساسة، دون أي مضايقة أو حساسية تجاههم، وهذا ما أكدته المصادر العربية الإسلامية، في ضوء إيرادها للكثير من الروايات التي تبين أثرهم في مختلف جوانب الحياة.

وسنبين في هذا البحث موقف الرسول ﷺ المتسامح ورحمته مع يهود المدينة المنورة على الرغم مما أظهرها من عدااء للدعوة الإسلامية، وعدم اعتراف بنبوته ﷺ، ومحاربته في ضوء التحالف مع أعدائه من قريش، ولا سيما أنهم شكلوا خنجر خاضع للمسلمين في المدينة، وعلى الرغم من ذلك فإن الرسول الكريم ﷺ، عاملهم بكل تسامح، إذ أقر ما لهم من حقوق، وثبت ما عليهم من واجبات، منذ هجرته إلى المدينة وإصداره الصحيفة التي عرفت بدستور المدينة، التي عدهم بموجبها جزءاً من مجتمع المدينة، ولم يشنه عن ذلك عدم دخولهم في الإسلام، منطلقاً من قاعدة لا إكراه في الدين، إلا أنهم لم يراعوا هذا العهد، فأعلنوا الحرب على

الرسول ﷺ وأصحابه، ورغم انتصاره ﷺ عليهم، لكنه لم يتعامل معهم معاملة المنتصر المتجبر، بل تعامل معهم معاملة المنتصر العادل، فأمنهم على حياتهم وحياة أسرهم، كما سمح لهم بالجلاء عن المدينة، فضلاً عن حمل كل ما يتمكنون من حمله من أموال وأمتعة، على الرغم من قدرته على مصادرتها دون أن يتمكنوا من فعل شيء.

إن ما سنورده في هذه الدراسة عن التسامح النبوي تجاه يهود المدينة المنورة على الرغم من عدائهم للرسول ﷺ ومحاربتة، يفند الافتراءات التي أطلقها ولا يزال يطلقها أعداء الإسلام والحاقدون عليه، ويدحض الروايات القائلة بهتاناً بمصادرة الإسلام حرية أتباع الديانات الأخرى، وسلب حقوقهم في ظل المجتمع العربي الإسلامي، لذلك آمل أن يكون لهذه الدراسة أثرها في الرد على هذه الهجمة الحاقدة والإدعاءات الزائفة.

Abstract

The position of the Prophet, peace and blessings be upon him, on the Jewish hostility to Islam in Medina (A Study in Prophetic Tolerance)

The Islamic tolerance towards the Jews as part of the people of dhimma, starting from the era of the Messenger (peace be upon him) and to this day, has had its impact on them living a free and dignified life under the Arab Islamic state, thanks to the Islamic principles that call for mercy, affection and tolerance with followers of other religions, as he embraced them and treated them as treats. Muslims in preserving their lives and property and preserving their dignity, and this is not granted to them by any religion or nation they lived under, and condemned other than its religion throughout the egas .

Islam left them the freedom to practice their religious rites, and to practice the various aspects of social, economic and scientific life. They did not find any obstacle in front of them in the practice of any work they desired, so they practiced various sensitive official jobs and functions, without any harassment or sensitivity towards them, and this was confirmed by the Arab and Islamic sources. Through her many novels that show their role in various aspects of life .

In this research, we will show the tolerant attitude of the Messenger (peace be upon him) and his mercy towards the Jews of Medina despite what they showed of their hostility to the Islamic call, and the lack of recognition of his prophethood, and his war through alliance with his enemies from the Quraish, especially that they formed a dagger to the side of the Muslims in Medina. The Noble Messenger, peace be upon him, treated them with all tolerance, as he acknowledged their rights and

established their duties, since his migration to Medina and his issuance of the newspaper that was known as the Medina Constitution, according to which he considered them part of the Medina society, and was not deterred by their non-conversion to Islam, starting from A rule that there is no compulsion in religion, except that they did not observe this covenant, so they declared war on the Messenger (peace be upon him) and his companions, and despite his victory over them, PBUH, he did not deal with them as the arrogant victor, rather he dealt with them as the just victor.

He secured their lives and the lives of their families, and allowed them to leave the city, in addition to carrying whatever money and luggage they could carry, despite his ability to confiscate them without being able to do anything. What we will report in this study about the prophetic tolerance towards the Jews of Medina despite their hostility to the Messenger (peace be upon him) and his war against him, refutes the slanders that the enemies and haters of Islam have made and continue to make, and refute the slanderous narratives that Islam confiscates the freedom of followers of other religions, and robs them of their rights in the shadow of the Arab society. Therefore, I hope that this study will have its role in responding to this malevolent attack and false allegations.

توطئة

في الحقيقة إن حالة التأثير والتأثر بين اليهود وأبناء المجتمع العربي الإسلامي ، كان نتيجة للتسامح الإسلامي الذي ابتداءً منذ عهد الرسول ﷺ ، وكان له دور كبير في أن يحى اليهود حياة حرة في ظل الدولة العربية الإسلامية ، بفضل المبادئ الإسلامية التي تدعو إلى الرحمة والمودة والتسامح مع أتباع الديانات الأخرى ، إذ احتضنهم وعاملهم معاملة المسلمين في الحفاظ على حياتهم وممتلكاتهم وصيانة كرامتهم ، وهذا ما لم يمنحه لهم أي دين أو أمة عاشوا في كنفها ، ودانوا بغير دينها عبر العصور ، فقد ترك لهم الإسلام حرية ممارسة شعائرهم الدينية ، وممارسة مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعلمية ، فلم يجدوا أمامهم أي عائق في امتحان أي عمل يرغبون به ، فمارسوا شتى الأعمال والوظائف الرسمية الحساسة ، دون أي مضايقة أو حساسية تجاههم ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن بعض الوظائف والمهن أصبحت حكراً عليهم ، وكان ذلك موضع قبول من أبناء المجتمع العربي في العصور الإسلامية وعلى المستويين الرسمي والشعبي ، وهذا ما أكدته المصادر العربية الإسلامية ، في ضوء إيرادها للكثير من الروايات التي تبين أثرهم في مختلف جوانب الحياة. إن ما سنورده في هذه الدراسة عن التسامح النبوي تجاه يهود المدينة المنورة على الرغم من عدائهم للرسول ﷺ ومحاربتة ، يفند الافتراءات التي أطلقها ولا يزال يطلقها أعداء الإسلام والحاقدون عليه ، ويدحض الروايات القائلة بهتاناً بمصادرة الإسلام لحرية أتباع الديانات الأخرى ، وسلب حقوقهم في ظل المجتمع العربي الإسلامي ، لذلك أمل أن يكون لهذه الدراسة أثرها في الرد على هذه الهجمة الحاقدة والإدعاءات الزائفة .

أولاً: التسامح النبوي مع اليهود في دولة المدينة

بعد هجرة الرسول ﷺ ووصوله إلى المدينة في سنة ٦٢٢م انتقلت الدعوة الإسلامية إلى مرحلة جديدة في تاريخ الدولة العربية الإسلامية الفتية ، حيث بدأت تبلور فيها معالم الدولة الأولى ، التي اعتمدت في قيامها على مبدأ الاخاء الإسلامي بين المسلمين على اختلاف قبائلهم وألوانهم ، فأصدر الرسول الكريم ﷺ وثيقة المدينة التي مثلت أول دستور إسلامي نظم العلاقات بين سكانها على اختلاف أطرافهم من مسلمين ويهود ، فقد كان التعايش بين مختلف الطوائف المحور الأساس لهذا الدستور الذي ركز عليه كثيراً ، إذ اهتم بتنظيم العلاقات بين المسلمين من جهة ، وأصحاب الأديان الأخرى من جهة ثانية ، ولا سيما ما يتعلق بالحرية الدينية^(١) ، فاشتملت وثيقة المدينة أو ما عرف بدستورها على خمسين بنداً ، اختص خمسة وعشرون بنداً منها بالمسلمين ، بينما اختص سبعة وعشرون بنداً بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الديانات الأخرى ، ولا سيما اليهود ، وقد وضعه الرسول ﷺ بشكل يضمن لهم العيش مع المسلمين بحرية ، كما منحهم حرية إقامة شعائرهم وطقوسهم الدينية دون أي مضايقات^(٢) .

عزز دستور المدينة وحدة المسلمين واليهود في المدينة والقبائل العربية فيها ضد أي خطر خارجي ، وأصبح الرسول الكريم ﷺ بموجبه هو الحاكم السياسي والإداري والعسكري للمدينة ، والمرجع الوحيد لحل الخلافات التي قد تنشأ بين جميع الأطراف ، وكان الاعتراف السياسي بقيادته اعترافاً ضمناً بنبوته^(٣) ، ويطول الحديث عن دستور المدينة بكل جوانبه ، إلا أن ما يعنينا منه البنود التي تتعلق باليهود ، والتي اتضح في غيرها التسامح الإسلامي تجاههم بشكل جلي .

يتضح الموقف المتسامح للرسول ﷺ تجاه اليهود ، والداعي الى التعايش بين المسلمين واليهود والقبائل العربية التي لم تعتنق الإسلام بعد ، إذ كان التعايش بين مختلف الطوائف في الدولة العربية الإسلامية الناشئة واحداً من أهم الأهداف التي سعى إلى تحقيقها الدستور الإسلامي^(٤) ، وتمثلت بنود الدستور المدني التي تتعلق بموادعة اليهود بالآتي:

ما يخص موادعة اليهود كما يأتي :

١. إن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .
٢. جعل لليهود بني ثعلبة ذات الحقوق التي منحها لليهود بني عوف ، إلا من ظلم وأثم^(٥) ، فإنه لا يوتغ^(٦) إلا نفسه وأهل بيته .
٣. حدد نفقة كل منهم فعلى اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .
٤. وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة - الدستور - أي أن ينصر بعضهم بعضاً في حالة تعرض كل منهم لعدوان .
٥. نص على أن يكون بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم ، فالأصل في العلاقة بين جميع طوائف الدولة - مهما اختلفت معتقداتهم - هو النصح المتبادل ، والنصيحة التي تنفع البلاد والعباد ، والبر والخير والصلة بين هذه الطوائف .
٦. وإذا دعوا إلى صلح يصلحونه ويلبسونه ، فإنهم يصلحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك ، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين .
٧. وإن يهود الأوس موالوهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة - الدستور - مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة ، وإن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه ، وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره .
٨. وإنه لا يحول هذا الكتاب - الدستور - دون ظالم أو آثم ، وإنه من خرج

آمن ومن قعد آمن بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جبار لمن بر واتقى ،
ومحمد رسول الله ﷺ^(٧) .

في الحقيقة إن مجمل ما ورد في البنود السابقة الذكر ، قد كفل حق اليهود في العيش بسلام وأمن وأمان في ظل الدولة العربية الإسلامية ، إذ التزموا بها ولم ينقضوها ، فقد كلفوا في الدفاع عن المدينة إلى جانب المسلمين ، إذا ما تعرضت لخطر خارجي يهددها ، وكل منهم مسؤول في الدفاع عما يقابل حصنه ، ويقوم برد أي خلاف ينشأ بينهم وبين بقية سكان المدينة من مسلمين ومشركين إلى الرسول ﷺ لإنصاف المظلوم منهم ، كما منحهم حرية عقد الاحلاف والصلح مع أي جهة باستثناء من يجاربون الله ورسوله ، كما أنها جعلت اليهود ضمن الحرم الذي أقر للمدينة باستثناء الظلمة منهم والآثمين ، وفي الوقت نفسه منحت الوثيقة حق الخروج من المدينة لمن لا يستطيع الالتزام ببندوها المذكورة ، وجعلته مخيراً لمن يرى ان لا قبل له بحرب قريش أو لا شأن له في حربها ، وقد هدف الرسول ﷺ من هذا البند قطع الطريق على من قد تحول المصالح الشخصية إلى عين لقريش على المسلمين في المدينة ، فيخرجون ويدخلون إليها دون رقابة ، كما أن الذي يمكن ملاحظته من هذه الوثيقة أن الرسول ﷺ لم يلزم اليهود أو الأنصار بالخروج في السرايا الأولى التي أرسلها لاعتراض قوافل قريش ، بل حصرها في المهاجرين لأنهم هم من تضرر من قريش التي أخرجتهم من ديارهم وصادرت أموالهم^(٨) .

لقد قابل اليهود تسامح الرسول ﷺ وحسن تعامله معهم بالجحود ، ويعد توماس آرنولد^(٩) من المستشرقين الذين وصفوا موقف اليهود المتعنت وجحودهم ، إذ يقول : ((وقد حاول محمد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة ، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدسة ، ومنحهم الحرية

التامة في إقامة شعائرهم الدينية ، وساوى بينهم وبين المسلمين في الحقوق السياسية ، ولكنهم قابلوا صنيعه باستهزاء وسخرية)) ، وهذا ما سنفصل الحديث عنه في المبحث اللاحق .

ثانياً : الموقف الجاحد لليهود ازاء التسامح النبوي في دولة المدينة على الرغم من معرفة اليهود التامة بصدق الرسالة التي نزلت على الرسول الكريم محمد ﷺ ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين ، كما ورد في الكتب السماوية ، إلا أن عنادهم وتعنتهم واستكبارهم وحقدهم على الرسول ﷺ والذين آمنوا معه ، كان السبب في عدم إيمانهم ، فاستمروا في جدالهم وخصامهم ، وقد قدم لنا القرآن الكريم في مواضع كثيرة صورة واضحة عن مجادلة اليهود الصريحة للرسول ﷺ ، وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على امتداد حاضرهم بتاريخهم ، وجاءت هذه الصور لتعير اليهود بمواقفهم السابقة في العصور السالفة مع أنبيائهم ، وعلى الرغم من وجود الكثير من صور الجدل والتعنت في توراتهم ، التي أنكرت ما كانوا يقومون به ، إلا أنهم كانوا يرون أن كتابهم المقدس الذي ضم في طياته تاريخهم وقصص أنبيائهم كتاب مقدس . أما القرآن الكريم فإنهم ينظرون إليه على أنه كتاب محمد ﷺ وأصحابه ، لذلك كان هجاؤه وتعييره لهم أشد وقعاً في نفوسهم ، وعندما كان القرآن ينزل كان كل من يقرأه يعلم أن آياته تشير إلى أناس أحياء من اليهود منهم الأحبار والزعماء ، ممن أمعنوا في الجدل والإعراض عن الإسلام ، فيجاريهم الرسول ﷺ وأصحابه ، ويخالطونهم رغم تعنتهم ولجاجتهم ، ويردون عليهم بما يأتي به الوحي^(١٠) ، وإن دل هذا على شيء ، فإنما يدل على سماحة الإسلام وعدالته تجاه اتباع الديانات السماوية الأخرى حتى وإن بدأوهم الخصام .

لقد أشار الدكتور عماد الدين خليل^(١١) إلى أن السبب الرئيس للعداء

اليهودي تجاه الرسول ﷺ وبغضهم الكبير له ، يرجع إلى أنهم كانوا يتوقعون أن النبي الذي سيبعث منهم ، وإنهم سيتبعونه ليقودهم ويقضي على أعدائهم ، وهذا ما كانوا دائماً يتوعدون به العرب بقرب حدوثه فلما بعث الرسول ﷺ من بين العرب ، ازداد حقدهم وحسدهم ، فاخذوا يكيدون ويدبرون المؤامرات والمكائد للرسول ﷺ ودعوته وأصحابه ، وعلى الرغم من المحاولات العديدة التي قام بها الرسول ﷺ لكسبهم وتألف قلوبهم في ضوء الدستور الذي وضعه والمعاملة الحسنة ، إلا أنهم بقوا على موقفهم العدائي .

وتدل جميع مواقف اليهود التي قاموا بها على عجزهم وضعفهم ، ومدى الوهن الذي وصلوا إليه ، فلجأوا إلى التظاهر بالسلام ، وحسن النية وهذه إحدى وسائلهم الخبيثة^(١٢) ، ولم يتوقف الأمر على الاساءة إلى الرسول الكريم ﷺ وحده ، بل تعداه إلى بقية الرسل والأنبياء ﷺ ، ولكن الرسول ﷺ كان حليماً متسامحاً عادلاً حتى مع خصومه ، وتتضح سياسته ﷺ تجاه موقفهم المعادي عبر سؤالهم للرسول ﷺ عن الرسل الذين يؤمن بهم ، فأجابهم ﷺ : ((نؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون)) ، فلما ذكر السيد المسيح ﷺ ، وقالت اليهود : إننا لا نؤمن بعيسى ابن مريم ، ولا نؤمن بمن آمن به^(١٣) ، فأنزل الله فيهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ﴾^(١٤) .

وقد حاورهم الرسول ﷺ في مواضع أخرى معتمداً أسلوباً آخر اتسم بالحكمة والفكر الراقي لكسبهم إلى الإسلام عن طريق محاجتهم في قاداتهم وزعمائهم وأخبارهم ، ولا سيما بعد أن بذلوا كل ما في وسعهم لصد الرسول ﷺ عن الدعوة للإسلام في مجالسهم ، كما أنهم اغتاظوا كثيراً من أبناء جلدتهم ممن دخلوا الإسلام ، فشككوا بهم واتهموهم باطلاً ، ولا سيما أخبارهم كعبد الله بن سلام ، الذي التقى بالرسول ﷺ وحاوره وطرح عليه ثلاثة أسئلة ، قائلاً للرسول ﷺ لا يعلم جوابهن إلا نبي ، فقال : ما أول أشرط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فأجابهم الرسول ﷺ قائلاً : ((خبرني بهن أنفا جبريل)) ، فقال عبد الله بن سلام : ذاك عدو اليهود من الملائكة ، فقال الرسول ﷺ : ((أما أول أشرط الساعة : فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب ، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة : فزيادة كبد الحوت ، وأما الشبه في الولد ، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له ، وإذا سبقه ماؤها كان الشبه لها)) ، فما كان من عبد الله إلا أن دخل الإسلام وآمن بالرسول ﷺ ، وبما أنه على معرفة كبيرة بخداع اليهود وخبثهم وعنادهم ، فخاطب الرسول ﷺ قائلاً : يا رسول الله ، إن اليهود قوم بهت ، وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك ، وعندما جاء اليهود إلى الرسول ﷺ دخل عبد الله البيت ، فقال الرسول ﷺ : ((أي رجل فيكم عبد الله بن سلام)) ، فقالوا له : هو أعلمنا وابن أعلمنا ، وأخيرنا وابن أخيرنا ، فقال الرسول ﷺ : ((أفأريتم إن أسلم عبد الله)) ، فقالوا : أعاذه الله من ذلك ، فخرج عليهم عبد الله قائلاً : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، فقالوا : إنه شرنا وابن شرنا ، ووقعوا فيه^(١٥) .

لم يترك اليهود وسيلة إلا واستخدموها ضد الرسول ﷺ وأصحابه ، وكانت الاشاعات المغرضة واحدة منها ، فكانوا يتحينون الفرصة تلو الأخرى للنيل من الرسول الكريم ﷺ وأصحابه وتفريق كلمتهم ، فاتخذوا من حادثة وفاة أسعد بن زرارة الأنصاري الخزرجي ، الذي مرض فعاده ، وأمر بكيه على عنقه لغرض العلاج ، ولما مات ، فقال الرسول ﷺ : ((بئس الميت لليهود ، يقولون : قد داواه صاحبه أفلا نفعه))^(١٦) ، ومن الاشاعات اليهودية الأخرى التي ادعوها ، بأنهم سحروا المسلمين ، فلا يولد لهم ولد أبداً ، وذلك من أجل التضيق على المسلمين وإفساد حياتهم ، وتعكير جو الوئام الذي ساد حياتهم التي عاشوها في ظل الإسلام ، ولكن الله أخزى اليهود بولادة عبد الله بن الزبير - أول مولود للمهاجرين في المدينة - وكذب ادعاءاتهم^(١٧) .

عندما جاء الأمر الإلهي بتغير القبلة من بيت المقدس الذي اتخذته الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة المنورة ، والتوجه في الصلاة نحو الكعبة بعد سبعة عشر شهراً من التوجه إليه^(١٨) ، وفي هذه الحادثة ظهرت سفاهة اليهود وبهتانهم لاعتراضهم على تحويل القبلة من بيت المقدس إلى مكة ، كما مثلت هذه الحادثة حداً فاصلاً بين حرب المناظرات والجدال الكلامي إلى الصدام المسلح ، كانت نتيجته إجلأؤهم من المدينة المنورة .

ثالثاً : التسامح النبوي تجاه يهود المدينة في مرحلة الصدام المسلح
بعد النصر الذي حققه المسلمون على كفرة قريش ومردتها في معركة بدر سنة ٢هـ / ٦٢٣ م ، بدأت مخاوف اليهود في المدينة تزداد ، ومن أجل إضعاف عزيمة المسلمين والخط من شأن انتصارهم ، أخذ أحبارهم بالتشكيك في أهمية هذا الانتصار ، فرأى الرسول ﷺ ضرورة وضع حد لهذه التصرفات العدائية ، إلا أن التزامه في الحفاظ على العهود والمواثيق التي قطعها للقبائل اليهودية ، جعلته غير راغب في قتالها جميعاً ، ولا بد من حصر المواجهة فيمن ينقض العهود والمواثيق فقط ، ولم يحاول أن يمد صراعه مع إحداها ليشمل بقية القبائل الأخرى طالما بقيت على الحياد ، على الرغم من إدراكه التام للمشاعر السلبية التي كان يحملها تجاهه اليهود كافة ، هكذا بدأ الصدام والصراع المسلح مع يهود بني قينقاع في سنة ٢هـ / ٦٢٣ م لينتهي مع يهود بني قريظة سنة ٦هـ / ٦٢٧ م^(١٩) ، حيث تمت تصفية الوجود اليهودي في المدينة .

١ : بنو قينقاع

يعد بنو قينقاع أول من نقض العهود والمواثيق مع الرسول ﷺ من القبائل اليهودية في المدينة ، وتحذوه من أجل المواجهة في ساحات القتال^(٢٠) ، وكانوا حلفاء للخزرج وهم من أشجع اليهود^(٢١) ، وقد ارتبطوا باتفاق مع الرسول ﷺ بعد الهجرة وعاهدوه على ألا يحاربوه ، ولا يوالوا عليه عدوه ، بعد أن ألحقهم بحلفائهم من الاوس ، وجعل بينه وبينهم أماناً^(٢٢) ، إلا أنهم لم يلتزموا بالاتفاق المعقود ، فنقضوا العهد ، وأظهروا البغي والحسد للمسلمين ، وقطعوا ما كان بينهم واتضح ذلك بشكل جلي بعد انتصار المسلمين في معركة بدر سنة ٢هـ / ٦٢٣ م ، فعندما ارسل الرسول ﷺ زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة إلى المدينة ليزفا بشرى نصر المسلمين على

قريش ، صعد اليهود والمنافقين بهذا الخبر ، وأخذوا يقولون : ((ما جاء زيد إلا فلا))^(٢٣) أي إن محمداً قد قتل وهزم اتباعه ، واستدلوا بناقته التي كان يركبها زيد ، قائلين لو كان محمد حياً لبقيت راحلته عنده^(٢٤) .

لقد كان بنو قينقاع أشد عداً للرسول ﷺ والمسلمين من بقية القبائل الأخرى من يهود المدينة ، وأسبقها إعلاناً لهذا العدا ، ويرجع ذلك إلى أسباب عدة منها العدا الديني للإسلام والمسلمين من جهة فهم حلفاء لعبد الله بن أبي سلول سيد الخزرج ورأس المنافقين الذي حرم من الملك في المدينة بقدوم الرسول ﷺ إليها ، ومن جهة أخرى كان اليهود أكثر ضيقاً بالرسول ﷺ والمسلمين من بقية اليهود الآخرين ، وذلك يرجع إلى طبيعة عملهم في السوق واعتمادهم عليه في حياتهم ، فهم لم يكونوا من ملاك الأراضي الزراعية كأبناء جلدتهم الآخرين ، فعملهم كان في التجارة وصياغة الحلي ، فضلاً عن شعور بني قينقاع بمنافسة المهاجرين لهم في مجال التجارة كعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان الذين دخلوا السوق ، وحققوا أرباحاً كبيرة وأموالاً وفيرة في وقت قصير^(٢٥) ، فضلاً عن سكنهم بين منازل القبائل العربية في وسط المدينة جعلهم أكثر احتكاكاً بالمسلمين ، وأشد خطراً عليهم في حالة انتفاضهم^(٢٦) .

وعلى الرغم من وضوح خطرهم للرسول ﷺ بشكل جلي ، إلا أنه سار على ذات السياسة العادلة المنصفة ، التي كان يعتمد عليها حتى مع أعدائه ، فجمعهم ﷺ في السوق التي عرفت باسمهم وخاطبهم قائلاً : ((يَا مَعْشَرَ يَهُودَ أَسْلِمُوا قَبْلَ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قُرَيْشًا))^(٢٧) ، فأجابوه : يا محمد إنك ترى أنا مثل قومك ، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس))^(٢٨) ، ولكن امتناعهم وعدم استجابتهم لخطاب الرسول

دفعه ﷺ إلى اتخاذ موقف حازم تجاههم ، ولا سيما بعد أن استغلوا قدوم امرأة عربية بجلب لها لبيعه في سوق بني قينقاع ، وبينما هي جالسة في دكان صائغ يهودي لشراء الحلي ، حاولوا الكشف عن وجهها فلم تفعل ، فعمد الصائغ اليهودي إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت المرأة فانكشفت سوءتها ، فضحكوا عليها فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وشدت اليهود على الرجل المسلم فقتلوه ، ونقضوا العهد مع الرسول ﷺ ، فاستصرخ أهل المقتول المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون فوق الشر بينهم وبين بني قينقاع^(٢٩).

نزل الملك جبريل عليه السلام يبلغ الرسول ﷺ أمر الله (عزل وجل) بقتال بني قينقاع ، فسار إليهم ﷺ في يوم السبت منتصف شوال سنة ٢هـ / ٦٢٣ م ، وحمل لواء المسلمين حمزة بن عبد المطلب عليه السلام ، واستخلف على المدينة أبا لبابة بن عبد المنذر العمري^(٣٠)

فحقق الرسول ﷺ انتصارا كبيرا عليهم ، ورغم ذلك الانتصار ، إلا أنه ﷺ لم يتعامل معهم معاملة المنتصر المتجبر ، بل تعامل معهم معاملة المنتصر المنصف ، ويتضح ذلك في ما اتخذه بحقهم من إجراءات منصفة . أما موقف حلفائهم من الخزرج فتمثل بعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن أبي ابن سلول فمشى عبادة إلى رسول الله ﷺ فجعلهم له ، وتبرأ إلى الله تعالى ورسوله ﷺ من حلفهم ، قائلاً : يا رسول الله : أتولى الله ورسوله والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء الرجال^(٣١) ، إلا إن موقف عبدالله بن أبي ابن سلول كان على عكس موقف عبادة ، إذ قام إلى رسول الله ﷺ ويهود قينقاع في أسره ، فقال : يا محمد أحسن في موالي ، وكانوا حلفاء الخزرج ، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أحسن في موالي ، فأعرض ﷺ عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه ، فقال له

رسول الله ﷺ ((ويحك أرسلني)) ، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً ، ثم قال : ((ويحك أرسلني)) ، قال : والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي ، فإنهم أربعمئة حاسر ، وثلاثمئة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، فقال ﷺ : ((هم لك)) (٣٢) .

لقد أعفاهم الرسول ﷺ من القتل ، إلا أنه أمرهم بأن يجلبوا من المدينة خلال ثلاثة أيام وولى أمر إخراجهم منها لعبادة من الصامت (٣٣) ، وهو من سادات الخزرج ، وكان حليفاً لبني قينقاع ، فقالوا له : يا أبا الوليد من بين الأوس والخزرج ونحن مواليك ، فعلت هذا بنا ، فقال لهم : لما حاربتهم جئت إلى رسول الله ﷺ ، فقلت يا رسول الله إني أبرأ إليك منهم ومن حلفهم (٣٤) فطلب بنو قينقاع من الرسول ﷺ أن يمهلهم ثلاثة أيام كي يجمعوا ديونهم التي في رقاب الناس فأمهلهم ﷺ ، فلما طلبوا من عبادة أن يزيدهم ، رفض وقال لهم ولا ساعة من نهار لكم ثلاث ولا أزيدكم عليها هذا أمر رسول الله ﷺ ، ولو كنت أنا ما نفستكم ، وبعد مضي ثلاثة أيام (٣٥) ساروا إلى وادي القرى ، وبقوا بجوار يهودها شهراً حتى استراحوا وتقووا وأركبوا من كان راجلاً منهم ، ومن ثمة اتجهوا نحو منطقة أذرعات (٣٦) في بلاد الشام (٣٧) ، فغنم رسول الله ﷺ من سلاحهم ثلاث قسي : قوساً يدعى الكتوم كسرت بأحد ، وقوساً يدعى الروحاء ، وقوساً يدعى البيضاء ، وأخذ درعين : درعاً يقال له : الصفرية وأخرى فضة ، وثلاثة أرماح ، وثلاثة أسياف ، سيف قلعي ، وسيف يقال له : بتار ، وآخر لم يسم (٣٨) .

ووجد في منازلهم سلاحا كثيرا وآلة للصياغة ، فأخذ رسول الله ﷺ صفيه والخمس ، وقسم أربعة أخماسه على أصحابه ، فكان أول خمس بعد بدر ، وكان الذي قبض أموالهم محمد بن مسلمة ، وهكذا خرج بنو قينقاع من المدينة صاغرين خائعين ، وقد ألقوا سلاحهم ، وتركوا جميع أموالهم غنيمة للمسلمين ، رغم أنهم كانوا من أشجع القبائل اليهودية في المدينة ، وأشدّهم بأساً فضلاً عن كونهم أكثر عدداً وعدة ، مما أدى إلى أن تلوذ القبائل اليهودية بالصمت والهدوء مدة قصيرة من الزمن بعد هذا العقاب الرادع ، فسيطر الرعب على قلوبهم وكسرت شوكتها^(٣٩).

لقد كان لاتنصار الرسول ﷺ على بني قينقاع مردوده الايجابي ، إذ قوى مركز المسلمين داخل المدينة ، وانعكس إيجاباً على أحوالهم الاقتصادية ، ولاسيما على المهاجرين منهم ، لاستفادتهم من الاموال والمساكن التي تركها يهود بني قينقاع بالمدينة^(٤٠).

على الرغم من أن الخلاف بين الرسول ﷺ واليهود يعد خلافاً دينياً في المقام الاول ، إلا إن الاسباب التي أدت إلى الصدام مع بني قينقاع لم يكن حادثاً دينياً ، بل كان دفاعاً عن العرض ، وهو ما يتفق عليه عرب الجاهلية مع المسلمين ، مما حرم اليهود من مساندة ومساعدة حلفائهم العرب في الحرب ضد المسلمين ، إذ عدها حلفاؤهم اعتداء على العرض العربي ، وأصبح الرسول ﷺ في نظرهم هو المدافع عن أعراضهم ، وهذا ما حرم عبدالله بن أبي سلول من الحصول دعم لهم من العرب ، بل حتى من أبناء قومه من الخزرج ، كما عزلت هذه الحادثة يهود بني قينقاع عن أبناء دينهم الآخرين من بني النضير وقريظة ، الذين عدوه حادثاً تافهاً أوقع بنو قينقاع انفسهم فيه ، كما أنه لم يكن حادثاً دينياً ليستثير حمية القبائل اليهودية الاخرى لمناصرتهم^(٤١).

٢ : بنو النضير

اتبع الرسول السياسة نفسها مع بني النضير وبني قريظة بعدهم ، فقبل أن يقرر رسول الرحمة ﷺ غزو بني النضير في ربيع الأول سنة ٤هـ / ٦٢٥ م^(٢٢) ، قام بإنذارهم بأن يجلوا عن المدينة خلال عشرة أيام ، فأرسل إليهم الصحابي محمد بن مسلمة وقال له : ((اذهب إلى يهود بني النضير ، وقل لهم : إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي ، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما همتم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه))^(٢٣) ، وأمام هذا الموقف الصعب الذي وجد اليهود أنفسهم فيه ، لم يبق أمامهم سوى الرد بما قالوا لمحمد بن مسلمة ما معناه : لم نتوقع أنك من يأتينا بهذا الخبر وأنت رجل من الأوس ، فأجابهم ابن مسلمة : لقد تغيرت القلوب ، والغى الإسلام كل أحلاف الجاهلية وعهودها معكم ، وأخذوا يعدون العدة للجلاء^(٢٤) ، وأصروا على محاربة الرسول ﷺ ، فتحصنوا حصونهم ، وامتنعوا عن الجلاء .

على الرغم من التحدي والامتناع الصريح بعدم الجلاء ، إلا إن الرسول ﷺ التزم بكلمته وإنذاره الذي ابلاغهم به ، حتى انقضت المدة التي حددها ، ولم يخرجوا من المدينة ، فأرسل جيوش المسلمين إليهم ، وفي أثناء سيرهم أخذ يهود بني النضير يرمونهم بالسهام والحجارة وعندما وصل إلى حصنهم فرض الحصار عليهم لمدة خمس عشرة ليلة وهم متحصنون فيها ولا يجارهم على الخروج أمر ﷺ بحرق بساتين النخيل الخاصة بهم ، ليقضى على أسباب تعلقهم بأملاتهم وبساتينهم من جهة ، ولإضعاف حماستهم على القتال من جهة أخرى ، وبهذه الطريقة نجح الرسول ﷺ في إلقاء الرعب في قلوبهم ، مما جعلهم في مأزق لا مفر منه ، ولا خيار أمامهم إلا الجلاء ، لاسيما بعد أن أخلف راس المنافقين وعده لهم أولاً ،

وعجز اليهود من القبائل الاخرى عن تقديم الدعم لهم ثانياً ، فأرسلوا إلى الرسول ﷺ يلتمسون منه الأمان حين خروجهم من ديارهم ، فقبل ﷺ بخروجهم آمنين على دمائكم ، وما حملت الإبل إلا ما يمتلكونه من دروع وسلاح^(٤٥) ، وكجزء من خبث اليهود ودهائهم ، قاموا بهدم أثرهم وسووا جدرانها بالأرض كي لا يستفيد المسلمون منها ، فضلاً عن إخراجهم كميات كبيرة مما يمتلكونه من الذهب والفضة ، كما أخرجوا كميات كبيرة من الامتعة التي بلغت قرابة حمل ستائة بعير ، فتوجه بعضهم إلى خيبر بينما التحق القسم الاخر بيهود قينقاع في منطقة أذرعات^(٤٦) ، وبهذا الشكل تخلص المسلمون من أكبر قبيلتين من يهود المدينة ممن كان لهم دور كبير في الكيد للمسلمين والطعن بهم والتآمر عليهم مع أعدائهم .

في الحقيقة إن سماح الرسول ﷺ لبني النضير وبني قينقاع من قبلهم بمغادرة المدينة وحمل ما يريدون حمله من ممتلكات ، لم يكن القصد من وراء الجلاء مصادرة ممتلكاتهم أو تجريدهم مما يمتلكون داخل المدينة ، بل إنه كان جزءاً من إجراءات حفظ الامن داخل المدينة ، والتخلص من احتمالية العودة مرة أخرى للغدر بالرسول ﷺ وأصحابه ، إلا إنه ﷺ اضطر إلى التضييق عليهم بسبب امتناعهم عن الجلاء وعصيان أمره^(٤٧) .

٣ : بنو قريظة

لم يبق في المدينة من اليهود سوى بني قريظة ، الا أن الرسول ﷺ بقي محافظاً على العهد معهم ، رغم الموقف الحرج الذي أصبحوا فيه ، والتجأهم إلى التحالف مع قريش وتشجيعهم على غزو المدينة ، وفي وسط هذه الاجواء المتوترة التي سادت المدينة ، فقد شاع بين المسلمين بأن يهود بني قريظة قد نقضت العهد مع الرسول ﷺ ، وهذا ما كان يخشاه الرسول ﷺ - كما أسلفنا - لأنه كان على معرفة تامة بطبائع اليهود من

غدر، وعدم مراعاة للعهد والذمة، الا أنه ﷺ كان متأنياً في إعلان الغاء العهد معهم وشن الحرب عليهم قبل التأكد من صحة الخبر، فأوكل ﷺ أمر التأكد إلى الزبير بن العوام ، وعندما بان له صدق الخبر ، وشاهد قيام بني قريظة بتقوية حصونها ، وأن استعداداتهم العسكرية من تدريب وتسليح قائمة على قدم وساق ، عاد إلى الرسول ﷺ وأخبره بما رأى^(٤٨)، ولاستدراك الامر ومعالجة الموقف أرسل عدداً من الصحابة وعلى رأسهم سعد بن معاذ ، وقال لهم : ((انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا فإن كان حقاً فألحنوا لي لحنا نعرفه ولا تفتوا في أعضاء الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم ونالوا من رسول الله ، وقالوا لا عقد بيننا وبين محمد ولا عهد))^(٤٩) ، ووصل بهم الحال أن تسابواهم وسعد بن عباد ، حتى قال : له سعد بن معاذ اترك مسابقتهم فان ما بيننا وبينهم أكبر ، فرجعوا إلى الرسول ﷺ ، وتحدثوا معه بالرمز ، فقالوا : ((عضل والقارة)) ، والعضل والقارة هما قبيلتان من هذيل ، كان لهما موقف غادر بالمسلمين في غزوة ذات الرجيع ، وقصدوا بذلك أن اليهود قد غدروا ونقضوا العهد ، فعرف ﷺ قصدهم^(٥٠) .

عندما أصبح الرسول ﷺ على قناعة تامة بعدم عدول اليهود عن رأيهم ، وإصرارهم على التعاون مع المشركين ، اتبع سياسة جديدة من أجل الايقاع بين اليهود وحلفائهم ، لاسيما بعد أن أدرك مدى انعدام الثقة بين الطرفين ، وبالفعل نجحت خطة الرسول ﷺ في الايقاع بينهما فرفضت قريش وغطفان أن تسلم الرهائن لليهود ، وفي الوقت نفسه رفض بنو قريظة الحرب إلى جانبهم دون ضمانات ، كما ساهمت العوامل الطبيعية التي تميزت بها المدينة عن غيرها وخطة حفر الخندق ، وجهود المسلمين ، فضلاً عن تعاطف بعض أطراف الأحزاب مع الرسول ﷺ كبني هاشم ، مما ساعد على إضعاف الثقة بين الأحزاب فدب الوهن فيهم ، وأصبح أمر اقامتهم حول المدينة أمراً مستحيلاً ، ولاسيما بعد أن هبت عليهم عاصفة قوية في ليلة شاتية ، اضطروا إثرها على الانسحاب والمغادرة ، بعد أن حاصروا المدينة قرابة الشهر ، مخلفين وراءهم يهود بني قريظة يواجهون مصيرهم المحتوم ، كما واجهه أبناء جلدتهم من قبل ، أو قد يكون مصيرهم أسوأ من ذلك^(٥١).

أصبح أمر غزو بني قريظة وإجلائهم من الأولويات التي يجب القيام بها ، كنتيجة من نتائج غزوة الأحزاب ، ولابد من محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أصعب الظروف وأخرجها^(٥٢) ، فبعد رحيل الأحزاب عن المدينة عاد الرسول ﷺ من الخندق ووضع سلاحه أمره الله تعالى بمقاتلة يهود بني قريظة ، فخرج ﷺ على أصحابه وأمرهم بالتوجه إلى بني قريظة ، وذلك في ذي القعدة سنة ٥هـ / ٦٢٦ م ، كما أخبرهم ﷺ بأن الله تعالى أرسل الملك جبريل عليه السلام ليزلزل حصونهم ويقذف الرعب في قلوب اليهود ، كما أوصاهم بأن : ((لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة))^(٥٣) ، وعندما وصل المسلمون إلى حصن بني قريظة فرضوا عليه حصاراً دام خمساً

وعشرين ليلة^(٥٤)، وما أن اشتد الحصار على بني قريظة، قرروا الاستسلام على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم حليفهم السابق سعد بن معاذ، معتقدين أن قلبه سيق لهم، إلا إن ولاءه للرسول ﷺ وإيمانه التام بنبوته، جعله يبرأ منهم، ففضى أن تقتل مقاتلة بني قريظة، وأن تُسبى النساء وذرايعهم، وتقسم أموالهم، فأقر الرسول ﷺ حكمه^(٥٥) وتنفيذا لذلك الحكم تم قتل أربعمئة منهم في سوق المدينة، ونجا منهم من التزم بعهده مع الرسول ﷺ واعتنق الإسلام، كما قسمت أموال بني قريظة وذرايعها بين المسلمين^(٥٦)، وعلى الرغم مما قام به اليهود من دور تأمري مخز، فأن رحمة الرسول ﷺ وتسامحه حتى مع أعدائه جعلته ينهي التفريق بين السبية وولدها حتى يكبر^(٥٧)، وبذلك أنهى الرسول ﷺ الوجود اليهودي في المدينة المنورة، ولم يبق فيها إلا المسلمون من المهاجرين والأنصار، فتعززت الجبهة الداخلية ليتفرغ ﷺ لنشر الإسلام خارج المدينة.

هوامش البحث

- ١- هاشم يحيى الملاح ، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، دار ابن الاثير (الموصل : ٢٠٠٤م) ، ص ١٩٠-١٩٤ .
- ٢- ناصر السيد ، يهود يثرب وخير ، المكتبة الثقافية (بيروت : ١٩٩٢م) ، ص ٤٠ .
- ٣- كامل سلامة الدقس ، دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، دار عمار (عمان : ١٩٩٤م) ، ص ٤٢٠ .
- ٤- محمد عبد القادر أبو فارس ، النظام السياسي في الإسلام ، محمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان (د.م. : ١٩٨٦م) ، ص ٦٥ .
- ٥- للمزيد من التفاصيل عن وثيقة المدينة وما منحه الرسول ﷺ لليهود من حقوق وما فرضه عليهم من واجبات ينظر : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري ، السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد دار الجليل (بيروت : ١٤١١هـ) : ج ٣/ ص ٣١-٣٥ .
- ٦- يوتغ : وتغ التوغ بالتحريك الهلاك وتغ يوتغ وتغا فسد وهلك وأثم وأوتغه هو و الموتغة المهلكة وفي حديث الإمارة حتى يكون عمله هو الذي يطلقه أو يوتغه أي يهلكه . ينظر : محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر (بيروت : د.ت.) : ج ٨/ ص ٤٥٨ .
- ٧- للمزيد من التفاصيل عن وثيقة المدينة وما منحه الرسول ﷺ لليهود من حقوق وما فرضه عليهم من واجبات ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية : ج ٣/ ص ٣١-٣٥ .
- ٨- السيد ، يهود يثرب وخير ، ص ٥٨-٥٩ .
- ٩- الدعوة إلى الإسلام ، ط ٣ ، ترجمة : حسن ابراهيم حسن وآخرون ، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة : ١٩٧٠م) ، ص ٤٧ .
- ١٠- السيد ، يهود يثرب وخير ، ص ٦٠ .
- ١١- دراسات في السيرة ، دار النفائس (بيروت : ١٩٧٤م) ، ص ٣٢١ .
- ١٢- محسن عبد الناظر ، حوار الرسول مع اليهود ، ط ٢ (د.م. : ١٩٩٢م) ، ص ١٠١ .
- ١٣- ابن هشام ، السيرة النبوية : ج ١/ ص ٥٦٧ ؛ عبد الله الشقاري ، اليهود في السنة المطهرة ، دار طيبة (الرياض : ١٩٩٦م) : ج ١/ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .
- ١٤- سورة المائدة ، الآية : ٥٩ .
- ١٥- للمزيد من التفاصيل عن القصة ينظر : ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار المعرفة (بيروت : د.ت.) : ج ١١/ ص ٣٧٤ .
- ١٦- سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم الطبراني ، مسند الشاميين ، تحقيق : حمدي بن عبد

- المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة (بيروت : ١٩٨٤ م) ؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير
الدمشقي ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف (بيروت : د.ت.) : ج ٦ / ص ١٧٢ .
- ١٧ - الشقاري ، اليهود في السنة المطهرة : ج ١ / ص ٢٦٥ .
- ١٨ - فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ،
دار الكتب العلمية (بيروت : ٢٠٠٠ م) : ج ٤ / ص ٨٤ .
- ١٩ - الملاح ، الوسيط في السيرة النبوية ، ص ٢٥٦ .
- ٢٠ - محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار الكتب العلمية (بيروت : د.
ت.) : ج ٢ / ص ٤٨ .
- ٢١ - إسرائيل ولفنسون ، تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، مطبعة
الاعتماد (مصر : ١٩٢٧ م) ، ص ٦٩ .
- ٢٢ - للمزيد من التفاصيل عن وثيقة المدينة وما منحه الرسول ﷺ لليهود من حقوق وما
فرضه عليهم من واجبات ينظر : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ / ص ٣١-٣٥ .
- ٢٣ - ابن كثير ، البداية والنهاية : ج ٣ / ص ٣٠٤ ؛ السيد ، يهود يثرب ، وخير ، ص ٧٧ .
- ٢٤ - صالح موسى درازكه ، العلاقات العربية اليهودية ، حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين
، الأهلية للنشر والتوزيع (عمان : ١٩٩٢ م) ، ص ٣٠٣ .
- ٢٥ - السيد ، يهود يثرب ، وخير ، ص ٧٧ .
- ٢٦ - علي بن عبدالله بن أحمد السمهودي ، وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، دار الكتب
العلمية (بيروت : ١٩٩٨ م) : ج ١ / ص ١٥٢ ؛ درازكه ، العلاقات العربية اليهودية ، ص
٢٧٨ .
- ٢٧ - سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي ، سنن أبي داود ، تحقيق : محمد محيي
الدين عبد الحميد ، دار الفكر (د.م. : د.ت.) : ج ٣ / ص ١٥٤ .
- ٢٨ - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر البيهقي ، سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق :
محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز (مكة المكرمة : ١٩٩٤ م) : ج ٩ / ص ١٨٣ .
- ٢٩ - ابن هشام ، السيرة النبوية : ج ٣ / ص ٥٥ .
- ٣٠ - الطبري ، تاريخ الرسل والملوك : ج ٢ / ٤٨١ ؛ الشقاري ، اليهود في السنة المطهرة :
ج ١ / ص ٢٧٩ .
- ٣١ - الشقاري ، المرجع نفسه : ج ١ / ص ٢٨٢-٢٨٣ ؛ محمد علي الصلابي ، السيرة عرض
وقائع وتحليل أحداث ، الشبكة الليبية (ليبيا : د.ت.) : ج ٢ / ص ٦٦ .
- ٣٢ - عبد العزيز الحميدي ، التاريخ الاسلامي مواقف وعبر ، دار الدعوة (الإسكندرية :
د.ت.) : ج ٥ / ص ٣٠ ؛ الملاح ، الوسيط في السيرة النبوية ، ص ٢٥٨ .

- ٣٣- أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري، دار الفكر (بيروت: ١٩٩٥م): ج ٤/ ص ٢١٨.
- ٣٤- محمد بن عمر الواقدي، المغازي، ط ٣، تحقيق: مارسدن جونس، عالم الكتب (بيروت: ١٩٨٤م) ص ١٤٠.
- ٣٥- السيد، يهود يثرب وخيبر، ص ٨٠.
- ٣٦- الواقدي، المغازي، ص ١٤١.
- ٣٧- أذرعات: مدينة تقع على أطراف الشام من جهة الجزيرة العربية، بالقرب من درعا. ينظر: أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، معجم البلدان، دار الفكر (بيروت: د. ت.): ج ١/ ص ١٣٠.
- ٣٨- أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عساكر، تاريخ مدينة دمشق: ج ٤/ ص ٢١٨.
- ٣٩- محمد عبد القادر ابو فارس، الصراع مع اليهود، دار الفرقان (د.م.: ١٩٩٠م): ج ١/ ص ١٤٩؛ دراذه، العلاقات العربية اليهودية، ص ٣٠٩.
- ٤٠- الملاح، الوسيط في السيرة النبوية، ص ٢٥٩.
- ٤١- السيد، يهود يثرب وخيبر، ص ٨١-٨٢.
- ٤٢- أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي المعروف بابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط ١٤، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة (بيروت: ١٩٨٦م): ج ٣/ ص ٢٤٩؛ ابن كثير، البداية والنهاية: ج ٤/ ص ٨٣، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، ط ٢، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت (الكويت: ١٩٨٤م): ج ١/ ص ٦.
- ٤٣- الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ج ٢/ ص ٨٤؛ الواقدي، المغازي: ج ١/ ص ٣٦٣-٣٧٠.
- ٤٤- ابن هشام، السيرة النبوية: ج ٣/ ص ٢١٢.
- ٤٥- ابن القيم، زاد المعاد: ج ٣/ ص ٢٤٨.
- ٤٦- الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت: ١٩٨٧م): ج ٢/ ص ١٥١.
- ٤٧- السيد، يهود يثرب وخيبر، ص ٩٧-٩٨.
- ٤٨- الواقدي، المغازي: ج ٢/ ص ٤٥٧.
- ٤٩- الطبري، تاريخ الرسل والملوك: ج ٢/ ص ٩٣؛ الذهبي، تاريخ الإسلام: ج ٢/ ٢٨٨؛ ابن كثير، السيرة النبوية: ج ٤/ ص ١٧٩.
- ٥٠- أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، دلائل النبوة الكبرى، تحقيق: محمد عبد

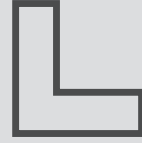
- القادر عطا ، مكتبة دار الباز (مكة المكرمة : ١٩٩٤م) : ج ٣ / ص ٤٩٢ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ج ٤ / ص ٩٥ .
- ٥١- السيد ، يهود يثرب وخيبر ، ص ١١٩ .
- ٥٢- محمد بكر آل عابد ، حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ ، دار الغرب الإسلامي (د . م . : د.ت .) : ج ٢ / ص ٤٤٢ .
- ٥٣- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري ، الجامع الصحيح المختصر ، ط ٣ ، تحقيق : مصطفى ديب ، دار ابن كثير (بيروت : ١٩٨٧م) : ج ١ / ص ٣٢١ ؛ ج ٤ / ص ١٥١٠ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية : ج ٤ / ص ١١٠ .
- ٥٤- محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ، الثقات ، تحقيق : السيد شرف الدين أحمد ، دار الفكر (د . م . : ١٩٧٥م) : ج ١ / ص ٢٧٥ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية : ج ٤ / ص ١٩٥ .
- ٥٥- البخاري ، الجامع الصحيح المختصر : ج ١ / ص ٣٢١ .
- ٥٦- أكرم ضياء العمري ، السيرة النبوية الصحيحة ، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة : ١٩٩٢م) : ج ١ / ص ٣١٥-٣١٧ .
- ٥٧- دراذكه ، العلاقات العربية اليهودية ، ص ٣٤٤ .

قائمة المصادر والمراجع

- آرنولد ، توماس .
- * الدعوة إلى الإسلام، ط٣، ترجمة: حسن ابراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة: ١٩٧٠م).
- البخاري ، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله .
- * الجامع الصحيح المختصر ، ط٣ ، تحقيق: مصطفى ديب ، دار ابن كثير (بيروت : ١٩٨٧م).
- البيهقي ، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى أبو بكر .
- * سنن البيهقي الكبرى ، تحقيق : محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز (مكة المكرمة : ١٩٩٤م).
- * دلائل النبوة الكبرى ، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ، مكتبة دار الباز (مكة المكرمة : ١٩٩٤م).
- ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي .
- * الثقات ، تحقيق: السيد شرف الدين أحمد، دار الفكر (د.م. : ١٩٧٥م).
- ابن حجر العسقلاني ، شهاب الدين ابو الفضل احمد بن علي بن محمد الكفائي .
- * فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، دار المعرفة (بيروت : د.ت.د.) .
- الحميدي ، عبد العزيز .
- * التاريخ الاسلامي مواقف وعبر ، دار الدعوة (الإسكندرية : د.ت.د.) .
- خليل ، عماد الدين .
- * دراسات في السيرة ، دار النفائس (بيروت : ١٩٧٤م).
- أبو داود ، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأردني .
- * سنن أبي داود ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر (د.م. : د.ت.د.) .
- دراذكه ، صالح موسى .
- * العلاقات العربية اليهودية ، حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين ، الأهلية للنشر والتوزيع (عمان : ١٩٩٢م).
- الدقس ، كامل سلامة .
- * دولة الرسول ﷺ من التكوين إلى التمكين ، دار عمار (عمان: ١٩٩٤م).
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان .
- * العبر في خبر من غير ، ط٢ ، تحقيق: صلاح الدين المنجد، مطبعة حكومة الكويت (الكويت: ١٩٨٤م) .
- * تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي (بيروت: ١٩٨٧م).
- الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي .
- * التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب ، دار الكتب العلمية (بيروت : ٢٠٠٠م).
- السمهودي ، علي بن عبدالله بن أحمد .
- * وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ، دار الكتب العلمية (بيروت : ١٩٩٨م).
- السيد ، ناصر .
- * يهود يثرب وخير ، المكتبة الثقافية (بيروت : ١٩٩٢م).
- الشقاري ، عبد الله .
- * اليهود في السنة المطهرة ، دار طيبة (الرياض : ١٩٩٦م).
- الصلابي ، محمد علي .

- * السيرة عرض وقائع وتحليل أحداث ، الشبكة الليبية (ليبيا : د.ت.) .
- الطبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب أبو القاسم .
- * مسند الشاميين ، تحقيق : حمدي بن عبد المجيد السلفي ، مؤسسة الرسالة (بيروت : ١٩٨٤ م) .
- الطبري ، محمد بن جرير .
- * تاريخ الرسل والملوك ، دار الكتب العلمية (بيروت : د.ت.) .
- آل عابد ، محمد بكر .
- * حديث القرآن عن غزوات الرسول ﷺ ، دار الغرب الإسلامي (د.م. : د.ت.) .
- عبد الناظر ، محسن .
- * حوار الرسول مع اليهود ، ط ٢ (د.م. : ١٩٩٢ م) .
- ابن عسك ، أبو القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله .
- * تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق : محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمري ، دار الفكر (بيروت : ١٩٩٥ م) .
- العمري ، أكرم ضياء .
- * السيرة النبوية الصحيحة ، مكتبة العلوم والحكم (المدينة المنورة : ١٩٩٢ م) .
- أبو فارس ، محمد عبد القادر .
- * النظام السياسي في الإسلام ، محمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان (د.م. : ١٩٨٦ م) - الصراع مع اليهود ، دار الفرقان (د.م. : ١٩٩٠ م) .
- ابن القيم ، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي .
- * زاد المعاد في هدي خير العباد ، ط ١٤ ، تحقيق : شعيب الأرنؤوط و آخر ، مؤسسة الرسالة (بيروت : ١٩٨٦ م) .
- * ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي .
- * البداية والنهاية ، مكتبة المعارف (بيروت : د.ت.) .
- الواقدي ، محمد بن عمر .
- * المغازي ، ط ٣ ، تحقيق : مارسدن جونز ، عالم الكتب (بيروت : ١٩٨٤ م) .
- الملاح ، هاشم يحيى .
- * الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، دار ابن الأثير (الموصل : ٢٠٠٤ م) .
- ابن منظور ، محمد بن مكرم بن منظور الأفرقي المصري .
- * لسان العرب ، دار صادر (بيروت : د.ت.) .
- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري .
- * السيرة النبوية ، تحقيق : طه عبد الرؤوف سعد دار الجليل (بيروت : ١٤١١ هـ) .
- الواقدي ، محمد بن عمر .
- * المغازي ، ط ٣ ، تحقيق : مارسدن جونز ، عالم الكتب (بيروت : ١٩٨٤ م) .
- ولفنسون ، إسرائيل .
- * تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ، مطبعة الاعتماد (مصر : ١٩٢٧ م) .
- ياقوت الحموي ، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي ، معجم البلدان ، دار الفكر (بيروت : د.ت.) .





دور الوحي في تركيز دعائم النبوة الرسول محمد ﷺ مثالا

أ. د. حيدر تقي فضيل العلاق
أ. د. محمد فهد حسين القيسي
كلية التربية للعلوم الانسانية / جامعة واسط/ العراق



**The Role of Revelation in Concentrating the
Pillars of the Prophet hood of the Prophet
Muhammad (peace be upon him)is an example**

**Dr. Haider Taqi Fadil Al-Alaq
Dr. Muhammad Fahad Hussain Al-Qaisi
College of Education for Human Sciences /
Wasit University/Iraq**

الملخص

يعد الوحي مرتكزا اساسيا للأنبياء ﷺ من حيث انه يمثل امدادا معنويا لهم وتأييدا مستمرا لنبوتهم ووسيلة مهمة من وسائل تبليغهم، لذا فقد كان الأنبياء عليهم السلام يعتمدون عليه اعتمادها كبيرا فيما لا يتعلق بامورهم الشخصية ومصالحهم الضيقة. كما أنه مثل وسيلة مهمة لنقل احوال اقوامهم من حيث اخبار الأنبياء بما يدور من حولهم، مما كان له دور كبير في تدعيم المرتكزات الرئيسة لنبوتهم.

قال تعالى مبينا طريقة الإيحاء الى الأنبياء ﴿وَمَا كَانَ لِنَشْرِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾ فبناء المجتمعات لا يكون إلا عبر تعاليم الله الى الأنبياء، والتي لا تتم الا عبر اخبار الله تعالى الأنبياء عبر الوحي إليهم بصور الإيحاء المختلفة والتي ذكرتها الآية الكريمة مقدمة الذكر.

فالوحي بطبيعته يتضمن غايات كثيرة تتعدى ان يكون وسيلة تبليغ من جهة وتسلية من جهة اخرى، وإنما له أبعاد أكثر عمقا وأعظم دورا، ذلك ان الوحي هو وسيلة تبليغ للأنبياء ومن ثم لأقوامهم فضلا عن كونه وسيلة تسلية وتطمين لهم.

وعلى هذا الاساس وبناء على ما تقدم سيتم ايراد ابرز الصور التي اسهم بها الوحي في تركيز دعائم النبوة، فضلا عن ابرز وظائفه التي كان يقدمها للرسول محمد ﷺ.

ABSTRACT

Revelation is an essential basis for the prophets, peace be upon them, in that it represents a moral supply for them, a continuous support for their prophet hood, and an important means of conveying them. Therefore, the prophets, peace be upon them, relied on it heavily, with regard to their personal affairs and narrow interests. It also represented an important means of conveying the conditions of their people in terms of informing the prophets of what was going on around them, which played a major role in strengthening the main pillars of their prophet hood.

Revelation, by its nature, includes many goals that go beyond being a means of communication on the one hand and entertainment on the other, but it has deeper dimensions and a greater role, because revelation is a means of conveying to the prophets and then to their people as well as being a means of amusement and reassurance for them that God Almighty.

On this basis and on the basis of the foregoing, the most prominent images in which the revelation contributed to the focus of prophecy will be mentioned, as well as the most prominent functions that he presented to the Messenger Muhammad (peace be upon him).

المقدمة

يعد الوحي مرتكزا اساسيا للانبياء عليهم السلام من حيث انه يمثل امدادا معنويا لهم وتأيدا مستمرا لنبوتهم ووسيلة مهمة من وسائل تبليغهم، لذا فقد كان الأنبياء عليهم السلام يعتمدون عليه اعتمادا كبيرا فيما يتعلق بامورهم كافة وامورهم الشخصية ومصالحهم الخاصة ، ذلك ان النبي وعندما ارسله الله تعالى برسالاته فانه يكون عنوان الكمال الانساني المطلق، لذا فما هو شخصي منه بمثابة العام الذي يؤخذ عنه ويتعبد به . كما أنه - اي الوحي - مثل وسيلة مهمة لنقل احوال اقوامهم واخبارهم من حيث اخبار الأنبياء بما يدور من حولهم من دسائس ومؤامرات، فضلا عن دوره الكبير في تدعيم المرتكزات الرئيسة لنبوتهم عليهم السلام .

قال تعالى مبينا طريقة الإحياء الى الأنبياء ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسَلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴾^١ ، فبناء المجتمعات لا يكون إلا عبر تعاليم الله الى الأنبياء ، والتي لا تتم الا عبر اخبار الله تعالى لهم عبر الوحي إليهم بصور الإحياء المختلفة والتي ذكرتها الآية الكريمة مقدمة الذكر .

فالوحي بطبيعته يتضمن غايات كثيرة تتعدى ان يكون وسيلة تواصل بين الرب والنبي او الرسول ، بل هو تبليغ من جهة وتسلية من جهة اخرى ، وله أبعاد أكثر عمقا وأعظم دورا، ذلك ان الوحي هو وسيلة تبليغ للأنبياء ومن ثم أقوامهم بما يريده الخالق لمصلحتهم ، فضلا عن كونه وسيلة تسلية وتطمين لهم من أن الله تعالى معهم ومسدد لهم ما داموا على امره ونهيه قائمين ، وارشادا لهم في وقت الازمات المصيرية التي تستهدف استئصال مجموعة المؤمنين بشكل كامل من قبل مناوئهم من الكفار وغيرهم .

وعلى هذا الاساس وبناء على ما تقدم سيتم ايراد ابرز الصور التي اسهم بها الوحي في تركيز دعائم النبوة ، فضلا عن ابرز وظائفه التي كان يقدمها للرسول محمد ﷺ عبر عدد من الفقرات هي :

تمهيد - الوحي لغة واصطلاحا

اولا - حقيقة الوحي والاشكالات المثارة حوله

ثانيا - اهمية الوحي للأنبياء

ثالثا - دور الوحي في دعوة الرسول محمد ﷺ

الخاتمة

تمهيد: الوحي لغة واصطلاحاً

الوحي في اللغة: «السرعة، ومنه قَوْلُهُمْ: الوحاء الوحاء: أي السرعة السرعة، وَالْوَحْي من الله تعالى: نبأ وإلهام، وَمِن النَّاسِ إِشَارَةٌ وَيُقَال: وَحَى وَحياً إِذَا كَتَبَ وَوَحَى فِي الْحَجَرِ إِذَا كَتَبَ فِيهِ. وَأَصْلُ الْوَحْي: الْكِتَابَةُ فِي الْحِجَارَةِ»^٢، ويقال أوحيت اليه بمعنى أشرت له، قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^٣، أما الوحي في الاصطلاح فليس بعيداً عنه المعنى اللغوي، فإذا كان المعنى اللغوي يبحث الالفاظ بحثاً عاماً، فإن المعنى الشرعي هو تناول اللفظ في اطاره العرفي من غير الابتعاد عن أصل المعنى اللغوي الا عبر تناول اللفظ على نحو الخصوص، فإذا كان الوحي لغة هو الاشارة مطلقاً، فالمعنى الاصطلاحي هو الاشارة الى الانبياء ومن اراد الله ان يوحى اليه بتعليمات واحكام، وليس الامر منحصر بالانبياء وانما يتعداه الى الصالحين الذين اوحى الله اليهم مثل ام موسى والسيدة مريم عليهما السلام. وعلى هذا يكون المعنى هو اخبار الله تعالى من يريد اخباره بشيء، سواء ما يتعلق بالتكليف الشرعي كوحي الله تعالى الى الانبياء عليهم السلام وتبليغهم او امره وتعليماته، او ما يتعلق بتأييد الله لعبده وتبرئته من التهم كما حصل مع السيدة مريم العذراء عليها السلام، او حماية انبيائه في صغرهم كما هو الحال مع أم موسى، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^٤.

وبذلك يكون تعريف الوحي اصطلاحاً هو: «الإعلام بسرعة وخفاء، او يكون معناه اصطلاحاً هو: الوسيلة والصلة بين الله تعالى وبين رسله وأنبيائه التي يوصل الله تعالى بها إليهم ما يريد إيصاله من علم وحكم وأمر ونهي وإرشاد وتشريع وغير ذلك»^٥.

اما الوحي في المفهوم العرفي: فهو خطاب الله تعالى لأنبياؤه وبعض الصالحين من عباده لتبليغهم ما يريد تبليغه لهم. وفي هذا المعنى ندرك العلاقة بين المعنيين اللغوي والشرعي، فلهما دلالة واحدة خلا أن الاول يبحث اللفظة بحثاً عاماً فيما يبحثها الثاني بحثاً مقيداً ضمن العرف والشرع وهذا ما يطلق عليه بالاصطلاح، بمعنى ان الاصطلاح هو اكثر تقييداً للفظه وتحديد لها لأنه يبحث اللفظة بحثاً أكثر خصوصية بمعنى يبحثها ضمن جهة خاصة وهي الجهة العرفية للمعنى، الجهة التي تخرج المعنى من معناه العام الى معناه الخاص وهو الاصل الذي جاء المعنى له.

اولاً : حقيقة الوحي والاشكالات المثارة حوله :

مما لا شك فيه ان الله تعالى لم يخلق الانسان عبثاً ، وانما خلقه لغايات تربوية جمّة، قال تعالى عن العلة في خلق الانسان: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^٦، وقال ايضا في نفيه العبث في موضوع خلق الانسان: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾^٧، فهذه الآيات وغيرها تتكلم عن الغاية والهدف من خلق الانسان، ولعل جميع الغايات تنحصر في غاية اسمى واعظم الا وهي الغاية التربوية والبناء الاخلاقي العظيم الذي لأجله كان خلق الانسان وكان لأجله خلق الموت والحياة، قال تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾^٨ فالغاية الاسمى هي بناء الانسان بناء تربوياً وسلوكياً مستقيماً، وهذا البناء لا يمكن تحقيقه الا عبر وسائله التي اختارها الله تعالى لتحقيق هذه الغاية ، فالإنسان لم يخلق عبثاً ، وانما خلق لتحقيق امور اراد الله تحقيقها ، وهي التي تسمو بالإنسان وترتفع به الى عالم الكمالات الالهية، الامر الذي لا يمكن تحقيقه الا عبر التعليقات الالهية التي تهدف لتحقيق هذا الغرض وهذه الغاية، وعليه فقد جعل الله تعالى

وسائل لنقل تعليماته وتشريعاته الى خلقه ، فاصطفى الانبياء ليكونوا وسيلة تبليغ الناس، قال تعالى: « الله يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ »^٩، واصطفاهم أمر لابد منه لنقل تعليماته واحكامه اليهم . وعلى هذا الاساس فقد اصطفى الله تعالى الانبياء والمرسلين ، كما انه اصطفى من الملائكة رسلا ليكونوا واسطة تبليغ الانبياء ﷺ ، فلا يمكن لبشر ان يكلمه الله الا عبر طرق ثلاث ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ ﴾^{١٠} ، فهذه الآية ذكرت طرق تكليم الله تعالى انبياءه « وما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله الا على أحد ثلاثة أوجه، اما على الوحي وهو الالهام والقذف في القلب او المنام كما اوحى الله الى ام موسى و ابراهيم عليه السلام في ذبح ولده.....واما على ان يسمعه كلامه من غير واسطة مبلغ، وهذا ايضا وحي.....واما على ان يرسل اليه رسولا من الملائكة فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي الى الرسول البشري ، فطريق الحصر ان يقال : وصول الوحي من الله الى البشر اما ان يكون من غير واسطة مبلغ أو يكون بواسطة مبلغ... »^{١١} والسبب في انحصار طرق تكليم الله تعالى لانبيائه بهذه الاحوال الثلاث هو ان الانبياء ﷺ ذو طبيعة بشرية ، والله تعالى منزّه عن الجسمانية وعليه لابد ان تتناغم الطبيعتان كي يمكن للانبياء ان يتلقوا التعليمات عن الله تعالى، وعليه فاما ان يرسل الله وحيه على شكل ذي طبيعة بشرية كما كان الله يوحى للنبي محمد ﷺ حيث كان يأتيه الوحي على هيئة رجل الا وهو دحية الكلبي وهو احد الصحابة الاجلاء وهو دحية بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن الخزرج بن عامر بن بكر الكلبي والدليل على ان الوحي كان يأتي النبي ﷺ على هيئة دحية الكلبي هو ما جاء في حديث أسامة بن زيد : « أن جبريل

ﷺ أتى النبي ﷺ وعنده أم سلمة فجعل يحدث ثم قام، فقال النبي ﷺ: «لأم سلمة (من هذا؟) قالت: هذا دحية، قال فقالت أم سلمة: أيم الله ما حسبته إلا إياه، حتى سمعت خطبة نبي الله ﷺ يخبر عن جبريل»^{١٢}. وهذه هي الطبيعة البشرية للوحي ليكون متفقا مع طبيعة الانبياء البشرية، وأما أن يتحول الانبياء ﷺ من طبيعتهم البشرية إلى طبيعة روحية ملائكية ليكونوا منسجمين مع طبيعة جبريل ﷺ بأن تتلقى أرواحهم الوحي أما عن طريق اليقظة أو الإلهام في المنام.

ومن الأشكالات التي تثار حول الوحي أنه كيف يمكن التواصل بين الإله والبشر بواسطة معينة علما أنهما متباينان ولا يمكن بأي حال من الأحوال الاجتماع بينهما؟ وفي ضوء هذا الأشكال يمكن تسريب حالة من الشك في بناء الوحي بشكل عام، فضلا عن التشكيك في النبوة بشكل لاحق. إذ يرد بخصوص ذلك: «أن الوحي ما هو إلا عملية اتصال ترميزية تعبر عن نظام لغوي بين مرسل هو الله سبحانه وتعالى، ومستقبل هو النبي ﷺ، وهنا يثور لديه تساؤل حول كيفية حدوث الاتصال بينهما وهما من مرتبة وجودية مختلفة، وهو يجيب على التساؤل بمنهجية مختلفة لسانية-أدبية لأن النص "في حقيقته وجوهره منتج ثقافي.. تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاما»^{١٣}.

وللاجابة على هذا الاشكال يمكن القول :

١. لم يدع احد ان الله اتصل بالرسول بشكل مباشر او اجتماعا في مكان محدد ، بل ان كيفية الوحي قررها القرآن الكريم بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝١٤ 》 وهنا جاءت الآية القرآنية لترد على هذا الاشكال ضمنا عبر توضيحها ونفيها حالة التشارك المكاني والزمني بين الموحى والموحى اليه ، اذ انها اثبتت ثلاث حالات من الوحي فقط وجميعها لا تستلزم التشارك بين الاله والرسول ، وهي :

- الالهام ، اذ يبعث الله في نفس الرسول ما يريد الله منه بشكل لا واسطي او بلا اداة لنقل الامر ، وهذا الامر يشترك به البشر بشكل عام وليس الانبياء فقط بدليل قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَهْمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝١٥ 》 او ما يختص بالانبياء بدليل قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۝١٦ 》

- او يكلمه الله بشكل معين ولكن لا يراه ، وهذا ما حصل للنبي موسى عليه السلام ، والتي كانت النار الواسطة في موضوع الكلام بين الرب والمرسل ، قال تعالى : ﴿ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٧ 》

- او الحالة الثالثة وهو ان يرسل الله رسولا بهيئة معينة وكيفية خاصة ينقل الامر من الله الى رسوله ، وهو الأعم الاغلب في اشكال الوحي عند الانبياء .

- وورد بخصوص ذلك قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلْجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١٨ 》

اما الاشكال الاخر حول الوحي فيرد كالآتي : « غدت النبوة متممة إلى البنی الفوقية التي في موقع جدلي مع البنی التحتية ممثلة في الكهانة والعرفاء ، ومعلوم أن البناء الفوقي يتغير في حال طال البناء التحتي أي

تغيير، ومن ثم أصبح وجود النبوة مرتبنا بوجود الكهانة والعرافة، قاصدا بذلك نفي صفة التعالي عنها وإنزالها إلى الواقع التاريخي وربطها بتحويلات الثقافة». ^{١٩} والرد على هذا الاشكال يمكن ببساطة شديدة وهو انه عند تصفح دعوة الانبياء نجدها تدعو الى المساواة والاخوة ونبذ الفوارق وكل اشكال التمايز والتسلط سواء كان طبقياً ام معرفياً او حتى اجتماعياً، لذا فهذا الاشكال ينتفي من حيث الموضوع. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ^{٢٠}.

ويرد اشكال اخر مفاده: "عرب ما قبل الإسلام تصوروا وجود اتصال بين عوالم الكون المختلفة صعودا وهبوطا، وهذا الاتصال لم يقتصر على الأنبياء وإنما شمل الكهان والشعراء،" والفارق بين اتصال النبي بالملاء الأعلى والكاهن، اتصال النبي قائم على نوع من الفطرة والخلقة أساسها الاصطفاء الإلهي، بينما يحتاج الكاهن إلى آلات وأدوات مساعدة تعينه على التخلص جزئيا من عوائق العالم المادي والاتصال بما وراء العوالم" ^{٢١}

وهنا يمكن الرد عبر القران الكريم نفسه الذي لم ينف وجود اتصال بين العوالم الدنيوية والعوالم الغيبية، ففي قوله تعالى حاكيا عن الجن: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾ ^{٢٢}. وهنا نجد انه ليس كل اتصال بين العوالم والدنيوية والغيب هو وحيًا، او بين مخلوقات وان غابت عنها رؤيتها وبين الغيب هو وحي، بل ان الوحي مختص بالله تعالى على العكس من غيره الذي هو اتصال مع عوالم غيبية مخلوقة ولا تتساق مع الخالق مطلقا.

ثانيا : اهمية الوحي للأنبياء :

مما لا شك فيه ان الوحي يمثل الدعامة المهمة للأنبياء ﷺ من جوانب مختلفة وابرز هذه الجوانب هي :

أ - تبليغ الانبياء بأوامر الله تعالى ليقوموا بدورهم بتبليغ الناس ما امرهم الله بتبليغه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^{٢٣} وهكذا كان الوحي احد الطرق الثلاث التي كلم الله تعالى بها بعض عباده مصداقا للآية انفة الذكر التي حددت صور الوحي المختلفة، وهكذا كان الانبياء ﷺ يتلقون الوحي المتضمن للأحكام الشرعية المختلفة طوال مدة نبوتهم ، فالمشرع هو الله تعالى وما الانبياء الا نقلة هذا التشريع الى الناس . وعلى هذا فالاية صريحة بانه لا توجد طريقة يكلم الله انبياءه بها سوى ما حصرتة الاية الكريمة متقدمة الذكر ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ﴾^{٢٤} ، لان المعروف في اسس اللغة العربية ان اداة الاستثناء اذا وردت في معرض النفي تفيد الحصر، فلا توجد وسيلة للوحي خلا ما ذكرته الاية الكريمة، ولاهمية التعليمات الالهية المتعلقة بتكليف الانسان وتحديد الواجبات والمباحات والمحرمات والمكروهات بالنسبة اليه فقد كان الوحي هو الوسيلة لتبليغ الانبياء بها ليقوموا بدورهم بتبليغ اقوامهم بضوابط هذه التكليفات وما يتعلق بهم وتحديد ما ينفعهم وما يضرهم .

ب - مثل الوحي طريقا مهما من طرق تأييد الانبياء ﷺ ، فهو يمثل الهوية الحقيقية لهم والدليل الذي لا يقبل الشك على صدقهم ونزاهتهم، وهذا يتمثل في اخبار الله تعالى انبياءه من خلال الوحي عن بعض الامور الغيبية التي لا يمكن لهم معرفتها الا عن طريق الوحي واخبار الله تعالى

لهم، كإخبار النبي عيسى عليه السلام قومه بما يأكلون ما يدخرون في بيوتهم، قال تعالى على لسانه عليه السلام ﴿... وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^{٢٥} فمعرفة النبي عيسى عليه السلام بهذا الامر لا يمكن الا ان يكون اخبارا من الله تعالى يتعلق بمصير الدعوة او هو يمثل دعامة قبول دعوته بدليل معرفته بأمور لا يعرفها سواهم جمعا بين هذه الآية وقوله تعالى على لسان النبي محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ...﴾^{٢٦} فالله تعالى ما كان له ان يطلع الناس على الغيب الا من اجتنبى من رسله وبحدود ما يتعلق بدعوتهم ورسالتهم، قال تعالى: ﴿... وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمَتُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^{٢٧} فإخبار النبي عيسى لقومه بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم له دلالة على صدق دعواه لا سيما وان هذا الاخبار في الاصل مقترن بدعوى النبوة وليس بعيدا عنها، مما يعني ان هذا الاخبار هو جزء من صدقه في ادعائه النبوة، بدليل انها جاءت مقترنة بمعجزاته التي ذكرتها الآية الكريمة، قال تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِيهِ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^{٢٨}، يقول الطباطبائي في تفسيره لهذا الآية « وهذا اخبار بالغيب المختص بالله تعالى، ومن خصه من رسله بالوحي، وهو اية اخرى واخبار بغيب صريح التحقق لا يتطرق اليه الشك والريب فان الانسان لا يشك عادة فيما اكله ولا فيما ادخره في بيته»^{٢٩}.

ومن هنا كانت الآية تأييدا للنبي عيسى ﷺ، وهكذا مع بقية الانبياء ﷺ فالوحي جاء لتأييد الانبياء وتصديقهم امام اقوامهم عبر اطلاعهم على بعض اجزاء علم الغيب المتعلق في موضوع اكمال مهمتهم وتأيد دعوتهم. ج - تسلية الانبياء: فالوحي بطبيعته يمثل امدادا معنويا للانبياء ﷺ فهو تسلية لهم وتثبيت لفؤادهم قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾^{٣٠} فالوحي المستمر هو تسلية للانبياء ﷺ وطمأنة لهم ان الله تعالى معهم يؤيدهم وان كل ما يعانونه من اذى قومهم هو بعين الله تعالى ، وتسلية الانبياء امر في غاية الاهمية النفسية لهم ، قال تعالى حول نوح ﷺ: ﴿وَأَوْحِيْ اِلَى نُوحٍ اَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ اِلَّا مَنْ قَدْ اٰمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُوْنَ﴾^{٣١} وهنا نجد ان الله تعالى قد اوحى لنوح ان مدة دعوته قد انتهت وان قومه لن يؤمن منهم احد ، علما ان النبي نوح ﷺ استمر في دعوتهم ما يقرب من الف سنة ، وبقينا انه لولا امداد الوحي وتسليته وتثبيته لكانت الامور في منحى اخر .

د. انقاذ المؤمنين من خطر محقق : كما جاء في قصة النبي موسى ﷺ عندما لحقه فرعون وجنوده وحصلوه عند البحر ، لذا جاء الوحي لينقذهم عبر : ﴿فَاَوْحَيْنَا اِلَى مُوسٰى اَنْ اَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾^{٣٢} وهنا نجد ان الوحي ادى دور المنقذ الرئيس للمجموعة المؤمنة من خطر استتصالي اكيد متمثلا بفرعون وجيشه الذي لحق بهم الى حافة البحر ولولا هذا الوحي الذي شق بواسطته البحر ، لكانت هذه المجموعة المؤمنة في خسران .

ثالثا : دور الوحي في دعوة الرسول محمد ﷺ :

يعد الوحي ذا دور كبير في دعوة الانبياء كما اوضحنا ذلك سابقا ، اذ بدونَه تفقد الدعوة قوتها ووسيلتها ، بل لا يمكن لها الاستمرار لهذا كان الوحي يمثل وسيلة الانقاذ بالنسبة للرسول محمد ﷺ من حيث بيان وتفصيل الامور والقضايا المتعلقة بحياة الناس وتفصيلها والمتعلقة بالتشريع الالهي ، لان التعليمات الالهية جاءت بالأصل لمنفعة الناس ، فالواجب والحرام والمستحب والمكروه ما هي الا احكام جاءت لتلائم الطبيعية البشرية ، سواء ادرك الانسان الحكمة منها ام لم يدرك ، وسواء ظهرت العلة من هذه الاحكام ام لم تظهر ، فهي احكام جاءت عبر الوحي الى الانبياء ليقوموا بإيصالها بدورهم الى الناس كافة ، ولهذا فالأحكام تقسم على قسمين اثنين من حيث علتها وحكمتها ، أحكام واضحة العلة والمغزى والعرض مثل حرمة شرب الخمر وحرمة الربا ونحوها ، واحكام ذات غايات خفية ، مثل أحكام الصلاة وعدد ركعاتها وحرمة الذهب بالنسبة للرجل ونحوها ، والذي اراه ان الله تعالى قادر طبعاً على جعل احكامه مفهومة للجميع من حيث علتها وحكمتها.

ولكن بعضها جاء خفياً تقديراً لدور الوحي وكونه من الله تعالى الامر الذي يتطلب الايمان به وبما جاء به من احكام بغض النظر عن علة هذه الاحكام والحكمة منها ، وهذا هو الايمان الحقيقي والتسليم الذي اراده الله تعالى قال عز وجل : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي شَئٍ مِّنْ بَيْنِهِمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^{٣٣} ، وفي هذا كله تعظيم لدور الوحي وان كل الاحكام التي صدرت هي من الله تعالى وليست من الانبياء انفسهم كما يتوهم بعض ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾^{٣٤} ويقول ايضا : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ

الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٣٥﴾ ، جاء في تفسير هذه الآية : « لاخذنا بيده ، ثم لضربنا رقبته ، وهذا ذكره على سبيل التمثيل بما يفعله الملوك بمن يتكذب عليهم ، فانهم لا يمهلونهم ، بل يضربون رقبته في الحال ، وانما خص اليمين بالذكر ، لان القتال اذا اراد ان يوقع الضرب في قفاه أخذ بيساره ، واذا اراد أن يوقعه في جيده وأن يلحقه بالسيف ، وهو اشد على المعمول به ذلك العمل » ﴿٣٦﴾ ، فالوحي هو الفيصل في هذا الامر وهو لا يعدو كونه وسيلة لتبليغ الله تعالى انبياءه احكامه المختلفة ، وهو شفاء لما في صدور المؤمنين : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ ﴿٣٧﴾ ومن هنا جاءت اهمية الوحي في دعوة الرسول محمد ﷺ فهو اخبار وتسديد له وتثبيت لفؤاده وتأييد لمنهجهم في الدعوة الى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿وَكَلَّا نَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٨﴾ ، فضلا عن ذلك ولان الوحي من الله تعالى فقد جاءت الاحداث من جهة والعلوم من جهة ثانية مؤيدة لما قاله الانبياء ، فكل ما تنبأ به الانبياء تحقق سواء ما يتعلق بالحوادث التاريخية المختلفة او ما يتعلق بالعلوم المتطورة التي لم تكتشف الا في زمن متأخر ، فمثال الاول اوحى الله تعالى الى الرسول محمد ﷺ كثيرا من الحقائق الغيبية التي حصلت وتحققت قال تعالى : ﴿الْم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿٣٩﴾ ، وقد تحقق ما اخبر الله به عبر وحيه وانتصر الروم على الفرس ، الامر الذي كان يفضل المسلمين كون الروم من اهل الكتاب . ولا شك ان لهذا الإيجاء معطيات كثيرة ، منها : ١ . ان الله ينصر عباده وان طال الزمن وان كانت موازين القوة تميل لمصلحة الخصم في لحظة ما .

٢. ان كل ما جاء به الانبياء هو حق وصدق وان الوحي لا يمكن ان يخطأ لأنه من الله تعالى.

٣. ان الوحي يتضمن اخبار النبي بالأحداث الماضية والمستقبلية على حد سواء فكلاهما غيب، فالغيب ما غاب عن الانسان سواء كان ماضيا ام مستقبلا.

٤. طمأنة النبي ان ما سيخبر به قومه سيتحقق ولو بعد حين ، ولا يخفى ما لهذا الامر من اثر نفسي في نفوس اقوام الانبياء من حيث انه طريق للايمانهم وهدايتهم. ومن هنا كان الانبياء واثقين كل الثقة حينما كانوا يخبرون اقوامهم بأوامر الله تعالى .

ولهذا كله فقد كان الوحي عاملا مهما وحاسما في دعوة الرسول محمد ﷺ وبدونه لم تكن هناك رسالة او رسول ، لذا فان من يشكك في الوحي بشكل و اخر فانه ينسف بذلك مبدأ النبوة بشكل عام ، فلا نبوة بدون وحي ، علما ان الوحي كما ورد في القرآن الكريم غير مختص بالانبياء فقط، فقد ورد في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾^٤ وفيما يخص هذه الجزئية فقد استشكل البعضهم ان الوحي ليس شيئا صعبا او انه كرامة مختصة بالنبي بدليل تساوى النبي والنحل في عملية الوحي ، وللرد على هذا الاشكال يمكن القول في تفسير هذه الاية : ان الله قذف في أنفس النحل امرا حياتيا خاصا بها، وليس رسالة تشريعية او حكماً فقهياً او عقائدياً ، وبذلك فيمكن القول ان جميع المخلوقات على هذه الحياة الدنيا تتصل بالخالق بشكل او اخر فيما يتعلق بامور معيشتها .

وعلى هذا الاساس فان امر الوحي هذا امر خاص بها من دون غيرها، وهو امر معيشي صرف دون ان يكون مرتبطاً برسالة او دعوة اخيرين لحياة اخرى او غيرها .

والثاني ما ورد بخصوص ام موسى اذ ورد بخصوص الوحي الى ام موسى وهي ليست برسول او نبي: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ وَلَا تَحْزَنِي ۗ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۖ ﴾^{٤١}، وهنا الامر متعلق بحالة من الالهام الى أم موسى حين ولدته وخشيت عليه أن يذبحه فرعون كما يذبح أبناء بني إسرائيل ففعلت ما فعلت طبقاً لما جاءها من الوحي الالهامي .

علماً ان الوحي يتعرض لحالات من الاستمرار والانقطاع بحسب الظروف التي تمر والحكم التي يريد الخالق انفاذها للبشر عبر عملية استمرار الوحي او انقطاعه، وهذا الامر يتجسد في مدة انقطاع الوحي عن النبي محمد ﷺ وما تركه هذا الامر في نفسه ﷺ، وعلى الرغم من قصر المدة التي انقطع فيها الوحي عن رسول الله ﷺ والتي لم تتجاوز الاربعين يوماً على اعلى الروايات.^{٤٢} ولعل الحكمة في انقطاع الوحي هو ان الله تعالى يكلم رسله متى شاء ولا يحق لاحد ان يعترض على ارادة الله تعالى، فضلاً عن ذلك ان هناك مضامين كثيرة تتجسد في قضية الوحي الالهي اذ بدونه يفقد الانبياء الدعم الالهي والتسيد الرباني الذي يتمتعون به، فما من علم في شيء الا من الله تعالى، وهذا الامر كان الانبياء ﷺ يدركونه كحقيقة ثابتة، ولكن الله تعالى اراد ان يشبها للناس كافة وهي ان الانبياء ﷺ لا يعلمون شيئاً ما لم يعلمهم الله تعالى عبر الوحي، وما قصة النبي موسى والخضر ﷺ الا خير دليل على ما نقول، فالنبي موسى ﷺ هو رسول ونبي ورسالته عامة ودعوته عالمية على العكس من الخضر، مما

يوحى في الاصل ان قضية العلوم التي يتمتع بها نبي الله موسى ﷺ هي أكبر بكثير من علوم الخضر ، الا ان الذي حصل هو العكس فنبي الله موسى ﷺ هو من يسأل الخضر ويطلب المعرفة منه، ذلك ان الله تعالى اوحى الى الخضر ﷺ ما لم يوحه الى نبيه موسى ﷺ ، قال تعالى : ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا . قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا . قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا . وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا . قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾^{٤٣} ، وقد تضمنت الآية الكريمة عددا من المعطيات المتعلقة بالوحي منها:

١ - ان الانبياء لا علم لهم الا ما علمهم الله، كما ان الانبياء ﷺ لا يعلمون كل شيء وان علومهم الذاتية لا تتعدى علوم بقية البشر ، اما ما يتعلق ببقية العلوم فلا بد من اخبار من الله تعالى عن طريق الوحي بدليل ان ما لم يعرفه النبي موسى ﷺ من امور انما هو بسبب عدم اخبار الله تعالى له، وان ما علمه الخضر فهو من اخبار الله تعالى له ، لأنها متعلقة بعلم الغيب ، كقيامه بخرق السفينة وقتله الغلام واقامة الجدار، الأمر الذي كان من المفروض ان يعرفه من هو أعلى درجة من الخضر ﷺ الا وهو نبي الله موسى . وفي هذا دلالة على ان الله تعالى يخبر الانبياء جميعا بان معارفهم وعلومهم هي من عنده تعالى وان له ان لا يخبرهم او يحجب علمه عنهم . وهذا واضح من قوله تعالى على لسان الخضر لموسى ﷺ " وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا " ^{٤٤} ، فالأمر ليس منحصرا في ان نبي الله موسى ﷺ كان جاهلا ، وانما يتعداه الى ان الخضر كان يعلم ان موسى ﷺ كان جاهلا في معرفة هذه الامور . وسواء كانت معرفته - اي الخضر - بجهل موسى ﷺ باخبار من الله تعالى ، او بمعرفة مستندة الى المنهج العقلي الذي اعتمده

الخضر والمستند الى سؤال موسى عليه السلام وهو طلب الاتباع وطلب العلم، وما من شك ان طلبه العلم هو جزء من قضية طلب الاتباع قال تعالى: « قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا »^{٥٠}، والاية صريحة في ان نبي الله موسى عليه السلام كان يعلم بعلم الخضر، ويعلم في ذات الوقت جهله عن ادراك ومعرفة ما لم يعلمه الله تعالى اياه.

٢ - ان العلم ضالة المؤمن، وله ان يبحث عنه وله ان يسأل عنه حتى لو كان المسؤول اقل درجة ورتبة، فنبى الله موسى اعلى درجة وشأننا فهو كليم الله تعالى، وقد ذكره تعالى في أوائل الرسل الذين جاء ذكرهم في اية التفضيل، قال تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾^{٥١}، جمعا مع قوله تعالى ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾^{٥٢}، ولكن هذا التفضيل لم يكن حائلا بين موسى عليه السلام وبين طلبه المعرفة، فالحكمة ضالة المؤمن اخذها حيث وجدها، ولا حكمة من دون علم.

وهكذا نفهم ان الله تعالى يظهر عجز رسله الذين اصطفاهم واختارهم ليين لهم ولغيرهم ضعفهم وان جل علومهم الذاتية هي من الله تعالى، وحتى الخضر عليه السلام لم يكن ليعرف شيئا لولا تعليم واخبار الله تعالى له، بدليل قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾^{٥٣}.

٣ - نفهم من الآية الكريمة ايضا ان الامر ليس منحصر في ذات العلم، وانما يتعداه للأيمان بالأشياء وحقائق ما يخبر الله تعالى به، وهذا لا يكون الا عبر الإيحاء الالهي، على العكس من العلوم المأخوذة حتى عن الانبياء عليهم السلام، وهذا ما ذكره الخضر حيث أخبر هو موسى عليه السلام بان ما سيراه على يديه مع سبق طلب العلم منه سوف لن يكون كافيا الا بتفسير ما سيراه، قال تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾^{٥٤} فهو يعلم

بعلم من الله تعالى بأن موسى عليه السلام سوف لن يصبر ، لأن ما سيراه بحاجة الى تفسير وتوضيح الامر الذي يوفره الوحي الا وهو الاحاطة بما يتعلق بالعلوم الموحى بها الى الانبياء ، فالقضية اذا هي اكبر من مظاهر اخذها موسى عليه السلام من الخضر ، وانما تعدته الى ما هو اكبر عمقا الا وهو تفسير الظواهر التي توصل الانسان الى كامل المعرفة اذا كان الاعتقاد بان اساس هذه الاعتقاد هو الوحي وليس شيئا اخر . ومن هنا نفهم الغرض الذي لأجله كان انقطاع الوحي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في احد اهدافه ومناهجه ، لأننا نؤمن ان لانقطاع الوحي اهدافاً وغايات عدة ، قد يكون ما ذكرناه احدها .

وعلى الرغم من الخلاف الذي ذكره الفخر الرازي حول هل يليق بالرسول ان يظن بالله تعالى أن يودعه ويتركه^{٥٠} ، الا ان المتفق عليه هو ان انقطاع الوحي عنه صلى الله عليه وآله وسلم ترك اثرا نفسيا لديه ، مع ايمانه عليه السلام ان انقطاع الوحي عنه كان لحكمة يعلمها الله تعالى ، والامر يقتضي تفويض الامر اليه سبحانه في كل الاحوال ، الامر الذي يؤيد ما نقوله الا وهو ان الوحي يمثل تسلية ودعما وتثبيتا لقلوب الانبياء عليهم السلام .

ومن الامور التي كان للوحي دور مهم فيها عند الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم هو قيامه بتبليغ الرسول وعبره عامة المسلمين بمستقبل الدعوة الاسلامية بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك في ضوء تعيين امتداد للرسالة - وان لم يكن نبيا - ولكنه قد تلقى عناية خاصة من الله تعالى و الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونقصد بها قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^{٥١} . وهي الاية التي ورد في تفسيرها انها نزلت بعد مبايعة المسلمين للإمام علي عليه السلام كمولى لكل مسلم ومسلمة وانه الخليفة بعد الرسول محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وذلك في غدير خم بعد حجة الوداع^{٥٢} .

الخاتمة :

- ١- يعد الوحي مصدر المعرفة الرئيس بالنسبة للأنبياء ﷺ، وهذا المصدر لا يمكن ان يتشارك معهم فيه الا من كان نبيا او من شاء الله له ذلك فقط .
- ٢- لا تقتصر مهمة الوحي على الاخبار ، وانما تتعداها الى ما هو ابعد من ذلك بكثير ، فهو يعمل على ديمومة الدعوة و حمايتها وسلامتها من المخاطر ، فضلا عن امر مهم جدا وهو ان طبيعة الاخبار تاخذ بنظر الحسبان المكان والزمان الملائمين لصاحب الدعوة ، لذا كان الدين واحداً والشرائع متعددة .
- ٣- يعد الوحي امدادا روحيا للأنبياء ، وسندا معنويا لهم عبر تثبيتهم ودعمهم ، خاصة بعد تلاطم امواج الفتن والبلاء واشتداد معارضة المناوئين وتصاعد كيدهم وجبروتهم ، والذي بدون الوحي لا يمكن مطلقا الصمود تجاهه ، اذا اخذنا بالقوانين والاسباب الطبيعية .
- ٤- للوحي صور ووسائل يتصل عن طريقها بالأنبياء وينقل كلام الله تعالى اليهم ، ومثال ذلك الالهام والكلام بصيغة معينة دون وسيط ، وان يكون هناك رسول بين الله والنبى ، والحالة الاخيرة هي اكثرها الصور شيوعا من صور الوحي عند الانبياء .
- ٥- الوحي يثبت ان لا علم لاحد الا ما علمه الله تعالى ولو كان الشخص نبيا ، اذ انه في حالة قطع الوحي عن النبي فانه يكون بشرا عاديا غير مميز الا بكونه على اعلى مراتب الخلق والاستقامة ، اما ما يتعلق بالعلم والقيادة والاخبار فانه يكون غير ممتلك لها جميعا في حالة غياب الوحي عنه .
- ٦- الوحي بلفظه العام ليس مقتصرا على الانبياء وانما يتعداه لبعض الصالحين ، كما أوحى الله تعالى الى مريم العذراء او ام موسى عليهما السلام ، ومن هنا يجب القول ان الوحي للأنبياء او لغيرهم ان كان متعلقا بهم ،

فالوحي الى مريم العذراء ﷺ كان متعلقاً بولادة السيد المسيح، والوحي الى ام موسى كان متعلقاً بكليم الله تعالى وكلاهما رسول ونبي، وهنا يؤدي الوحي أثراً غير مباشر في حياة النبي وان كان موجهاً الى بشر غيره، لكنه في الاعم الاغلب هم اقارب النبي او الرسول .

٧- اثيرت الكثير من الشبهات على الوحي، ولعل ابرزها انه يستلزم حالة من المجانسة والسنخية بين الله والرسول، وهذا يمكن رده بعبارة واحدة وهي: ان الاتصال بين الله والرسول لا يعني مطلقاً ان الاله يتواصل مع الرسول او النبي بشكل مباشر، ولكنه يتواصل معه بطريق يوصل له ما يريده بشكل لا يستلزم التواصل المباشر مطلقاً، وحتى تكليم الله لموسى كان بواسطة كيفية معينة كانت وهي النار .

٨- كان الوحي منظماً لحياة المسلمين حتى بعد وفاة الرسول محمد ﷺ، وذلك عندما حدد من سيكون الخليفة بعد وفاة الرسول ﷺ، وذلك في واقعة الغدير المعروفة .

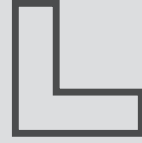
الهوامش

- ١- الشورى: ٥١.
- ٢- أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي، جهرة اللغة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٧، ج ١، ص ٢٣١.
- ٣- مريم: ١١
- ٤- القصص: ٧
- ٥- حسن محمد أيوب، تبسيط العقائد الإسلامية، ط ٥، دار الندوة الجديدة، بيروت، ١٩٨٣، ص ١٧١.
- ٦- الذاريات: ٥٦
- ٧- المؤمنون: ١١٥
- ٨- الملك: ٢
- ٩- الحج: ٧٥
- ١٠- الشورى: ٥١
- ١١- الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٢٧، ص ١٦٨.
- ١٢- محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩٣، ج ٣، ص ٣٣٠.
- ١٣- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠، ص ٢٧.
- ١٤- الشورى: ٥١
- ١٥- الشمس: ٧-٨
- ١٦- الانبياء: ٧٩.
- ١٧- طه ١٢
- ١٨- البقرة: ٩٧.
- ١٩- إلياس قويسم، تشتت النص القرآني بين الثقافة التقليديّة والحداثة العلميّة، الملتقى الفكري للإبداع، ٢٠٠٨.
- ٢٠- الحجرات: ١٣.
- ٢١- نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، ص ٥٦-٥٩
- ٢٢- الجن: ٩
- ٢٣- الزمر: ٦٥
- ٢٤- الشورى: ٥١

- ٢٥- ال عمران : ٤٩
- ٢٦- الانعام : ٥٠
- ٢٧- ال عمران : ١٧٩
- ٢٨- ال عمران : ٤٩
- ٢٩- محمد حسين الطباطبائي ، الميزان في تفسير القرآن ، دار الكتاب العربي ، لبنان ، ٢٠٠٩ ، ج ٣ ، ص ١٧٦ .
- ٣٠- الفرقان : ٣٢
- ٣١- نوح : ٣٦
- ٣٢- الشعراء : ٦٣
- ٣٣- النساء : ٦٥ .
- ٣٤- الكهف : ١١٠ .
- ٣٥- الحاقة : ٤٤- ٤٧ .
- ٣٦- الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، ج ٣٠ ، ص ١٠٦ .
- ٣٧- الاسراء : ٨٢ .
- ٣٨- هود : ١٢٠
- ٣٩- الروم : ١- ٣ .
- ٤٠- النحل : ٦٨
- ٤١- القصص : ٧
- ٤٢- الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، ج ٣٢ ، ص ١٩٦ .
- ٤٣- الكهف : ٦٥- ٦٩ .
- ٤٤- الكهف : ٦٨
- ٤٥- الكهف : ٦٦
- ٤٦- البقرة : ١٥٣ .
- ٤٧- النساء : ١٦٤
- ٤٨- الكهف : ٦٥
- ٤٩- الكهف : ٦٨
- ٥٠- الفخر الرازي ، التفسير الكبير ، ج ٣٢ ، ص ١٩٦ .
- ٥١- المائدة : ٣ .
- ٥٢- المفيد ، الارشاد الى معرفة حجج الله على العباد ، مؤسسة ال البيت ، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ج ١ ، ص ٨ .

قائمة المصادر

- القران الكريم
- * أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد
الأزدي، جمهرة اللغة، بيروت، دار العلم
للملايين، ١٩٨٧، ج ١.
- * إلياس قويسم، تشتت النص القرآني
بين الثقافة التقليديّة والحداثة العلميّة،
الملتقى الفكري للإبداع، ٢٠٠٨.
- * حسن محمد أيوب، تبسيط العقائد
الإسلامية، ط ٥، بيروت، دار الندوة
الجديدة، ١٩٨٣، ص ١٧١.
- * الفخر الرازي، التفسير الكبير، دار
الفكر، بيروت، ٢٠٠٥، ج ٢٧.
- * محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح
البخاري، دار ابن كثير، بيروت، ١٩٩٣،
ج ٣.
- * محمد حسين الطباطبائي، الميزان في
تفسير القران، دار الكتاب العربي، لبنان
، ٢٠٠٩، ج ٣.
- * المفيد، الارشاد الى معرفة حجج الله
على العباد، مؤسسة ال البيت، بيروت
، ٢٠٠٨، ج ١.
- * نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،
١٩٩٠.



بين إسرائين إسرائ النبي موسى عليه السلام وإسرائ النبي محمد صلوات الله عليه وآله -دراسة قرآنية تاريخية مقارنة-

أ.د. أمل سهيل عبد الحسيني

قسم علوم القرآن/ كلية التربية المختلطة / جامعة الكوفة /العراق

م.د. ندى سهيل عبد الحسيني

مديرية تربية الكرخ الثانية / وزارة التربية/العراق



Between two Israa': the first Isra': Israa Musa (pbuh) and the second Isra': Israa Muhammad "pbuh") (A comparative historical Quranic study)

Prof. Dr. Amal Suhail Abdul-Hussaini

Department of Quran Sciences / College of Mixed Education / University of Kufa/Iraq

Dr. Nada Suhail Abdul-Hussaini

Al-Karkh Second Directorate of Education/Ministry of Education/Iraq

الملخص:

تعد الرسائل السماوية السابقة كلها امتداداً لبعضها البعض، فلا تقاطع ولا تنافر بينها؛ لأن مصدرها واحد من عند الواحد، وكلها تؤكد ان لا دين إلا الإسلام جامعا للقلوب وموحدا للصفوف.

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى يختار أنبياءه ورسله من بين خلقه وفق مواصفات تحددها السماء، والذي يختلف فيما بينهم هم موضوع الأفضلية، والقرآن تحدث عن الأفضلية بقوله: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ (البقرة/ ٢٥٣)، وفي هذا البحث فاضلنا بين رسولين عظيمين من أنبياء أولي العزم، هما: سيدنا النبي موسى عليه السلام ورسولنا الكريم محمد ﷺ، فكانت النتيجة هي الأفضلية لبنينا الكريم ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين من الأولين والآخرين .

Abstract

The previous heavenly messages are all an extension of each other, so there is no intersection or resentment between them; Because its source is one from Allah, and all of them confirm that there is no religion but Islam, which unites the hearts and unites the ranks.

It is well-known that God Almighty chooses His prophets and messengers from among His creation according to specifications determined by the Him, and what differs among them is the subject of preference, and the Qur'an speaks about the superiority by saying: Those messengers - some of them We caused to exceed others (Surah Al-Baqara 253), In this research we differentiated between two great prophets namely: our master Moses (peace be upon him) and our honorable messenger (peace be upon him), and the result was the preference of our honorable Prophet (peace be upon him) over all other prophets and messengers from the first and the last.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد النبي الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين

لا شك أن الرسائل السماوية السابقة كلها امتداد لبعضها البعض، فلا تقاطع ولا تنافر بينها؛ لأن مصدرها واحد من عند الواحد، وكلها تؤكد أن لا دين غير الإسلام جامعاً للقلوب وموحداً للصفوف للشعوب من الفتن والخطوب، وأنه الدين الذي لو تخلفت عنه أمة كان مصيرها التهاوي في سراديب الغواية ومستنقعات الضلالة، فقال تعالى مصداقاً لذلك: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ آل عمران/ ١٩ وهذا ما أكدته كل الرسائل السماوية، شرقي الأرض وغربها، فهو دين واحد في الأولين والآخرين لا يختلف فيه اثنان، وقد جاءت دعوة كل الأنبياء والمرسلين برسالة التوحيد، هذه الرسالة التي جمعت القلوب على الحب والتآخي، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ الحجرات/ ١٣ ، وعليه فإن كل الرسائل السماوية أكدت أن الإسلام هو دين الله الواحد في الأولين والآخرين لا تختلف إلا صوره ومظاهره، أما روحه وحقيقته فواحدة لا تتغير، كذلك فإن أنبياء الله ورسله تختارهم السماء وفق مواصفات هي تحددها، بقي شيء واحد يختلف عندهم هو قضية الأفضلية، يعني هل: كل أنبياء الله بدرجة واحدة من القرب الإلهي أم هناك تفاوت؟ .

الجواب: نعم هناك تفاوت في الأفضلية والقرب من الله، فهناك الأنبياء أولو العزم، وهناك أنبياء لكنهم ليسوا مرسلين، وهناك الأنبياء المقربون وهناك الأنبياء المصطفون، وهذا التفضيل قد صرح به القرآن الكريم، فقال عز من قائل: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّن

كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴿البقرة/ ٢٥٣﴾، من هذا المنطلق جاءت فكرة الكتابة في هذا الموضوع لكي نقف على حقيقة الأفضلية مع نبين عظمين من أنبياء أولي العزم هما: موسى عليه السلام ومحمد عليه السلام، فانظم البحث في ثلاثة مباحث، وقف الأول على ومضات من حياة ومواقف نبي الله موسى عليه السلام، ثم ليقف المبحث الثاني على ومضات من حياة النبي الخاتم محمد عليه السلام، ثم لنعقد مقارنة في نهاية المطاف للوقوف على نقاط الالتقاء والافتراق بينهما، لتعرف أخيراً من منهما حاز على مقام الأفضلية وذلك عبر المبحث الثالث الذي سيعقد مقارنة بين الإسرائيلين، إسرائء موسى عليه السلام وإسرائء محمد عليه السلام لنجعل من القارئ الكريم حكماً في إثبات الأفضلية.

المطلب الأول: شذرات من حياة نبي الله موسى عليه السلام:-

نبي ليس ككل الأنبياء، وقصته ليست ككل القصص، فمن بين (١١٤) سورة قرآنية ورد اسمه في (١٣٦) مرة، وقصته مع طاغية زمانه (٢٠) مرة، وذكر اسم قومه وكتابه المقدس أو الاثنان معاً (٨٥) مرة، وأحصى الدكتور عبد المنعم حنفي^(١): ان قومه جاء ذكرهم في (١١٠) آية من سورة البقرة ذات أل (٢٨٦) آية، تلك السورة التي يطلق عليها (قسطاس القرآن)؛ لكثرة ما فيها من القصص والآداب والمصطلحات والفلسفات في كل جوانب الحياة، وقيل عنها: ان بها ألف حكم وألف أمر وألف نهى وألف خبر، وقد سميت بهذا الاسم إشارة لحادث القتل الذي وقع في عهده عليه السلام بعد ما طلب قومه منه تحديد اسم القاتل.

ولد هذا النبي في مصر بأجواء صعبة جداً، أنقذه الله تعالى بمعاجز كثيرة وليست معجزة واحدة، فدخل قصر فرعون ضيفاً وخرج منه رجلاً عاقلاً راشداً بعد أن دعاه الى عبادة الله تعالى فرفض دعوته قائلاً: أنا ربكم الأعلى، فكان هلاكه على يده الكريمة بأمر من السماء.

قصته وإن كانت طويلة في القرآن الكريم، إلا أنها كل مرة تأتي بجديد يثير خيال القارئ، بل يشركه في الوقائع الحقيقية بسحر اللغة والبيان، فترى القارئ للقرآن لا يمل القراءة إن قرأ قصته لما يجده من موعظة فيها، وإذا ما أكمل القارئ قراءة القرآن كله يجد مدى الكثافة اللغوية والحضور الطاعني له.

إنه سيدنا موسى ﷺ، حتى قيل: (كاد القرآن أن يكون كله موسى) على سبيل المجاز^(٢)، قصته أشبهت قصة سيدنا يوسف ﷺ كونها وقعتا في مصر، فضلاً عن أن الاثنين ﷺ ألقيا، أحدهما القي في الحب والآخر ألقى في اليم، فضلاً عن أنهما عاشا في قصر ذي شأن، الأول جاء ببني إسرائيل الى مصر، اما الثاني فقد كان خلاص بني إسرائيل من فرعون على يديه . التاريخ عندما يتحدث عنه، لم يذكر لنا شيئاً عن ابيه ولا عن طبيعة عمله ولا عن مكانته في مجتمعه، بينما خص القرآن والتاريخ أمه بالذكر الحسن حينما تحدث عنها على انها امرأة عبرانية سليله أسرة ناهية، شريفة مؤمنة، كان شأنها في الديار المصرية عالياً كون ان اجدادها جاءوا بطلب من يوسف الصديق وبقوا يتوارثون مجده وتعاليمه أكثر من قرنين ونصف . قيل ان اسمها: يوكابد، وقيل: إنها يحيب، وقيل: باختة، وقيل: أفاحية، وقيل: يوخابد، ولا يهمنا اسمها، الذي يهمنا انها من سلالة خليل الله إبراهيم ﷺ^(٣)، وأنها ولدت في زمن كان بنو إسرائيل يعانون الأمرين من المذلة والهوان على يد الفراعنة، وأنها لمكانتها العظيمة وجمالها الأخاذ

خطبها عليّة بني إسرائيل، وأخيراً فاز بها عمران بن قاهت بن لاوي بن يعقوب (عليه السلام) فتزوجها فأنجبت ذرية صالحة هارون ثم مريم ثم موسى وآخرين من بنين وبنات.

بعد أن حملت به أمه أوحى الله إليها بالكيفية التي بواسطتها تستطيع إنقاذ وليدها فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَيْهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص / ٧).

إذا السماء وجدتها أهلاً للقيام بالمهمة الملقاة على عاتقها ألا وهي حفظ الوليد الموعود بإحدى الرسالات الكبرى من مذبحة لم ينج منها حتى الحمل في بطن أمه.

علمتها السماء ما تصنع وما عليها وما يجب أن تفعله بعد أن ربط تعالى على قلبها لعلمه تعالى بقوة شخصيتها، أليس هو القائل: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (الأنعام / ١٢٤)، اختارها دون أبيه لأسباب رأت أنها أهل لأداء المهمة على أكمل وجه، رغم أن صناعة التابوت مهمة يقوم بها الرجال، والأب أولى من غيره بذلك، وفي هذا ردّ على من يدعي أن الله يختار من الرجال ما يختار دون النساء لعلمه بمحدودية قدراتهن، فهذا كذب وافتراء، فالتاريخ يحدثنا عن كثير من الأنبياء الذين أوكلت مهمة حفظهم إلى النساء، فهذا موسى أوكلت السماء مهمة حفظه إلى ثلاث من النساء، الي أمه كي يُقر عينها ولا تحزن، والى أخته مريم التي جعلها الله واسطة بين الأم والوالدة والأم الجديدة آسيا زوجة فرعون تلك المرأة التي تكفلت بتربيته ومن ثم كانت أول المؤمنين به وبدينه، حتى عيّ الله سبحانه وتعالى أقواما من الرجال بفعلها رغم أنها امرأة، فقال تعالى: ﴿وَصَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةٌ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ (التحریم / ١١).
ومن قبله كان نبي الله إبراهيم عليه السلام وقد أوكل تعالى حفظه لأمه، التي وضعتة في ذلك الغار حتى نجاه الله من بطش نمرود الذي ادعي الربوبية من دون الله، وبذلك أشبهت قصته قصة أبينا إبراهيم، وهنا شبه كبير بين القصتين وكأن الزمن يعيد فصوله كل حين، ولكي نكذب المقولة: (أن التاريخ يعيد نفسه مرتين) ونضع مكانها: (أن الإنسان يكرر غباءه مرتين)، فلم يستفد فرعون من قصة نمرود الذي كان قبله ولم يع أن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له: كن فيكون، بل لم يستفد قومها من عاقبة الذين قبله ويترك عبادة العبيد ويرجع إلى ربه، فما كان من الله جل وعلا إلا أن يورد النار العابد والمعبود ليبتل بذلك نظرية (هذا ما وجدنا عليه آباءنا).

ثم ليأتي من بعده عيسى عليه السلام ليوكل المولى عز وجل مهمة حفظه لامرأة، وهي القديسة مريم العذراء التي لولاها لقتل وهو رضيع، وعليه فالسما هنا تبين أثر المرأة في حفظ رجالاات الرسالات السماوية، فلولا هن - وإن كانت الإرادة الإلهية هي الأولى ولكن إرادة السماء أبت إلا أن تجري الأمور بأسبابها - لقتل أنبياء الله.

ثم يكمل القرآن الكريم الحديث عن دور تلك الأم فيقول: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (القصص / ١٠)، هنا يبين القرآن الكريم حقيقة مشاعر أم موسى في تلك اللحظة، يقول: إن قلبها أصبح فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى، أو فارغاً من كل شيء إلا هم موسى، وقيل: أصبح فارغاً من العهد الذي عهدنا إليها، والوعد الذي وعدناها أن نرد عليها ابنها، فنسيت ذلك كله^(٤)، هذا بالنسبة للأم، أما الأخت فجاء دورها مكملًا لتكون السبب في رد الولد لأمه، بعدها ليأتي دور آسية بنت مزاحم التي

كانت أصلاً من بني إسرائيل تزوجها فرعون وهي من خيار النساء، ومن بنات الأنبياء، سميت بمنقذة الرسالة، فلولاها لذبحه فرعون كما يذبح بقية أبناء بني إسرائيل، وبهذا نخلص إلى دور النساء العظيم في إنقاذ أنبياء وأولياء الله فلولاهن لأخذت الأمور مجرى آخر، لنقول: ليست المرأة نصف المجتمع بل هي المجتمع كله إن كانت صالحة.

تحدث التاريخ عن نسبه، ف قيل: (هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وولد لاوي ليعقوب وهو ابن تسع وثمانين سنة، وولد قاهت للاوي وهو ابن ست وأربعين سنة، وولد لقاهت يصهر، وولد عمران ليصهر وله ستون سنة، وكان عمره جميعه مائة وسبعاً وأربعين سنة، وولد موسى ولعمران سبعين سنة، وكان عمر عمران جميعه مائة وسبعاً وثلاثين سنة، وإسم امرأته صفورا بنت شعيب النبي، وكان فرعون مصر في أيامه قابون بن مصعب بن معاوية صاحب يوسف الثاني، وكانت امرأته آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد فرعون يوسف الأول، وقيل: كانت من بني إسرائيل)^(٥).

تزوج آسية بنت مزاحم بعد موت أخيه، ولم يكن في الأرض أعتى منه غلظة ولا أقسى قلباً ولا أسوأ ملك لبني إسرائيل فيه، كان يعذبهم ويسومهم سوء العذاب ويجعلهم خدماً وخولاً، وقد وصفه القرآن بقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يَذَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص / ٤ - ٥)، صنف بني إسرائيل في أعماله، فصنف بينون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في عماله، ومن لم يكن منهم في صناعة له

من عمله فعلية الجزية^(٦).

كان بنو إسرائيل في كل هذا ينتظرون الفرج ويتظنون تحقق نبوءة نبي الله يوسف عليه السلام، الذي أخبرهم قائلاً: إن الفراعنة سيظهرون على بني إسرائيل ويستعبدونهم حتى يظهر من ولد لاوي من يفرج عنهم ويخلصهم، اسمه موسى بن عمران بن وهيب بن فاهت بن لاوي، غلام طوال، جعد الشعر، آدم اللون، فجعل الرجل من بني إسرائيل يسمي ابنه عمران ويسمي عمران ابنه موسى، حتى خرج ثمانون كذاباً من بني إسرائيل كلهم يدعي انه موسى بن عمران^(٧).

وكان (فرعون رأى في منامه أن ناراً قد أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأخذتها وأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، فدعا فرعون السحرة والمنجمين وسألهم عن رؤياه فقالوا: انه يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك ملكك ويخرجك وقومك من أرضك ويبدل دينك وقد اطل زمانه الذي يولد فيه، فلما سمع فرعون ذلك من السحرة والمنجمين امر بسجن كل رجل من بني إسرائيل حتى لا يكون هناك لقاء بين رجال بني إسرائيل ونسائهم خوفاً أن تحبل منهن امرأة ويكون ذلك الغلام)^(٨)، ووضع القوابل على النساء، فلما رأى بنو إسرائيل، قالوا: تعالوا لا نقرب النساء، فقال عمران بن وهيب عليه السلام: آتوهن فان الله دافع ولو كره المشركون، اللهم من تركه فاني لا أتركه ووقع على ام موسى فحملت بموسى^(٩).

وفي هذه المدة كان لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا دُبْح، اذ إن فرعون (كان يأمر بتعذيب الحبالى حتى يضعن، فكان يشقق القصب ويوقف المرأة عليه فيقطع أقدامهن، وكانت المرأة تضع فتتقي بولدها القصب، وقضى الله الموت في مشيخة بني إسرائيل، فدخل رؤوس القبط على فرعون وكلموه،

وقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك ان يقع العمل على غلماننا، تذبح الصغار وتفني الكبار؟! فلو انك كتبت تبقي من أولادهم فأمرهم أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي تركوا فيها ولد هارون، وولد موسى في السنة التي يقتلون فيها وهي السنة المقبلة^(١٠). وعند ولادته اغتمت أمه كثيراً وقالت: (يذبح الساعة، فعطف الله بقلب الموكلة به عليه، فقالت لأم موسى: مالك قد اصفر لونك؟ فقالت: أخاف أن يذبح ولدي. فقالت: لا تخافي. وكان موسى لا يراه احد إلا أحبه وهو قول الله: ﴿وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (طه / ٣٩) فأحبته القبطية الموكلة به، وانزل الله على ام موسى التابوت^(١١) ونوديت: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص / ٧)، وهكذا يكون (الإيحاء لأم موسى بإرضاع طفلها؛ أذان بخلق ذلك الطفل ليحيى، ويكبر، ويترعز، ويقوم بمسؤولية كبيرة، وبالرعاية الإلهية، كما أن تهيئة الأسباب السماوية لرعاية ذلك الطفل من الأخطار، لدلالة على عظم شأنه روحياً منذ ولادته، والحماية السماوية للطفل تظهر في الإيحاء لام موسى، أنه في حال شعورها بخطر محيط بطفلها، فعليها وضعه في الصندوق، ثم إلقاء الصندوق في النهر، نهر النيل بشجاعة وثبات وجداني. فالله تعالى سوف يرده سالماً إليها ويجعله في وقت ما رسولاً، يُرسل الى فرعون، لكي يقوم بإنقاذ بني اسرائيل من نير ذلك الطاغية، بالقضاء الإلهي الذي لا يُرد^(١٢). وما دمنا في بيان أفضلية الأنبياء بعضهم على بعض أحب أن أشير الى قضية الرضاعة التي اكدها القرآن الكريم مراراً، فمرة يقول لامه ﴿ارضعيه﴾ وأخرى يقول: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ (القصص / ١٣)، إشارة الى أن قضية إرضاع المعصوم قضية مهمة، فلا

ترضعه أي امرأة، خصوصاً المرأة الكافرة أو التي في حليبها شبهة، وكأنها أرادت السماء أن توصل رسالة مفادها: أنهم من أرحام مطهرة وأصلا لم تنجسها الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسها من مدلهيات ثيابها، فإن ثبت هذا لموسى ﷺ فالأحرى أن يثبت كذلك لرسول الله ﷺ وهو الذي نال مكان الأفضلية على كل الأنبياء، فنكذب الرواية التي تقول إن رسول الله ﷺ قد أرضعته حليلة السعدية المرأة المشركة التي أسلمت في سنة ٩ هجرية في عام الوفود^(١٣)، إذن هي كانت مشركة والقرآن الكريم يقول: ﴿إن المشركين نجس﴾ (التوبة/ ٢٨)، فهل السماء تسمح للنبي أن يرضع النجاسة من مشركة غير طاهرة وعندنا حديث يقول: (لا تسترضعوا الحمقاء فان اللبن يعمدي)^(١٤)، ونحن في الزيارة الجامعة نخاطب الإمام الحسين ﷺ بقولنا: (ورضعت من ثدي الإيمان)^(١٥)، فالرسول محمد ﷺ أولى من هذا وذاك، فإذا كان موسى ﷺ يرفض أية مرضعة؛ لأنه نبي ولا يجوز لنبي أن ترضعه امرأة نجسة - علماً أن المراضع التي عرض عليها موسى جُلَّهن قد عشن في القصر الفرعوني - فكيف برسول الله ﷺ وهو النبي الخاتم، وكما قال أحمد أمين: (إن النبوة ليست إلا سفارة ربانية يودعها الله أكمل عباده خلقاً وخلقاً أي أكملهم في البدن والروح، أو في الحسب والنسب وطهارة النسل والمولد والأخلاق المثالية الكاملة، وخلاصة ذلك أن الله يودع النبوة شخصاً مستجمعاً لصفات العصمة والكمال)^(١٦)، فإذا كان موسى ﷺ لم يقبل ثدي غير ثديا أمه وهذه واحدة من معاجزه كما نعتقد، إذن فما هو نصيب رسول الله النبي محمد ﷺ من هذه المعجزة، وعقيدتنا بمنزلته أنه أفضل الأنبياء والمرسلين وزيادة، هنا ندعو كل من كتب عن رضاعة النبي ﷺ وأولهم ابن سعد في الطبقات^(١٧) إلى أن يبحثوا الروايات الواردة بخصوص هذا الموضوع من ناحية السند والمتن والدلالة؛ لأننا

جميعاً مسؤولون أمام الله عن هذه الأكاذيب التي ألصقت بالنبي ﷺ.

وقد ثبت لدينا أن عبد المطلب إنما بعث رسول الله ﷺ إلى البادية خوفاً عليه من اليهود الذين حاولوا أن يقتلوه أكثر من مرة، حتى عندما كان جنيماً في بطن أمه، فهناك رواية تقول: إن زرقاء اليمامة هذه المرأة اليهودية التي كانت تعمل كاهنة وحلاقة نسائية، وكانت كذلك قابلة وصلت إلى بيت أمه عندما كانت حاملاً به فدخلت على آمنة، فدخل عبد المطلب - بعد أن شك في أمرها - فقال لها ماذا تفعلين بعد أن أخرجت خنجراً تحاول قتل أمه، فقالت له: جئت أزين آمنة، فقال لها: لم هذا الخنجر فسكتت، فعفا عنها لأنه عبد المطلب وكفى، كذلك بعد ولادته حاولوا قتله مرات متعددة حتى قيل أنه خطف مرة من المرات وبحث عنه عبد المطلب فلم يجده حتى عثروا عليه في مغارة أخفوه بها اليهود لأنه ثبت لديهم أنه رسول هذه الأمة^(١٩).

اذن ذهابه ﷺ إلى مضارب بني أسد إنما كان لحمايته من اليهود لا كما زعم الزاعمون بأن العرب كان من عادتهم إذا ولد لهم طفل يذهبون به إلى البادية لكي ينهل من عذب بيانها وفصيح بلاغتها التي كانت لها اليد الطولى في البيان والبلاغة في ذلك الزمان وكذلك لكي يتعلم الفروسية ويأخذ بشجاعة أهل البادية، علماً أن التاريخ لم يذكر هذا لغير رسول الله ﷺ فلم يُذكر أن أبا بكر أو عمر أو حتى علي بن أبي طالب أو أبناءه الحسن والحسين قد ذهبوا بهم إلى البادية، ليكونوا كما زعم هؤلاء، فكيف يكون هذا فقط لرسول الله ﷺ.

يقول ابن سعد: إن عمر النبي ﷺ الشريف عندما ذهب الى بادية بني أسد كان (٣٦ شهراً) وابو (٣٦ شهراً) لا يحتاج الى رضاعة، ثم أين كانت أمه آمنة بنت وهب التي توفت وعمر النبي ست سنوات وقيل أربع (٢٠)، ثم إن مضارب بني أسد تبعد عن مكة حوالي (٢٠٠ كيلو متر)، فماذا كان يشرب النبي ﷺ في الطريق، فأمه كانت معه تراعيه في الطريق وترضعه، ولا توجد رواية تقول: إن آمنة كانت مريضة مرضاً يمنعها من الرضاعة، بل هي ذهبت مع عصابة من شباب بني هاشم حماية لرسول الله ﷺ بوصف أن عبد المطلب (رجل قد حمل أمانة الإنسانية كلها، نعم لقد حمل هذا الرجل أمانة الإنسانية على عاتقه من خلال تحمله مسؤولية الحفاظ على النبي منذ أن ولد إلى أن تركه ورحل مهاجراً الى ربه تاركاً الأمانة لأبي طالب عليه السلام بعده ليواصل مشواره في الحفاظ عليه) (٢١)، إذن حليلة السعدية كانت حاضنة لرسول الله ﷺ وليست مرضعة، كما كانت آسية زوجة فرعون حاضنة لموسى عليه السلام وليست مرضعة.

نعود الآن لإكمال قصة سيدنا موسى عليه السلام الذي حمل اليم الصندوق الذي وضع فيه (الى قصر فرعون واحضره الخدم الى سيدة القصر التي أمرت بفتحه ورأت بداخله غلاماً يبهر الأبصار، فقالت لزوجها فرعون الجبار ﴿قُرْءُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص / ٩)، وألقى الله محبته في قلوبهم ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ (طه / ٢٩) (٢٢)، يقول الرسول ﷺ: (والذي يحلف به لو أقر فرعون أن يكون ابنه كما أقرت به لهده الله سبحانه وتعالى كما هدى زوجته، ولكن الله عز وجل حرمه ذلك) (٢٣)، فلما آمنت آسية أرادت أن تسميه باسم اقتضاه حاله وهو موسى؛ لأنه وجد بين الماء والشجر، و (مو) بلغة القبط الماء، و (شا) الشجر، فعرب فقيل: موسى.

وكم حاول فرعون قتله ولكن زوجته المرأة الصالحة آسية هي التي حالت دون ذلك ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ (القصص / ٨)، فشاءت مشيئة الله تعالى أن يكون لفرعون عدواً ولزوجته سبباً في أن يضرب بها الله مثلاً للذين آمنوا ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةً فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحریم / ١١).

دخلت حياة موسى ﷺ مرحلة جديدة، وهي مرحلة البحث من مرضعة تكفله، فجاء دور اخته مريم تلك المرأة الصابرة العاقلة المؤمنة التي كان لها موقفان مشرفان في حفظ حياة موسى ﷺ:

أولهما: عندما كانت واقفة تعد الخبز لأهلها وقد أوقدت التنور لذلك، وأمها قد ضربها الطلق في زاوية من زوايا الدار، ففوجئت بالحرس يقتحمون الدار يطلبون الوليد، فهرعت إلى أمها تنذرها فلفت الوليد بخرقه ورمته بالتنور، وبعد رحيل الجند هرعت للتنور لترى ما حصل بأخيها وإذا بها تقف مبهوتة بعد أن رآته حياً لم تمسه النار؛ لأن المولى قد جعلها عليه برداً وسلاماً كما جعلها برداً وسلاماً على إبراهيم بالأمس ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء / ٦٩).

ثانيهما: بعد أن وضعت أم موسى الطفل في التابوت وألقته في اليم، طلبت من ابنتها أن تقوم بمهمة صعبة وشاقة، هي مهمة البحث عن أخيها إلى أين قذفته الأمواج ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ (القصص / ١١) أي تتبعي التابوت؛ لعلمها أن الله إذا وعد وعداً وقى، فسارت على شاطئ النهر تلمسه، وإذا بها تشاهد التقاط الخدم لتابوت أخيها، فانخرطت بين الخدم فلمحتة ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص / ١١)، وعرفت ما دار في القصر الفرعوني بعد أن رفض الطفل الصغير المراضع

كلها فقالت لهم: ﴿ هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴾ (القصص / ١٢) ^(٢٤)، فشك القوم في أمرها، حتى قال هامان: (إن هذه المرأة تعرف أن هذا الولد من أي أهل بيت هو، فقالت هي: إنما عنيت أنهم ناصحون للملك فامسكوا عنها) ^(٢٥).

وهكذا تكون قد انقضت حياة موسى ﷺ بعقلها الثاقب وثقتها بوعده الله. عاد موسى ﷺ لأمه ﴿ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص / ١٣) فقبل ثديها وسكن بكاؤه، (وقيل ان فرعون قال لأمه: كيف ارتضع منك ولم يرتضع من غيرك، فقالت: لأنني امرأة طيبة الريح طيبة اللبن لا أكاد أوتي بصبي إلا ارتضع مني فسر فرعون بذلك) ^(٢٦).

وبين هذا الحدث وبين بلوغه الثالثة والثلاثين والتي قال عنها تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ﴾، ﴿ وَاسْتَوَى ﴾ (القصص / ١٤) أي بلغ الأربعين جرت أحداث وأحداث نحجم عن ذكرها بعداً عن الإطالة.

المهم انه لما بلغ الأربعين ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ (القصص / ١٥)

كانت هذه الحادثة الفاصلة بين وجوده في قصر فرعون وبين خروجه من مصر، علماً أن موسى ﷺ ما كان قاصدا القتل، إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه ^(٢٧)، إذ إنه أصبح خائفاً يترقب (أي أن فرعون وملته لم يعلموا أن هذا القتل الذي رفع إليه أمره، إنما قتله موسى في نصره رجل من بني إسرائيل) ^(٢٨)، في هذه المدة - أي عمر الأربعين - آتاه الله النبوة والحكمة والعلم بدين آبائه، فعلم موسى وحكم، وهكذا بات موسى مستقلاً

بنفسه، إذ إن أدوات الاستقلال هي القوة في التفكير وفي العلم والمعرفة والتبحر في الدين؛ ليكون جزءاً منه بمخالطته للناس ومعرفته لهمومهم، وهو واحد منهم، حتى يتمكن من مساعدتهم في حدود إمكانياته كبشر، لكن الذي حدث أن ﴿الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِحُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ ﴿﴾ (القصص / ١٨ - ١٩)، فقد اعلن هذا اليهودي أمام الملأ ان الذي قتل القبطي بالأمس هو موسى، فبلغ ذلك فرعون بأن المقتول بالأمس إنما قتله موسى فأرسل في طلبه، فبعث الله رجلاً مؤمناً من آل فرعون قد كتم إيمانه فحذره من مغبة البقاء في المدينة ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمُلَأَيِّمَ يُآمُرُونَ بِكَ لِیَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (القصص / ٢٠) قائلاً: إن أشرف فرعون ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك فاخرج قبل أن يدركوك، وبالفعل خرج موسى ﷺ من مصر متوجهاً نحو ارض مدين - اختارها لبعدها عن سطوة فرعون - وبعد عناء كبير عاناه في أثناء سفره اختار مكاناً للسقاية (ربما لأمرين أولهما اخذ حاجته من ماء الشرب، وثانيهما التعرف الى وضع البلد من الموجودين هناك والتطلع لإيجاد من يمكن أن يؤويه حتى يبدأ العمل في ذلك البلد) (٢٩)، بعدها هياً الله تعالى لموسى ما طلب في بيت شعيب النبي أبي البنتين اللتين سقى لهما موسى ﷺ، بعدها ذهب موسى لمقابلة الوالد الذي احبه كثيراً لعلامات الصلاح في وجهه بعد أن أخبرته ابنته ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (القصص / ٢٦) فلما رأى ذلك منه قال له: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ

فَإِنْ أَتَمَّمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ (القصص / ٢٨) وبعد زواج موسى ﷺ من ابنة شعيب وإتمامه الأجل الذي اتفقا عليه، أراد العودة الى مصر وقيل (انه لما قضى العشر سار بأهله اي امرأته وبأولاده والغنم التي كانت له وكانت قطعاً فاخذ على غير الطريق مخافة ملوك الشام وامرأته في شهرها، فسار في البرية غير عارف بالطريق فألجأه المسير الى جانب الطور الأيمن في ليلة مظلمة شديدة البرد وأخذ امرأته الطلق وضل الطريق وتفرقت ماشيته فأصابه المطر فبقى لا يدري أين يتوجه، فبينما هو كذلك آنس من جانب الطور ناراً، وروى أبو بصير عن أبي جعفر ﷺ قال: لما قضى موسى الأجل وسار بأهله نحو بيت المقدس اخطأ الطريق ليلاً فرأى ناراً^(٣٠)، فاخبر أهله ان عليهم المكوث قليلاً حتى يرى ماذا يحدث وإذا به يسمع النداء ﴿أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (القصص / ٣٠) فقد (سمع موسى ﷺ النداء من الشجرة لأن الله تعالى فعل الكلام فيها وجعل الشجرة محل الكلام لأن الكلام عرض يحتاج الى محل، وعلم موسى بالمعجز ان ذلك كلامه تعالى وهذه أعلى منازل الأنبياء أعني أن يسمعوا كلام الله من غير واسطة)^(٣١) ومعنى هذا (إن المكلم لك هو الله مالك العالمين وخالق الخلائق أجمعين تعالى وتقدس عن أن يحل في محل او يكون في مكان لأنه ليس بعرض ولا جسم)^(٣٢)، يقول موسى ﷺ عن هذا التكليم: (سَمِعْتُ كلام ربي بجميع جوارحي، ولم اسمعه من جهة واحدة من جهاتي)^(٣٣)، وهنا حصل الاصطفاء الالهي لموسى، فقد اختاره المولى عز وجل ليكون نبي الأمة المظلومة التي قال عنها ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (القصص / ٥) فبينما كان

يبحث عن النار ليضيئ المكان بعد أن أعياه التعب محاولاً قدح الزناد دون فائدة، إذ أبصر ناراً من بعيد على يسار الطريق، فلما رآها ظنها ناراً ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه / ١١ - ١٤) فنودي: (إني أنا ربك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعاية للأدب وأقبل ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أي أنك بالوادي المطهر المبارك المسمى طوى، هنا تستوفقني رواية وردت عن إمامنا الحسن العسكري (عليه السلام) عن معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ إذ سألته السائل قال: أخبرني يا بن رسول الله عن أمر الله لنبيه موسى (عليه السلام) ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ (طه / ١٢)، فان فقهاء الفريقين يزعمون أنهما من إهاب الميتة؟ فقال (عليه السلام): من قال ذلك فقد افترى على موسى (عليه السلام) واستجهله في نبوته لأنه ما خلا لا أمر فيهما من خطيئتين، إما أن تكون صلاة موسى فيهما جائزة أو غير جائزة؟ فان كانت صلاته جائزة جاز له لبسهما في تلك البقعة المباركة وان كانت مقدسة مطهرة فليست بأقدس وأطهر من الصلاة، وان كانت صلاته غير جائزة فيهما فقد اوجب على موسى أنه لم يعرف الحلال والحرام، ولم يعلم ما جازت الصلاة فيه عما لم تجز وهذا كفر، قلت فاخبرني يا مولاي عن التأويل فيهما، قال: إن موسى ناجى ربه بالوادي المقدس فقال: (يا رب إني أخلصت لك المحبة مني وغسلت قلبي عن من سواك وكان شديد الحب لأهله، فقال الله تعالى: ﴿فاخلع نعليك﴾ أي أنزع حب أهلك من قلبك إن كانت محبتك لي خالصة) (٣٤)، ثم ناجاه قائلاً: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه / ١٣) أي (اصطفتك للنبوة فاستمع لما أوحى إليك، فهذا فيه نهاية الهيبة والجلالة، فكأنه قال:

لقد جاءك امر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك صروفا إليه^(٣٥)، فأول جملة تلقاها موسى من الوحي ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه/ ١٤) هي مسألة التوحيد التي هي اصل لدعوة الأنبياء (فقد طرح موضوع عبادة الله الواحد كثمرة لشجرة الإيمان والتوحيد، ثم اصدر له امر الصلاة بعد ذلك، وهي تعني اكبر عبادة، واهم ارتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً في عدم نسيان الذات المقدسة)^(٣٦)، وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾ فكأنما اراد المولى القول: (انه لا يجوز قط تأليه بشر، وأيضا إرشاداً سبواً لموسى لمواجهة اي فكرة تأليهة لإنسان بقوة العلم والإيمان، خصوصاً انه كان في طريق عودته لمصر، حيث أله فرعون نفسه)^(٣٧)، وبهذا بُعث موسى ﷺ بعد ان اختبره وابتلاه تعالى بالعصا ثم قال له: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ (طه/ ٤٣)، عندها طلب موسى من ربه أن يشد عضده بأخيه هارون لأنه أفصح لساناً منه، فاجابه تعالى قائلاً: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصْلُوهُ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ (القصص/ ٣٥)، وبعد أحداث عظيمة حصلت بين موسى ﷺ وفرعون وكيف انه تعالى ابتلاههم - اي القبط - بتسع آيات بينات لعلهم يرجعون، لكنهم في كل مرة يتوسلون بموسى برفع العذاب عنهم فيرفع، ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِئَن كُشِفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَتُرْسَلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (الاعراف/ ١٣٤)، وفي كل مرة ينكتون ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوءِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ (الأعراف/ ١٣٥)، فما كان من موسى إلا ان يدعو الله عليهم ﴿... رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا

الْعَذَابِ الْأَلِيمِ قَالَ قَدْ أُجِيتَ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٨-٨٩﴾، وهذه (الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً لله تعالى ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنه لا خير فيهم، ولا يحصل منهم شيء ولا إيمان، قال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيتَ دَعْوَتُكُمَا﴾ إذ إن موسى كان يدعو وهارون أخوه يؤمن على دعائه، أي قد اجبناكمما فيما سألتما من تدمير فرعون وملئه ﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي كما أُجِيتَ دعوتكما فاستقيما على أمري وعلى ما أُنْتما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق، ومن إعداد بني إسرائيل للخروج بهم من مصر ﴿وَلَا تَتَّبِعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا تسلكا طريق الذين لا يعلمون سُنتي في خلقي وانجاز وعدي لرسي، فتستعجلان الأمر قبل أوانه) (٣٨).

وهكذا قررت السماء استجابة لدعاء موسى عليه السلام أن تنهي فرعون ودولته بعد ادعائه الإلهية كذباً وزوراً، تجبراً وطغياناً ﴿... فَكَذَّبَ وَعَصَى ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى فَحَشَرَ فَنَادَى فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات / ٢١-٢٤)، وهذا دار كله بعد حادثة السحرة وما دار بينهم وبين موسى وقصة إيمان السحرة ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الأعراف / ١٢٠-١٢٢) فكان هذا الحدث - أي إيمان السحرة - أمراً عظيماً جداً وبرهاناً قاطعاً للعذر، وحجة دامغة على أن موسى رسول رب العالمين، فغلب فرعون غلباً لم يشاهد العالم مثله، فعدل إلى المكابرة والعناد ودعوى الباطل فشرع يهددهم ويتوعددهم (٣٩).

إسراء موسى ﷺ:

بعد ان رفض فرعون كل الدعوات لإنصاف بني اسرائيل، فهو لم يتركهم يرحلوا ولا هو أعطاهم حقوقهم وأنهى استعبادهم، بل تمادى وتجبر، (فقد لبث موسى زمناً يطالب فرعون بإطلاق بني اسرائيل ليخرجوا من مصر، وفرعون يباطل في ذلك)^(٤٠)، جاءه الأمر الإلهي بالرحيل ليلاً، وقد ذكر هذا الأمر المولى في عدة مواضع من القرآن الكريم:

الأول: في سورة الشعراء قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ (الشعراء / ٥٢)، فقد اعلمه تعالى أن فرعون ليس من السهل أن يترك بني اسرائيل يرحلون بسلام، بل اعلمه تعالى ان فرعون سيتبعهم، والقصد من اعلامه تشجيعه^(٤١).

الثاني: في سورة طه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا نَخْشَىٰ﴾ (طه / ٧٧)، (أي سر بهم ليلاً لان الإسرائاء السير ليلاً) ﴿فاضرب لهم طريقاً في البحر ييساً﴾ والمعنى اضرب بعصاك البحر تجعل طريقاً، فكأنه قيل: اجعل طريقاً بالضرب بالعصا^(٤٢).

الثالث: في سورة الدخان قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبَعُونَ وَاتْرُكْ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ﴾ (الدخان / ٢٣ - ٢٤) هنا ايضاً يخبره المولى بأنهم متبعون لكن هنا بشارة لموسى وبني اسرائيل ان هؤلاء سيغرقون (فهذا هو امر الله عز وجل الحتمي الصادر بحق هؤلاء القوم بأنهم يجب ان يغرقوا جميعاً في نهر النيل العظيم، الذي كان أساس ثروتهم وقوتهم، ويدفنوا فيه! بأمر إلهي واحد تحول هذا النهر الذي كان عصب حياتهم الى سبب فنائهم وموتهم)^(٤٣)، وهكذا خرج بنو اسرائيل من مصر منتصرين إذ جاء الأمر الإلهي هذا من اجل هدم قواعد الظلم التي حاقت

ببني إسرائيل بفعل فرعون وسلطته. إذ كان الظلم منذ فجر التاريخ بأشكاله امراً واقعاً، كما تُظهر ذلك قصص أنبياء الله، إلا أنه أخذ شكلاً آخر في عصر فرعون، إذ كان الظلم في عصور الأقوام السابقة محدوداً في نطاق القبائل، سواء أكانت متفردة أو مهيمنة على من حولها.

أما هنا فقد خرج إلى حيز الدولة الدكتاتورية التي تملك وسائل البطش، لكن تبقى الإرادة الإلهية هي الغالبة ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف / ٢١) فكانت الإرادة الإلهية بحق فرعون وقومه ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء / ٥٧-٥٩)، وما دنا في مقام الحديث عن المفاضلة بين رسولنا الأحمدي ﷺ وبين موسى عليه السلام نود الإشارة إلى شيء هنا في هذا المجال وهو أن قوم موسى عندما أحسوا أن الخطر حادق بهم لا محال قالوا: ﴿... قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (الشعراء / ٦١)، فرد عليهم موسى بقوله: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء / ٦٢) بينما رسولنا الكريم قال لرفيقه في الغار: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة / ٤٠)، فهذان القولان بينهما فرق كبير، فمحمد ﷺ قدم ربه على نفسه في القول، بينما موسى عليه السلام قدم نفسه، فهو عبر نفسه ينطلق إلى ربه، بينما محمد ﷺ عندما قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ هو يعرف نفسه عن طريق ربه، وهذا المبدأ أكدته الرسول ﷺ وأهل البيت عليه السلام في أحاديثهم، من ذلك قولهم: (من عرف نفسه عرف ربه) ^(٤٤)، وهذه تمثل أيضاً درجة في الأفضلية بين الاثنين، وسجلنا موقفاً آخر للأفضلية بين الاثنين ألا وهو الموقف الذي حصل بعد عبور موسى عليه السلام ومن معه إلى سيناء، أي بعد خروجهم من مصر، وهو موقف اللقاء الذي حصل بين موسى والخضر عليه السلام والذي كان سببه (لما كلم الله موسى تكليماً، وأنزل عليه الألواح، وفيها من كل

شيء موعظة، رجع الى بني اسرائيل، فصعد المنبر واخبرهم ان الله قد أنزل عليهم التوراة، وهو يقول في نفسه: ما خلق الله خلقاً اعلم مني، فامر الله جبرائيل ان: أدرك موسى فقد هلك، واعلمه انه يوجد رجل عند ملتقى البحرين، اعلم منه، فصر اليه وتعلم من علمه، فنزل جبرائيل ﷺ على موسى ﷺ واخبره بذلك، فذل موسى في نفسه وعلم انه اخطأ ودخله الرعب، وقال لوصيه: أن الله أمرني ان اتبع رجلاً عند ملتقى البحرين وأتعلّم منه فتزود يوشع حوتاً مملوحاً وخرجا^(٤٥).

بينما محمد ﷺ يقول: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (طه / ١١٤)، فمحمد ﷺ هنا يطلب العلم من الله مباشرة دون واسطة، أما موسى ﷺ فيقول: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ (الكهف / ٦٦)، اي لم يطلبه من الله مباشرة بل طلبه بالواسطة؛ لذا فقد أدخله الله سبحانه وتعالى دورة تدريبية على يد الخضر ﷺ للتنبيه، وهذه درجة أخرى لبنينا ﷺ، وما دما في مقام المفاضلة فنفاضل هنا بين قوم موسى ﷺ وقوم محمد ﷺ، فعندما أمر موسى ﷺ بالقتال لدخول الارض المقدسة قال له قومه: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ (المائدة / ٢٤)، أما قوم محمد ﷺ قالوا له: (والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك، والله لا نقول لك ما قالت بنو إسرائيل لموسى: « اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون » ولكننا نقول: امض لأمر ربك فإننا معك مقاتلون)^(٤٦)

المبحث الثاني: شذرات من حياة النبي محمد ﷺ:

ان للكتابة في سيرته نعمة من النعم التي انعم الله سبحانه وتعالى على البشر؛ كونه افضل مخلوق في الكون كله، اصطفاه الله حبیباً له، ومنحه من الفضائل والكمالات مما جعله سيد ولد آدم، بمولده (ارتج إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وخمدت نيران فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بحيرة ساوة، ورأى المؤيدان إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباً قد قطعت دجلة فانتشرت في بلادها، فلما أصبح كسرى راعه ذلك وأفزعه وتصر عليه تشجعاً) (٤٧).

وقد ألفت فيه آلاف المجلدات، وبجميع اللغات، مما لا يدع زيادة لمستزيد، فالعربي كتب عنه وفي أعماقه أصالة التراث، ونداء العزة والقومية، أما المسلم فكتب عنه بقلبه، مأخوذاً بإشعاع رسالته السامية ونور الإيمان عن كل ما عداهما، والأجنبي - غير المسلم - مبشر وباحث ومستشرق كتب محلاً في لا مبالة، او متكسباً او مغرضاً وفي كل الأحوال هو غير معني بالكتابة عن العقيدة والروح.

أما نحن الذين شغفنا بحبه فعندما نكتب عنه نريد التعريف به وبعبقريته الفذة التي اخرجت العرب من دياجير الظلمة ومهاوي الكفر، وتمزق الصفوف الى نور الإيمان وعزة التوحيد ومراقي الخير والفلاح والمجد شموساً تضيء عوالم الأرض ومجاهل الإنسان، نكتب عنه لنقول للعالم أجمع: انه محمد النبي الأمي، العربي المكي التهامي المدني، انه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الله ﷺ (٤٨)، ولد في السابع عشر من ربيع الأول

عام الفيل يوم الاثنين، وقيل يوم الجمعة، توفي أبوه وأمه حبلى، ماتت وعمره الشريف خمس سنوات تزوج خديجة بنت خويلد وعمره خمس وعشرون سنة، مات جده عبد المطلب وعمره ثماني سنوات، فتحولت كفالته لعمه أبي طالب^(٤٩) بوصية من جده عبد المطلب الذي قال لابي طالب: يا أبا طالب ما أعلم أحداً من آبائك مات أبوه على حال أبيه ولا امه على حال أمه، فاحفظ الوحدة هل قبلت وصيتي؟ فقال: نعم قد قبلت والله عليّ بذلك شهيد^(٥٠).

ظهرت عليه أمارات النبوة وهو صغير، وعندنا أخبار كثيرة تثبت ذلك سنتركها للقارئ يتتبعها بعداً عن الإطالة، فنحن عندما نكتب عن محمد ﷺ إنما نريد ان نقول للعالم اجمع: انه محمد وكفى، انه من أنقذ الإنسانية من دياجير الكفر والجهل والتضليل، محمد الذي فضله الله على خلقه أجمعين، فقد روى عبد الله بن عباس قال: (لما أراد الله أن يخلق سيد المرسلين واشرف الأولين والآخرين وخاتم النبيين قال الله تعالى للملائكة: إني أريد ان اخلق خلقاً أفضله على الخلق أجمعين واجعله اشرف الأولين والآخرين والمشفع فيهم يوم الدين، فلولا ما زخرفت الجنان ولا أسعرت النيران فاعرفوا منزلته ومحله وأكرموا لكرامتي وعظموا لعظمتي، فقالت الملائكة: ما اعترض العبد على مولاه نعوذ بالله وبجلالك ان نعصيك^(٥١))، هذا هو اذن محمد، فنحن عندما نكتب عنه نكتب عن العظمة، فلا داعي للدخول بتفاصيل حياته الدقيقة لأننا قد عرفناه حتى عندما كنا صغاراً كان معلمونا يحفظوننا اناشيد مولده ورحيله، اما الان فنحن نكتب عن من قال: (ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم عليه مني، قال علي ﷺ: فقلت: يا رسول الله فأنت أفضل ام جبرائيل، فقال ﷺ: إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين وفضلني على جميع النبيين والمرسلين،

والفضل بعدي لك يا علي وللائمة من بعدك فان الملائكة لخدامنا، وخدام محبينا^(٥٢)، بل هو أفضل حتى من أبي البشر آدم عليه السلام، قال عليه السلام: (يا علي: لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حواء ولا الجنة ولا النار، ولا السماء ولا الأرض^(٥٣)) وقد لمسنا صحة ما ذهبنا إليه من تفضيل الله محمد ﷺ على ابينا آدم في بعض آياته منها عندما تحدث تعالى عن ما دار بين آدم وحواء والشيطان الرجيم الذي خاطبهما قائلاً: ﴿إِنِّي لَكُمَا لِمَن النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف / ٢١) ﴿فَدَلَاهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف / ٢٢) فما كان من الله تعالى الا ان قال لهما ﴿اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ (طه / ١٢٣)، فكان ما دلاهما عليه سبباً في قوله تعالى ﴿اهْبِطَا﴾ اي ان هبوطهما كان نزولاً، أما بالنسبة لمحمد ﷺ فعندما قال تعالى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم / ٨ - ٩) فتدليه صعوداً يعني هناك فرق ما بين آدم ومحمد، آدم تدليه نزولاً ومحمد تدليه صعوداً، وايضاً في قوله تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ (طه / ١٢١)، والعصيان لا يعني العصيان الذي نعرفه، بل هو من باب ترك الاولى (وهذا ليس من مواضيع دراستنا لأن له ابواباً أخرى في مجال العقيدة، ونحن في غنى عن اثارها هنا.

أما عن نبينا محمد ﷺ فيقول تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ (النجم / ٢) اي ان صاحبنا - محمد ﷺ - يختلف عن آدم عليه السلام بل هو أفضل منه، فعن آدم قال: (غوى)، اما عن محمد فقال: (وما غوى)؛ لذا صار سيد الخلق أجمعين.

في موضع آخر يقول الحبيب المصطفى (... ثم ان الله تعالى خلق آدم عليه السلام وادعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود له تعظيماً لنا واکراماً، وكان سجدوهم لله عز وجل عبودية ولآدم اكراماً وطاعةً لكوننا في صلبه)^(٥٤)، وبهذا ثبتت أفضليته ﷺ على الخلق اجمعين، ورغم كل هذا وذاك لما انتهت ايامه

رحل عن هذه الدنيا في السنة الحادية عشرة في الثامن والعشرين من صفر
لنهم جميعاً انه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾
(الرحمن / ٢٦-٢٧)، (فآه يا صفر، يا وقدة الخطب النكر، ترمي بشرر
كالقصر، فيك المنيّة ظفرت بخير الناس ولم يجد عنها مصرفاً، فيها هو ثاو
لا حراك به، لا ييدي ولا يعيد)^(٥٥)، لقد رحل من وسع بقلبه الكبير العالم
أجمع، لقد رحل من ناضل وجاهد من أجل اسعاد الإنسانية جمعاء، رحل
وفي قلبه مرارة ما سيصيب أهل بيته من بعده بعد ان اخبرهم قائلاً: أنتم
المستضعفون بعدي، فكانوا هم المستضعفين حقاً بعده، رحل بعد ان اخبر
المسلمين ان الفتن قد أقبلت كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً بعد ان
أنقلب الامّة على عقبيها ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ
أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ
اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (آل عمران / ١٤٤).

اسراء محمد ﷺ:

قام محمد ﷺ بما قام به من بناء رصين لأطراف الدولة الاسلامية بعد
ما ارسى قواعدها في المدينة المنورة، وجعلها دولة يحسب لها الروم والفرس
الف حساب، حصل هذا بعد تعب وعناء وجهاد طويل، اضاف ذلك الى
رصيده في الافضلية، فعطاؤه بلا حدود، فكانت افضليته بلا حدود، فكان
الاسراء والمعراج دليلاً آخر على الافضلية، وقد ذكره المولى في موضع
واحد من القرآن الكريم، اذ قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء / ١)، هذه الحادثة التي شغلت بال الكثير
من المؤمنين والجاحدين، فمن آمن بها أنشد احداثها وتفاصيلها وعبرها
ونتائجها ودروسها ليزداد ايماناً مع ايمانه، وليرى عن طريقها قوة الله التي

لا تقهر، اما من جردها فقد سلك كل السبل لتأويلها او إنكارها، بل تراه قد لهث وراء كل نص او لفظة قد تسعفه ليرد النص الصريح الصحيح، ولكي يطمس وجه الحقيقة، ناسياً أن الشمس لا تحجبها الغيوم، كذلك هو قد اغفل عن حقيقة مفادها: ان من اكرم محمداً ﷺ بهذه المعجزة هو من بعثه رحمة للعالمين، لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء، وبالرغم من وجود امثال هؤلاء بقيت معجزة الاسراء والمعراج مليئة بالدروس والعبر، بل بقيت معيناً صافياً لكل باحث عن الحقيقة يرويه في مختلف العصور والازمنة (وقد كان لمعجزة الاسراء والمعراج مقدمات ولرحلة التكريم بدايات وقد سبقها ارهاصات، فهذه الارض قد تخلت عمن جاءها برسالة السماء وطعنت من قدم لينقذها من الجاهلية الجهلاء والظلال العمياء، وأذت من أراد لها الخير والطهر والنقاء، واعرضت عمن اسدى لها البر والمعروف)^(٥٦).

فبعد رحيل ناصري رسول الله ﷺ ابي طالب وخديجة رضي الله عنهما في عام الحزن في السنة الثالثة للهجرة اشتد اذى قريش له، مما حدا به الذهاب الى الطائف، فما كان من اهلها الا ان يستقبلوه بمنتهى اللؤم والخسة والغدر وخيانة الاعراف والتقاليد العربية، فضربوه وشتموه وسلطوا عليه سفهاءهم وحثالاتهم يرمونه بالحجارة، فجلس ﷺ في بستان عتبة وشيبة ابني ربيعة مستغيثاً بالله تعالى قائلاً: (اللهم اليك اشكو ضعف قوتي وقلت حيلتي...) ^(٥٧)، وفتحت له ابواب السماء وهرعت الملائكة لنجدته، وتسارعت لنصرته وكأن الله قد قال له: ان تخلت عنك الارض فان السماء لن تتخلي عنك، وان خذلك اهل الارض فان اهل السماء لا يخذلونك. وقد كانت مدة اقامته في الطائف على ما روى الرواة عشرة ايام وكان ذلك في شهر شوال سنة عشر من المبعث ^(٥٨)، فكان هذا الحدث بداية

الارهاصات للمعجزة، وكما قلنا ذكر المولى معجزة الاسراء في الآية الاولى من سورة الاسراء، اما حادثة المعراج فقد ذكرها تعالى في سورة النجم فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتَمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم / ١-١٨)، (والتعبير بالصاحب الذي يعني الصديق او المحب لعله اشارة الى ما يقوله نابع من الحب والشفقة والكثير من المفسرين لم يفرقوا بين ضل وغوى، بل عدوا كلاهما منهما مؤكداً للآخر، الا ان بعضهم يعتقد ان بينهما فرقاً وتفاوتاً، وعليه فانه تعالى اراد ان كل نوع من انواع الانحراف والجهل والضلال والخطأ عن نبيه ﷺ وان يُحبط ما وجهه اعداؤه اليه من التهم في هذا الصدد)^(٥٩).

اما الادلة على الاسراء والمعراج من السُّنة النبوية فالظاهر انه ليس هناك حديث واحد يجمع قصة الاسراء والمعراج من مبتدائها الى منتهاها مع ما تخللها من الصور والمراثي والمشاهد التي رآها رسول الله ﷺ، وانما تناول كل حديث مقطعاً من القصة، فمثلاً البخاري عن انس بن مالك ان رسول الله ﷺ قال: أُوتِيتُ بالبراق (وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عنده منتهى طرفه) قال فركبته حتى اتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء... الى آخر الحديث^(٦٠).

اما في وسائل الشيعة للحر العاملي فقد ذكر رواية تقول: قال رسول الله ﷺ: (لما اسري بي مررت بموضع مسجد الكوفة وانا على البراق

ومعني جبرائيل عليه السلام فقال: يا محمد إنزل فصل في هذا المكان، قال: فنزلت فصليت^(٦١)، وذكر الصدوق خبراً آخر نأخذ منه ما يفيد المقام: (... فلما انتهينا الى حجب النور قال لي جبرائيل: تقدم يا محمد وتحلف عني، فقلت: يا جبرائيل في مثل هذا الموضع تفارقني؟ فقال: يا محمد ان هذا انتهاء حدي الذي وضعه الله لي في هذا المكان فان تجاوزته احترقت اجنحتي لتعدي حدود ربي جل جلاله فزج بي ربي زجة في النور حتى انتهيت الى حيث ما شاء الله عز وجل من مكنونه، فنوديت يا محمد فقلت: لبيك ربي وسعديك تباركت وتعاليت فنوديت: يا محمد انت عبادي وأنا ربك فيايي فأعبد وعلي فتوكل فانك نوري في عبادي، ورسولي الى خلقي وحجتي في بريتي، لمن اتبعك خلقت جنتي ولمن عصاك وخالفك خلقت ناري، ولأوصيائك اوجبت كرامتي ولشييعتك اوجبت ثوابي، فقلت يارب ومن اوصيائي؟ فنوديت: يا محمد ان اوصيائك المكتوبون على ساق العرش فنظرت وانا بين يدي ربي الى ساق العرش فرأيت أثني عشر نوراً في كل نور سطرّاً اخضراً مكتوب عليه اسم كل وصي من اوصيائي أولهم علي بن ابي طالب وآخرهم مهدي امتي...)^(٦٢).

ولرب سائل يسأل: لماذا عُرج برسول الله الى السماء؟

وللجواب نقول: لعله تعالى اراد ان تشرق انوار هذا النبي الامي الخاتم على أهل السماوات كما اشرقت على اهل الارض، وقد طرح هذا السؤال على ابي العباس الدينوري بهذه الصيغة: لم أسري بالنبي أولاً الى بيت المقدس قبل ان عُرج به الى السماء؟ فأجاب: (علم الله تعالى ان كفار قريش يكذبونه فيما يخبرهم به من اخبار السماء، فأراد ان يخبرهم بخبر من الارض قد بلغوها وعانوها، وعلموا ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يدخل بيت المقدس قط، فلما اخبرهم بأخبار بيت المقدس لم يمكنهم ان يكذبوه في اخبار السماء بعد ان

صدقوه في اخبار الارض)^(٦٣). لكن العلة في ذلك كما قال بها ابو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام بعد ان سأله يونس في عبد الرحمن: (لأي علة عرج الله بنبيه الى السماء ومنها الى سدره المنتهى ومنها الى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال: إن الله لا يوصف بمكان ولا يجري عليه الزمان، ولكنه عز وجل اراد ان يشرف به ملائكته وسكان سماواته ويكرمهم بمشاهدته ويُريه من عجائب عظمتة ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحانه الله عما يصفون)^(٦٤). ويمكن ان تكون هذه الرحلة قد ملأت نفس النبي صبراً وعزماً على اداء رسالة الله الى خلقه، واشاعة أحكام الإسلام التي تهدف إلى تغيير الإنسان الجاهلي لتضع مكانه انساناً يتبع مناهج إسلامية تبنت أهدافاً أصلية ومثلاً علياً، وتعقياً على كل ما قيل نقول: إن كل الاقوال صحيحة ما دامت تدل على العظمة والتفضيل، فهذه الكرامة لم يسبقه بها أحد قبله ولا بعده الى يوم القيامة، وإن قال بعض العلماء: (لم يرسل الله رسولاً الى الخلق إلا وكان له معراج على قدر رتبته)^(٦٥)، ولكنه لم يبلغ ما بلغه غيره لأن (مرتبة الاسراء بالجسم الى تلك الحضرات العلية لم يكن لاحد من الأنبياء الا لنبينا عليه السلام)^(٦٦). واخيراً نقول: ان هذه المعجزة المشهورة والآية العظيمة لهي البراهين البينة والحجج المحكمة على تخصيصه عليه السلام بعموم الكرامات لما اشتملت عليه من الامور الخارقة للعادة، والتي تقصر العقول عن ادراك مثلها، فهي رحلة الى الارض، ولسموات رب، ليريه من آياته الكبرى وليشهده على بدائع العظمى؛ ليكون ذلك سبباً في مضيه عليه السلام في الدعوة الى الله تعالى، (كشف له فيها عن كنه هذا الكون، فطوى له الزمان من لدن آدم عليه السلام وزوي له المكان في لمح البصر وكشف له حجب الغيب)^(٦٧).

مقارنة بين الاسراءين (دراسة في الافضلية):

نصل الآن الى نهاية المطاف لنعقد دراسة مقارنة بين الاسراءين، اسراء موسى عليه السلام واسراء محمد ﷺ لنعرف ايهما افضل عند الله، بعد ان نقل حديثاً لابن عباس مفاده: (قالت اليهود للنبي ﷺ: موسى خير منك، قال النبي ﷺ: لم؟)، قالوا: ان الله عز وجل كلمه أربعة الاف كلمة ولم يكلمك بشيء، فقال النبي ﷺ: لقد أعطيتُ انا افضل من ذلك، قالوا: وما ذاك، قال: قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الاسراء / ١) وحملتُ على جناح جبرائيل حتى انتهيت الى السماء السابعة فجاوزت سدرة المنتهى عندها جنة المأوى حتى تعلقْتُ بساق العرش فنوديت من ساق العرش: إني انا الله لا اله الا انا السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الرؤوف الرحيم ورأيتُه بقلبي وما رايته بعيني فهذا افضل من ذلك، فقالت اليهود: صدقت يا محمد وهو مكتوب في التوراة^(٦٨). وسنقوم هنا بعقد مقارنة بين الاسراءين وفق ما جاء في القرآن الكريم وعبر هذه المقارنة يتضح لنا صحة الحديث سالف الذكر الذي اورده ابن عباس.

١ - قال تعالى لموسى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ (طه / ٧٧)، وقال: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ (الدخان / ٢٣)، وقال: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ (الشعراء / ٥٢)، هذه الآيات كلها بصيغة الإمرة، بينما قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ (الاسراء / ١) هنا تبيجيل وعدم إمرة، وجاء خبراً عن فعل قصد الله به نبيه ﷺ تكريماً وتسلياً له، وزاد في تعظيم الحدث بنسبته اليه مع جعل التسييح باسم المصدر (سبحان) وهو بهذا يحرره من محدودية الزمان والمكان والحال.

٢- وقع اسراء موسى ليلاً، وقام به امام قومه وبصحبته وتحركوا معه خطوة بخطوة ورأوا جميعاً اعظم الاهوال التي واجهتهم حتى جعلتهم يظنون في لحظة يائسة: انا المدركون، كما أنهم عاينوا بأنفسهم معجزة شق البحر واغراق فرعون وجنوده ونجاتهم، مع ذلك تراهم قد نكصوا على أعقابهم قال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (الاعراف / ١٣٨)، اما اسراء محمد ﷺ فقد وقع ليلاً ايضاً لكنه كان بعيداً عن عين الخلق.

٣- الآيات التي ذكرت اسراء موسى ﷺ كلها بدأت بالحديث عن القرآن الكريم كمعجزة للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿طه (١) مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ (طه / ١-٢)، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الشعراء / ٢)، و ﴿حم (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ (الدخان / ١-٣)، اما لفظة القرآن الكريم فقد وردت في سورة الاسراء (١١ مرة) وهي الاكثر في كافة السور، كون القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لمحمد ﷺ فجاءت بهذا العدد لتعطي اشارة الى ان: القرآن الكريم هو المعجزة الاعظم من حادثة الاسراء المحصور في زمان ومكان محددين.

٤- اسراء موسى ﷺ كان من البر الى البحر ثم الى البر ثم الى الميقات، اما اسراء محمد ﷺ فكان من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ومنه الى السماء الاولى ثم الثانية ثم الثالثة... ثم السابعة ثم تجاوز كل ذلك الى شجرة المنتهى ثم وصل الى مرحلة قاب قوسين او ادنى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (النجم / ١٧)، ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى النجم / ١١﴾، هذا مقام عالٍ جداً لرسول الله ﷺ يثبت قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ

الْكُبْرَى ﴿النجم / ١٨﴾، اذن هذا مقام خاص لمحمد ﷺ ولآله.

٥- موسى عندما وصل الى الميقات طلب رؤية ربه - الرؤية الظاهرة لقومه اي قومه من فرض عليه ذلك، فهو طرح مطلبهم لأن جماعة من بني اسرائيل اصروا ان يروا الله حتى يؤمنوا^(٦٩)، لكن بعض المفسرين يقولون: انه اراد الرؤية المعنوية، هذه الرؤية الواردة ضمن حديث امير المؤمنين (عليه السلام): (وكيف اعبد من لم اره)^(٧٠) وقال ايضا: (لو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً)^(٧١)، فأجابه الله تعالى: ﴿... لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الاعراف / ١٤٣) فما كان منه بعد ان شاهد هذا المشهد الرهيب الا ان يخر مندهشاً مغشياً عليه.

اما محمد ﷺ فما زادته قضية الاسراء الا ايماناً مع ايمانه ويقيناً مع يقينه ولم يطلب المشاهدة لا العقلية ولا المعنوية لانه تعالى ﴿اراه من آيات السماوات والارض ما زاد به معرفة ويقيناً﴾^(٧٢).

٦- موسى في اسرائه كان باتجاه الارض المقدسة، اما اسراء نبينا ﷺ الى السماوات السبع فرأى ما رأى من ملكوت السماوات بعينه، ولم يكن ذلك في المنام^(٧٣).

٧- شق الله البحر لموسى (عليه السلام) بالعصا، لكنه قد شق اطباق السماوات لمحمد ﷺ حتى وصل الى مكانة لم يصلها قبله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم / ٨-٩).

٨- موسى عندما اسري به اصطحب معه اخاه هارون، بينما كان مع محمد ﷺ اعظم ملائكة الله تعالى الذي قال عنه تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير / ١٩-٢١)، ليس هذا فقط بل أم ﷺ موسى وجمع الأنبياء والمرسلين للصلاة

في السماء كذلك مرّ على قبر موسى فقال ﷺ: (مررت على قبر موسى ليلة اسري بي عند الكثيب الاحمر وهو قائم يصلي في قبره) (٧٤).

٩- كان اسراء موسى عليه السلام من ارض مصر الى ارض سيناء، بينما اسراء نبينا محمد ﷺ فكان من مسجد الى مسجد، من اول مسجد وضع للناس الى مسجد ثان وضع للناس... ومن قبله الى قبله، ومن المسجد الحرام الى المسجد الاقصى.

١٠- هناك تشابه مفردات بين آيات سورة الاسراء وآيات اسراء موسى، مثل: اسراء، ليلاً - بعبدِه - عبادي.

١١- موسى عليه السلام بقي باسرائه (٤٠ ليلة) ثم بعدها حصل على التوراة، بينما النبي محمد ﷺ قبل اسرائه بأربعين ليلة انقطع عن الناس ثم عرج به الى السماء وحصل على التفاحة التي كان نتاجها فاطمة عليها السلام التي حصل منها على الذرية الصالحة، فهذا بركته في كتابه - وذاك بركته في ذريته.

الخاتمة والنتائج

ها نحن قد وصلنا الى ختام دراستنا، نحاول الوقوف على اهم ما توصلنا اليه من نتائج هذه الدراسة.

١- وجدت في اكثر فصول حياة الانبياء تشابهاً كبيراً خصوصاً قصة ابينا ابراهيم وسيدنا موسى، وكذلك قصة سيدنا يوسف وسيدنا موسى (عليه السلام)، وهذا التشابه لدليل على حكمة السماء في انها قد خلقت من هذا التشابه حجة على البشر ممن يكررون مهاتراتهم في كل زمان، وعليه فالطغاة وعلى مر الزمان نفس الطغاة لكنهم بثوب جديد.

٢- ان ظاهرة التفضيل بين الأنبياء والمرسلين ليست ظاهرة اوجدها البشر او من اختراعاتهم، بل هي دستور الهي قال بها القرآن الكريم: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ...﴾ (البقرة/ ٢٥٣).

٣- فضل النبي محمد ﷺ على سائر الأنبياء والرسل وبان لنا ذلك عبر الروايات التي عرضناها انه تعالى قد منح خاتم الرسل كل الامتيازات التي اعطيت لغيره من الأنبياء السابقين، بل زاده عليهم درجات لم تمنح لأحد غيره منهم، ومما لا شك ولا ريب فيه ان من جملتها المعاجز الالهية التي من الله بها على انبيائه ﷺ.

الهوامش

- ١- عبد المنعم حنفي: استاذ الفلسفة في جامعة القاهرة له حوالي ١٤٨ مؤلفاً في الفلسفة الإسلامية.
- ٢- جريدة الاهرام اليومية، ٢٠ / ٣ / ٢٠١٥، مقالة لسهير حلمي، www.gate.ahram.org.eg.
- ٣- انظر: تاريخ الطبري/ الطبري / ١ / ٣٨٦-٣٨٧.
- ٤- انظر: تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير، ٣ / ٣٩٣.
- ٥- الكامل في التاريخ/ ابن الاثير، ١ / ١٣٠.
- ٦- أنظر: تاريخ الطبري/ الطبري، ١ / ١٨٣.
- ٧- أنظر: النور المستبين/ مدين بن نون بن متى، ١ / ٣١٧.
- ٨- أنظر: المصدر نفسه / ١ / ٣١٦.
- ٩- المصدر نفسه / ١ / ٣١٧-٣١٨.
- ١٠- الكامل في التاريخ/ ابن الاثير / ١ / ١٣١.
- ١١- النور المبين/ نعمة الله الجزائري ٣٤٧.
- ١٢- المفهوم القرآني والتوراتي عن موسى وفرعون/ زاهية الدجاني / ٤٧.
- ١٣- الطبقات الكبرى/ ابن سعد / ١ / ٨٧.
- ١٤- بحار الأنوار / ١٠٠ / ٣٢٣.
- ١٥- زيارة الامام الحسين عليه السلام يوم عرفة/ اقبال الاعمال/ ابن طاووس / ٢ / ٦٤.
- ١٦- التكامل في الإسلام/ احمد امين / ٢ / ١٧٢.
- ١٧- نجده قد افاض بهذا الموضوع في ١ / ٨٧ من طبقاته.
- ١٨- زرقاء اليمامة: امرأة ملكة اليمن بسحرها وشعوذتها - يهودية الديانة - فكانت من اعظم السحرة والكهنة وكانت حادة البصر عظيمة الخطر تنظر من مسيرة ثلاثة ايام. (هاشم وعبد شمس لحسين الشاكري، ٧٠).
- ١٩- انظر: هل ارضعت حليلة السعدية نبي الإسلام/ حيدر كاظم سلطان ٣٢-٤٦.
- ٢٠- الأعلام/ الزركلي / ١ / ٢٦.
- ٢١- هل أرضعت حليلة السعدية نبي الإسلام، حيدر كاظم سلطان ٢٩.
- ٢٢- حياة النبي موسى بن عمران ووصايا الله تعالى اليه/ نزيه القميحة / ٩.
- ٢٣- النور المستبين/ مدين بن نون بن متى / ٣٢١.
- ٢٤- انظر: نساء في القرآن/ مريم نور الدين فضل الله ٢٨٦-٢٨٨.
- ٢٥- مجمع البيان/ الطبرسي / ٧ / ٣٨١.

- ٢٦-المصدر نفسه ٧ / ٣٨١.
- ٢٧-الجامع لإحكام القرآن/ القرطبي ١٣ / ٢٥٥.
- ٢٨-قصص الأنبياء/ ابن كثير ٢٣٧.
- ٢٩-المفهوم القرآني والتوراتي/ داهية الدجاني / ٦٠.
- ٣٠-مجمع البيان/ الطبرسي ٧ / ٣٩١.
- ٣١-المصدر نفسه ٧ / ٢٩٢.
- ٣٢-المصدر نفسه ٧ / ٢٩٢.
- ٣٣-الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي ١٣ / ٢٨٣.
- ٣٤-الحدائق الناضرة/ البحراني ٧ / ٤٩.
- ٣٥-صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني، ٢ / ٢٣١.
- ٣٦-الأمثل/ ناصر مكارم الشيرازي ٩ / ٤٧٢.
- ٣٧-المفهوم القرآني والتوراتي/ داهية الدجاني ٦٤.
- ٣٨-المستفاد من قصص القرآن/ عبد الكريم زيدان ١ / ٣٥٤.
- ٣٩-المصدر نفسه ١ / ٣٣٣.
- ٤٠-تفسير التحرير والتنوير/ ابن عاشور ١٩ / ١٤١.
- ٤١-المصدر نفسه ١٩ / ١٤١.
- ٢٤-التبيان/ الطوسي ٧ / ١٩٣.
- ٣٤-الأمثل/ ناصر مكارم الشيرازي ١٦ / ١٣٤.
- ٤٤-ميزان الحكمة/ الريشهري ٣ / ١٨٧٧.
- ٥٤-النور المبين/ نعمة الله الجزائري ٤٣٩.
- ٦٤-بحار الأنوار، المجلسي، ١٩ / ٢١٨.
- ٤٧-إعلام الوري/ الطبرسي / ١١.
- ٤٨-أوثق الأنباء/ حيدر يعقوبي / ٣١٢.
- ٤٩-انظر: قصص الأنبياء الراوندي ٢ / ٢٢٧ - ٢٢٨.
- ٥٠-اكمال الدين/ الصدوق ١٧٢.
- ٥١-الانوار في مولد النبي محمد ﷺ: البكري / ٦.
- ٥٢-اكمال الدين/ الصدوق ٢٤٨.
- ٥٣-المصدر نفسه ٢٤٨.
- ٥٤-المصدر نفسه ٢٤٩ الحديث نفسه.
- ٥٥-من فيض الخلود/ فاضل الموسوي / ٤٠١.

- ٥٦- الاسراء والمعراج / موسى الاسود / ٢١.
- ٥٧- بحار الانوار / المجلسي ٩١ / ٢٢٥.
- ٥٨- فتح الباري / العسقلاني ٧ / ٢٠٩.
- ٥٩- الامثل / ناصر مكارم الشيرازي ١٧ / ١٩٢.
- ٦٠- صحيح البخاري / البخاري ٢ / ١٤٣ كتاب بدء الخلق.
- ٦١- وسائل الشيعة / الحر العاملي ٣ / ٥٢٦.
- ٦٢- اكمال الدين / الصدوق ٢٤٩ - ٢٥٠.
- ٦٣- محمد رسولاً ونبياً / عبد الرزاق نوفل ١٣٢.
- ٦٤- علل الشرائع / الصدوق ١٣٩.
- ٦٥- الاسراء والمعراج / حامد السيد عبد العزيز ١٧٥.
- ٦٦- المصدر نفسه ١٧٦.
- ٦٧- المصدر نفسه ٨.
- ٦٨- الاسراء والمعراج رحلة الرسول ﷺ الى السماوات السبع / هنادي مشهور قانصو / ١٣.
- ٦٩- الامثل / ناصر مكارم الشيرازي ٥ / ١٩٢.
- ٧٠- بحار الانوار / المجلسي ٤ / ٥٤.
- ٧١- المصدر نفسه ٤٠ / ١٥٣.
- ٧٢- مجمع البيان / الطبرسي ٥ / ٦٠٩.
- ٧٣- الامثل / ناصر مكارم الشيرازي ٨ / ٣٤٨.
- ٧٤- صحيح مسلم / مسلم ٧ / ١٠٢.

المصادر والمراجع

- بيروت، ط١، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.
- * الأنوار في مولد النبي محمد ﷺ، البكري: ابو الحسن بن عبد الله، دار عارف الهاشمي، بيروت، (بدون تاريخ).
- * أوثق الأبناء في قصص الأنبياء - بحث قرآني وتاريخي وعلمي، حيدر اليعقوبي، دار القارئ، بيروت، ط١، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م.
- * بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار ﷺ: المجلسي: محمد باقر (ت: ١١١١هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط٣، ١٩٨٣م.
- * تاريخ الامم والملوك المعروف بتاريخ الطبري، الطبري: ابو جعفر محمد بن جرير (ت: ٢٢٥هـ)، دار الاميرة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- * التبيان في تفسير القرآن، الطوسي: ابو جعفر محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: احمد حبيب العاملي، دار احياء التراث العربي، بيروت، (بدون تاريخ).
- * تفسير التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور: محمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، بيروت، ط١، (بدون تاريخ).
- * التكامل في الإسلام: احمد امين الكاظمي، دار النعمان، النجف الأشرف، ط٤، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.
- * الجامع الصحيح، مسلم: ابو الحسين مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ)، دار
- * الإسرائء والمعراج دراسة وتحليل، حامد السيد عبد العزيز الشيخ حمد، مركز البحوث والدراسات، الوقف السني، العراق، بغداد، ط١، ٢٠٠٨م.
- * الإسرائء والمعراج رحلة الرسول ﷺ الى السموات السبع، هنادي مشهور قانصو، تحقيق: محمود قانصو، دار التيار الجديد، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠٠٢م.
- * الإسرائء والمعراج المعجزة التي خرق الله بها نواميس الكون وسنن الحياة، موسى الأسود، مكتبة المنار الإسلامية، دار ابن حزم، بيروت، ط٣، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- * الأعلام، الزركلي: خير الدين (ت: ١٤١٠هـ)، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط٥، ١٩٨٠م.
- * إعلام الوري بأعلام الهدى، الطبرسي: ابو علي الفضل بن الحسن (ت: القرن السادس)، منشورات المكتبة الحيدرية، النجف، ط٣، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.
- * إقبال الأعمال: ابن طاووس: تحقيق: جواد القيومي الاصفهاني، مطبعة - مكتب الاعلام الاسلامي - ايران، ط١، ١٤١٥هـ.
- * إكمال الدين واتمام النعمة في اثبات الرجعة: الصدوق: ابو جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي (ت: ٣٨١هـ)، المطبعة الحيدرية، النجف.
- * الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ناصر مكارم الشيرازي، مؤسسة البعثة،

الفكر، بيروت، (بدون تاريخ).

* الجامع لإحكام القرآن، القرطبي:

ابو عبد الله محمد بن احمد الانصاري

(ت: ٦٧١هـ)، دار إحياء التراث العربي،

بيروت.

* الخدائق الناضرة في أحكام العترة

الطاهرة، يوسف البحراني، تحقيق محمد

تقي الايرواني، دار الأضواء، بيروت،

ط ٣، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

* حياة النبي موسى بن عمران عليه السلام

ووصايا الله تعالى اليه، نزيه القميحا، دار

الهادي، بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢١هـ -

٢٠٠٠م.

* صحيح البخاري، البخاري: وبهامشه

حاشية السندي، مطبعة مصطفى البابي

الخلبي، مصر.

* صفوة التفاسير: محمد علي الصابوني،

دار الجيل، بيروت، ط ٨، ١٤١٥هـ -

١٩٩٥م.

* الطبقات الكبرى: ابن سعد: محمد بن

منيع الهاشمي البصري، تحقيق: محمد

عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية،

محمد علي بيضون، بيروت، لبنان، ط ٢،

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

* علل الشرائع، الصدوق: ابو جعفر محمد

بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه

القمي (ت: ٣٨١هـ)، منشورات المكتبة

الحيدرية، النجف، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.

* فتح الباري شرح صحيح البخاري،

العسقلاني: احمد بن علي بن حجر (ت:

٨٥٢هـ)، دار المعرفة، بيروت، (بدون

تاريخ).

* قصص الأنبياء الحاوي لأحاديث

كتاب النبوة، للشيخ الصدوق: ابو

جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي،

الراوندي: قطب الدين ابو الحسين سعيد

بن هبة الله (ت: ٥٧٣هـ)، تحقيق: عبد

الحليم عوض الحلبي، مكتبة العلامة

المجلسي، قم، ط ١، ١٤٣٠هـ.

* قصص الأنبياء من القرآن والاثر، ابن

كثير: ابو الفداء الحافظ الدمشقي (ت:

٧٧٤هـ)، تحقيق، صدقي جميل العطار،

دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت،

لبنان، ط ١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م.

* الكامل في التاريخ، ابن الاثير: ابو

الحسن علي بن ابي الكرم محمد بن محمد

بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني

الجزري الملقب بعز الدين (ت: ٦٣٠هـ)،

تحقيق: أبي الفداء عبد الله القاضي، دار

الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١،

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* مجمع البيان في تفسير القرآن،

الطبرسي: ابو علي الفضل بن الحسن

(ت: القرن السادس هـ)، تحقيق: هاشم

الرسولي المحلاتي، فضل الله اليزدي

الطباطبائي، دار المعرفة للطباعة والنشر،

ط ١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* محمد رسولاً ونبياً، عبد الرزاق نوفل،

مؤسسة المطبوعات الحديثة، بيروت،

ط ١، ١٩٦١م.

- * المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ناشدون، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- * المفهوم القرآني والتوراتي عن موسى وفرعون: زاهية الدجاني، دار التقريب بين المذاهب الإسلامية، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- * من فيض الخلود في رحاب السيرة النبوية: فاضل الموسوي، جامعة المصطفى العالمية، مطبعة أميران، قم المقدسة، ط١، ١٤٢٩هـ.
- * ميزان الحكمة: محمد الريشهري، دار الحديث، بيروت، ط١، (بدون تاريخ).
- * نساء في القرآن: مريم نور الدين فضل الله، دار الزهراء، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- * هاشم وعبد شمس، حسين الشاكري، مطبعة ستارة، ايران، (بدون تاريخ ولا طبعة).
- * هل أرضعت حليلة السعدية نبي الإسلام ﷺ: حيدر كاظم سلطان، العتبة العباسية المقدسة، قسم الشؤون الفكرية والثقافية، شعبة الاعلام.
- * وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، الحر العاملي: محمد بن الحسن (ت: ١١٠٤هـ)، تحقيق: عبد الرحيم الريان الشيرازي، دار احياء التراث، ط٥، ١٩٨٣م.





مكانة النبي ﷺ وزوجاته في القرآن الكريم -دراسة موضوعية-

أ.م. د. عبدالله محمد فهد
كلية الامام الأعظم الجامعة / قسم أصول الدين / ديالى
م.د. انتصار سامي ابراهيم
قسم علوم الحديث / كلية العلوم الاسلامية / الجامعة العراقية



The status of the Prophet (may God bless him and his family) And his privacy between Muslims and his wives in the Holy Quran (objective study)

Prof .Dr. Abdullah Mohammed Fahd
Imam Azam University College / Department of
Fundamentals of Religion / Diyala
Dr. Sami Ibrahim's victory
Department of Hadith Sciences / College of Islamic
Sciences / Iraqi

الملخص

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، هذا البحث للحديث عن مكانة النبي ﷺ وخصائصه في سورة الأحزاب؛ إذ إنها تشكل أحد المحاور الرئيسة لهذه السورة، وقد وقع الاختيار عليه خصوصاً في هذا الوقت تحديداً بسبب الهجمة الشعواء التي يشنها أعداؤه ﷺ عليه بأشد صور وأشكال الافتراءات المغرضة والتي نراها في وقتنا الحالي كأشد ما يكون قوة وصرامة، وقد ورد ذكر مكانته عليه الصلاة والسلام في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ونظراً لضيق المقام ارتأينا الاختصار على بعضها مما يؤدي المطلوب، ويغني عن البقية، فمنها مكانته بين المسلمين ومكانته عند أهل بيته الكرام، بل حتى بين ملائكة الرحمن والجن والانس كانت مكانته العلية واضحة بين آيات الذكر الحكيم.

وقد اسفر البحث عن بيان حرمة إيذائه ﷺ ووجوب طاعته والعمل بما جاء به وبيان فضله على غيره من سائر الأنبياء لخصوصيته وعظيم منزلته عند الله تبارك وتعالى، وتسليط الضوء على هذه المكانة المعطاة وكيف كانت صورها.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن تقسم على:

- * -المبحث الأول: بعض أوصاف النبي ﷺ في القرآن الكريم.
- * -المبحث الثاني: مكانة النبي ﷺ بين المسلمين وينقسم الى ثلاثة مطالب:

- * -المطلب الأول: اقتران أذية الرسول ﷺ بأذية الله تعالى.
- * -المطلب الثاني: ولاية النبي ﷺ العامة على المؤمنين.
- * -المطلب الثالث: وجوب اتباع أوامر النبي ﷺ والنهي عن عصيانه.
- * -المبحث الثالث: مكانة النبي ﷺ وخصوصية أهله وزوجاته وينقسم

الى مطلين:-

- * -المطلب الأول: مكانة وخصوصية النبي ﷺ مع زوجاته.
- * -المطلب الثاني: خصائص النبي ﷺ في أحكام الزواج.
- * -ثم الخاتمة.

Abstract

University Praise be to the Lord of the worlds, and prayers and peace be upon the Master of the Messengers and his family and companions as a whole, This research is to talk about the status of the Prophet and his characteristics in Surat Al-Ahzab, As it forms one of the main axes of this surah He was chosen especially at this time precisely because of the indiscriminate onslaught launched by his enemies, It is in the strongest forms and forms of malicious slander, which we see in our time as its most powerful and strict His status, may blessings and peace be upon him, was mentioned in many places in the Holy Qur'an, and due to the narrowness of the status, we chose to restrict only some of them to what would do what is required and dispense with the rest, Some of it is his position among Muslims and his position with the people of his honorable household, but even among the angels of the Most Merciful, the jinn and mankind, his high position was clear among the verses of the Holy Quran.

The search resulted in a statement of the prohibition of hurting him and the necessity of obeying him and acting according to what he came and explaining his merit over other prophets due to his specificity and his great status with God, the Blessed and Exalted be He, and shedding light on this given position and how its forms were.

The nature of the research necessitated that it be divided into:

- The first topic: Some descriptions of the Prophet in the Holy Qur'an.
- The second topic: The position of the Prophet among Muslims and is divided into three demands:
 - The first requirement: associating the messenger with the harm of God Almighty.

- The second requirement: the general mandate of the Prophet over the believers.

- The third requirement: the obligation to follow the orders of the Prophet and forbidding his disobedience.

- The third topic: The status and privacy of the Prophet, may God's prayers and peace be upon him, with his family and wives, and it is divided into two demands:

- The first requirement: the status and privacy of the Prophet with his wives.

- The second requirement: the characteristics of the Prophet in the provisions of marriage.

- The conclusion, followed by the sources and references.

المقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، يتناول هذا البحث الكلام على مكانة النبي ﷺ وخصائصه في سورة الأحزاب؛ إذ إن أحد المحاور الرئيسة لهذه السورة هو النبي ﷺ وبيان مكانته . وقد اخترنا الكتابة عن النبي ﷺ لتأكيد مكانته عند الله تعالى خصوصاً في هذا الزمان الذي يتعرض فيه نبينا محمد ﷺ لأشد أنواع الافتراءات المغرضة التي نبأنا الله عنها في قوله تعالى : ﴿ تَبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَنِ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ﴾ ذكر النبي ﷺ في القرآن الكريم واسعاً جداً فقد اقتصرنا على ما ورد في بعض آيات القرآن الكريم، مما له علاقة تبين مكانة النبي ﷺ وخصائصه في آيات صريحة .

ومعلوم أن هذه الآيات قد بينت مكانة النبي ﷺ عند الله (عز وجل) وعند الملائكة وعند المؤمنين من الإنس والجن، وبيناً حرمة إيذائه ووجوب طاعته. وبما أن مقام النبي ﷺ عظيم عند الله تعالى فقد اختصه الله تعالى بأمور متعددة ذكر البحث منها الذي نصت عليه الآيات البينات ، وقد ذكر العلماء وخصوصاً أهل السير أن معرفة خصائص النبي ﷺ ضرورية لمعرفة ما خصه الله به من أحكام^(١) ولمعرفة مكانته عند الله (عز وجل) وفضله على غيره من الأنبياء ﷺ وقد قسّمنا بحثنا هذا إلى مقدمة وأربعة مباحث : المبحث الأول : بعض أوصاف النبي (صلى الله عليه واله في القرآن الكريم، والمبحث الثاني : مكانة النبي ﷺ بين المسلمين، والمطلب الأول : اقتران أذية الرسول ﷺ بأذية الله تعالى، والمطلب الثاني : ولاية النبي ﷺ العامة على المؤمنين، والمطلب الثالث : وجوب اتباع أوامر النبي ﷺ والنهي عن عصيانه ، والمبحث الثالث : مكانة وخصوصية النبي ﷺ مع أهله

وزوجاته ، والمطلب الأول : مكانة وخصوصية النبي ﷺ مع زوجاته ، و
المطلب الثاني : خصائص النبي ﷺ في أحكام الزواج ، ثم الخاتمة ، وبعدها
المصادر والمراجع .

المبحث الأول : بعض أوصاف النبي ﷺ في القرآن الكريم

تعدُّ أوصاف النبي ﷺ في سورة الأحزاب متناسبةً مع مكانته السامية
عند الله تعالى، وتعدد الأسماء والأوصاف عند العرب ينبئ عن عظمة
الموصوف وأهميته، وهذا متحقق مع سيد الخلق محمد ﷺ الذي له أسماء
كثيرة وسماوات جلييلة ورد ذكرها في الكتاب والسنة والكتب المتقدمة فقد
سماه الله في كتابه: محمداً وأحمد، وعن جبير بن مطعم أنه سمع النبي ﷺ
يقول: ((لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي
الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب))^(٢) ،
وعن الزهري: إن الله قد سماه رؤوفاً رحيماً^(٣) ، وعن أبي موسى الأشعري
قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء فيقول: ((أنا محمد وأحمد،
والمقفّي، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة والملمحة))^(٤) .

وقد جمع العلماء أسماء النبي ﷺ فبلغت عند القاضي أبي بكر بن العربي
سبعة وستين اسماً. وأقتصر هنا على ذكر الأوصاف التي وصفه الله تعالى بها
في بعض آيات القرآن ، مما يدل على علو منزلته عند الله تعالى، ونذكر بعض
هذه الصفات التي وردت في القرآن الكريم وهذه الأوصاف هي:

١- النبي والرسول : ذكر العلماء أقاويل متعددة في التفريق بين النبي
والرسول^(٥) ، ومن أرجح هذه الأقاويل: أن النبي إنسان بعثه الله تعالى
لتبليغ ما أوحى إليه ، وكذا الرسول ، إلا أن الرسول يختص بشريعة وكتاب
فيكون أخص من النبي^(٦) ، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً .

وأول ما تفتتح به بعض السور هو مناداة النبي ﷺ بأجمل نداء وأطفه، ويشرفه الله سبحانه ويعلي من شأنه بأن يخاطبه بوصف النبوة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾^(٧)، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم إذا أراد أن يخاطب النبي يشرفه بذكر النبوة أو الرسالة دون ذكر اسمه تنويهاً بفضله كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾^(٨)، و﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾^(٩) تشریف النبي ﷺ، وكذلك قوله تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾^(١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾^(١١)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾^(١٢).

ولم يناد الله تعالى النبي باسمه كما نادى الآخرين يا آدم يا موسى يا عيسى يا داود تعظيماً له^(١٣)، وأما عندما ذكر اسمه فإنما ذكره في معرض الإخبار كما في ذكر تعالى ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾^(١٤)، وذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدعوه به ومما أيد على أهمية المنادى كما يقول الفخر الرازي هو أسلوب النداء بـ (يا أي) دون يا، فقولك: يا رجل، غير قولك: يا أيها الرجل، إذ الثاني ينبئ عن أهمية المنادى له، لأن المنادي بـ (يا أيها) جعل المنادى غير معلوم أولاً فيكون كل سامع متطلعاً إلى المنادى ثم عند إقبال السامعين يخصص المقصود فيقول: الرجل، أما إذا قال: يا زيد أو يا رجل يلتفت إلى جانب المنادى إلا المذكور^(١٥).

ويجمع الله تعالى بين وصفه بالرسالة والنبوة في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١٦) تشریفاً له وتعظيماً ولأن الرسالة في بني آدم أعظم شرفاً من النبوة^(١٧) كما جمع الله الوصفين في قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾^(١٨).

٢- خاتم النبيين وصف الله تعالى النبي ﷺ بهذه الصفة في قوله تعالى:

﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾^(١٩) عظمة الرسول ﷺ فقد بين الله تعالى في وصفه بخاتم النبيين حقيقة مقامه بأنه سيد الأنبياء، فشريعته أكمل الشرائع، لأنه وحي ينزل بعدها، ورسالته رسالة عالمية وعلاقة ذكر ختم النبوة بما قبلها الإشارة إلى المخاطبين بأن ينشغلوا بما كان يعتقد خطأ أن زواجه من زينب كان زواجا بزوجة الابن أو فضلا عن الانشغال بقضية بنوة زيد، بل المهم هو العلم بأن مقامه ﷺ أعلى من ذلك فهو خاتم النبيين، وهو الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، فقد ختم النبوة فطبع عليها فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة^(٢٠)، ولعل وصفه بخاتم النبيين يستشف منه أنه فضلا عن كونه آخر الأنبياء فهو زيتهم كذلك كما يكون الخاتم في اليد زينة.

وختم الآية بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ الدال على العلم الإلهي المحيط بكل شيء إشارة إلى الحكمة في كونه عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين^(٢١).

وقد صح عن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: ((إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبَنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ))^(٢٢)، وقال النبي ﷺ: ((فُضِّلْتُ عَلَى النَّبِيِّينَ بَسِ)) قيل: ما هن أي رسول الله؟ قال: ((أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرَّعْبِ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ))^(٢٣)، قال الرماني: ختم به عليه الصلاة والسلام الاستصلاح فمن لم يصلح به فميئوس من صلاحه^(٢٤).

٣- النبي الصادق: الصدق صفة أساسية من صفات الرسل والأنبياء

عليهم السلام وقد تحققت فيهم جميعا، فقد قال تعالى في وصف إبراهيم
: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٢٥) .

وذكر لوصف ذاته عن النبي إدريس عليه السلام ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ
كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٢٦)، ويتكرر الوصف ما أخبرنا الله تعالى عما هو صفة لنبينا
فقال تعالى ﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ فوصف الله تعالى لنبيه بالصدق دلالة على
تمكن صفة الصدق فيه، ونلاحظ أن صفة الصدق تكررت في هذه السورة
للدلالة على أهمية هذه الصفة، فوصف الله تعالى الأنبياء بالصدق فقال تعالى :
﴿لَيْسَ الْصَادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ (٢٧)، ووصف الذين يوفون بصدقهم فقال
تعالى : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٢٨) .

ثم عدد أهم صفات المؤمنين فجعل صفة الصدق من أهمها فقال
تعالى : ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ (٢٩)، فالصدق هو أهم صفة من صفات
الأنبياء عليهم السلام؛ لأن عليه يدور التبليغ عن الله تعالى، ولهذا حث الله
نبيه على الالتزام بالصدق فقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (٣٠) .

وأیضا قوله تعالى : ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ
إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (٣١)، فقد
صدق ﷺ في تبليغ الوحي حتى أنه بلغ ما له وما عليه من قضايا الوحي،
ولو كان -حاشاه- كاذبا لكتّم الآيات التي تلومه في إخفاء بعض القضايا
المتعلقة بزواجه من السيدة زينب. النبي ﷺ الشاهد: بدأت الآية بذكر صفة
الشهادة على الأمة بإبلاغهم الرسالة، فيوم القيامة يكون النبي ﷺ شاهدا
على أمته بالتبليغ إليهم وعلى سائر الأمم بتبليغ أنبيائهم إليهم كما قال
تعالى : ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (٣٢) .

٤- النبي ﷺ المبشر: إن النبي ﷺ مبشر للمؤمنين بالفلاح في الدنيا وبالجنة

في الآخرة ;كما أوضح في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ^(٣٣) ، ثم أعقبها الله تعالى بقوله : ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ^(٣٤) الأحزاب: فقد بشر النبي ﷺ أهل الإيمان بأن لهم من الله ثوابا كبيرا مضاعفا وهو روضات الجنات، قال ابن عطية: ((قال لنا أبي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى، لأن الله تعالى أمر نبيه أن يبشر المؤمنين بأن لهم عنده فضلا كبيرا، وقد بين تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله تعالى: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ ^(٣٥) ، وعن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ^(٣٦) ، دعا رسول الله ﷺ أبا موسى ومعاذا فقال: انطلقا فبشرا ولا تنفرا، ويسرا ولا تعسرا فإنه قد أنزل علي الليلة ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ .

٥- النبي ﷺ سراج منير: ما أجمل تشبيه الآية للنبي بالسراج المنير لأنه يستضيء به الضالون في ظلمات الجهل والغواية ويقتبس من نوره أنوار المهتدين إلى مناهج الرشده والهداية فالله نور السموات والأرض أنزل الكتاب الذي سماه نورا على نبيه الذي سماه سراجا منيرا فكانت الأنوار تتلأل في الوحي من كل جهة، وقد كان النبي ﷺ فعلا السراج المنير فعن أبي هريرة قال: ((ما رأيتُ شيئا أحسنَ من رسول الله ﷺ كان كأنَّ الشَّمْسَ تجري في جبهته)) ^(٣٧) .

٦- النبي ﷺ الحيي: في وصف الله تعالى للنبي ﷺ بالحياء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾ ^(٣٨) .

دلالة على أن النبي كان حيا والحياء شعبة من الإيمان ^(٣٩) ، وقد ورد

في الحديث الشريف: ((أن رسول الله ﷺ كان أشد حياء من العذراء في خدرها))^(٤٠)، فحفاظا على مقام النبوة نبه القرآن على شدة صفة الحياء عند النبي ﷺ، وقد ناب الله عنه في تبليغ لصحابة بأن لا يطيلوا المكوث في بيته وذلك لشدة حيائه، وفي الوقت ذاته علم القرآن الرسول بأن يستحيي من إخراج أصحابه المسترسلين في الحديث في بيته ذلك حق له، الله تعالى لا يستحيي من بيان الحق وإظهاره.

المبحث الثاني : مكانة النبي ﷺ بين المسلمين

المطلب الأول : اقتران أذية الرسول ﷺ بأذية الله تعالى

يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾^(٤١).

إذا بان شرف رسول الله ﷺ ومكانته عند الله تعالى وعند الملائ الأعلى، وفضل المصلي والمسلم عليه، فعندئذ يعرف عظم ذنب من يذمه أو يؤذيه باستحقاقه اللعنة التي هي أشد المحذورات؛ لأن البعد من الله لا يرجى معه خير^(٤٢).

ولهذا قال الله تعالى محذرا ومنبها : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ ﴾ بالشرك أو غيره من المعاصي، ويؤذون رسول الله ﷺ بالأقوال أو الأفعال، أبعدهم الله وطردهم من كل خير في الدنيا والآخرة، وأعدَّ لهم في الآخرة عذابا يذلمهم ويهينهم فيه بالخلود فيه، فإيذاء النبي ﷺ من أكبر الكبائر التي تستوجب الطرد من رحمة الله تعالى، ولم يتعرض أحد في التاريخ للأذى كرسول الله ﷺ وما نراه اليوم من التناول على مقام النبي ﷺ ومكانته سواء بالرسوم الساخرة التي رسمها بعض المغرضين في الدنمارك أم بغيرها من الأساليب، فإنه دليل على ما نقوله، وبذلك نعلم حكمة إظهار مقامه الحقيقي عند الله تعالى، وإثم من اعتدى عليه، وبشاعة عمله، ويصور

هذا التعبير ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ((الحساسية بإيذاء الرسول ﷺ وكأنها هو إيذاء هذا العمل لذات الله جل وعلا، فما أبشع وما أشنع)) (٤٣) هذا العمل .

ولما ذكر الله تعالى المنافقين والكفار الذين آذوا رسول الله ﷺ والمؤمنين بأنواع متعددة من الأذى وتوعدهم بأصناف من العذاب منها تسليط النبي ﷺ عليهم بالقتل أو النفي من المدينة المنورة، لما ذكر الله تعالى ذلك؛ حذر المؤمنين من التعرض لإيذاء النبي ﷺ ونهاهم عن التشبه ببني إسرائيل في أذيتهم سيدنا النبي موسى عليه السلام حتى ينالهم ما نال المنافقين والكفار من العذاب . ويقول النسفي: ((وهذه الآية مقرررة للتي قبلها: بنيت تلك على النهي عما يؤذي رسول الله ﷺ وهذه على الأمر باتقاء الله في حفظ اللسان ليرتادف عليهم النهي والأمر مع إتباع النهي ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السلام، وإتباع الأمر الوعد البليغ فيقوى الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه)) (٤٤).

فابتدأ الله تعالى بنداء المؤمنين تنبيهاً على أهمية وخطورة ما سيأتي بعد النداء فقال: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه تؤذوا رسول الله ﷺ بقول أو فعل ونداء المؤمنين فيه تعريض بمن يؤمن بالرسول من المنافقين لأنه يصدر منه إيذاء الرسول ﷺ قولاً وفعلاً مثل الأذى الذي عمله المنافقون حول زواج النبي ﷺ بزینب، أو الأذى الذي تعرض له النبي أثناء قسمة الغنائم وغيرها، نهى الله تعالى المؤمنين عن أن يكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبي الله موسى بآثامه بأنواع من الأذى (٤٥) ، فبرأه الله مما قالوا فيه من الكذب والزور، وكان عند الله عظيم القدر والجاه. فنفر الله المؤمنين أن يكونوا كهؤلاء المنحرفين الملتوين الذين يضرهم القرآن مثلاً صارخاً للالتواء (٤٦).

وتدل هذه الآية على وجوب توقير النبي ﷺ والابتعاد عن إيذائه، وقد التزم أصحاب النبي ﷺ بذلك أشد التزام، وقد حصل للنبي ﷺ إيذاء من بعض المنافقين أو الغافلين فعن عبد الله قال: قَسَمَ النبي ﷺ قَسَمًا فقال رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لِقَسَمَةٌ مَا أُريدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَاتَّيْتُ النبي ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ فَعَضِبَ حَتَّى رَأَيْتُ الْغَضَبَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: ((يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ)) (٤٧).

ولما كانت النصوص القرآنية في بيان فضل النبي ﷺ وبيان مقامه العظيم، ناسب أن يؤكد على المؤمنين كيف يعظمونه بالابتعاد عن إيذائه، وبأن يقولوا في حقه ما يناسب مقامه الجليل، وأن يعلموا أن جزاء طاعة النبي ﷺ هو الفوز العظيم بجنات عرضها السموات والأرض.

المطلب الثاني : ولاية النبي ﷺ العامة على المؤمنين

قال الله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (٤٨)، إن ولاية النبي العامة على المؤمنين لها علاقة وثيقة بمكانة النبي السامية عند الله تعالى وكذلك هي من خصوصياته، ولما منع الإسلام التبني ناسب أن يبين ماهية ولاية النبي ﷺ بالنسبة لزيد بن حارثة خاصة والمؤمنين عامة، فبين القرآن أن هذه الولاية هي ولاية عامة على كل المؤمنين وأنه ﷺ أولى بهم من أنفسهم وعليهم أن يقدموه على أنفسهم، لأنه السبب في إخراجهم من الظلمات إلى النور، فعلاقته ﷺ بالمؤمنين أعظم من أي علاقة فهو رحيم ورؤوف بهم. وكذلك قررت الآية أمومة أزواج النبي ﷺ الروحية للمؤمنين وذلك حرمة له ﷺ وتشريفاً لقدره. وقد جعل الله تعالى ولاية النبي ﷺ عامة على المؤمنين لأنه يستحق هذه المكانة وهو أولى بهم من أنفسهم في كل أمور الدين والدنيا لأنه أعلم بمصالحهم وأحرص عليهم من أنفسهم فهو كما وصفه الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٤٩)، جمع النبي ﷺ بين حرص الوالد على مصلحة ولده وعطف الأم ورحمتها بأولادها، فقد روي عن أبي هريرة أنه سمع رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: ((إنما مثلي ومثل الناس كمثلي رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله جعل الفَراشُ وهذه الدوابُّ التي تقع في النارِ يقعن فيها فجعل ينزعهنَّ ويغلبنَّه فيقتحمَن فيها فأنا أخذ بحجزكم عن النارِ وأنتم تَقَحَّمُونَ فيها)) (٥٠)، وقال النبي ﷺ: ((ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة اقرؤوا إن شئتم﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴿فَإَيُّمُ مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا

فَلْيَرْتَهُ عَصَبُهُ مَنْ كَانُوا وَمَنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ)) (٥١).
وقال ﷺ أيضا: ((أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم)) (٥٢)، وهذه الولاية العامة تكون في الدنيا ولها أثر عظيم في الآخرة، أما في الدنيا فقد بينها الأحاديث السابقة، وأما أثرها في الآخرة فهي تتضح بشفاعته النبي ﷺ للمؤمنين. وقد قرن الله تعالى بين ذكر ولاية النبي العامة على المؤمنين وبين جعل أزواجه أمهات للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، للدلالة على أن كل من اتصل بهذا النبي ﷺ بصلة ما صارت له أهمية واحترام، وأولى من تكون له هذه المكانة والأهمية هن أزواجه، فجعلن الله تعالى أمهات للمؤمنين من حيث حرمة الزواج بهن بعد موت النبي ﷺ ومن حيث احترامهن وتقديرهن.

المطلب الثالث : وجوب اتباع أوامر النبي ﷺ والنهي عن عصيانه

إذا كانت للنبي الولاية العامة على المؤمنين، وكان أعرف بمصالحهم من أنفسهم وحريصا على منفعتهم أشد الحرص، فيجب اتباع أوامره ويحرم عصيانه ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (٥٣) فهذه الآية مناسبة لأحد محاور الموضوع الأساسية المتعلقة بمكانة النبي ﷺ فهي تبين أن طاعة الرسول فرض على كل مؤمن ومؤمنة، وأن عصيان أمره هو عصيان لأمر الله تعالى، فالمؤمن الحقيقي يبادر للطاعة دونما تردد. وتمضي الآية تقول: لا ينبغي لمؤمن ولا مؤمنة إذا حكم الله ورسوله في أنفسهم حكما أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم أو أن يخالفوه، ومن يعص الله ورسوله فقد بعد عن طريق الصواب بُعدا ظاهرا وحاد عن قصد السبيل وسلك غير سبيل الهدى والرشاد، فهذه الآية تؤكد التسليم والرسول ﷺ في كل ما أمر به أو نهى عنه، فمن

يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن يعص الرسول فقد عصى الله تعالى، ثم يعرض القرآن لنموذج عملي في تطبيق الطاعة للرسول فها هي زينب أم المؤمنين قد أطاعت الله ورسوله حقاً فسلمت أمرها وللرسول وتزوجت بزيد طاعة ولسوله، ثم كافأها الله تعالى بأن تزوجت بسيد الخلق محمد ﷺ فقد ثبت في سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ﴾ فعن قتادة قال: ((خطب النبي ﷺ زينب وهي بنت عمته وهو يريد لها لزيد فظنت أنه يريد لها لنفسه فلما علمت أنه يريد لها لزيد أبت فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ فرضيت وسلمت)) (٥٤).

إن الآيات المتعلقة بزواج النبي من السيدة زينب بعد أن طلقها زيد تثبت منع التبنّي في الإسلام، وتؤكد قاعدة اجتماعية، وهي أنه لا فرق بين الناس بسبب أنسابهم وأن التفاصل بينهم يكون بالتقوى، ولهذا ناسب أن يتزوج زيد زينب التي تفوقه نسباً، وناسب أن يتزوج بلال الحبشي أخت عبد الرحمن بن عوف، وهذه القاعدة أكدها القرآن الكريم في آيات أخرى تؤكد الأصل الواحد للإنسانية والمساواة بين الناس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٥٥).

المبحث الثالث : مكانة النبي ﷺ مع أهله وزوجاته وخصوصيته

المطلب الأول : مكانة النبي ﷺ مع زوجاته وخصوصيته

ففي تخيير النبي ﷺ لزوجاته دلالة ذلك على مكانته ، قال الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٥٦).

ولما فتح الله تعالى على نبيه الدنيا فأورث المسلمين أرض اليهود وديارهم وأموالهم، ظن نساء النبي ﷺ أن النبي ﷺ سيوسع عليهن في النفقة كسائر النساء المؤمنات، فشككن جبهة داخلية واجهها النبي بصبر وأناة مثلما واجه جبهة الأحزاب الخارجية ليكون الأسوة الحسنة لكل مؤمن، فقد بينت هاتان الآيتان الكريمتان كيفية تعامل النبي ﷺ مع أسرته، ومقام النبي الزوج، وهو الذي كان يقول: ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)) (٥٧).

وقد ذكر أهل التفسير أن أزواج النبي ﷺ سألنه شيئا من عرض الدنيا وطلبن منه زيادة النفقة وأذينه بغيرة بعضهن على بعض فألى رسول الله ﷺ منهن شهراً وصعد إلى غرفة له فمكث فيها فنزلت هذه الآية فنزل رسول الله ﷺ فعرض الآية عليهن فبدأ بعائشة فقال: ((يا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا أَحِبُّ أَنْ تَعْجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبَوَيْكَ)) قالت: وما هو يا رَسُولَ اللَّهِ فَتَلَا عليه الآية قالت: أفيك يا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبَوَيَّ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ وَأَسْأَلُكَ أَنْ تُخَيِّرَ أَمْرًا مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتُ قَالَ: ((تَسْأَلْنِي مَرَأَةً مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَعْثُنِي والقصة بطولها مذكورة في كتب مُعْتَنَّا ولا مُتَعَتَّا وَلَكِنْ بَعَثْنِي مُعَلِّمًا مُبَسِّرًا)) (٥٨) ففي هذه الآيات يأمر الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ

بأن يخير نساء اللاقي اجتمعن على يطلبن من زيادة النفقة بين أن يفارقهن دون ضرر أو إيذاء وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل فاخترن ما أعدَّ الله لهن في الدار الآخرة فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة^(٥٩).

وفيما خيرهن فيه الرسول ﷺ قولان: أحدهما: أنه خيرهن بين الطلاق والمقام معه، هذا قول عائشة ، والثاني: أنه خيرهن بين اختيار الدنيا فيفارقهن أو اختيار الآخرة فيمسكنهن ولم يخيرهن في الطلاق، قاله الحسن وقتادة. والقول الأصح في كيفية تخيير النبي ﷺ أزواجه أنه خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية، أو الطلاق، فاخترن البقاء لقول السيدة عائشة لما سئلت عن الرجل يخير امرأته، فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ فاخترناه فلم يعده طلاقاً ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق^(٦٠). وفي هذه الآيات فوائد متعلقة بنسائه منها:-

أ- حث واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقته، ولو من أقرب الناس إليه وهن زوجاته، وفيها أدب عال خاص ببيت النبوة ونسائه الطاهرات، وفيها ترفع عن حطام الدنيا وتربية نساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي، وإعظام الله ورسوله ﷺ.

ب- بيان حب النبي ﷺ لزوجته السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق حيث بدأ بتخيرها، وفيه بيان فضل أمهات المؤمنين على غيرهن من نساء العالمين حيث إنهن اخترن رضا الله تعالى ورضا رسوله ﷺ على متاع الدنيا الزائل.

ج- أراد النبي ﷺ أن يرفع أزواجه إلى المستوى العالي المتجرد عن حظوظ الدنيا كي يكن قدوة لنساء العالمين، وفي ذلك دلالة واضحة على أن دعوة الرسول ﷺ لم يكن هدفها سوى رضا الله عز وجل وأنه كان أهد الزاهدين

في الدنيا التي فتحت له بوابها وغنائمها فأعرض عنها إلى الطاعة الخالصة عز وجل، بالتجرد عن حظوظ الدنيا، وجعل الآخرة هي المقصد الأساس

المطلب الثاني : خصائص النبي ﷺ في أحكام الزواج

يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَنْبَأَ أَتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ (٦١) .

لما بين الله تعالى في بدء السورة أن النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وكان من أهم مقاصد السورة بيان ما شرف الله تعالى به نبيه وبيان مناقبه وما خصه به مما قد يطعن فيه المنافقون من كونه أولى من كل أحد بنفسه وما له، ناداه بوصف النبوة لأنه مدار الإكرام من الخالق والمحبة من الخلائق تشريفاً له به، ثم بين سبحانه وتعالى أنه أحل للنبي ﷺ أصنافاً محددة من النساء دون غيره من المؤمنين نظراً إلى أهمية الدور الذي يقوم به في الدعوة إلى الله تعالى مما اقتضى تشريعات خاصة به (٦٢) .

قال ابن عاشور: ((إنه لما خاض المنافقون في تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش وقالوا : تزوج من كانت حليلة متبناه أراد الله أن يجمع في هذه الآية مَنْ يحل للنبي تزوجهن حتى يقع الناس في تردد ولا يفتنهم

المرجفون . ولعل ما حدث من استنكار بعض النساء أن تهدي المرأة نفسها لرجل كان من مناسبات اشتغالها على قوله ﴿وَأَمْرًا مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ ولذلك جمعت الآية تقرير ما هو مشروع وتشريع ما لم يكن مشروعاً لتكون جامعة للأحوال، وذلك أوجب وأقطع لتردد والاحتمال)) (٦٣) .

وتنبه الآيات الكريمة السابقة إلى أن الله تعالى أحل لنبه أربعة أصناف من النساء فتقول:

أ- أيها النبي إنا أبخنا لك أزواجك اللاتي أعطيتهن مهورهن.

ب- وأبخنا لك اللاتي ملكت يمينك من إماءك اللواتي سيبتن فملكتهن بالسب وصر لك بفتح الله عليك من الفيء فهن مما أنعم الله به عليك.

ج- وأبخنا لك الزواج من بنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك ومن لم يهاجر منهن معك.

د- أبخنا لك امرأة مؤمنة مَنَحَتْ نفسها لك من غير مهر، إن كنت تريد الزواج منها خالصة لك، وليس لغيرك من المؤمنين أن يتزوج امرأة بالهبة ولم يكن تحت رسول الله ﷺ امرأة وهبت نفسها على الرغم من عرض ما يقرب من ثلاث نسوة أنفسهن على رسول الله ﷺ منهن أم شريك (٦٤) .

ثم يبين الله خصوصية النبي ﷺ في هذا الحكم بأن الله تعالى قد علم ما أوجب على المؤمنين في زواجهم وإماءهم بالألا يتزوجوا إلا أربع نسوة، وما شأؤوا من الإماء، واشترط الولي والمهر والشهود عليهم، ولكن الله رخص لنبي ﷺ في ذلك، ووسَّع عليه ما لم يُوسَّع على غيره لئلا يضيق صدره ولا يكون عليه إثم في نكاح من نكح من هؤلاء الأصناف. وكان الله غفوراً للذنوب عباده المؤمنين، رحيمًا بالتوسعة عليهم. وقد كان لرسول الله ﷺ قبل أن تنزل عليه هذه الآية أن يتزوج أي النساء شاء، فقصره الله على هؤلاء فلم يعدهن، وقصر سائر أمته على ثلث وربع (٦٥)

ومن خصوصيات النبي ﷺ أن الله خاطبه بأنه سمح له بأن يؤخر مَنْ شاء من نسائه في القَسَم في المبيت، ضم إلي مَنْ شاء منهن، ومَنْ طَلَبَ ممن آخر قَسَمها، فلا إثم علي في هذا، ذلك التخيير أقرب إلى أن يفرحن ولا يحزنن، ويرضين كلهن بما قسم النبي ﷺ لهن، والله يعلم ما في قلوب الرجال من مِيلها إلى بعض النساء دون بعض. وكان الله عليماً بما في القلوب، حليماً يعجل بالعقوبة على من عصاه.

وعن قتادة قوله ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ قال: فجعله الله في حل من ذلك أن يدع من يشاء منهن ويأتي من يشاء منهن بغير قسم وكان نبي الله يقسم،... ويعدل بينهن حتى لقي الله (٦٦). وعن السيدة عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يستأذن إذا كان في يوم المرأة منا بعد ما نزل ﴿ تَرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ ﴾ قالت معاذة: فقلت للسيدة عائشة: ما كنت تقولين لرسول الله ﷺ قالت: كنت أقول: إن كان ذاك إلي لم أؤثر أحدا على نفسي (٦٧).

ثم خاطب الله تعالى نبيه أنه يباح للنساء من بعد نسائه اللاتي في عصمته واللاتي أباحهنّ ومن كانت في عصمته من النساء المذكورات لا يحل أن طلقها مستقبلاً ويأتي بغيرها بدلا منها، ولو أعجب حسننها وأما الزيادة على زوجات من غير تطليق إحداهن فلم يكن هناك حرج عليه في ذلك وأما ما ملكت يمينه من الإماء فحلال منهن من شاء. وكان الله على كل شيء رقيماً، لا يغيب عنه علم شيء (٦٨).

وهذه الآية دليل على منع تبديل زوجات النبي ﷺ اللاتي اخترنهن وهن التسع، فعن ابن عباس الله عنهما في قوله: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ﴾ قال: حبسه الله عليهن كما حبسهن عليه (٦٩).

الخاتمة

ركز هذا البحث بقسميه على إظهار مكانة النبي ﷺ عند الله تعالى وعند المؤمنين، وذلك في ضوء دراسة ما ورد في سورة الأحزاب من أمور متعلقة بمكانته ﷺ وبخصائصه. وإن من أهم ثمرات هذا البحث ونتائجه أنه أوضح ما يترتب على مكانة النبي ﷺ وقدره عند الله تعالى من أمور أهمها - :

١- إن الله تعالى صدر بعض السور بمناداة سيدنا محمد ﷺ بالنبوة تشریفاً له، وقدم ذكره على سائر الأنبياء ﷺ عند الكلام عن أخذ الميثاق منهم، وجعله خاتماً للنبيين وأفضلهم، وخصه بخصائص متعددة.

٢- إن الله تعالى جعل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فأوجب عليهم طاعته، وحرم عليهم معصيته

٣- إن في وصف النبي ﷺ بالسراج المنير دلالة على أنه كالشمس التي يستضاء بها في الظلمات، فمن اتبع النور الذي أنزل معه اهتدى، ومن أعرض عنه ضل، ولهذا جعله الله تعالى الأسوة الحسنة التي يجب اتباعها على كل مؤمن بالله واليوم الآخر

٤- عظم الله تعالى هذا النبي فضلى عليه بنفسه مع ملائكته وأمر المؤمنين بذلك، ومن عظمه وعرف قدره نال الأجر العظيم، وهو ﷺ بين الحق وخير الخلق وسيد ولد آدم، وهذا الأمر يوجب علينا حبه واتباعه لتكون معه يوم الدين فالمرء مع من أحب، ولتصلح ديانا وتتنور بالأنوار التي أتى بها النور من الله نور السموات والأرض، وإذا كان للنبي ﷺ هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى فواجب على كل مؤمن به أن يعرف الناس الآخرين بهذا النبي الكريم، وخلقه العظيم، وشريعته السمحة.

٥- لما كان للنبي ﷺ هذا القدر العظيم عند الله تعالى خالق السموات

والأرض، فقد جعل إيذاءه كإيذاء تعالى، وجعل من يؤذونه مطرودين من رحمته سبحانه في الدنيا والآخرة، فكل من آذى هذا النبي الطاهر أو آذى آل بيته الكرام فقد آذى الله، ومن آذى الله فقد خرج من الملة واستحق غضبه سبحانه ٦- كل من اتصل بهذا النبي الكريم ﷺ بنسب أو بسبب يتشرف ويعلي من قدر نفسه، فأزواجه لما اتصلن به كن أمهات للمؤمنين وخير نساء العالمين في المقام والأجر المضاعف، ونسله المبارك طهره الله تعالى من كل رجس، والمؤمنون به لما اتصلوا به بشرف الإيمان جعل الله جزاءهم جنات عرضها السموات والأرض.

٧- إن التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه حقاله نتائج عظيمة، ومن أهمها توفيق الله تعالى للمؤمن، وقد تجلّى هذا في توفيق الله تعالى لرسوله ﷺ المتوكل على الله حق التوكل، وفي توفيق الله للمؤمنين معه الذين ابتلوا فصبروا وتوكلوا على الله تعالى فكان توفيق الله حليفهم في غزوة الأحزاب، فنصرهم بجنود لم يروها وأيدهم بالريح، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا.

هوامش البحث

- ١- ينظر: السيرة الحلبية في سيرة الأئمة، علي بن برهان الدين الحلبي، ص ٩٧٩.
- ٢- العاقب هو الخاتم الذي ليس بعده نبي. قارن البخاري، صحيح البخاري، ٤/ ١٨٥٨ رقم الحديث: ٤٦١٤ ومسلم، صحيح مسلم ٤/ ١٨٢٨ رقم الحديث: ٢٣٥٤.
- ٣- ينظر: البيهقي، شعب الإيمان، ٢/ ١٤١ رقم الحديث: ١٣٩٨.
- ٤- صحيح مسلم، ٤/ ١٨٢٨ رقم الحديث: ٢٣٥٤، وصحيح البخاري، ٤/ ١٨٥٨ رقم الحديث: ٤٦١٤ والبيهقي شعب الإيمان، ٢/ ١٤٢ رقم الحديث: ١٤٠٠.
- ٥- ذكر الماوردي ثلاثة أقاويل في التفريق بين النبي والرسول، وذكر الآلوسي بعض الفوارق بينهما ومنها: أنه يغلب نسبة الرسالة إلى الله تعالى فيقال: (رسول الله) ولم يرد في القرآن (نبي الله) مع أنه ورد في الحديث: (ونبي الذي أرسلت) وذلك لأن ((النبوة يغلب عليها الفضل عن النبي فيقال: نبوة النبي لأنه يستحق منها الصفة التي هي على طريق الفاعل والرسالة تضاف إلى الله لأنه المرسل بها ولهذا قال: (برسالاتي) ولم يقل: (بنبوتي)). قارن بالماوردي، النكت والعيون، ٤/ ٣٥ والآلوسي، روح المعاني، ٩/ ٧٩ والعسكري، الفرق، ١/ ٣١٨-٣١٩.
- ٦- شرح المقاصد مسعود بن عمر سعد الدين التفتازاني، ٥/ ٥-٦.
- ٧- سورة الأحزاب: من الآية ١.
- ٨- سورة التحريم: من الآية ١.
- ٩- سورة المائدة: من الآية ٦٧.
- ١٠- سورة الفتح: من الآية ٨.
- ١١- سورة الأحزاب: من الآية ٤٦.
- ١٢- سورة الأحزاب: من الآية ٣٣.
- ١٣- ينظر: من موضوعات سور القرآن الكريم: عبد الحميد طهناز، في سورة السجدة وسور الأحزاب وسورة سبأ وسورة فاطر، ٣٥-٣٦.
- ١٤- سورة الفتح: من الآية ٢٩.
- ١٥- ينظر: التفسير الكبير، الرازي، ٢٥/ ١٦٤.
- ١٦- سورة الأحزاب: من الآية ٤٠.
- ١٧- ينظر: البحر المحيط أبو حيان الأندلسي، ٤/ ٤٠٢.
- ١٨- سورة الأعراف: من الآية ١٥٧.
- ١٩- سورة الأحزاب: من الآية ٤٠.
- ٢٠- ينظر: جامع البيان الطبري، ٢٢/ ١٦.

- ٢١- ينظر: روح المعاني، الألوسي، ٢٢ / ٤٢ .
- ٢٢- صحيح البخاري، : ١٣٠٠ رقم الحديث: ٣٣٤٢ وصحيح مسلم، ١٧٩١ : :
رقم الحديث: ٢٢٨٧ .
- ٢٣- أخرجه ابن حبان، صحيح ابن حبان، ٦ / ٨٧ رقم الحديث: ٢٣١٣ وأحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١٥ / ١٩٤-١٩٥ وقال المحقق شعيب الأرناؤوط معلقاً: حديث صحيح، وهذا إسناد حسن، وانظر البيهقي سنن البيهقي الكبرى ٢ / ٤٣٣ رقم الحديث : ٤٠٦٣ ومسند أبي يعلى أب يعلى: ١١ / ٣٧٧ رقم الحديث: ٦٤٩١ .
- ٢٤- ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤ / ١٩٧ .
- ٢٥- سورة مريم : الآية ٤١ .
- ٢٦- سورة مريم : الآية ٥٦ .
- ٢٧- سورة الأحزاب : من الآية ٨ .
- ٢٨- سورة الأحزاب : من الآية ٢٣ .
- ٢٩- سورة الأحزاب : من الآية ٣٥ .
- ٣٠- سورة المائدة : من الآية ٦٧ .
- ٣١- سورة يونس : من الآية ١٥ .
- ٣٢- سورة البقرة : من الآية ١٤٦ .
- ٣٣- سورة الأحزاب : من الآية ٤٥ .
- ٣٤- سورة الأحزاب : من الآية ٤٧ .
- ٣٥- سورة الشورى : الآية ٢٢ .
- ٣٦- سورة الأحزاب : الآية ٤٥-٤٦ .
- ٣٧- مسند الإمام أحمد بن حنبل ، ٢٥٨ / ١٤ ، رقم الحديث: ٨٦٠٤ ، قال المحقق شعيب الأرناؤوط معلقاً: حديث حسن .
- ٣٨- سورة الأحزاب : الآية -٥٣ .
- ٣٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢ / ٤٤٢ رقم الحديث: ٩٧٠٨ ، وسنن ابن ماجه ١ / ٢٢ رقم الحديث: ٥٨٠ .
- ٤٠- صحيح البخاري ٥ / ١٣٠٦ رقم الحديث : ٣٣٦٩ .
- ٤١- سورة الأحزاب : الآية ٥٧ .
- ٤٢- ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٥ / / ١٩٧ .
- ٤٣- ينظر: في ظلال القرآن، ٥ / ٢٨٧٩ .

- ٤٤ - مدارك التنزيل، النسفي، / ٢ ٣٥٨.
- ٤٥ - ، صحيح البخاري، ٣ / ١٢٤٩ رقم الحديث: ٣٢٢٣.
- ٤٦ - ينظر: في ظلال القرآن، ٥ / ٢٨٨٣ - ٢٨٨٤.
- ٤٧ - صحيح البخاري، ٣ / ١٢٤٩ رقم الحديث: ٣٢٢٤.
- ٤٨ - سورة الأحزاب: الآية - ٦ .
- ٤٩ - سورة التوبة: من الآية - ١١٨ .
- ٥٠ - صحيح مسلم ١٧٨٩ / ٤ رقم الحديث: ٢٢٨٤.
- ٥١ - صحيح البخاري ٢ / ٨٤٥ رقم الحديث: ٢٢٦٩ .
- ٥٢ - سنن أبي داود، ١ / ٣ ، رقم الحديث: ٨ .
- ٥٣ - سورة الأحزاب: الآية - ٣٦ .
- ٥٤ - مجمع الزوائد المهيتمي، ٧ / ٩١-٩٢ وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح وقارن بالطبراني، المعجم الكبير، ٢٤ / ٤٥ رقم الحديث: ١٢٤ .
- ٥٥ - سورة الحجرات: الآية - ١٣ .
- ٥٦ - سورة الأحزاب: الآية - ٢٨-٢٩ .
- ٥٧ - صحيح ابن حبان، ٩ / ٤٨٤ رقم الحديث: ٤١٧٧.
- ٥٨ - صحيح مسلم، / ١١٠٤٢ رقم الحديث: ١٤٧٨ و ٤ / ١٧٧٩ رقم الحديث: ٢٧١١ وأحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، ٢٢ / ٣٩١-٣٩٢ رقم الحديث: ١٤٥١٥ ، وأخرجه أحمد بلفظ: إن الله لم يبعثني معتقاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً) وانظر ابن الجوزي، زاد المسير، ٦ / ٣٧٦ ..
- ٥٩ - ينظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ٦ / ٣٧٧ .
- ٦٠ - ينظر: التفسير المنير، وهبة الزحيلي ٢١ / ٢٩٤-٤٨٣ .
- ٦١ - سورة الأحزاب: الآية ٥٠-٥٢ .
- ٦٢ - ينظر: نظم الدرر، البقاعي، ٦ / ١١٨-١١٩ .
- ٦٣ - التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢ / ٦٣ .
- ٦٤ - ينظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢ / ٢٣ والدر المنثور، السيوطي ٦ / ٦٢٩ .
- ٦٥ - جامع البيان، الطبري ٢٢ / ٢١-٢٢ .
- ٦٦ - جامع البيان، الطبري ٢٢ / ٢٥-٢٦ .
- ٦٧ - المستدرک، الحاكم ٦ / ٢٠٤ رقم الحديث: ٢٧٦٢ وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.
- ٦٨ - التفسير الميسر، نخبة من العلماء، ص: ٧٧٢-٧٧٣.

٦٩ - ذكر ابن حجر الخلاف بين الصحابة في تفسير هذه الآية، فأبي بن كعب ومن أيده قالوا إن المنفي هو الأوصاف المذكورة في الآية فكان محل للنبي ﷺ صنف دون صنف، وقال آخرون كابن عباس إن المنفي هو النساء الموجودات عند التخيير، ثم قال ابن حجر: الواقع أنه ﷺ لم يتجدد له تزوج امرأة بعد القصة المذكورة لكن ذلك يرفع الخلاف، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ٩/ ٤٨٢. وانظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٢٢ / ٢٨ .

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم

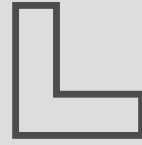
- * تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، المباركفوري، محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم، بيروت : دار الكتب العلمية (د.ت).
- * تبصير الرحمن وتيسير المنان، المهاييمي، علي بن أحمد بن إبراهيم، (القاهرة: عالم الكتب
- * التحرير والتنوير، ابن عاشور، محمد الطاهر، تفسير، تونس: دار حنون للنشر والتوزيع ١٩٩٧ م .
- * تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود علي محمد معوض، بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠٠١ م .
- * تفسير القرآن العظيم ، ابن أبي حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازي ، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكة المكرمة: مكتبة مصطفى نزار الباز، ١٩٩٧ م .
- * التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الشافعي الرازي ، ط ١ بيروت :دار الكتب العلمية ٢٠٠٠ م .
- * التفسير المنير، وهبة الزحيلي ، بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩١ م .
- * التفسير الميسر، نخبة من العلماء، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة: مجمع الملك فهد، ١٤١٩ هـ.
- * جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير أبو جعفر الطبري ، بيروت: دار الفكر ١٤٠٥ هـ
- * الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، القاهرة: دار الشعب.
- * الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي، بيروت: دار الفكر ١٩٩٣ م .
- * الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المصنفة الكتاني، محمد بن جعفر تحقيق محمد المنتصر محمد الزمزمي الكتاني بيرو : دار البشائر الإسلامية ١٩٨٦ م .
- * روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، أبو الفضل شها الدين السيد محمود الألوسي، بيروت: دار إحياء التراث العربي .
- * زاد المسير في علم التفسير ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد، بيروت: المكتب الإسلامي - ١٤٠٤ هـ .
- * سنن ابن ماجة ، محمد بن يزيد أبو عبدالله القزويني ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي بيروت: دار الفكر.
- * سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت: دار الفكر.
- * سنن البيهقي الكبرى السنن والآثار ، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، بيروت: دار الكتب العلمية.

- * السيرة الحلبية في سيرة الأمين علي بن برهان الدين الحلبي بيروت: دار المعرفة، ١٤٠٠هـ.
- * شرح المقاصد، مسعود بن عمر سعد الدين. التفتازاني، تحقيق عبد الرحمن عميرة، بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٨ م.
- * الشفا بتعريف حقوق المصطفى، عياض، أبو الفضل، تحقيق عبد السلام محمد أمين، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ.
- * صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي، تحقيق شعيب الأرنؤوط بيروت: مؤسسة الرسالة ١٩٩٣ م.
- * صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د.ت).
- * فتح الباري بشرح صحيح البخاري، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦ م.
- * فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، بيروت: دار الفكر (د.ت).
- * فتح لباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي أبو الفضل، تحقيق محب الدين الخطيب بيروت: دار المعرفة.
- * في ظلال القرآن، سيد قطب، القاهرة:
- دار الشروق، ١٩٩٨.
- * كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين تحقيق: محمود عمر الدمياطي، (بيروت: دار الكتب العلمية ١٤١٩هـ - ١٩٩٨
- * مجمع البيان في تفسير القرآن. الطبرسي، بيروت: دار الحياة.
- * مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، علي بن أبي بكر أبو الحسن (بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٧
- * المختار أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد بن، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر ١٩٩٥ م.
- * مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، بيروت: دار الكتب العلمية ١٩٩٥ م.
- * المستدرک على الصحيحين، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم النيسابوري، تحقيق مصطفى بد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٠ م.
- * مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩ م.
- * المصحف المفسر وجدي محمد فريد، القاهرة: دار المعارف، (د.ت).
- * المصنف، الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي بيروت: المكتب الإسلامي

عبد الحميد طهماز،: في سورة السجدة
وسورة الأحزاب وسورة سبأ وسورة
فاطر، (دمشق: دار القلم، ١٩٩٦ م .
* موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان،
لهيثمي علي بن أبي بكر أبو الحسن، تحقيق
محمد عبد الرزاق حمزة (بيروت: دار
الكتب العلمية) .
* نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،
برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي،
خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه
عبد الرزاق غالب المهدي، بيروت: دار
الكتب العلمية ١٩٩٥ م .

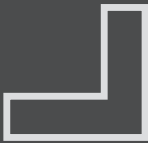
١٤٠٣ هـ .
* المعجم الأوسط، الطبراني، سليمان بن
أحمد بن أيوب أبو القاسم تحقيق طارق
بن عوض الله بن محمد عبد المحسن بن
إبراهيم الحسيني القاهرة: دار الحرمين
١٤١٥ هـ .
* المعجم الكبير الطبراني، سليمان بن
أحمد بن أيوب أبو القاسم تحقيق حمدي
بن عبد المجيد السلفي الموصل: مكتبة
الزهراء ١٩٨٣ م .
* المقالات النورسي، سعيد،، ترجمة الملا
محمد زاهد الملازكردي، بيروت: عالم
الكتب، ط ١، ١٩٨٥ م .
* من موضوعات سور القرآن الكريم





أزواج الرسول الأعظم ﷺ تعددهن، مهورهن وولائتهن

أ.د. خليل حسن الزركاني
رئيس قسم الحضارة كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد
م.م. نغم يحيى ناجي
كلية العلوم الإسلامية / جامعة بغداد



The wives of the greatest Prophet (P. B. U. H. & H.) Their plurality, their dowries and their feasts

Prof. Dr. Khalil Hassan Al-Zarkani
Head of Civilization Department, College of
Islamic Sciences / University of Baghdad
Lect. Nagham Yahya Naji
College of Islamic Sciences / University of
Baghdad

الملخص

لقد خص الله نبيه الكريم بأنه أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ قال القرطبي: وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فقيل إن المراد بها إن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، وفي هذا يقول ابن حجر: وقد اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن وإن الحكمة من هذا الزواج هي متعددة منها التعليمي التشريعي والسياسي والإنساني والتألفي والتربوي هذا فيما يخص المبحث الأول ثم درسنا في المبحث الثاني الرد على المستشرقين في تعدد زوجات الرسول الأعظم ﷺ وفي المبحث نفسه درسنا زوجات النبي ﷺ والظروف التي رافقت زواجهن من الرسول ﷺ وترجمة لكل أمهات المؤمنين من زوجات الرسول ﷺ وفي المبحث الثالث درسنا سيرة الرسول الأعظم ﷺ في مهور أزواجه لقد جعل بذل المال دليلاً على الصدق في المقال في دعوى البعال ولهذا جاز النكاح في حق الرسول ﷺ بلا صداق لأن الصدق في مقاله ظاهر من غير مصداق إذا هو معصوم من الكذب والنفاق فلم يطلب منه مصداق آخر، فمن تزوج من النساء بصداق كان ذلك منه صلة محضة من غير أن يكون ذلك مصداقاً لخطبته قال تعالى ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ وهذه من الأحكام المتعلقة والخاصة بالنبي ﷺ إذ لم يكن دفع المهر واجباً في حقه، وفي ضوء ذلك يوضح لنا الطريق السوي في الصدق ومقداره وتوجيه الامه الاسلاميه على تسهيل وتيسير الزواج وتقليل الصداق فقال ﷺ ((إِنَّ مِنْ يُمْنِ الْمَرْأَةِ تَيْسِيرَ خُطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرَ رَحِمِهَا)) لقد قدم النبي ﷺ قدوة بسلوكه العملي وقدم صورة من صور الالتزام بمسالة الصداق فما زاد صداق نساء النبي ﷺ على خمسمائة درهم عداً أم

حببية فقد امهرها النجاشي أربعة الإلف درهم وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقبل لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل واضحا بالنسبة لزوجاته رضي الله عنهم بالنسبة لقلّة المهور والمبحث الرابع: فتناول سيرة النبي الأعظم ﷺ في وليمة العرس في زواجه والوليمة: هي كل طعام صنع لعرس وغيره لقد كانت سيرة النبي الأعظم ﷺ خير ما يهتدي به في كيفية ترتيب الوليمة، فقد أولم مرة على تمر وسويق وأخرى على خبز ولحم وثالثة كانت وليمته من الشعير قالت صفية بنت شيبة: أولم النبي ﷺ على بعض نسائه بمدين ثم الخاتمة التي أوضحنا فيها أن الرسول الأعظم ﷺ قد جمع تحته أكثر من أربع نسوة وهذا مما أبيض له بإجماع المسلمين، وقد اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن. ثم في ضوء سيرة النبي ﷺ، توجيه الأمة الإسلامية على تسهيل وتيسير الزواج وتقليل الصداق وفيما يتعلق بوليمة النبي ﷺ في زواجه كانت بسيطة وبعيدة عن التكلف والمبالغة في الإسراف ثم التوصيات التي أكدت على سيرة الرسول ﷺ وأهداف تعدد زواجه والرد على المستشرقين والحث على عدم المغالاة في المهور وأن تكون وليمة العرس بعيدة عن التكلف والمبالغة في الإسراف والتبذير.

Abstract

The greatest Prophet's wives are plural, their dowries and their banquets

Prof. Dr. Khalil Hassan Al-Zarkani President of the Department of Civilization, College of Islamic Sciences

M. Nagham Yahya Nagy College of Islamic Sciences

God has singled out his noble Prophet that it is permissible for him to marry every woman who is given her dowry and has been singled out for her

The Noble Qur'an, the Almighty's saying "Prophet, God has permitted a woman to marry you. The scholars have agreed that one of its characteristics is the addition of four wives that he unites.

And that the wisdom of this marriage is multiple, including legislative, political, humanitarian, authoritative and educational education, this is with regard to the first topic Then, in the second topic, we dealt with the response to the Orientalists about the greatest polygamy of the Messenger , and in the same topic we dealt with the wives of the Prophet and the circumstances that accompanied their marriage to the Messenger and his translation for all the mothers of the believers from the wives of the Messenger and in the third topic we dealt with the biography of the Messenger. The greatest in his husbands' dowries

And that the wisdom of this marriage is multiple, including legislative, political, humanitarian, authoritative and educational education, this is with regard to the first topic Then, in the second section, we dealt with the response to the Orientalists about the greatest polygamy of the Prophet and in the same topic we dealt with the wives of the Prophet and the circumstances that accompanied their marriage to the Messenger and his

translation for all the mothers of the believers from the wives of the Prophet and in the third topic we dealt with the biography of the Prophet The greatest in his husbands' dowries

He made the money spent as evidence of the truthfulness in the article in the case of the Baal. That is why marriage is permissible for the Messenger without a dowry because the truthfulness in his article is apparent without credibility. It is a pure connection without this being valid for his sermon. The Almighty said (And a woman who believes, if she gives herself to the Prophet)

This is one of the rulings related to and specific to the Prophet since paying the dowry was not a duty in his right, and in light of that, he explains to us the correct way in the dowry and its amount, and directing the Islamic nation to facilitate and facilitate marriage and reduce the dowry. Give her friendship, and facilitate her mercy)) The Prophet presented an example with his practical behavior and presented a form of commitment to the issue of the dowry

When the dowry of the Prophet's women exceeded five hundred dirhams, except for Umm Habibah (may God be pleased with her), the Negus skilled her four thousand dirhams and wrote this to the Messenger of God. Ponies The fourth topic: It dealt with the biography of the greatest Prophet in the wedding feast in his marriage The feast: is all food made for a wedding or otherwise

The life of the greatest prophet was the best guide in how to arrange the feast, for he had one time on dates and Suwaiq, another on bread and meat, and the third was his feast of barley Safia bint Shaibah said: The Prophet gave some of his wives a debt Then the conclusion in which we explained that the greatest

Messenger gathered under him more than four women, and this is what was permitted by the consensus of Muslims, and the scholars have agreed that one of his characteristics is the addition of four women who unite them.

Then, in light of the Prophet's biography, directing his Islamic mothers to facilitate and facilitate marriage and reduce the dowry And with regard to the Prophet wedding feast, in his marriage, it was simple and far from being extravagant

المقدمة

إن الإسلام شرع للمسلمين الزواج بواحدة. وأنفذ التكثير على أربع بشرط القسط بينهن وإصلاح جميع المحاذير المتوجهة إلى التعدد، فهذا على مستوى القاعدة ويعم جميع المسلمين، والتعدد على مستوى القاعدة غير التعدد على مستوى القمة وأقصد بها النبوة، لأن النبي ﷺ توفرت فيه جميع الشروط التي تجعله يسوق الناس إلى صراط الله الحميد، فهو أول شخص يخلص الدين لله ويسلم بما يدعو الآخرين إليه. وعلى هذه الخلفية لا يمكن بحال أن ينطلق التعدد من داعي الشهوة أو يقود إلى داعي الشهوة كما قال بعضهم ويضاف إلى ما ذكرنا أن الرسول ﷺ مؤيد بالعصمة. مصون من الخطأ والغفلة في تلقي الوحي من الله وحفظه وتبليغه. والله تعالى يصونه من الخطأ في جميع أمور الدين وتشريع القوانين. وعلى هذه الخلفية لا يجوز لمقولة داعي الشهوة أن تطرح على مائدة البحث.

إن الإسلام أنفذ التكثير على أربع بشرط القسط بينهن، وفي هذا الباب كان للنبي ﷺ مختصات منعت عنها الأمة. وكان التعدد بالنسبة للنبي ﷺ وسيلة من وسائل تشريع القوانين يهدف البحث الى دراسة: زوجات النبي ﷺ وأسرار الحكمة في تعددهن والرد على المستشرقين في تعدد زوجات الرسول الأعظم وسيرة الرسول الأعظم ﷺ في مهور أزواجه وفي وليمة العرس في زواجه ويحتوي البحث على أربعة مباحث، كان عنوان المبحث الأول زوجات النبي ﷺ وأسرار الحكمة في تعددهن .

والمبحث الثاني: الرد على المستشرقين في مسألة تعدد ازواج النبي ﷺ .

والمبحث الثالث: سيرة الرسول الأعظم ﷺ في مهور أزواجه.

والمبحث الرابع: سيرة في مهور أزواجه وفي وليمة العرس في زواجه

الخاتمة والتوصيات ثم المصادر والمراجع .

المبحث الأول: زوجات النبي ﷺ وأسرار والحكمة في تعددهن

هذه الخصوصية قد خص بها القرآن الكريم الرسول الأعظم ﷺ، وورث فيها الكثير من الأحاديث الصحيحة واتفق عليها معظم علماء الحديث. فمن القرآن الكريم قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(١)

قال القرطبي: وقد اختلف الناس في تأويل قوله تعالى ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ فقيل إن المراد بها أن الله تعالى أحل له أن يتزوج كل امرأة يؤتيها مهرها، قال ابن زيد والضحاك، فعلى هذا تكون الآية مبيحة لكل النساء حاشا ذوات المحارم، وقيل إن المراد من الآية أي الكائنات عندك لأنهن اخترنك على الدنيا والآخرة، قاله الجمهور من العلماء، وهو الظاهر... ثم قال: والقول الأول اصح^(٢) وعلى كلا القولين فالآية تدل على إباحة الزواج بأكثر من أربع نسوة حكما خاصا بالنبي ﷺ دون غيره لان الرسول ﷺ قد جمع في عصمته أكثر من أربع نسوة ومات عن تسع. اما في السنة النبوية الشريفة فقد جاء عن انس بن مالك ان النبي ﷺ كان يطوف على نسائه في الليلة الواحدة وله يؤمئذ تسع نسوة^(٣)

وهذا الحديث يدلّ دلالة واضحة أن الرسول الأعظم ﷺ قد جمع تحته أكثر من أربع نسوة وهذا مما أبيح له بإجماع المسلمين .

وفي هذا يقول ابن حجر: وقد اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ

الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهما^(٤)

وان الحكمة من هذا الزواج هي متعددة

١. الزواج التعليمي: المقصود بها انتشار التعليم ولا سيما الأمور المتعلقة بالنساء كأحكام الحيض والنفاس والجنابة وما إلى ذلك من الأمور التي كان النبي ﷺ يستحي التصريح بها للنساء. ويقول ابن حجر عند حديثه عن الحكمة من استكثاره من النساء: ونقل الإحكام الشرعية التي لا يطلع عليها الرجال، لان أكثر ما يقع مع الزوجة مما شأنه أن يختفي مثله^(٥) أضف إلى ذلك شدة حيائه ﷺ إذ يقول أبو سعيد الخدري كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها^(٦)

لذا نجده يلجأ في أسلوبه إلى الكناية، وقد لا يتضح للمرأة مراده ويبرز هنا دور أمهات المؤمنين في توضيح ماستحي رسول الله ﷺ من التصريح به ومثال ذلك ماروته عائشة (إن امرأة سالت الرسول ﷺ عن غسلها من المحيض فأمرها كيف تغتسل قال خذي فرصه^(٧)

من مسك فتطهري بها قالت كيف أتطهر قال تطهري بها قالت كيف قال سبحان الله تطهري فاجتذبتها إليه فقلت تتبعي بها اثر الدم^(٨) في هذا الحديث الشريف إشارة واضحة إلى استحياء الرسول الأعظم ﷺ إذ لم يوضح للسائلة المكان التي توضع فيه القطنه فتولت عائشة تعليمها . كما أن النساء فطرن على الحياء وقليل منهن من تستطيع أن تتغلب على حيائها فتباشر النبي ﷺ بالسؤال عما يقع لها فعن أم سلمة أنها قالت ((جاءت أم سليم امرأة أبي طلحة إلى رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق هل على المرأة من غسل إذا هي احتملت فقال رسول الله ﷺ نعم إذا رأت الماء^(٩)

فأم سليم تغلبت على حياؤها وسألت رسول الله ﷺ عما أشكل عليها ولكن كثيراً من النساء قد يمتنعن الحياء من سؤال الرسول الأعظم ﷺ ولاشك أن سؤال المرأة للمرأة أخف حرجاً فيتعلم أمهات المؤمنين من النبي ﷺ ثم يقمن بالإجابة على مثل هذه الأسئلة فكن خير مبلغ في حياته وخير مرجع في الاستفتاء بعد وفاته ولهن الفضل الأكبر في نقل أخباره ولا سيما حياته الزوجية التي لا يمكن للصحابة نقلها وقد كانوا حريصين على نقل جميع ما يصدر عنه ﷺ لأنهم لم يطلعوا على حياته الزوجية. في الحقيقة إن زوجات الرسول الأعظم ﷺ قاموا بدور التبليغ عما كان يتصرف به الرسول ﷺ في أثناء الحياة الزوجية.

٢. الزواج التشريعي

١. إزالة العادات الجاهلية:

لقد تزوج النبي الأطهر ﷺ بزَيْنَب بنت جحش لضرورة اقتضتها مصلحة التشريع، إذ إنه ﷺ كان قد تبني زوجها زيد بن حارثة، إذ عاش في كنفه وتحت رعايته مذ كان صغيراً، وكان العرب يحرمون نكاح زوجة الابن بالتربية معتقدين بأن آثار التبني هي نفس آثار البنوة الحقيقية، فما يحلّ للابن بالزواج، يحرم على الأب المربي أن ينكح زوجته من بعده، كما أن المربي يرث من المربي ويعامل معاملة الابن الحقيقي... ولم يكن ثمة مجال لقلع هذا المفهوم الخاطئ إلا بالإقدام على عمل جبار يمحي تلك العادة السيئة والتقنين الباطل الذي سنّته الجاهلية يوم ذاك، فكان لا بدّ من إقدامه على الزواج من زوجة ابنه بالتبني إذ إنه الوسيلة الفضلى لقلع هذا المفهوم الباطل من أذهانهم، وهكذا كانت المشيئة الإلهية أن يأمر الله تعالى بأن تتزوج زينب من زيد الكارهة له هي وأخوها عبد الله، ثم بعد الزواج المكره، تطلق منه ويتزوجها النبي ﷺ لا لرغبة جنسية بل لإزالة

العادة الخبيثة التي كانت رائجة في ذاك العصر^(١٠)

٢. زيادة في الابتلاء والتكليف

يقول ابن الملقن عند حديثه عن أقوال العلماء في تحييب النساء إليه :
انه زيادة في الابتلاء والتكليف حتى لا يلهو بها حبب إليه من النساء عما
كلف به من أداء الرسالة ولا يعجز عن تحمل إقبال النبوة فيكون ذلك
أكثر لمشاققة وأعظم لأجره^(١١)

ويقول القاضي عياض عند حديثه عن فضيلة كثرة الجماع: ثم هي في
حق من اقدر عليها وملكها وقام بالواجب فيها ولم يشغله عن ربه درجة
عليها وهي درجة نبينا ﷺ الذي لم يشغله كثرتن عن عبادة ربه^(١٢)
٣. نفي مآذنه بعض المشركين من انه ساحر. قاله ابن حجر^(١٣)

٣. الزواج السياسي

وذلك بكسب التأييد إذ جذب إليه كبار القبائل بمصاهرة بل دخولهم
في دين الإسلام عن طوعية واختيار، وبذلك تكثر عشيرته من جهة نسائه
فيزداد أعوانه على من يحاربه^(١٤)

٤. الزواج الإنساني

إن بعض موارد ذلك الزواج كانت دوافعه إنسانية بحتة، انطلاقاً من
مصلحة الإسلام وليس من منطلقات فردية كبقية الناس - وإن كانت
منطلقاته كلها تصبُّ في خانة الإسلام والقربة لله تعالى - فقد تزوّج من
بعضهنّ الكبيرات في السنّ، فممنهنّ من أسلمت وهاجرت ثمّ توفي أو قتل
عنها زوجها ولا سبيل لها إلى الرجوع إلى أهلها المشركين لأنّها لا تستطيع
أن تقاوم ضغوطهم النفسيّة والماديّة عليها، فضلاً عن إمكانيّة تعرضها
للتعذيب الجسدي الوحشي فيما لو أرادت ان تحتفظ بدينها وعقيدها ولا
معيل ولا كفيل لها في المجتمع الجديد كما كان الحال بالنسبة إلى سودة بنت

زمنة التي كانت مسنةً ويزيد عمرها على الخمسين عاماً، وكذا الحال بالنسبة زينب بنت خزيمة التي ماتت بعد شهور من اقترانها بالنبي الأكرم عليه السلام... فضلاً عن أن ترمّلها وتأيّمها سيطلق الألسن والأهواء في حقّها وفي اتهامها، ويجعلها تتعرّض لضغوطٍ وحتّى إلى إغراءات، ربما لا تناسبها ولا تناسب موقعها ومصيرها في مجتمع غريب عنها... كل هذه العناصر السلبية أدّت إلى أن تستعين بالكافل والمعين، وخير كافل وحافظ ووليّ لها هو النبي الأعظم عليه السلام أو من يريده النبي عليه السلام من بعض المؤمنين الخيّرين، ومن هذا القبيل أيضاً كان زواجه بالطاهرة أم سلمة (رضي الله عنها). وخلاصة القول فقد حقق رسول الله عليه السلام مبدأ التكافل، وقد اتضح هذا جلياً بزواجه عليه السلام من الأرامل اللاتي لم يبق لهن سند ولا معين يكفلهن ويكفل أطفالهن اليتامى .

٥. الزواج التأليفي

لقد تزوّج النبي الأكرم عليه السلام ببعض النسوة تأليفاً وترغيباً للناس في الإسلام فقد روى المؤرخون أن زواج النبي الأعظم عليه السلام بجويرية بنت الحارث بعد أن أعتقها، نشأ عنه ترغيب المسلمين في عتق أسراهم، فقد أعتق المسلمون يوم ذاك مئتين من أسرى قومها تكريماً لها، وأسلم بعد هذه المصاهرة خلقٌ كثيرٌ من قومها... كما أن رملة بنت أبي سفيان التي أسلمت هي وزوجها في مكّة على الرغم من عداوة أبيها للإسلام وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة وتوفي فيها ولم يعد لها ملجأ غير أن ترجع إلى أبيها عدو النبي الأكرم عليه السلام، وإذا رجعت وأصرت على الإسلام فلا بدّ أن تتعرّض لأشدّ أنواع الأذى والتعذيب من أبيها وأتباعه... وفي بعض المرويات إن زوجها تنصر في الحبشة وتركها غريبة ليس لها معيل، فأرسل النبي الأعظم عليه السلام إلى النجاشي ملك الحبشة طالباً منه أن يزوجه منها لينقذها من الغربة وضياح القرين... ومن الجدير أن يقصد

النبيُّ الأطهر ﷺ من زواجه منها التأليف لأبيها أبي سفيان كما تألف غيره بالاتصال بهم بالمصاهرة، فكان زواجه من رملة عطفاً عليها وفي الوقت نفسه تأليفاً لأبيها وقومه.

٦. الزواج التربوي

ويتم ذلك بإعطاء القدوة الحسنة والمثل الكامل لكل الأزواج والزوجات، ويتضح ذلك عن طريق حسن معاشرته ﷺ لأزواجه فقد تزوج أم حبيبة وأبوها في ذلك الوقت عدوه، وصفيه وقد قتل أباهما وغيرهما فلو لم يطلعن من باطن أحواله على أنه أكمل الخلق لكانت الطباع البشرية تقتضي ميلهن إلى إبائهن وقرابتهن، وكانت كثرة النساء عنده بياناً لمعجزته وكماله باطناً كما عرفه الرجال منه ظاهراً ﷺ

المبحث الثاني الرد على المستشرقين في تعدد زوجات الرسول الأعظم ﷺ

يعتقد المستشرقون في تأييد أفكارهم المزعومة والباطلة أن النبي ﷺ كان رجلاً مكثراً ومفرطاً في الشهوة؛ لأن النبي ﷺ جمع بين أكثر من زوجة، وتوفي وعنده تسع زوجات، ويدَّعون بأن هذا لا يكون إلا من رجل كثير الملذات والنزوات، ويزعمون أنه منشغل كثيراً في حب النساء وحاشاه الرسول الأعظم ﷺ والواقع أن هذه شبهة ليس لها واقع وهي مجافية للحقيقة ولا تحتاج إلى كثير استدلال على إثبات بطلانها، إذ إننا لو تأملنا في معرفة هذه الزوجات وحياتهن وسيرتهن وكيف تزوجهن الرسول الأعظم ﷺ فإن هذه المعطيات سوف تدحض مزاعم المستشرقين ويبين تهافتها، ويؤكد سمو أخلاق النبي ﷺ وعظمة شخصيته.

تري ماذا يفعل الرجل صاحب الشهوة العالية لو كان في حال مثل حال رسول الله ﷺ لا شك في أنه سوف يسعى للاقتران بأجمل النساء العربيات وغير العربيات، ويخادن من يشاء من النساء من هنا أو هناك... فهل قام الرسول ﷺ بذلك؟

لنرى من تزوج ﷺ من النساء، وملابسات زواجهن، وذلك على النحو الآتي

زوجات النبي ﷺ والظروف التي رافقت زواجهن من الرسول ﷺ
لقد بنى رسول الله ﷺ بإحدى عشرة امرأة، مات في حياته منهن اثنتان؛ هما: السيدة خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة، وتوفي عن تسع؛ هن: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر بن الخطاب، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، وسودة بنت زمعة بن قيس، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث بن حزن، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وصفية بنت حيي بن أخطب، (رضي الله عنهن أجمعين) (١٥)

١. السيدة خديجة (عليها السلام)

كانت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها هي أول من تزوج رسول الله ﷺ وكانت ذات سمعة نظيفة، وسيرة حسنة في قومها «قال الزبير بن بكار: ((كانت خديجة تُدعى في الجاهلية الطاهرة))» (١٦)

وقد اختارت النبي ﷺ ليتزوجها، لما رأت من كرم أخلاقه، ونظافة يده، وطهارة قلبه، وأمانته، حينما طلبت منه أن يخرج إلى الشام متاجراً لها في مالها، وقبل النبي ﷺ الزواج منها، فأخذ عمه حمزة بن عبد المطلب، وقيل أبا طالب (عليهما السلام)، وخطبها إليه من أبيها خويلد بن أسد، وقيل أخيها عمر بن خويلد وكانت السيدة خديجة (عليها السلام) قد تزوجت قبل النبي ﷺ من

رجلين؛ أحدهما: أبو هالة بن زرارة التميمي، والآخر: عتيق بن عابد بن عمر بن عبد الله بن مخزوم..

كان عمر النبي ﷺ حين تزوجها ﷺ؛ خمساً وعشرين سنة، وكانت هي أسن منه بخمس عشرة سنة، ولم يتزوج ﷺ غيرها حتى توفيت ﷺ^(١٧)، فلو كان الرسول ﷺ رجل شهوة، وصاحب ميول جنسية مفرطة؛ هل كان يستهل حياته الزوجية والعاطفية بالاقتران بامرأة في سن الأربعين، سبق لها الزواج من غيره مرتين، وأنجبت في كليهما؟ ثم يجبس نفسه عليها قرابة خمس عشرة سنة، إلى أن يتوفاها الله، إذ جاء في بعض الروايات أنها «كان لها حين توفيت خمس وستون سنة»^(١٨)

٢- سودة بنت زمعة

وأما سودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس العامرية؛ فقد أسلمت قديماً وبايعت، وكانت عند ابن عم لها يقال له: السكران بن عمرو، وأسلم أيضاً، وهاجرا جميعاً إلى الحبشة في الهجرة الثانية ولما قدما مكة مات زوجها، وقيل مات بالحبشة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ فتزوجها، ودخل بها في مكة، وهاجر بها إلى المدينة^(١٩) وهي التي وهبت يومها لعائشة، رعاية لقلب رسول الله ﷺ، وكانت قد فركت^(٢٠)

فتأمل في زواج مثل هذه المرأة المسنة وهي أرملة، هل يكون إفراطاً في شهوة، أم يكون رعاية لها، وصيانة لها؟

٣. عائشة

وأما عائشة فقد خطبها النبي ﷺ بعد وفاة السيدة خديجة ﷺ، ولم يتزوج بكرةً غيرها، «وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهراً، وقيل بعامين، ودخل بها في شوال سنة اثنتين، منصرفه ﷺ من غزوة بدر وهي ابنة تسع»^(٢١)

٤. حفصة

حفصة بنت عمر؛ فقد تُوفي عنها زوجها خنيس بن حذافة السهمي، وكان من أصحاب النبي ﷺ، وتوفي بالمدينة، وقد عرضها أبوها عمر بن الخطاب على عثمان بن عفان للزواج فاعتذر، ثم على أبي بكر فصمت، ثم خطبها رسول الله ﷺ^(٢٢)، توثيقاً للصلة التي تربطه بأبيها عمر بن الخطاب، وليشرفه بمصاهرته كما شرف صديقه أبا بكر بذلك

٥. أم حبيبة

أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان؛ فإنها كانت أسلمت مع زوجها عبيد الله بن جحش، وهاجرا معاً إلى الحبشة، لكن زوجها أدركه الشقاء فتنصر، وفارق الإسلام، حتى هلك هناك نصرانياً
فأرسل النبي ﷺ في شأنها عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، فخطبها عليه، فزوجه إياها، وأصدقها من رسول الله ﷺ أربع مئة دينار^(٢٣)
فهل كان من المناسب أن يتركها النبي ﷺ تعود إلى أهلها، وكان أبوها يومئذ على الكفر وزعيماً في قومه - فيفتنوها عن دينها، ويكرهوها على الكفر، أو يؤذوها إيذاء لا قبل لها به، أم أن المناسب في تلك الظروف أن يصونها ويتزوجها؟

٦. أم سلمة

أما أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية؛ فكانت من المهاجرات الأوليات، وكانت قبل النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي الرجل الصالح^(٢٤)

ثم توفي عنها زوجها في سنة سبع من الهجرة متأثراً بجرح كان قد أصابه في أحد، وترك لها صبية أيتاماً في حجرها، فلما انقضت عدتها خطبها رسول الله ﷺ، فاعتذرت عن الموافقة بكبر سننها، وبأنها ذات صبية، وبأنها

شديدة الغيرة، فقال لها عليه الصلاة والسلام: «أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عز وجل، وأما العيال فيألي الله ورسوله»، فتزوجها (٢٥)

ثم إن في زواجه ﷺ منها إيجاداً لصلة مصاهرة، وفتحاً لسبيل من العلاقة بينه وبين أبي سفيان رئيس قريش وقتذاك، يمكن أن توظف لمصلحة الدعوة الإسلامية .

٧. زينب بنت جحش

وأما زينب بنت جحش فكان من أمر زواجها ما فصلنا في الصفحات السابقة، وأنه كان بأمر الله عز وجل وبوحي منه وذلك لحكم شرعية واجتماعية أرادها الله تعالى، فليُرجع إلى ما كُتب هناك

٨. زينب بنت خزيمة

وأما زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله الهلالية - وتدعى أم المساكين لكثرة معروفها ؛ فتزوجها رسول الله ﷺ بعد استشهاد زوجها عبد الله بن جحش يوم أحد، ثم إنها لم تمكث معه ﷺ إلا شهرين أو يزيد، وتوفيت بعد ذلك (٢٦)

٩ - ميمونة بنت الحارث

وأما ميمونة بنت الحارث الهلالية؛ فقد تزوجها أولاً مسعد بن عمر الثقفي قبيل الإسلام ثم فارقتها، وتزوجها بعد أبو رهم بن عبد العزى ثم مات، فتزوج بها النبي ﷺ في وقت فراغه من عمرة القضاء، وبنى بها سنة سبع، في ذي القعدة (٢٧)

١٠. جويرية بنت الحارث

وأما جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية؛ فكان زواج النبي ﷺ منها سبباً في فكائها، وفكاك أسرى قومها من العتق، إذ أعتقها النبي ﷺ، وتزوجها ليسن بهذا سنة حسنة للمسلمين في عتق من بأيديهم خاصة

السبايا، فكان زواجها من رسول الله ﷺ خيراً وبركة على قومها بني المصطلق، الذين كانوا يجمعون لحرب رسول الله ﷺ، بقيادة الحارث بن أبي ضرار والد جويرية، ولكن الله أظفر رسول الله ﷺ عليهم، وكان هذا سنة ست من الهجرة (٢٨)

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير، عن عائشة قالت: لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق؛ وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشساس، أو لابن عم له، فكاتبتة على نفسها، وكانت امرأة حلوة ملاحية لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأثت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: ما هو إلا أن رأيته على باب حجرتي، فكرهتها وعرفت أنه سيرى فيها ﷺ ما رأيته، فدخلت عليه، فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، وقعت في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له، فكاتبتة على نفسي، فجئت أستعينك على كتابتي، قال: «فهل لك في خير من ذلك»؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: «أقضي عنك كتابتك وأتزوجك»، قالت: نعم يا رسول الله. قال: قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ. وأرسلوا ما بأيديهم، قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مئة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها (٢٩)

وعن الشعبي قال: أعتق رسول الله ﷺ جويرية، واستنكحها وجعل صداقها عتق كل مملوك من بني المصطلق، وكانت من ملك اليمين، فأعتقها وتزوجها (٣٠)

وهكذا أكرمها رسول الله ﷺ بالزواج من غير إكراه، وصانها من الابتذال

ثم إن أباه جاء يطلبها، فخيرها رسول الله ﷺ بين البقاء معه والذهاب مع أبيها، ولكنها حفظت الجميل، وآثرت البقاء مع أكرم الناس ﷺ، والفوز بشرف أن تكون من أمهات المؤمنين.

«عن أبي قلابة قال: أتى والد جويرية، فقال: إن ابنتي لا يُسبى مثلها، فأنا أكرم من ذلك، فقال النبي ﷺ «أرأيت لو خيرناها؟ فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجل قد خيرك، فلا تفضحيننا، فقالت: فإنني قد اخترته، قال: قد والله فضحتنا» (٣١)

١١- صفية

وأما صفية بنت حيي بن أخطب؛ فقد كان من جملة السبايا في غزوة خيبر، سنة سبع من الهجرة، وكانت تزوجت قبله عليه الصلاة والسلام من رجلين، ثم إن النبي ﷺ أحسن إليها، فأعتقها وتزوجها وأكرم عشيرتها، وجعل عتقها صداقها (٣٢) وفي هذا من الرحمة والمعاملة الإنسانية الراقية ما لا يخفى

الحالة المعيشية في بيت النبوة

ونأتي بعد ذلك إلى أحوال المعيشة في بيت النبوة، من حيث رغد العيش وبسطته، أو عدم ذلك .

إن رجلاً في مكان رسول الله ﷺ ومكانته؛ خزائن الأموال وفضول الثروات تحت يده، ورهن إشارته، يمكن أن يعيش في ترف كبير ونعيم مقيم، يُمتع نفسه، ويغمر نساءه بمتاع الحياة الدنيا وزينتها، فيمتلئ بيته أو تمتلئ قصوره بما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين من صنوف الطعام، وناعم الفراش، وما لا يحصى من فاخر الثياب، وفاره المركب... إلى آخره.

فهل كان رسول الله ﷺ هكذا؟

إن النبي ﷺ كان يعيش في بيته عيشة الكفاف، وعاش معه زوجاته رضوان الله عليهن حياة خشنة قاسية، حتى إنهن لم يُطقن الصبر على تلك المعيشة الجافة، الخالية مما تطفح به بيوت الملوك والرؤساء، بل مما يكون عادة في بيوت العوام والبسطاء، فأعلن - في يوم من الأيام - عن ضيقهن بهذه المعيشة.

عن عروة بن الزبير، عن عائشة، قالت: كان يمر برسول الله ﷺ هلالٌ وهلال وهلال، ما يوقد في بيت من بيوته نار، قلت: يا خالة على أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين: التمر والماء^(٣٣)

وعن عروة بن الزبير، عن عائشة أنها قالت: والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ما رأى منخلاً، ولا أكل خبزاً منخولاً منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قبض، قلت: كيف تأكلون الشعير؟ قالت: كنا نقول أف^(٣٤)

وهذا الواقع كان يلاحظه من له صلة ببيت النبوة، ولم يكن خافياً على أحد، فعن أبي هريرة قال: «كان يمر بآل النبي ﷺ هلال ثم هلال، لا يوقد في شيء من بيوتهم النار، لا لخبز ولا لطبخ، فقالوا: بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة؟ قال: بالأسودين؛ التمر والماء، وكان لهم جيران من الأنصار - جزاهم الله خيراً - لهم منائح^(٣٥)، يرسون إليهم شيئاً من لبن»^(٣٦)

وعن عمر - من حديث طويل - قال: ... فدخلتُ على رسول الله ﷺ، وهو مضطجع على حصير، فجلست فأدنى عليه إزاره، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع، ومثلها قرظاً^(٣٧)

في ناحية الغرفة، وإذا أفيق^(٣٨) معلق.

قال: فابتدرت عيناى، قال: «ما يبكيك يا بن الخطاب؟» قلت: يا نبي

الله وما لي لا أبكي وهذه الحصار قد أثر في جنبك، وهذا خزانة لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الشار والأنهار، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته، وهذه خزانة، فقال: «يا بن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم في الدنيا؟ قلت: بلى» (٣٩)

كان النبي ﷺ في هذا العيش الخشن، الذي اكتنف بيوته، وأحاط بأزواجه، ولو شاء لتخلص منه، وعاش كما يعيش أبسط الناس نعمة، وأرغدهم عيشاً، ولكنه آثر أن يكون زاهداً في الدنيا، راغباً عنها، مكتفياً بالقليل منها، ليقينه بأن متاعها زائل، وأن الآخرة خير وأبقى.

عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ قال: «عرض علي ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً - وقال ثلاثاً أو نحو هذا - فإذا جُعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعْتُ شكرتك وحمدتك» (٤٠)

كان هذا واقع بيت النبوة من الناحية المادية، فتضجر زوجات النبي ﷺ من هذه المعيشة الخشنة، والحياة الزاهدة أشد ما يكون الزهد، والتي لم يعهدنها قبل زواجهن من رسول الله ﷺ، واتحدن في المطالبة بزيادة النفقة، وكانت أزمة عصية مرت ببيت النبوة، وزلزل المسلمون من أجلها زلزالاً شديداً، حتى انقضت بوحي من الله تعالى، واطمأنت النفوس إلى ما عند الله والدار الآخرة، وإيثار الأجر وكريم الجزاء من الله ذي الجلال والإكرام وهذه القصة مشهورة في كتب التفسير والسنة والسيرة، لا تخفى على المستشرقين الطاعنين الأفاكين، وهم يعلمون قبل كل أحد أنها تهم مزاعمهم، وتدحض مفترياتهم، ولذلك يتجاهلوها، وتتعمى أبصارهم عنها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ

وَرَسُولُهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤١﴾

قال ابن كثير: هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخبر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره، ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا وزينتها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهن عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترن رضي الله عنه وأرضاهن: الله والدار الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة (٤٢).

عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوساً ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر، ثم أقبل عمر فأستأذن، فأذن له، فوجد النبي ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما (٤٣) ساكتا، قال: لأقولن شيئا أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقة فقمتم إليها فوجأ (٤٤) عنقها، «فضحك رسول الله ﷺ»، وقال: هن حولي يسألنني النفقة، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده، ثم اعتزلن شهراً أو تسعا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ﴾ حتى بلغ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قال: فبدأ بعائشة، فقال: «يا عائشة إني أريد أن أعرض عليك أمرا أحب ألا تعجلي فيه حتى تستشيرني أبويك» قالت: وما هو يا رسول الله؟ فتلا عليها الآية، قالت: أفيك يا رسول الله أستشير أبوي؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة، وأسألك أن لا تخبر امرأة من نسائك بالذي قلت، قال: «لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يعثني معتتاً ولا متعتتاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً» (٤٥)

واختار سائر زوجاته الطاهرات الله ورسوله والدار الآخرة، فكان لهن من الله الكرامة في الدنيا والآخرة، رضي الله عنهن أجمعين.

فهل يمكن أن تكون هذه حياة أو مسلك إنسان منغمس في الشهوات المحرمة، غارق في أوحالها، منهمك في إشباعها؟؟ ثم إن ما أنجزه النبي ﷺ وشاده من أعمال ضخام، ومهام جسام يقطع بأن حياتهن ﷺ إن هي إلا حياة رجل جاد بعيد عن سفاف الأمور، ومعيب السلوك، ونازل الأخلاق

بل إن ما قام به ﷺ وأنجزه في سني حياته وعمره ما كان ليحدث إلا على يد إنسان رباني، مؤيد بمدد من الله وتوفيق منه، قوي الصلة بربه، قلبه مطمئن بالإيمان، وحياته مثل أعلى لكل خلق كريم وسلوك قويم، وصورة حية صادقة لما يدعو إليه، ويبلغه من وحي عن ربه الكريم العظيم.. ﷺ وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله.. وحسبك شهادة ربك لك، في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤٦)

سيرة الرسول الأعظم ﷺ في مهور أزواجه المبحث الثالث:

خصص الإسلام للمرأة دوراً مهماً وتعاليم سامية تعنى بتكريم المرأة وحمايتها والحفاظ على شرفها وكرامتها وفي الوقت نفسه تحميل الرجل الأعباء المالية كافة لأنه الطرف القوي وإعفاء المرأة من هذه الأعباء بشكل كامل باعتباره قليلة القوة وضعيفة الاحتمال وقد فرض على الرجل علاوة على ذلك مهراً يتقدم به إلى الفتاة أو المرأة التي ارتضاها شريكة لحياته وتشريفاً لقدرها وتأكيداً لرغبته فيها وحرصه عليها، قال تعالى ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ (٤٧)

ذكر الطبرسي في تفسير هذه الآية ﴿وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ معناه: وأعطوا النساء مهوراً من عطية من الله، وذلك أن الله تعالى جعل الاستمتاع مشتركاً بين الزوجين، ثم أوجب لها بإزاء الاستمتاع مهراً على زوجها فذلك عطية من الله للنساء وقيل: أراد بنحلة فريضة مسماة (٤٨)

وقال ابن كثير وليس ينبغي لاحد بعد النبي ﷺ أن ينكح امرأة الابصداق واجب^(٤٩)

إن من خطب امرأة قد ادعى رغبة في صحبتها فلا بد لدعواه من مصداق ، فجعل بذل المال دليلا على الصدق في المقال في دعوى البعال ولهذا جاز النكاح في حق الرسول ﷺ بلا صداق لان الصدق في مقاله ظاهر من غير مصداق إذا هو معصوم من الكذب والنفاق فلم يطلب منه مصداق آخر ، فمن تزوج من النساء بصداق كان ذلك منه صلة محضة من غير ان يكون ذلك مصداقا لخطبته^(٥٠) قال تعالى ﴿وَأَمْرًا مُّؤَمَّنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾^(٥١)

وهذه من الأحكام المتعلقة والخاصة بالنبي ﷺ إذ لم يكن دفع المهر واجبا في حقه ، وفي ضوء ذلك يوضح لنا الطريق السوي في الصدق ومقداره وتوجيه الأمه الاسلاميه على تسهيل وتيسير الزواج وتقليل الصدق فقال ﷺ (إِنَّ مِنْ يُمِنِ الْمَرْأَةِ تَيْسِيرَ خِطْبَتِهَا، وَتَيْسِيرَ صَدَاقِهَا، وَتَيْسِيرَ رَحِمِهَا)^(٥٢) لقد قدم النبي ﷺ قدوة بسلوكه العملي صورة من صور الالتزام بمسالة الصدق فما زاد صداق نساء النبي ﷺ على خمسمائة درهم عدا أم حبيبة (رضي الله عنها) فقد امهرها النجاشي أربعة آلاف درهم وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فقبل^(٥٣)

في حين سالت عائشة زوج النبي ﷺ كم كان صداق الرسول ﷺ ؟ قالت: كان صداقه لأزواجه اثنتي عشرة أوقية ونشا قالت أتدري ما النش قال قلت لا قالت نصف أوقية فتلك خمس مائة درهم فهذا صداق رسول الله ﷺ لأزواجه^(٥٤)

وعن ام حبيبه قالت : أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش فمات بأرض الحبشة فزوجها النجاشي النبي ﷺ وامهرها عنه أربعة آلاف وبعث بها

إلى رسول الله ﷺ مع شرحبيل ابن حسنه^(٥٥)
أي أرسلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة وكان ذلك سنة سبع
من الهجرة

بل ان رسول الله ﷺ جعل عتق صفيه صداقها، فعن انس ان رسول
الله ﷺ اعتق صفيه وجعل عتقها صداقها^(٥٦)

لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل واضحاً بالنسبة لزوجاته رضي الله عنهم
بالنسبة لقلة المهور في حين إن الناس في عصرنا الحالي يتجهون إلى المغالاة في المهور
واعتقدوا أن ذلك تشريف لنسائهم وتكريماً لفتياتهم وإعلاء لقدرهم ومكانتهم
وهذا في الواقع قد سبب ضرراً بسمعة المجتمع الإسلامي وأحدثت مفاصد في
العصر الحديث باتجاه الكثير من الظواهر المتعلقة بالمغالاة في المهور..

١. إعراض الكثير من الشباب عن الزواج نتيجة لارتفاع المهور
الباهضه وأعبائه التي لا تناسب مع إمكانية الشباب
٢. اتجاه الشباب بدافع عدم الإمكانية والقدرة على الزواج إلى بروز
ظاهرة التحرش بالنساء التي أصبحت ظاهرة بارزة في العصر الحديث
٣. ذبوع العلاقات غير الشرعية في المجتمع نتيجة لذلك
٤. اتجاه الفتيات للعمل كعوض لهن عن الزواج لتوفير احتياجاتهن في
أمور الحياة

المبحث الرابع: سيرة الرسول الأعظم ﷺ في وليمة العرس في زواجه
الوليمة: هي طعام العرس والأملاك، وقيل: هي كل طعام صنع
لعرس وغيره^(٥٧)

قال صاحب المغني: لا خلاف بين أهل العلم في أن الوليمة سنة في
العرس مشروعة لما روي أن النبي ﷺ رأى على عبد الرحمن بن عوف
أثر صفرة قال ماهذا قال إني تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب قال

بارك الله لك أولم ولو بشاة^(٥٨).

ومن المعلوم ان نواة من ذهب وهي وزنُ ثلاثة دراهم وثلاث، فأمره صلى الله عليه وآله وسلم بعمل وليمة ولو بشاة، والوليمة: هي الطَّعام الَّذِي يُصْنَعُ في العرس، والوليمة بالشَّاةِ أو أكبرَ منها لَمَن قَدَرَ عليها، وهي وزنُ ثلاثة دراهم وثلاث، فأمره صلى الله عليه وسلم بعمل وليمة ان الغاية من الوليمة هو شكر الله على نعمة الزواج والتقرب إليه بجمع أهل التقوى التماساً لأجر إطعامهم وطلباً لدعائهم ولذلك كانت المبلغة فيها والتكلف فيها يتعارض مع الغايات والأهداف السامية التي يجب أن يكون العمل لوجه الله تعالى وحده لا شريك له .

لقد كانت سيرة الرسول الأعظم ﷺ خير ما يهتدي به في كيفية الوليمة، فقد أولم مرة على تمر وسويق وأخرى على خبر ولحم وثالثة كانت وليمته من الشعير.

قالت صفية بنت شيبة : أولم النبي ﷺ على بعض نسائه بمدين (من شعير ، أما من أولم عليها بخبز ولحم فإنها زينب بنت جحش رضي الله^(٥٩) عنها فعن انس بن مالك رضي الله عنه قال : ما أولم النبي ﷺ على شيء من نسائه ما أولم على زينب أولم بشاة^(٦٠) وقال أيضا نزلت آية الحجاب في زينب بنت جحش واطعم عليها يومئذ خبزاً ولحماً وكانت تفخر على نساء النبي وكانت تقول : ان الله انكحني في السماء^(٦١) وروى انس بن مالك رضي الله عنه إن الرسول ﷺ اطعم صبيحة عرسه بزينب حيساً أهده له أم سليم ، ونص الحديث عند البخاري قال : كان النبي ﷺ عروساً بزينب فقالت لي أم سليم لو اهدينا لرسول الله ﷺ هدية فقلت لها افعلي فعمدت إلى تمر وسمن وأقط فاتخذت حيسة في برمة فأرسلت بها معي إليه فانطلقت بها إليه فقال لي ضعها ثم أمرني فقال ادع لي رجالاً ساهم وادع لي من لقيت قال ففعلت الذي أمرني فرجعت فإذا البيت غاص بأهله

فرايت النبي ﷺ وضع يديه على تلك الحيسة وتكلم بها ماشاء الله ثم جعل يدعو عشرة عشرة يأكلون منه ويقول لهم اذكروا اسم الله وليأكل كل رجل مما يليه قال حتى تصدعوا كلهم عنها^(٦٢)

فقد تم في هذا الحديث ان الرسول ﷺ قد دعا الناس في يوم عرسه إذ ان الوليمة كانت عبارة عن حيسا اهدته له ام سليم، وقد روى لنا انس بن مالك حديثا فيه ان الرسول ﷺ دعا الناس الى وليمة وكانت تلك الوليمة تتكون من خبز ولحم فعنه انه قال: بني على النبي ﷺ بزيب بنت جحش بخبز ولحم فأرسلت على الطعام داعيا فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون ثم يجيء قوم فيأكلون فدعوت حتى ما أجد احد ادعو فقلت يا نبي الله ما أجد أحدا ادعوه فقال ارفعوا طعامكم^(٦٣) وقد قال ابن حجر في تعليقه على الروايتين السابقتين: إن حضور الحيسة صادم حضور الخبز واللحم فأكلوا كلهم من ذلك. وقد علق على آية التكاثر الطعام بين يدي رسول الله ﷺ إذ قال: وما لذي يكون قدر الشاة حتى يشبع المسلمون كلهم وهم يومئذ نحو الإلف لولا البركة التي حصلت من جملة آياته ﷺ في تكثير الطعام^(٦٤) إما من أولم عليها بتمر وسويق فإنها صافية بنت حيي، فعن انس بن مالك قال: ان النبي ﷺ أولم على صافية بسويق وتمر^(٦٥)

وعنه قال عن وليمة صافية: أقام النبي ﷺ بين خيبر والمدينة ثلاثا بيني عليه^(٦٦) بصافية بنت حيي فدعوت المسلمين إلى وليمته فما كان فيها خبز ولا لحم أمر بالأنطاع^(٦٧) فألقى فيها من التمر والاقط^(٦٨) والسمن فكانت وليمته^(٦٩) ولا مخالفة بين الروايات لان كل ما ذكر من أجزاء الحيس، قال أهل اللغة: والحيس: التمر البرني^(٧٠). والاقط، يدقان ويعجنان بالسمن عجنا شديدا حتى يندر النوى منه نواة نواة ثم يسوى كالشريد^(٧١).

وفي ضوء ما سرده من أحاديث نبوية تتعلق في سيرة الرسول الأعظم عليه السلام في ولائمه يمكن أن نستخرج الكثير من الآداب والمعاني الكريمة في هذا الموضوع

١. إن تكون الوليمة بعيداً عن التكلف والمبالغة في الإسراف والتبذير ويكون ذلك وفق إمكانية الزوج وقدرته على الإنفاق ونسترشد في قوله تعالى ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (٧٢)

ويقدم لنا الرسول الأعظم عليه السلام صورة فعلية فكما انه أولم على زينب بشاة أولم على صفية بمدين (٧٣) من الشعر

٢. ان تكون الدعوة عامة لكل المسلمين الفقراء منهم والأغنياء وهذا ما فعله الرسول الأعظم عليه السلام إذ قال لانس حين إرساله يدعو الناس لوليمته: اذهب فادع لي من لقيت من المسلمين .

٣. ومن موقف أم سليم يظهر استحباب تعاون الأهل والجيران والإخوان مع العريس في تحمل بعض نفقات عن العريس عن طريق الهدايا والهبات (٧٤)

الختامة

١. إن البحث أوضح أن الرسول الأعظم ﷺ قد جمع تحته أكثر من أربع نسوة وهذا مما أبيح له بإجماع المسلمين، وقد اتفق العلماء على أن من خصائصه ﷺ الزيادة على أربع نسوة يجمع بينهن .

٢. ان الحكمة من هذا الزواج المتعدد هي أهداف متعددة منها تعليمي وتشريعي وسياسي وإنساني وتربوي

٣. يعتقد المستشرقون في أفكارهم المزعومة والباطلة بأن النبي ﷺ كان رجلاً مكثراً ومفرطاً في الشهوة وهذه شبهة ليس لها واقع وهي مجافية للحقيقة وباطلة ، إذ إننا لو تأملنا في معرفة هذه الزوجات وحياتهن وكيف تزوجهن الرسول الأعظم ﷺ فان هذه المعطيات سوف تدحض مزاعم المستشرقين ويبين تهافتها، ويؤكد سمو أخلاق النبي ﷺ وعظمة شخصيته.

٤. في ضوء سيرة الرسول ، توجيه الامة الاسلامية على تسهيل وتيسير الزواج وتقليل الصداق

٥. فيما يتعلق بوليمة الرسول ﷺ في زواجه كانت بسيطة وبعيدة عن التكلف والمبالغة في الإسراف.

التوصيات

١. يزعم المستشرقون بأن النبي ﷺ كان رجلاً مكثراً ومفرطاً في الشهوة؛ ويزعمون أنه منشغل كثيراً في حب النساء. وحاشاه الرسول الأعظم ﷺ إن هذه الادعاءات الباطلة قد حفزت المؤرخين العرب المسلمين بشتى مذاهبهم للدفاع والرد على مزاعم المستشرقين بأسلوب علمي يظهر الرسول الأعظم ﷺ بأبهى صورة لأنه رسول البشرية جمعاء .
٢. لقد ضرب رسول الله ﷺ المثل واضحا بالنسبة لزوجاته رضي الله عنهم بالنسبة لقلّة المهور والابتعاد عن المغالات في المهور
٣. لقد ارشدنا الرسول الأعظم ﷺ في سيرته العطرة حول الوليمة أن تكون وليمة العرس بعيد عن التكلف والمبالغة في الإسراف والتبذير وأن تكون الدعوة عامة لكل المسلمين الفقراء منهم والأغنياء واستحباب تعاون الأهل والجيران والإخوان مع العريس في تحمل بعض نفقات عن العريس.

هوامش البحث

- ١- سورة الأحزاب ، الآية، ٥٠
- ٢- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت: ٦٧١هـ) جامع لأحكام القرآن تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية الطبعة: الثانية (القاهرة ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م) ج١٤، ص٢٠٦-٢٠٧
- ٣- البخاري، صحيح البخاري، ج٦، ص٤٨٥
- ٤- ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، تحقيق عبد العزيز بن عبد الله، دار المعرفة (بيروت ، د.ت) ج٩، ص١١٤
- ٥- ابن حجر، فتح الباري ، ج٩، ص١١٥
- ٦- البخاري، صحيح البخاري، ج٧، ص١٣٠
- ٧- فرصه يعني قطنه
- ٨- البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص١٠١
- ٩- البخاري، صحيح البخاري، ج١، ص٩٣
- ١٠- القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، دار الكتب العلمية ، (بيروت ، د.ت) ج١، ص٨٨
- ١١- الإمام أبو حفص عمر بن علي الأنصاري، غاية السؤال في خصائص الرسول، تحقيق عبد الله ، دار البشائر، ط١ (بيروت، ١٤١٤هـ) ص١٩٠
- ١٢- القاضي عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ، ج١، ص٨٩
- ١٣- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل ، فتح الباري شرح صحيح البخاري ، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب الناشر: دار المعرفة (بيروت ، ١٣٧٩هـ) ج٩، ص١١٥
- ١٤- ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٩، ص١١٥
- ١٥- ابن هشام ، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، (المتوفى: ٢١٣هـ) السيرة النبوية :تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة: الثانية (مصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م) ج٢، ص٦٤٣ - ٦٨٤.؛ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، (القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م) ج١٤، ص١١٤؛ الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد (المتوفى: ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء ، تحقيق مجموعة

- من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثالثة، (بيروت، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ج ٢، ص ١٠٩-١٣٥ وما بعدها: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت، ٧٧١ هـ) البداية والنهاية تحقيق د/ أحمد أبو ملجم وآخرين، دار الريان، ط ١ الأولى (الفاخرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م) ج ٢، ص ١٠٩
- ١٦-الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١١.
- ١٧-ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٦٤٣-٦٤٤؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ١١١؛ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ٧٨
- ١٨-القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١٠٧
- ١٩-القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١٠٨
- ٢٠-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٦٦ معنى فركت أي قل ميلها للرجال، بسبب كبر سنها
- ٢١-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٦٦ معنى فركت أي قل ميلها للرجال، بسبب كبر سنها
- ٢٢-يراجع تفصيل القصة في صحيح البخاري ك النكاح، ب عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير ج ٦ ص ١٣٠؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٢٨
- ٢٣-ابن هشام، السيرة النبوية، ج ١، ص ٢٢٣-٢٢٤
- ٢٤-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٠١، ٢٠٢، ٢٢٤
- ٢٥-ابن حنبل أحمد بن أسد الشيباني، (المتوفى: ٢٤١ هـ) مسند أحمد تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري الناشر: عالم الكتب الطبعة: الأولى (بيروت ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م) ج ٧، ص ٤٣٤ - ٤٣٥؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤، ص ٩٢ - ٩٣
- ٢٦-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢١٨؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٥، ص ٢٥٧
- ٢٧-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢١٨-٢٣٩
- ٢٨-ابن هشام، السيرة النبوية ج ٢، ص ٢٨٩ - ٢٩٠
- ٢٩-ابن هشام، السيرة النبوية ج ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥
- ٣٠-ابن هشام، السيرة النبوية ج ٢، ص ٢٦٢
- ٣١-الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٢٦٣
- ٣٢-ابن هشام، السيرة النبوية، ج ٢، ص ٣٣٦؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج ٢، ص ٣٣٦؛ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٤، ص ١٩٧
- ٣٣-رواه أحمد في المسند، ج ٧، ص ١٢٦

- ٣٤- رواه أحمد في المسند، ج٧، ص١٥٠ والمنخل: الغربال بضم الميم والخاء، والخبز المنخول: المغرب
- والمنخل: الغربال بضم الميم والخاء، والخبز المنخول: المغرب
- ٣٥- منحة اللبن: أن يعطيه ناقة أو شاة، يتنفع بلبنها ويعيدها، ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، ج٤، ص٣٦٤
- ٣٦- رواه أحمد في المسند، ج٣، ص١٢٣
- ٣٧- القرظ: ورق السلم يدبغ به، وقيل: قشر البلوط، الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد (المتوفى: ٦٦٦ هـ) مختار الصحاح تحقيق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا الطبعة: الخامسة، (بيروت، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م)، ص ٢٢٢
- ٣٨- الأفيق: الجلد الذي لم يتم دباغه، وجمعه أفق، كأديم وأدم، النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦ هـ) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، (بيروت، ١٣٩٢)، ج١٠، ص٨٣
- ٣٩- شرح النووي، ج١٠، ص٨٣
- ٤٠- رواه أحمد في المسند، ج٦، ص٣٣٩
- ٤١- سورة الأحزاب، الآية: ٢٨-٢٩
- ٤٢- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (المتوفى: ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون (بيروت، ١٤١٩ هـ - ١٤١٩ م)، ج٣، ص٤٩٦
- ٤٣- واجماً: أي اشتد حزنه حتى سكت عن الكلام، شرح النووي، ج١٠، ص٨١
- ٤٤- وجأ يجأ: إذا طعن، شرح النووي، ج١٠، ص٢٨
- ٤٥- رواه مسلم في ك الطلاق ب بيان أن تخيره امرأته لا يكون طلاقاً إلا بالنية، شرح النووي، ج١٠، ص٨٠ - ٨١ ورواه، أحمد في المسند ج٤، ص٢٧٧
- ٤٦- سورة القلم، الآية ٤
- ٤٧- سورة النساء، الآية، ٤
- ٤٨- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت، ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م) تفسير مجمع البيان، دار المرتضى (بيروت، ٢٠٠٦ م)، ج٣، ص ١٥-١٦
- ٤٩- ابن كثير، ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر (المتوفى: ٧٧٤ هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي

- بيضون (بيروت، ١٤١٩هـ) ج ١، ص ٣٥٧
- ٥٠- حسين محمد يوسف آداب العقد والزفاف في الإسلام، دار الاعتصام، (مصر، ١٩٩٧ ص ٢٠)
- ٥١- سورة الأحزاب، الآية، ٥٠
- ٥٢- الحاكم النيسابوري أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت، ٤٥٠هـ)، المستدرک تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن دار بيروت، دت، ج ٢، ص ١٨١
- ٥٣- السعيد، صلاح الدين محمود، زوجات النبي، دار البنيان (مصر، د. ت) ص ٢٦٥
- ٥٤- مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: ٢٦١هـ) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي (بيروت، د. ت) ج ٢، ص ١٠٤٢ مسلم
- ٥٥- أبو داود سليمان بن الأشعث (ت، ٢٧٥هـ) سنن أبو داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، (بيروت، د. ت) ج ٢، ص ٢١٩
- ٥٦- البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى (مصر، ١٤٢٢هـ) ج ٦، ص ٤٣٦
- ٥٧- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب، الناشر: دار صادر الطبعة: الثالثة (بيروت، ١٤١٤هـ) ج ١٢، ص ٣٤٦
- ٥٨- ابن قدامة المقدسي أبو محمد موفق الدين عبد الله (المتوفى: ٦٢٠هـ) المغني، الناشر: مكتبة (القاهرة، د. ت) ج ٨، ص ١٠٥
- ٥٩- اختلف العلماء لمعرفة مقدار المد كم كيلو، المذهب الشافعية والحنابلة قالوا إن المد الواحد يساوي ٥٠٨، ٦ جرام، أما مذهب الحنفية قال إن المد يساوي ١٠٧٢ جرام، ومذهب المالكية قال إن المد يساوي ٥٠٦، ٥ جرام. <https://wiki.arab-box.com>
- ٦٠- البخاري، صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٧٠؛ النيسابوري، صحيح مسلم، ج ٢، ص ٧٨
- ٦١- البخاري، صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٧٠
- ٦٢- البخاري، صحيح البخاري، ج ٦، ص ٤٦٧
- ٦٣- البخاري، صحيح البخاري، ج ٦، ص ٣٢٥: ٢٦١هـ
- ٦٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، الناشر: دار

المعرفة (بيروت، ١٣٧٩هـ) ج٩، ص٢٢٧

٦٥- أبو داود، سنن أبو داود، ج٣، ص٣٤١

٦٦- يبنى : البناء : الدخول بالزوجة

٦٧- بالأنطاع : الأنطاع : جمع نطع ، وهو بساط من الجلد، ويطلق أيضا على الوعاء والخوان أو المائدة

٦٨- والاقط : الأقط : يتخذ من اللبن يطبخ حتى يجف الفيومي ، احمد بن محمد بن علي ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير اعتنى فيها يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية ، (بيروت ، د.ت)، ص١٧

٦٩- البخاري، صحيح البخاري ، ج٦، ص٤٤٦

٧٠- نوع من أجود أنواع التمر، الفيومي ، المصباح المنير ، ص٤٥

٧١- ابن منظور، لسان العرب ، ج٦، ص٦١

٧٢- سورة الطلاق ، الآية ٧

٧٣- لمد هو كيل وهو رطل وثلاث عند أهل الحجاز ، الفيومي ، المصباح المنير ، ص٥٦٦

٧٤- حسين محمد يوسف ، آداب العقد والزفاف في الإسلام ، ص١٠٨-١١٢

المصادر والمراجع

القران الكريم

* ابن الأثير مجد الدين ابن عبد الكريم الشيباني (المتوفى: ٦٠٦هـ) النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار الفكر، (بيروت ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م).

* البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، صحيح البخاري خخ تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة: الأولى (مصر، ١٤٢٢هـ)

* البخاري، صحيح الأدب المفرد، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع الطبعة: الرابعة، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م،

* الحاكم النيسابوري ابو عبد الله محمد بن عبد الله (ت، ٤٥٠هـ)، المستدرک تحقيق: إشراف: يوسف عبد الرحمن (بيروت، دت)

* ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب الناشر: دار المعرفة (بيروت، ١٣٧٩هـ)

* حسين محمد يوسف آداب العقد

والزفاف في الإسلام، دار الاعتصام، (مصر، ١٩٩٧)

* أبو حفص عمر بن علي الأنصاري، غاية السؤال في خصائص الرسول ﷺ تحقيق عبد الله، دار البشائر، ط ١ (بيروت، ١٤١٤هـ).

* ابن حنبل أحمد أبو عبد الله بن هلال بن أسد الشيباني، (المتوفى: ٢٤١هـ) مسند أحمد

تحقيق: السيد أبو المعاطي النوري الناشر: عالم الكتب الطبعة: الأولى (بيروت ١٤١٩هـ / ١٩٩٨ م).

* أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ) سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد الناشر: المكتبة العصرية، صيدا (بيروت، دت)

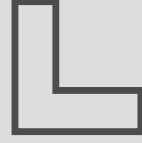
* الذهبي: شمس الدين أبو عبد الله محمد (المتوفى: ٧٤٨هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الثالثة، (بيروت ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)

* الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد (المتوفى: ٦٦٦هـ) مختار الصحاح تحقيق: يوسف الشيخ محمد الناشر: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا الطبعة: الخامسة، (بيروت، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩م)

* السعيد، صلاح الدين محمود، زوجات

- النبى، دار البنيان (مصر، د. ت)
- * الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت، ٥٤٨هـ / ١١٥٣م) تفسير مجمع البيان، دار المرتضى (بيروت، ٢٠٠٦م)
- * عياض، أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض (ت، ٥٤٤هـ / ١١٤٩م). الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، دار الكتب العلمية، (بيروت، د. ت)
- * الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير اعتنى فيها يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، (بيروت، د. ت)،
- * القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن (المتوفى: ٦٧١هـ) تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر: دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية، (القاهرة ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤ م)
- * ابن قدامة المقدسي أبو محمد موفق الدين عبد الله (المتوفى: ٦٢٠هـ) المغني، (القاهرة، د. ت)
- * ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت، ٧٧٤هـ) البداية والنهاية: تحقيق أحمد أبو ملجم وآخرين، دار الريان، ط ١ الأولى (القاهرة ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م)
- * ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (المتوفى: ٧٧٤هـ) تفسير القرآن العظيم، تحقيق، محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بوضون (بيروت، ١٤١٩هـ)
- * مسلم بن الحجاج النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي (بيروت، د. ت)
- * ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب، الناشر: دار صادر الطبعة: الثالثة (بيروت، ١٤١٤ هـ)
- * النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (المتوفى: ٦٧٦هـ) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، الناشر: دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الثانية، (بيروت، ١٣٩٢)
- * ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، (المتوفى: ٢١٣هـ) السيرة النبوية: تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده الطبعة: الثانية (مصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥ م)
- الموقع الالكتروني <https://wiki.arab-box.com>





المعرفة التاريخية للسيرة النبوية الشريفة وتحديات العصر - قراءة في جدلية الفكر الإنساني-

أ.م. د. علاء حسن مردان اللامي
كلية الإمام الكاظم عليه السلام للعلوم الإسلامية الجامعة / أقسام
البصرة/ العراق



Historical knowledge of the Prophet's biography and the challenges of the age -Reading in the dialectic of human thought-

Prof. Dr. Alaa Hassan Mardan Al-Lami
Imam Al-Kadhim (p-b-u-h) College of Islamic
Sciences University
Departments of Basra/Iraq

الملخص

الملاحظ على السيرة النبوية التنوع في عرض الأحداث التاريخية في كتب التفسير وعلى اختلافها، وهذا الأمر راجع إلى العمق الثقافي والفكري للمفسر أولاً، وعصره ثانياً، ومعتقداته ثالثاً، إذ تجتمع هذه المؤثرات لتسهم في قراءة نصوص القرآن الكريم، ومن ثم تكون أسيرة المفسر نفسه، إذ ليس بمقدوره الخلاص من تلك التبعية طالما هو يؤمن بقدرتها على فك رموز الآيات القرآنية، ومعالجة وقائع السيرة النبوية، ومن ثم ساد نوع من الفكر الإسلامي على أنه واقع حال النبي ﷺ وحياته المعتادة بالإضافة إلى ما رافقها من تحديات وتغيرات نابعة من الرسالة الملقاة على عاتقه في تبليغها للعالم أجمع.

إن المعرفة التاريخية للسيرة النبوية تأثرت بمتغيرات سياسية وفكرية نتج عنها معترك لما هو مروي في كتب التراث الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، حتى وقت متأخر من كتابة التاريخ الإسلامي وتدوينه في حدود القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي، لتتشكل الصورة الأكثر شهرة للسيرة النبوية بغض النظر عن مصداق ذلك المشهور من الروايات التاريخية التي تحاكي عصر النبوة بشكل عام والسيرة النبوية بشكل خاص، والأهم في هذا الكم الهائل من المدونات والمصنفات التاريخية التي تعرضت لأخبار السيرة النبوية فقد بنيت على تصورات الصحابة على اعتبار أنهم عاصروا النبي محمد ﷺ وتمكنوا من معرفة تفاصيل حياته الخاصة والعامة على حد سواء، فراحوا يحدثون الناس بتلك المعارف، وبمرور الزمن أصبحت مروياتهم هي الأساس في كتابة التاريخ، لتتشكل الروايات الرسمية لتاريخ السيرة النبوية في حدود معارف الصحابة وواقع أفكارهم السيرية، وهذا التشكيل أصبح نقطة

جدل مثير في الفكر الإنساني بين معطى الحقيقة أو نفيها من الأساس وتكوين تصورات تخرج في بعض الأحيان عن ضابطة البحث والتحري عن الحقيقة لتسقط في منزلق العاطفة والميول الذي يؤدي إلى اتساع فوهة الاختلاف بشأن التثبت من صحة الأخبار الواردة بشأن حدث تاريخي معين.

ويقسم البحث على ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: أصل المعرفة التاريخية للسيرة النبوية - الصحابة أنموذجاً.

المحور الثاني: التحدي المعرفي للسيرة النبوية.

المحور الثالث: الروايات التاريخية وأثرها في تشويه أخبار السيرة النبوية.

ويعتمد البحث على مجموعة من المصادر الأولية والمراجع بالإضافة إلى بعض المقالات المنشورة في مواقع الشبكة العنكبوتية، ومن الله التوفيق.

Abstract

It is noticeable on the Prophetic biography of the diversity in the presentation of historical events in the books of interpretation and their different, and this matter is due to the cultural and intellectual depth of the interpreter first, his age second, and his belief third, as these influences combine to contribute to reading the texts of the Holy Qur'an, and then be captive to the interpreter himself, as He cannot escape from this dependency as long as he believes in its ability to decipher the Qur'anic verses, and address the facts of the Prophet's biography. Consequently, a kind of Islamic thought prevailed as the reality of the Prophet's (PBUH) condition and his usual life, in addition to the challenges and changes that accompanied it stemming from the message entrusted to him. In conveying it to the whole world.

The historical knowledge of the Prophet's biography was affected by political and intellectual changes that resulted in a battle for what is narrated in the books of Islamic heritage since the second century AH / eighth century AD, until the late writing and codification of Islamic history within the eleventh century AH / seventeenth century AD, to form the most famous picture The biography of the Prophet, regardless of the credibility of that famous historical narrations that simulate the era of prophecy in general and the biography of the Prophet in particular, and the most important thing in this huge amount of historical blogs and works that have been exposed to the news of the prophetic biography is that it was built on the perceptions of the companions on the grounds that they were contemporary to the Prophet Muhammad (peace be upon him). And they were able to know the details of his private and public life alike, so they started telling people about that knowledge, and

with the passage of time their narrations became the basis for writing history, so that the official narrations of the history of the Prophet's biography were formed within the limits of the companions' knowledge and the reality of their Siri ideas, and this formation became a point of controversy Exciting in human thought between giving the truth or denying it from the ground up, and the formation of perceptions that sometimes deviate from the discipline of searching and investigating the truth, so that they fall into the slippery slope of the truth. An emotion and inclination that leads to widening the mouth of disagreement regarding the authenticity of news received about a particular historical event.

The research will be divided into three axes:

The first axis: the origin of historical knowledge of the Prophet's biography of the Companions as a model.

The second axis: the cognitive challenge of the Prophet's biography.

The third axis: historical narratives and their impact on distorting the news of the Prophet's biography.

The research is based on a set of primary sources and references, in addition to some articles published on the Internet, and God grants success.

المقدمة:

الملاحظ على السيرة النبوية التنوع في عرض الأحداث التاريخية في كتب التفسير وعلى اختلافها، وهذا الأمر راجع إلى العمق الثقافي والفكري للمفسر أولاً، وعصره ثانياً، ومعتقداته ثالثاً، إذ تجتمع هذه المؤثرات لتسهم في قراءة نصوص القرآن الكريم، ومن ثم تكون أسيرة المفسر نفسه، إذ ليس بمقدوره الخلاص من تلك التبعية طالما هو يؤمن بقدرتها على فك رموز الآيات القرآنية، ومعالجة وقائع السيرة النبوية، ومن ثم ساد نوع من الفكر الإسلامي على أنه واقع حال النبي ﷺ وحياته المعتادة بالإضافة إلى ما رافقها من تحديات وتغيرات نابعة من الرسالة الملقاة على عاتقه في تبليغها للعالم أجمع.

فهل من المستطاع قراءة مسار السيرة النبوية بالاكتفاء بنصوص القرآن الكريم وحسب؟ أم ان ذلك يصعب تحقيقه؟ على اعتبار أن القرآن الكريم لم يتعرض لجزئيات السيرة وبصورة تامة، إنما أعطى فكرة عامة في بعض الآيات الشريفة، فضلاً عن أن الآيات جاءت لتشمل النبوة بصورتها العامة دون أن تختص بنبوة محمد ﷺ، ومن هذا السياق تكون هناك نقص في الأفكار لا يمكن ملؤه إلا بالتحليل أو الملاحظة لعصر النبوة.

فبالنسبة للقراءة الأولية التي قدمها أهل التفسير فهي متفاوتة في قراءتها أو تفسيرها للنص القرآني الذي يخص السيرة النبوية، إذ بعض التفاسير غلب عليها طابع الأثر والتأثر بمن نقل الأخبار بادئ ذي بدء، ونقصد هنا الصحابة والتابعين، فهؤلاء هم مادة التفسير والتشريع الإسلامي، وبالتالي نحن أمام موروث حضاري وثقافي ضخم ومتنوع بمصادره وأفكاره، إذ ليس بمقدورنا اليوم اعتماد فكرة دون سواها أو مفسر على غيره، والأكثر جدلية في هذا الشأن، المدارس الإسلامية التي تتبنى آراء

شتى على أنها الأصوب فيما يخص النبي محمد ﷺ، وبالنتيجة كيف يتمكن الباحث أو أي جهة مهتمة بالسيرة النبوية من التوفيق في قراءة أحداث السيرة النبوية في حدود ما هو مشهور بين المدارس الإسلامية، ففي حدود البيئة الثقافية لهذه المدارس صراع أزلي مستمر في فهم مسار النبوة، فإذا ما اعتمدوا التفسير والمفسرين ذهبوا إلى اعتماد مذهب على آخر، فبينما سياسة السلطة الحاكمة للدولة الأموية والعباسية تبنت وشجعت أفكاراً مذهبية على أنها الأصوب في فهم النصوص القرآنية والتشريع، بالمقابل نظرت إلى مدرسة الشيعة والمعتزلة وبعض المدارس الأخرى نظرة ريب وشك من أفكارها وثقافتها.

وفي سياق هذا المسار الثقافي والمعرفي هناك العقلية العربية وطبيعتها في فهم النبوة والنبي محمد ﷺ فهذا الشيء أصبح بيئة ثقافية خصبة للمحدث أو الراوي، إذ إن الراوي بدأ يبحث عن الأفكار التي يريدتها الناس أو العامة من المسلمين، ومن ثم بحث عن مخارجه المناسبة لرغبة الناس.

إن المعرفة التاريخية للسيرة النبوية تأثرت بمتغيرات سياسية وفكرية نتج عنها معترك لما هو مروي في كتب التراث الإسلامي منذ القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، حتى وقت متأخر من كتابة التاريخ الإسلامي وتدوينه في حدود القرن الحادي عشر الهجري/ السابع الميلادي، لتتشكل الصورة الأكثر شهرة للسيرة النبوية بغض النظر عن مصداق ذلك المشهور من الروايات التاريخية التي تحاكي عصر النبوة بشكل عام والسيرة النبوية بشكل خاص، والأهم في هذا الكم الهائل من المدونات والمصنفات التاريخية التي تعرضت لأخبار السيرة النبوية أنها بنيت على تصورات الصحابة على اعتبار أنهم عاصروا النبي محمد ﷺ وتمكنوا من

معرفة تفاصيل حياته الخاصة والعامة على حد سواء، فراحوا يحدثون الناس بتلك المعارف، وبمرور الزمن أصبحت مروياتهم هي الأساس في كتابة التاريخ، لتشكل الروايات الرسمية لتاريخ السيرة النبوية في حدود معارف الصحابة وواقع أفكارهم السيرية، وهذا التشكيل أصبح نقطة جدل مثير في الفكر الإنساني بين معطى الحقيقة أو نفيها من الأساس وتكوين تصورات تخرج في بعض الأحيان عن ضابطة البحث والتحري عن الحقيقة لتسقط في منزلق العاطفة والميول الذي يؤدي إلى اتساع فوهة الاختلاف بشأن الثبوت من صحة الأخبار الواردة بشأن حدث تاريخي معين.

وسيقسم البحث على ثلاثة محاور هي:

المحور الأول: أصل المعرفة التاريخية للسيرة النبوية - الصحابة أنموذجا.

المحور الثاني: التحدي المعرفي للسيرة النبوية.

المحور الثالث: الروايات التاريخية وأثرها في تشويه أخبار السيرة النبوية.

ويعتمد البحث على مجموعة من المصادر الأولية والمراجع بالإضافة إلى بعض المقالات المنشورة في مواقع الشبكة العنكبوتية، ومن الله التوفيق.

المحور الأول: أصل المعرفة التاريخية للسيرة النبوية - الصحابة أنموذجا.

ما هو معروف بشأن المرويات التاريخية أنها قد أسست أو بُنيت على كلمات شفاهية لرواة سابقين أو لنقل هم من عاصر عهد النبي ﷺ وشاركوا في الأحداث التي وقعت إبان ذلك العصر، ومن ثم كانوا غير مهتمين أو غير قادرين على إدراك الحقائق أو ان حدوثها، أو أنهم لم يهتموا بها بصورة قاطعة إلا فيما بعد عندما مصرت الأمصار وانتقلوا إليها، فانصدموا بمجتمع مستعد لسماع أخبار عصر البعثة النبوية، وهنا جاءت مرحلة جديدة من مراحل إعادة بناء وتنظيم للرواية التي تحمل في طياتها

أخباراً تاريخية حقيقية أو نقلت على أنها واقع بعينه، فجاءت الأخبار الفردية التي احتوت وجهات نظر راويها، وهي بطبيعة الحال تلك التي كشف عنها الصحابة فيما بعد، إذ نجد الاختلاف واضحاً بين سمرة بن جندب، وعمران بن حصين وهم من الصحابة وأوائل من نزل مدينة البصرة في وصف النبي ﷺ سواء في أقواله أم أفعاله، حتى كتب رواية البصرة إلى صحابة المدينة المنورة يسألونهم عن أيهما أصدق فيما يقول؟ فكان الجواب أن سمرة أصدق وأحفظ من عمران^(١).

فإذا اتهم عمران بن حصين بقلّة الحفظ، فهو لم ينته عن تحديث أهل البصرة عن مدة النبوة، بل كان يجلس في مسجد البصرة وتحيطه حلقة من طلاب العلوم يسمعون منه^(٢). وفي رواية أن عمران بن حصين يحدث عن رسول الله ﷺ فاعترضه أحدهم وكان في يده صحيفة وصحح ما قال، فكان رد عمران: (أحدثك عن رسول الله ﷺ وتحدثني عن صفك)^(٣). وفي رواية أخرى حاول أحد الصحابة في البصرة أن يوضح ضعف عمران بن حصين وقلّة حفظه عن قصد، من خلال الطعن في صلاة عمران بن حصين بأنّها أقلّ إتقاناً من صلاة غيره من الصحابة^(٤).

حتى روي أن عمر بن حبيب العدوي^(٥)، كان في مجلس الحاكم العباسي هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣ هـ / ٧٨٦-٨٠٨ م) وبعض من كان حاضراً ذلك المجلس قد تحدث بشأن الصحابة فاتهموهم فيما ينقلون عن رسول الله ﷺ، لا سيما أبا هريرة الدوسي، فكان رد البصري بالضد تماماً، على الرغم من أن الحاكم العباسي قد مال لنصرتهم فيما يقولون حول اتهام الصحابة، فبسبب تمسكه بصحة قول الصحابة عرّض نفسه للقتل من جانب الحاكم، ثم سلم من ذلك^(٦).

فهذا الإصرار من قبل الرواة على تصديق الصحابة في كل ما يقولون ما هو إلا إشارة إلى تلك البيئة الثقافية التي أسهمت في بروز كم هائل من المعلومات الواردة عن شخصية الرسول ﷺ دون أن يتفحصوا مدى صدقها ورجاحتها، وهل تلائم واقع النبي ﷺ أم لا؟ فهذا الشيء كان مشهوراً وبكثرة عند الرواة الذين التزموا أقوال الصحابة على أنها نص ديني لا يمكن تخطيه، فتعاملوا معهم على هذا السياق من التبجيل والقداسة، وهذا النمط قد عملت به السلطة الأموية الحاكمة ورجحت له^(٧).

ففي روايات سمرة بن جندب محاكاة لسلطة الخلفاء، وبما أنه كان مخالفاً لحكومة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فلم يتطرق إليها في تقديم خطابه الديني المرصع بقداسة النبي محمد ﷺ يقول سمرة: (إن رجلاً قال: يا رسول الله! رأيت كأن دلواً دلي من السماء فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها فشرب شراباً وفيه ضعف، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضرع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضرع)^(٨). وسمرة زمن عمر بن الخطاب باع الخمر في مدينة البصرة، وعندما وصل خبره للخليفة، لم يتخذ أي إجراء بحقه سوى قوله: (قاتل الله سمرة، ألم يعلم أن رسول الله ﷺ قال: قاتل الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها وباعوها)^(٩). إذن، هناك نوع من الفكر الانتهازي والنفعي بين السلطة وأتباعها، وهذا الشيء أثر في ظهور أحاديث تنسب لرسول الله ﷺ وما هي في الحقيقة إلا صورة عن حياة أولئك النفعيين، فغطوا عليها بكثرة الحديث المنسوب، الذي أصبح جزءاً من حياة رسول الله ﷺ، ومن يتأمل الحديث جيداً يكون على بينة واضحة تكشف تداعياته الباطلة. مما تقدم أعلاه يتضح التأسيس المعرفي لسيرة النبي محمد ﷺ على

قول الصحابة والتابعين، وهذا الأمر رجع كفتهم في حفظ أخبار السيرة على أنها واقع حال قد ساد في زمانه وأوانه، ومن ثم أصبحت هذه الأفكار وليدة عصر الصحابة والتابعين ومن هذا المنطلق أصبح موروثنا الحضاري يحمل في صفحاته الكثير من الأخبار غير الناضجة فكرياً، وأيضاً الترجيح لثقافة ذلك الزمن دون الخروج عنه، أو إحداث تغيير في منظومته الفكرية، وبالتالي نتساءل هل بمقدورنا اليوم تقديم ورقة عمل ناضجة نستطيع عبرها تقديم قراءة جديدة لمسار السيرة النبوية؟ وبعيداً عن تزاخم الأفكار التي سطرها الرواة من مخيلتهم الثقافية تارة أو من المدونات التي أخرجت تلك المرويات تارة أخرى؟.

المحور الثاني: التحدي المعرفي للسيرة النبوية.

لا شك أن السيرة النبوية تأثرت كثيراً بصراع الأديان وتقديم الأخبار في رؤية ضيقة، وهذا الأمر له مردود سلبي على الحقيقة التاريخية، والنتيجة تقديم خطاب غير لائق بشأن شخص الرسول محمد ﷺ وإظهاره بصورة سيئة وهذا الأمر واضح كثيراً في كتابات المستشرقين^(١٠)، إذ عملوا على تقديم تخرصاتهم بشأن السيرة النبوية، قصدوا منها تضعيف الدين الإسلامي أولاً، ونبي الإسلام ثانياً، وتلويث فكر أهل الإسلام ثالثاً، وفي النقطة الثالثة تكمن خطورة القراءة الاستشرافية، فسموم الاستشراق قد تركت آثارها البغيضة، وإن كانت بدرجات متفاوتة، بحسب الزمان والمكان، والظروف والمناخات، ذات الخصوصيات المختلفة^(١١).

ويبدو أن الاستشراق اعتمد كثيراً على المرويات الإسلامية بشأن معرفته للسيرة النبوية، وبعد استيعابه لها وبصور شتى، قدّم خطاباً استقرائياً جديداً يحاكي واقع التاريخ الإسلامي بصورة عامة والسيرة النبوية بصورة خاصة، لكن خطابه احتوى على التعصب للديانات الأخرى، مما حتم

عليه أن يقدم صورة متناغمة مع العقائدية الدينية، وقد انحصرت بين الديانتين اليهودية والنصرانية، على اعتبار أن أغلب المستشرقين كانوا من هاتين الديانتين، والنتيجة أصبح هناك صراع في تقديم الخطاب المناسب لدياناتهم وفي المقابل المس بالدين الإسلامي والتطفل على حقيقته أو شرعيته السماوية.

في أغلب آراء المستشرقين جاء التركيز على النبوة والوحي، وزعموا أنهما ليس إلا قمة تطور الفكر الديني للرسول ﷺ. ولم تكن تلك المرحلة - على ما اعتقدوا - إلا نتاج ما توصل إليه في تفكيره، فهو ازداد سعة من الفكر جراء ما امتلكه الرسول من مواهب وقدرات شخصية من جهة، ومن جهة أخرى معطيات بيئة الجزيرة العربية، وخاصة قدسية مكة المكرمة لدى العرب ومكائنها التجارية والدينية. ويشدد على تأثير الديانتين النصرانية واليهودية في أفكار الرسول ﷺ عن طريق اللقاءات مع بحيرى الراهب، وما قدمه ورقة بن نوفل من معلومات، إضافة إلى المبشرين الذين يتوافدون إلى مكة المكرمة في موسم الحج. وبحسب اعتقادهم فإن هذه أدت بالنتيجة إلى خلق شعور لدى الرسول ﷺ بضرورة القيام بحركة اصلاحية، لذا بدا الرسول - على ما يراه أغلب المستشرقين - منشغلا بموضوع واحد ألا وهو: الروح، وقاده ذلك التفكير إلى الخلوة والانقطاع عن العالم ومن ثم إلى أحلام اليقظة.

يعدّ الوحي والقرآن الكريم ونبوة محمد ﷺ من الموضوعات الأساسية والحيوية في تاريخ العقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي، فهي الأسس المتينة التي ترتبط بالإيمان والمبادئ الروحانية، وهي من الطرف الآخر قد وجهت أقلام المستشرقين المعادين للإسلام منهم والمؤيدين على حد سواء للاهتمام بالعقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامي^(١٢).

فالعامل على التشكيك والتساؤل عن هذه العناصر العقيدية الأساسية هو دون شك عمل هادف نحو الطعن بالإسلام ومبادئه وأسسهِ^(١٣). ولذلك صارت هذه العناصر الثلاثة الأساسية وأمور أخرى في الإسلام أساساً قوياً لدفع المستشرقين إلى دراستها والكتابة عنها وإعطاء التفسيرات المتحيزة، ونشر المطاعن والتشكيك، واتباع مناهج بحث متعصبة تفتقر إلى الأمانة في البحث والتدقيق في المعلومات واعتماد المصادر العربية الإسلامية دون الاكتفاء بمصادر غير أساسية، واصطياد الشاذ من الروايات^(١٤).

كل ذلك بدأ مع أول توجه للمستشرقين وهم يبحثون عن القرآن الكريم والحديث الشريف. وقد ساد هذا المنهج غير المنصف جميع كتابات ودراسات العصر الكنسي والعصور الأوربية المظلمة معتمدين في مواقفهم وتفسيراتهم على القصص والأساطير دون المصادر الأصلية عن الإسلام، فجاءت كتاباتهم مملوءة بالأحقاد والكره والضعينة ومفتقرة للمادة التاريخية النافعة^(١٥).

وتتضح الأفكار الاستشراقية بشأن الوحي أكثر عندما نذكر آراءهم الواصفة لحالة النبي ﷺ وهو يتلقى خبر السماء عن طريق ما يوحى إليه من أمر يخص التبليغ والدعوة الإسلامية وتعريف الناس بالدين الصحيح، إذ إن المستشرقين يتأذون كثيراً من فكرة حقيقة دين التوحيد، فهم لا يرغبون أن يسود العالم أجمع، وأيضاً لا يريدون أن تنتهي دياناتهم في الغرب، ويكونوا أتباعاً لدين محمد ﷺ، ولكي يقنعوا شعوبهم بزيغ الإسلام وصاحبه أوجدوا قاعدة ثقافية تحاكم نبي الإسلام وتظهره بثوب التدنيس لا التقديس، وتجعل منه شخصية ضعيفة غير قادرة على تمييز حقيقة السماء أو تصمد أمام وحيها.

لهذا جاءت استنتاجات الفرنسي غوستاف لوبون (Gustave Le Bon)^(١٦)، بشأن الوحي على أنه تصرفات تعتري الرسول إبان نزوله عليه وهو في الحقيقة المزعومة إصابة النبي محمد بالصرع الذي يتتابه في تلك اللحظات فيعتريه احتقان فغطيط فغثيان، وبالنتيجة يشخص لوبون هذه الحالة بأنها صدرت عن النبي محمد كأكبر المهوسين في تأسيس الديانات، ويقول بهذا الشأن: (ولا أهمية لذلك، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات ويقودون الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور، وهم الذين أقاموا الأديان، وهدموا الدول، وأثاروا الجموع وقادوا البشر، ولو كان العقل لا الهوس هو الذي يسود العالم، لكان للتاريخ مجرى آخر)^(١٧).

أما المستشرق الإنكليزي وليام مونتغمري وات (William Montgomery Watt)^(١٨)، فإنه عندما تحدث عن نبوة محمد ﷺ وصفها بأنها أشبه بالخيال الخلاق، وهي كعمل المهوبين من الفنانين والشعراء والكتاب الذين قدموا ويقدمون العديد من المؤلفات الناجمة عن الخيال الخلاق وهي معروفة عالمياً، ولكنها ليست خيالية لأنها تعالج أموراً حقيقية، مستخدمة صورا للتعبير عما وراء المفاهيم الثقافية الإنسانية، فيقول وات: (إن الأنبياء والمصلحين يشتركون في هذا الخيال الخلاق طالما كانوا يعبرون عن القضايا الأكثر عمقا والأكثر أساسية الناجمة عن التجارب الإنسانية... هناك خيال خلاق متدفق لدى محمد، وإن معظم الأفكار الناجمة عن هذا الخيال صحيحة وعادلة، ولكن ليست كل الأفكار القرآنية صحيحة وعادلة، بل توجد على الأقل نقطة واحدة غير صحيحة ألا وهي أن الوحي أو الخيال الخلاق أسمى من تصرفات الإنسان العادية باعتبارها مصدرا لوقائع تاريخية مجملة)^(١٩).

ويرى جولدزير في تفسير الوحي الإلهي وبدايته إنها بدأ في النصف الأول من حياة النبي محمد ﷺ، والذي اضطرت مشاغله إلى الاتصال بأوساط استقى منها أفكارا أخذ يجترها في قرارة نفسه، وهو منطوي تأملاته أثناء عزلته، ولميل إدراكه وشعوره للتأملات المجردة التي يلح فيها أثر حالته المرضية، نراه ينساق ضد العقلية الدينية والأخلاقية لقومه الأقربين والأبعدين^(٢٠).

فجولدزير في هذا الوصف يرى عدم إمكان الوحي واستحالة حدوثه، وأن ما جاء في الحالة النفسية للنبي محمد ﷺ تدل على تفرد وانعزاله في أفكاره الدينية المخالفة لأفكار قومه ومن ثم حاول أن يسيطر على المجتمع من حوله بقناعته وما توصل إليه، إذ يقول: (وكان قد بلغ سن الأربعين من عمره، وأخذ يقضي وقته على ما تعود في الخلوة في الغيران المجاورة للمدينة، حيث كان نهبا للأحلام القوية والرؤى الدينية، وتملكه شعور بأن الله يدعوه بقوة تزداد شيئا فشيئا ليذهب إلى قومه منذراً إياهم بما يؤدي بهم ضلالهم من الخسران المبين، وبكلمة واحدة، أحس بقوة لا يستطيع لها مقاومة تدفعه إلى أن يكون مربياً لشعبه)^(٢١).

أما رودنسون فيرى أن الوحي الذي نزل على رسول الله محمد ﷺ إنما نتج عن وصوله إلى إحدى درجات التصوف التي لم تصل بعد إلى رتبة الاتحاد بالله، فهو يفسر حالة الوحي بحالة الشعراء والمتصوفين وبعض الكهان والعرافين، فهم فكروا طويلاً وتأملوا كثيراً فتتج عن ذلك كله قدراتهم في إبداعهم، فهو أمر يخص الرياضة الروحية المجاهدة، والسهر المتواصل^(٢٢).

فهذه الآراء التي سطرها أولئك المستشرقون ما هي إلا واقع معبر عن ثقافتهم الهدامة لحقيقة النبوة واتصالها بالسماء، وعليه يكون هناك تحدّ كبير بشأن توجيه الحقيقة أو إعادة توجيهها على وفق نمط من المعرفة الاستشراقية، وبالتالي فهناك تحدّ كبير يعرض السيرة النبوية للتشكيك بحقيقة أخبارها أو واقعها الموثق في كتب التراث الإسلامي، وعلى المدى البعيد، ونتيجة لذلك نجد أن الإساءة لشخص النبي محمد ﷺ ما زالت مستمرة عند رجال الغرب، عبر رسوم مسيئة في صحف أجنبية وما نتج عنها من ردود فعل قوية.

ففي ٣٠ سبتمبر عام ٢٠٠٥م قامت صحيفة "يولاندس بوستن" بنشر سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية التي تم فيها تصوير النبي محمد على أنه إرهابي يحمل قنبلة. بلغ عدد هذه الرسوم ١٢ رسماً كاريكاتيرياً. وقد حاولت الجالية الإسلامية في الدانمارك وقف نشر هذه الرسوم ولكن دون جدوى وذلك تحت حجة حرية التعبير، مما اضطرها للقيام بجولة في العالمين العربي والإسلامي من أجل الدفاع عن النبي محمد ﷺ.

في يوم ١٠ يناير من عام ٢٠٠٦م قامت صحيفة "ماغازينت" بإعادة نشر الرسوم الكارتونية التي نشرتها الصحيفة الدانماركية، وفي ١ فبراير ٢٠٠٦م قامت عدة صحف في كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا بإعادة طباعة الرسوم الكارتونية ونشرها من جديد كنوع من التحدي بحجة حرية الرأي والتعبير^(٢٣).

في يوم ٨ فبراير ٢٠٠٦م ظهرت هنا صحيفة شارلي إبدو على الخط عندما قامت بإعادة نشر الصور المسيئة مضافاً إليها رسم جديد خاص بها للنبي محمد على صفحتها الأولى قائلة: "إنه شيء صعب أن تكون محبوباً من قبل البلهاء" في إساءة جديدة للنبي والمسلمين حول العالم.

المحور الثالث: السلطة الحاكمة وأثرها في تشويه أخبار السيرة النبوية.

إن السبب المباشر في تشويه أخبار السيرة النبوية جاء من أثر الحكومة الإسلامية التي حكمت الدولة بعد وفاة الرسول ﷺ وميلها الثقافي والمعرفي، بالإضافة إلى جهل الناس بتلك الثقافة التي تبنتها الدولة فحذوا حذوها ليخلقوا صورة مغايرة للسيرة النبوية عدّوها مصداقاً للأحداث والوقائع التي شهدتها عصر الدعوة الإسلامية، وما يثير الدهشة في معارفهم أن الصحابة أصبحوا مقيدين بنمط من التفكير تجاه النبوة حتى قال بعضهم إنه لا يستطيع أن يتذكّر حديثاً واحداً يخص سيرة رسول الله ﷺ، والسبب السلطة السياسية للدولة الإسلامية لا سيما زمن عمر بن الخطاب والدولة الأموية، إذ عمل عمر على غلق الأفواه وهو شريكهم بذلك، نسبة إلى تداعيات وجدها ضرورية لاستمرار حكمه مع غلبة الهوى على العقل فاتبع الهوى في تحكيم عقله، وأيضاً رهب المسلمين من أجل ترغيبهم بنمط معرفي محدد في فهم النبوة، وهذا الأمر ألقى بالثقل الكبير على انحراف الفكر الإسلامي باتجاه أصحاب الديانات الأخرى، لا سيما كبار اليهود والنصارى، حتى أصبحت رواياتهم تعتمد في فهم السلوك الإسلامي بصورته العامة، وهذا الأمر أصبح أسس إشكالية في العصر الحاضر إذ نسب المستشرقون كل تهمة للدين الإسلامي ولشخص النبي محمد ﷺ على أنه شخص مبتدع درس الديانتين اليهودية والنصرانية ومن ثم حاول أن يأتي بدين جديد يحكم بواسطته قبائل العرب، فنجح في مسعاه، وأيضاً ذهب بعض المستشرقين إلى أن كل هذا الذي وصل إليه النبي محمد ﷺ إنما جاء من طرف معلم يهودي أو نصراني خبيث انشق عن الكنيسة الشرقية ونزل مكة فلامه النبي وتعلم منه شأن الأديان، وبالتالي فاق معلمه ليصبح صاحب أعظم ديانة حكمت الأرض في العصور الوسطى، وهذا الزعم

يعكس ثقافتهم في فهم السيرة النبوية، لا سيما من قبل المتعصبين الذين أثاروا الضجة تلو الأخرى بشأن نبوة محمد ﷺ.

يقول الذهبي: (إن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم، فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله، فمن سألکم فقولوا بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرّموا حرامه) (٢٤).

وروت عائشة بهذا الشأن: (جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ وكانت خمسة حديث، فبات ليله يتقلب كثيراً، قالت: فغمني فقلت: أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلما أصبح قال لي: أي بنية، هلمي الأحاديث التي عندك فجئت بها فأحرقها، قلت لم أحرقها؟ قال خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمته ووثقت ولم يكن كما حدثني فأكون قد نقلت ذاك) (٢٥). فقول عائشة يشير إلى تعديل في سياسة الحكومة تجاه السيرة النبوية، ووفق القول يتضح أن أبا بكر كان متوجهاً لحفظ تراث النبوة وحقائق من شأنها أن تبين للمسلمين واقع حال السيرة النبوية، لكن ما ان وصل إلى الحكم حتى أصبحت لديه صورة انعكست من المنصب إذ لا يتوافق منصبه مع حقائق كتبها أو احتفظ بها بصورة مدونة، وبالتالي بدأ يحاكم تلك الحقائق ويناقش وجودها إلى عرش الحكم، هل تنفع تلك الأحاديث النبوية أو ما حفظه من السيرة النبوية بصحفه المدونة، أم انها لا تنفع بهذا الجانب؟ قول ابنته عائشة يوحي أن أبا بكر وجد من الضروري التخلص من تلك الصحف المدونة قبل أن يطلع عليها غيرهما، وإلا ستكون هناك ثقافة غير مرجوة بالمرّة مع حكومته، وهذا الأمر أدى إلى عزمه على إحراق ما كتبه.

ويبدو أن عمر بن الخطاب عمل على توجيه الصحابة وإلزامهم بنهج ثقافي محدد لا يتجاوزونه في تحديث أهل الأمصار لا سيما بسيرة رسول الله ﷺ، قال قرصة بن كعب^(٢٦): "بعثنا عمر بن الخطاب وشيعنا إلى موضع قرب الكوفة يقال له صرار^(٢٧)، وقال: أتدرون لم شيعتكم أو مشيت معكم؟ قال: قلنا نعم، لحق صحبة رسول الله ﷺ أو نحن أصحاب رسول الله ﷺ ولحق الأنصار، قال عمر: لكنني مشيت معكم لحديث أردت أن أحدثكم به فأردت أن تحفظوه لمشاى معكم، إنكم تقدمون على قوم أو تأتون قوماً تهتز ألسنتهم بالقرآن اهتزاز النحل أو للقرآن في صدورهم هزیز الرجل أو لهم دوي بالقرآن كدوي النحل، فإذا رأوكم مدوا إليكم أعناقهم... فأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم، أو فلا تصدوهم بأحاديث عن رسول الله ﷺ وأنا شريككم. قال قرصة: فما حدثت بعده حديثاً عن رسول الله ﷺ" (٢٨).

وجاء عنه -أي عمر- أنه لما حدث أبي بن كعب^(٢٩) عن بيت المقدس وأخباره، انتهره عمر بن الخطاب، وهم بضربه، فاستشهد بجماعة من الأنصار، ولما شهدوا بأنهم سمعوا الحديث عن رسول الله ﷺ تركه، فقال له أبي بن كعب: اتهمني على حديث رسول الله ﷺ؟! فقال: يا أبا المنذر، والله ما اتهمتك، ولكنني كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله ﷺ ظاهراً^(٣٠). فالرواية واضحة أن عمر لا يريد حديث رسول الله ﷺ، أما باقي الأحاديث فليحدث بها كعب وغيره لأنها لا تضر الخليفة بشيء، فالفكرة واضحة في استهداف النبوة وصددها أو قتلها كما قتل صاحبها. أما شأن السيرة النبوية في العصر الأموي فيشوبها الغموض وبعض الأفكار التقليدية التي سادت بناءً على رغبة السلطة الحاكمة أولاً، وخوف الناس الذي جعلهم يكتمون أخبارها خوفاً من السلطة ثانياً، إضافة

إلى الحسد والبغض وقلة الاهتمام من عامة الناس، إذ انشغلوا بشؤون الحياة التي اتخذت طابع القهر والحرمان، مع تجسيد الخطاب الديني للدولة الأموية، وهذا الأمر بدوره أسهم في إضاعة أخبار السيرة النبوية وتحريفها بشكل رسمي من حكومة الدولة آنذاك، ونسبة إلى رواية المدائني (ت ٢٢٥هـ) تكون الأمور أكثر وضوحاً، جاء فيها: (كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً ويرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطرفهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق ألا يجيزوا لأحد من شيعة علي وأهل بيته شهادة وكتب إليهم أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرمواهم واكتبوا لي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته. ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلوات والكساء والحباء والقطائع ويفيضة في العرب منهم والموالي فكثر ذلك في كل مصر وتنافسوا في المنازل والدنيا فليس يجيء أحد مردود من الناس عاملاً من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه فلبشوا بذلك حيناً. ثم كتب إلى عماله أن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وفي كل وجه وناحية فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل

الصحابة والخلفاء الأولين ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وتأتوني بمناقض له في الصحابة فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله. فقرئت كتبه على الناس فرويت أخبار كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها وجد الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر وألقى إلى معلمي الكتائب فعلموا صبيانهم وغلماهم من ذلك الكثير الواسع حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم فلبشوا بذلك ما شاء الله. ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فاحموه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه وشفع ذلك بنسخة أخرى من اتهموه بموالاته هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره فلم يكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ولا سيما بالكوفة حتى أن الرجل من شيعة علي عليه السلام ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقى إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحفظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا مجالسهم ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها^(٣١).

فمعاوية بن أبي سفيان كان المدبر الأول لتغيير حقيقة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي بصورة عامة، إذ الباعث وراء ذلك صناعة المناقب، ولفت انتباه أغلب المسلمين لحكومته وهو ما رغب به من أجل كسب الرأي العام دنيوياً، ونسبة لذلك فإنه يكسب الصراع السياسي لمصلحة بني أمية مقابل العلويين، وهذا ما أكدته الرواية التاريخية التي جاء فيها: (ان أكثر الأحاديث الموضوعة في فضائل الصحابة افتعلت في أيام بني أمية تقرباً إليهم بما يظنون أنهم يرغمون به أنوف بني هاشم)^(٣٢).

إذن، بين تصاعد الصراع الفكري والعقدي أيام حكم معاوية وتزايد الوضع في الأحاديث التي تبحث عن فضل الخلفاء والصحابة، تركت السيرة النبوية من دون أن يهتم بها عامة أنصار معاوية وحتى القراء أو الفقهاء في دولة بني أمية، وهذا الإهمال المقصود كان من نتيجته أن ظهرت أحاديث وأخبار مفتعلة، روجت لها دولة بني أمية على أنها حقيقة تاريخية فصدقها العامة من الناس، وبالتالي فظهور هذه الأخبار أسس للسيرة النبوية على وفق الرغبة لا على أنها أحداث تاريخية قد حدثت، ومن ثم دونت على أنها أخبار حياة رسول الله ﷺ حتى وصلت إلينا ونحن ما زلنا نصدق جانباً كبيراً منها ونسبها للرسول الأكرم من دون أن نحقق في ذلك أو نعرضه على كتاب الله القرآن الكريم، فلو وعينا الآيات القرآنية لوجدنا شخص النبي ﷺ يختلف عن شخصه كما نقل في كتب الحديث والسنن والسير والتاريخ، لذلك نقل قول الأستاذ روجيه جارودي^(٣٣) في حوار له كالآتي: (قرأت القرآن الكريم وأعدت قراءته مرات كثيرة ولا أدري إن كنت قد فهمته جيداً بالطريقة التي يجب على الإنسان أن يفهمه بها أم لا فقد بدا لي أن الرسول عليه الصلاة والسلام جاء بدين عظيم هو أساس الأديان، لم ينكر فيه الأنبياء السابقين بل جاءت رسالته متممة ومكملة

لِلرَّسَالَاتِ السَّابِقَةِ، ثُمَّ شَرَعْتَ فِي قِرَاءَةِ الْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ وَعِنْدَمَا أُتِيحَ لِي السَّفَرُ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ قَمْتُ بِشَرَاءِ وَاقْتِنَاءِ مَجْمُوعَةِ الْأَحَادِيثِ فِي كُتُبِ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ فَرَأَيْتُ شَيْئًا آخَرَ أُعْبِرُ عَنْهُ بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الصَّرِيحَةِ رَأَيْتُنِي وَكَأَنَّنِي أَمَامَ دِينٍ آخَرَ وَنَشَأُ فِي نَفْسِي انْطِبَاعٌ مِنْ قِرَاءَاتِي لِلْحَدِيثِ الشَّرِيفِ أَنَّنِي أَمَامَ دِينٍ تَقْلِيدِيٍّ. فَكُلُّ مَا وَجَدْتُهُ فِي كُتُبِ الْأَحَادِيثِ وَكُلُّ مَا رَأَيْتُ الرَّسُولَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ أَوْ يَشِيرُ إِلَى فَعْلِهِ يَتَعَلَّقُ بِلِبْسِ الثِّيَابِ أَوْ كَيْفِيَةِ الدَّخُولِ لِلْمَكَانِ وَالْخُرُوجِ مِنْهُ وَأَشْيَاءَ أُخْرَى مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ. لَا كَمَا رَأَيْتُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ عَنِ الْأَسَاسِيَّاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى كِهَالِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ^(٣٤).

وَهُنَاكَ شَوَاهِدٌ تَارِيخِيَّةٌ كَثِيرَةٌ تَبِينُ كَيْفَ تَمَّ وَضْعُ الْحَدِيثِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ ثَمَّ أَصْبَحَتْ جُزْءًا مِنْ سِيرَتِهِ كَمَا يَعْتَقِدُ بِذَلِكَ جُزْءٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَمْ يَفَكِّرُوا بِتَصْحِيحِ أَفْكَارِهِمْ بِهَذَا الشَّأْنِ أَوْ يَبْحَثُوا عَنِ الْحَقِيقَةِ فَيَتَّبِعُونَهَا فِي سَبِيلِ النِّجَاةِ.

مِنَ الرِّوَايَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي وَضَعْتَ زُورًا وَهْتَانًا تِلْكَ الَّتِي تَحْدُثُ عَنْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ كَانَ يَشْهَدُ بِأَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ^(٣٥)، فِي حِينِ إِذْ رَوَايَةٌ أُخْرَى تَبِينُ أَنَّ النَّبِيَّ أَصْرَ فِي قَوْلِ آخِرِ أَنَّ آلَ أَبِي طَالِبٍ لَيْسُوا بِأَوْلِيَاءِهِ^(٣٦). فَهَاتَانِ الرِّوَايَتَانِ فِيهِمَا مَخَالَفَةٌ وَاضِحَةٌ لِدَوْرِ أَبِي طَالِبٍ وَابْنِهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَصْرَةِ الْإِسْلَامِ وَالدَّفْعِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لَكِنِ الْفِكْرَةُ الْقَائِلَةُ بِذَلِكَ إِنَّمَا تَحَاوَلُ أَنْ تَتَسَوَّرَ عَلَى كُفْرِ آلِ أُمِّيَّةٍ وَصَخْرِ بْنِ حَرْبٍ وَمَعَاوِيَةَ، الْغَرَضُ مِنْهَا تَنْزِيهِهِمْ، هَكَذَا كَانَتْ تَوَجُّهَاتُ السُّلْطَةِ السَّفِيَانِيَّةِ أَيَّامَ حُكْمِهَا تَرْغَبُ بِتَقْمِصِ ثَوْبِ الْبَطْلِ الْمُقَدَّسِ فَعَمَلَتْ مِنْ أَجْلِهِ.

الخاتمة:

يبدو أن المعرفة التاريخية للسيرة النبوية يشوبها الغموض وتزايد الجدل بشأن الخبر وتثبيت حقيقته من عدمها، وهذا الأمر ناتج عن واقع الحياة السياسية للدولة الإسلامية، فضلاً عن اجتهادات وتصورات الصحابة وتابعي التابعين الواردة بشأن شخصية رسول الله ﷺ مما أدى إلى ظهور أخبار كثيرة متفاوته فيما بينها بشأن الحدث الواحد التابع لعصر الرسالة الإسلامية، وهذا الأمر كان سلبياً أكثر من أن يكون إيجابياً في توثيق أخبار السيرة النبوية.

أخطاء السلطة الحاكمة والرواة الذين نقلوا أخبار السيرة النبوية فتحت الباب أمام المستشرقين من أجل تقديم الطعون بشأن السيرة النبوية والقده بشخصية رسول الله ﷺ وعملوا على تجريده من الاختيار الإلهي، وأكدوا أن النبي محمداً ﷺ هو شخص حكيم له إمكانية أهله لإقحام نفسه في مسألة النبوة والدعوة إلى دين جديد، وقادرة على تغيير واقع العرب آنذاك.

الجانب الآخر الذي اتضح من البحث هو أثر السلطة الحاكمة التي تولت حكم الإسلام بعد حكم النبي ﷺ إذ عملت بصورة مركزة على محو السنة النبوية وأخبارها إلى حد ما، وكان لهذا الدور أثر واضح في تغيير الأخبار التاريخية وتشويهها بصورة كبيرة جداً، وهذا يعكس التحدي الكبير الذي تعرضت له الحقيقة التاريخية عبر تعاقب الأجيال حتى نجد جيل اليوم يقدم دراسات استقرائية وتحليلية للأخبار الماضية والتركيز من أجل الوصول إلى الحقيقة أو التقرب منها على وفق البحث والتحري والتدقيق.

الهوامش:

- ١- ابن عبد البر، الاستيعاب ٢/ ٦٥٣.
- ٢- ابن سعد، الطبقات الكبرى ٧/ ١٠.
- ٣- أحمد بن حنبل، المسند ٤/ ٤٢٧؛ البخاري، الصحيح ٧/ ١٠٠؛ العسكري، تصحيفات المحدثين ٨/ ١.
- ٤- ابن شبة، تاريخ المدينة ١/ ٢٧٥.
- ٥- عمر بن حبيب العدوي: من أهل البصرة، تولى قضاءها للمأمون العباسي، وقدم بغداد وولي بها القضاء في الجانب الشرقي، مات سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م. الذهبي، سير أعلام النبلاء ٩/ ٤٩٠؛ وينظر: القاضي التنوخي، نشوار المحاضرة ٦/ ١٧٦.
- ٦- ابن الجوزي، المنتظم ١٠/ ١٦٣-١٦٤.
- ٧- نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، ص ١٣٠.
- ٨- ابن أبي شبة الكوفي، المصنف ٧/ ٤٨٢.
- ٩- أحمد بن حنبل، المسند ١/ ٢٥؛ مسلم، الصحيح ٥/ ٤١؛ ابن ماجه، السنن ٢/ ١١٢٢.
- ١٠- الاستشراق: هو كل ما يصدر عن الغربيين من أوروبيين (شركيين وغربيين بما في ذلك السوفيت) وأمريكيين من دراسات أكاديمية (جامعية) تتناول قضايا الإسلام والمسلمين في العقيدة، وفي الشريعة، وفي الاجتماع، وفي السياسة أو الفكر أو الفن، كما يلحق بالاستشراق كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية سواء بلغاتهم أم باللغة العربية من إذاعات أو تلفاز أو أفلام سينمائية أو رسوم متحركة أو قنوات فضائية، أو ما تنشره صحفهم من كتابات تتناول المسلمين وقضاياهم. كما أن من الاستشراق ما يخفى علينا مما يقرره الباحثون والسياسيون الغربيون في ندواتهم ومؤتمراتهم العلنية أو السرية. ويمكننا أن نلحق بالاستشراق ما يكتبه النصارى العرب من أقباط ومارونيين وغيرهم ممن ينظر إلى الإسلام عبر المنظار الغربي. ولا بد أن نلحق بالاستشراق ما ينشره الباحثون المسلمون الذين تتلمذوا على أيدي المستشرقين وتبنوا كثيراً من أفكار المستشرقين حتى أن بعض هؤلاء التلاميذ تفوق على أساتذتهم في الأساليب والمناهج الاستشراقية. ويدل على ذلك احتفال دور النشر الاستشراقية بإنتاج هؤلاء ونشره باللغات الأوروبية على أنها بحوث علمية رصينة أو ما يترجمونه من كتابات بعض العرب والمسلمين إلى اللغات الأوروبية. للتفصيل ينظر: رودي بارت، الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، (القاهرة - ١٩٦٧)، ص ١١؛ إبراهيم عبد الكريم: الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، (فلسطين،

١٩٩٣)، ص١٩؛ قاسم السامرائي: الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط١، (الرياض، ١٩٨٣)، ص١٧.

١١- جعفر مرتضى العاملي، دراسات وبحوث في التاريخ الإسلامي، ج٤، ص١٢٢.

١٢- عبد الجبار ناجي، الاستشراق والسيرة النبوية، مجلة دراسات إسلامية، العدد١، (بغداد، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م).

١٣- ينظر: عماد خليل، المستشرقون والسيرة النبوية، مجلة مناهج المستشرقين، مج ١، (بغداد، ٢٠٠٠م)، ص١١٣-٢٠١.

١٤- ينظر: عبد الله محمد الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ص٥٩.

١٥- جواد علي، تاريخ العرب في الإسلام (بيروت، ١٩٨٤م)، ص١٠-١٢.

١٦- غوستاف لوبون (٧ مايو ١٨٤١م - ١٣ ديسمبر ١٩٣١م) كان طبيباً ومؤرخاً فرنسياً، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. من أشهر آثاره: حضارة العرب وحضارات الهند وباريس ١٨٨٤، والحضارة المصرية وحضارة العرب في الأندلس، وسر تقدم الأمم، وروح الاجتماع، الذي كان إنجازاه الأول، هو أحد أشهر فلاسفة الغرب وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، لم يسر غوستاف لوبون على نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية على العالم الغربي. <https://ar.wikipedia.org/wiki>

١٧- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ص١٤١.

١٨- وليم مونتجمري وات Montgomery Watt. مستشرق إنجليزي معاصر ولد عام ١٩٠٩م. والده القسيس أندرو وات. درس في أكاديمية لارخ، وفي كلية جورج واتسون بإدنبرة، وجامعة إدنبرة، وكلية باليول بأكسفورد، وجامعة جينا بألمانيا، وجامعة أكسفورد وجامعة إدنبرة على التوالي. عمل راعياً لعدة كنائس في لندن وفي إدنبرة، ومتخصص في الإسلام لدى القس الأنجليكاني في القدس. نال درجة الأستاذية عام ١٩٦٤م. عمل رئيساً لقسم الدراسات العربية والإسلامية بجامعة إدنبرة في المدة من ١٩٤٧-١٩٧٩. وقد قام خلالها بتدريس الإسلام: عقيدة وتاريخاً وحضارة لعدة أجيال من الطلبة كثير منهم مسلمون، وقد اهتم بدراسة سيرة النبي ﷺ وسلم، وهو معروف لدى طلابه بتعصبه ونزعاته التنصيرية، له مؤلفات كثيرة أشهرها كتاب محمد في مكة ومحمد في المدينة، ومحمد نبي ورجل دولة. <https://creativity507.wordpress.com>

١٩- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، ج١، ص٣٠٠؛ ينظر: عبد الله محمد

الأمين النعيم، الاستشراق في السيرة النبوية، ص ٨٤.

٢٠- جولدزير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٣.

٢١- جولدزير، العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٤.

٢٢- ساسي سالم الحاج، نقد الخطاب الاستشراقي، ج ١، ص ٣١١.

٢٣- الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لمحمد في صحيفة يولاندس بوستن . // <https://ar.wikipedia.org/wiki>

٢٤- تذكرة الحفاظ ١ / ٥.

٢٥- الذهبي، تذكرة الحفاظ ١ / ٥.

٢٦- قرضة بن كعب الأنصاري أحد بني الحارث بن الخزرج حليف لبني عبد الأشهل من الأوس ويكنى أبا عمرو وهو أحد العشرة من الأنصار الذين وجههم عمر بن الخطاب إلى الكوفة فنزلها وابتنى بها داراً في الأنصار ومات بها في خلافة علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الذي صلى عليه بالكوفة. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى ٦ / ١٧.

٢٧- صرار: بكسر أوله، وآخره مثل ثانيه، وهي الأماكن المرتفعة التي لا يعلوها الماء يقال صرار وقيل: صرار موضع على ثلاثة أميال من المدينة على طريق العراق. ياقوت الحموي، معجم البلدان ٣ / ٣٩٨.

٢٨- ابن سعد، الطبقات الكبرى ٦ / ٧؛ الدارمي، سنن الدارمي ١ / ٨٥؛ ابن عبد البر، جامع بيان العلم ٢ / ١٢٠؛ المتقي الهندي، كنز العمال ٢ / ٢٨٤.

٢٩- -- أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن عمرو بن مالك النجار، ويكنى أبا المنذر، كان أبي يكتب في الجاهلية قبل الإسلام، وكان يكتب في الإسلام الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مات في خلافة عثمان بن عفان. ينظر: ابن سعد، الطبقات الكبرى ٣ / ٤٩٨.

٣٠- ابن سعد، الطبقات الكبرى ٤ / ٢٢؛ ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق ٢٦ / ٣٧١.

٣١- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٤-٤٦.

٣٢- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ١١ / ٤٦.

٣٣- روجيه جارودي أو رجاء جارودي: ولد في فرنسا، لأم كاثوليكية وأب ملحد. اعتنق البروتستانتية وهو في سن الرابعة عشرة، درس في كل من جامعة مرسيليا وجامعة إيكس أون بروفانس وانضم إلى صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي، وفي عام ١٩٣٧ عين أستاذا للفلسفة في مدرسة الليسيه من ألبي. خلال الحرب العالمية الثانية أخذ أسير حرب لفرنسا الفيشية في الجلفة بالجزائر بين ١٩٤٠ و ١٩٤٢. وفي عام ١٩٤٥ انتخب نائبا في البرلمان، وصدر أول مؤلفاته عام ١٩٤٦، حصل جارودي على درجة الدكتوراه الأولى سنة ١٩٥٣ من جامعة السوربون عن النظرية المادية في المعرفة، ثم حصل على

درجة الدكتوراه الثانية عن الحرية عام ١٩٥٤ من جامعة موسكو. طرد من الحزب الشيوعي الفرنسي سنة ١٩٧٠م وذلك لانتقاداته المستمرة للاتحاد السوفياتي، وفي السنة نفسها أسس مركز الدراسات والبحوث الماركسية وبقي مديراً له لمدة عشر سنوات. في ٢ يوليو ١٩٨٢ أشهر جارودي إسلامه، في المركز الإسلامي في جنيف، وكتب بالمناسبة كتابيه «وعود الإسلام» و«الإسلام يسكن مستقبلنا». توفي سنة ٢٠١٢م عن عمر ٩٩ عاماً. <https://ar.wikipedia.org/wiki>

٣٤- مرتضى العسكري، أحاديث أم المؤمنين عائشة ٢/ ٣٨١.

٣٥- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٤.

٣٦- ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٤/ ٦٤.

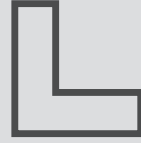
المصادر والمراجع:

قائمة المصادر:

أولاً: المصادر الأولية:

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م).
- * أسد الغابة في معرفة الصحابة (مطبعة، انتشارات اسماعيليان، طهران د.ت).
- ابن إسحاق، محمد بن إسحاق المطلبي (ت ١٥١هـ / ٧٦٨م).
- * السيرة النبوية - السير والمغازي - تحقيق: محمد حميد الله (مطبعة معهد الدراسات والأبحاث للتعريف د.ت).
- البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦هـ / ٨٦٩م).
- * الصحيح (مطبعة، دار الفكر، ١٩٨١).
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م).
- * المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا (الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢م).
- ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني (ت ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م).
- * شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم (الطبعة الأولى، ١٩٧٨م).
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن الرحمن بن الفضل بن بهرام (ت ٢٥٥هـ / ٨٦٨م).
- * السنن (مطبعة الاعتدال، دمشق - ١٩٣٠م).
- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م).
- * تذكرة الحفاظ (دار إحياء التراث العربي، د.ت).
- ابن سعد، محمد بن سعد (٢٣٠هـ / ٨٤٤م).
- * الطبقات الكبرى (مطبعة دار صادر، بيروت، د.ت).
- ابن عبد البر، أبو يوسف بن عبد الله بن محمد (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م).
- * الاستذكار، تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض (مطبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠٠٠م).
- * الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق: علي محمد البجاوي (مطبعة دار الجبل، الطبعة الأولى، بيروت، ١٩٩٢م).
- * جامع بيان العلم وفضله (مطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٧م).
- ابن عساكر، علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ / ١١٧٥م).
- * تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: علي شيري (مطبعة دار الفكر، بيروت، ١٩٩٤م).
- المتقي الهندي، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي (ت ٩٧٥هـ / ١٥٦٧م).
- * كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: بكري حياني، تصحيح: صفوة السقا (مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٩م).
- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن

- هشام بن أيوب الحميري (ت ٢١٨هـ/ ٨٣٣ م).
 * السيرة النبوية، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد (مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٣م).
 -ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).
 * معجم البلدان (دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٧٩م).
 ثانيا: المراجع (المصادر الثانوية):
 -جولزير، اجناس
 * العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة وتعليق: محمد يوسف موسى، علي حسن عبد القادر، عبد العزيز عبد الحق (مطبعة دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، مصر، د.ت).
 -الحاج، ساسي سالم
 * نقد الخطاب الاستشراقي (الطبعة الأولى، ٢٠٠٢م).
 -رودي بارت
 * الدراسات العربية الإسلامية في الجامعات الألمانية، ترجمة: مصطفى ماهر، (القاهرة، ١٩٦٧).
 -الزركلي، خير الدين
 * الأعلام (الطبعة الخامسة، بيروت، ١٩٨٠م).
 -السامرائي، قاسم
 * الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية، ط ١، (الرياض، ١٩٨٣).
 -عبد الكريم، إبراهيم
 * الاستشراق وأبحاث الصراع لدى إسرائيل، (فلسطين، ١٩٩٣).
 - علي، جواد
 * تاريخ العرب في الإسلام (بيروت، ١٩٨٤م).
 -غيب، حسين غلامي
 * محو السنة أو تدوينها (مطبعة الهادي، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م).
 -النعيم، عبد الله محمد الأمين
 * الاستشراق في السيرة النبوية (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م).
 - لوبون، غوستاف
 * حضارة العرب (دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٧٩ م).
 ثالثاً: الدوريات:
 -خليل، عماد
 * المستشرقون والسيرة النبوية، مجلة مناهج المستشرقين، مج ١ (بغداد، ٢٠٠٠م)
 - ناجي، عبد الجبار
 * الاستشراق والسيرة النبوية، مجلة دراسات إسلامية، العدد ١١ (بغداد، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م).
 رابعاً: المواقع الالكترونية:
 -<https://ar.wikipedia.org/wiki>
 -الرسوم الكاريكاتورية المسيئة لمحمد في صحيفة يولانديس بوستن. <https://ar.wikipedia.org/wiki>



وظائف اللغة الحوارية في الخطابات النبوية الشريفة

أ.م.د. ظافر عبيس عناد الجياشي
المديرية العامة لتربية المثنى / محافظة المثنى / العراق



The functions of conversational language in the honorable prophetic discourses

Prof.Dr. Dhafer Obais Aljayashi
General Directorate of Education Al-
Muthanna / Al-Muthanna Governorate / Iraq

الملخص

تُعَدُّ اللغةُ أسمى ما حباها الله جلَّ وعلا للإنسان من بين مخلوقاته، وتكاد تكون الحد الفاصل بين الإنسان وبقية المخلوقات على سطح الأرض، فهي نعمة لا تساويها نعمة أخرى التي تميّز بين الإنسان وسائر المخلوقات الربانية. لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وميّزه بالعقل هذا العضو الانساني الغالي والثمين لما يقوم به من وظيفة سامية تتمثل في أنه بمحتوياته وتلايفه قد مكن الإنسان من امتلاك أعلى وأثمن ما يمكن أن يمتلكه إنسان ألا وهي المقدرة اللغوية، أو ما تسمى الكفاءة اللغوية الكاملة التي تمكنه من امتلاك النظام اللغوي انتاجاً، وفهماً، وابتكاراً، وتوليداً سواء في حالته المخية (الداخلية) أم في الأداء الفعلي (المجسد في الخارج).

واللغة، والفكر، والمجتمع هي الظواهر متداخلة تؤدي الى تطور الحياة وقيام الحضارة الانسانية الراقية والتقدم الفكري، والاجتماعي، والحضاري، والثقافي الباهر. فاللغة متلازمة مع فكر الإنسان وهي ضرورية لقيام المجتمع الإنساني والمجتمع يتعاون في إقامة الحضارة الإنسانية المتقدمة.

واللغة وسيلة التعبير الأولى والرئيسة عما لدى المتكلم من معاني يودّ إبلاغها السامع، أو القارئ، وهي الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، وتعمل على تمتين العلاقة بين أفراد المجموعة البشرية، فهي مؤسسة اجتماعية، وانسانية ولا يتم اجتماع بشري بغير لغة. ومن هنا كانت معرفة اللغة وإدراك كنهها والكشف عن أسرارها، ووظائفها يؤدي ذلك كله إلى معرفة متكلمي هذه اللغة بالاطلاع على أنماط التفكير والتعرف إلى المستوى الحضاري الذي بلغوه.

وفي ضوء ذلك، حاولنا تسليط الضوء على التراث الفكري اللغوي الحواري الذي خلفه الرسول الأعظم محمد ﷺ لاستكناه أهم الوظائف

اللغوية التي يمكن أن نستخرجها منه، التي ذكر بعضها علماء اللغة، فضلاً عن الوظائف التي اجترحها الباحث من خلال استقراء كلام النبي ﷺ، وبيان أهميتها على الفرد والمجتمع، وكيفية توظيفها عبر أنساق معرفية، وفكرية قصدها النبي ﷺ للتأثير في متلقيه، إذ التي تعكس مكنة النبي ﷺ في استعماله اللغة، ومقدرته على التفنن في القول، عبر أربعة مباحث، سبقتها مقدمة، وتلتها خاتمة لأهم نتائج البحث .

Abstract

Language is the highest gift that God Almighty has bestowed on man among his creatures, and it is almost the boundary between man and the rest of the creatures on the surface of the earth. God Almighty created man and distinguished him with the mind this precious and precious human organ because of the sublime function that it performs, which is that with its contents and its convolutions, it has enabled man to possess the most precious and most precious thing that a human being can possess, which is the linguistic ability, or what is called the complete linguistic competence that enables him to the linguistic system possesses production, understanding, innovation, and generation, whether in its cerebral (internal) state or in actual performance (embodied in the external).

Language, thought, and society are intertwined phenomena that lead to the development of life, the establishment of high human civilization, and the brilliant intellectual, social, civilized, and cultural progress. Language is inseparable with human thought and is necessary for the establishment of human society and society cooperating in establishing advanced human civilization.

Language is the first and main means of expressing what the speaker has of the meanings he wants to convey to the listener, or the reader, and it is the bridge over which generations pass from the past to the present, and from the present to the future, and works to strengthen the relationship between members of the human group, as it is a social and human institution and there is no meeting a human without a language. Hence, knowing the language, realizing its essence, revealing its secrets and functions, all lead to the knowledge of the speakers of this language by

familiarizing themselves with the patterns of thinking and the level of civilization they have reached.

In light of this, we have tried to shed light on the intellectual, linguistic, and dialogical heritage left by the greatest Messenger Muhammad (may God bless him) because he found the most important linguistic functions that we can extract from him, some of which were mentioned by linguists, as well as the functions that the researcher created by extrapolating the words of the Prophet And explaining its importance to the individual and society, and how to employ it through cognitive and intellectual patterns that the Prophet (may God bless him) intended to influence its recipients, as it reflects the Prophet's ability to use language, and his ability to articulate speech, through four topics, preceded by an introduction, followed by a conclusion. For the most important search results.

المقدمة:

تُعَدُّ اللغةُ أسمى ما حباها الله جلّ وعلا للإنسان من بين مخلوقاته، وتكاد تكون الحد الفاصل بين الإنسان وبقية المخلوقات على سطح الأرض، فهي نعمة لا تساويها نعمة أخرى، فهي التي تميّز بين الإنسان وسائر المخلوقات الربانية.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان وميّزه بالعقل هذا العضو الانساني الغالي والثمين لما يقوم به من وظيفة سامية تتمثل في أنه بمحتوياته وتلايفه قد مكن الإنسان من امتلاك أغلى وأثمن ما يمكن أن يمتلكه إنسان ألا وهي المقدرة اللغوية، أو ما تسمى الكفاءة اللغوية الكاملة التي تمكنه من امتلاك النظام اللغوي انتاجاً، وفهماً، وابتكاراً، وتوليداً سواء في حالته المخية (الداخلية) أم في الأداء الفعلي (المجسد في الخارج).

واللغة، والفكر، والمجتمع هي الظواهر متداخلة تؤدي الى تطور الحياة وقيام الحضارة الانسانية الراقية والتقدم الفكري، والاجتماعي، والحضاري، والثقافي الباهر. فاللغة متلازمة مع فكر الإنسان وهي ضرورية لقيام المجتمع الإنساني والمجتمع يتعاون في إقامة الحضارة الإنسانية المتقدمة .

واللغة وسيلة التعبير الأولى والرئيسة عما لدى المتكلم من معاني يودّ إبلاغها السامع أو القارئ، وهي الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، وتعمل على تمتين العلاقة بين أفراد المجموعة البشرية ، فهي مؤسسة اجتماعية، وانسانية ولا يتم اجتماع بشري بغير لغة .

ومن هنا كانت معرفة اللغة وإدراك كنهها والكشف عن أسرارها، ووظائفها يؤدي ذلك كله إلى معرفة متكلمي هذه اللغة بالاطلاع على أنماط التفكير والتعرف إلى المستوى الحضاري الذي بلغوه .

وفي ضوء ذلك، نحاول تسليط الضوء على التراث الفكري اللغوي الحواري الذي خلفه الرسول الأعظم محمد ﷺ لاستكناه أهم الوظائف اللغوية التي يمكن أن نستخرجها منه، وبيان أهميتها على الفرد والمجتمع، وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه على أربعة مباحث، سبقتها مقدمة، وتلتها خاتمة لأهم نتائج البحث .

المبحث الأول: ماهية اللغة

اللغة هي وسيلة المرء للتحكم في بيئته لأنها أداة التفكير ، وثمرته، إذ إننا نفكر باللغة فنحن نشعر بوجودنا وبحاجتنا وعواطفنا وميولنا، وعلى الرغم من هذه الأهمية وسهولة اللغة وجريانها على الألسنة فقد قيل في تعريفها أقوال كثيرة تمثل رأي صاحب التعريف ونظرته لطبيعة اللغة ومنهج توجهه العلمي في إدراك حقيقتها وطبيعتها؛ ولأجل ذلك نعرض بعض تلك الأقوال ، وفيما يأتي بيان ذلك :

أولاً/ عند علماء العربية:

(١) عَرَّفَ "ابن جني" اللغة في باب القول على اللغة بقوله : ((أمّا حدها فإنّها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم))^(١) .

وهذا التعريف على وجازته يقود الى كثير من التناولات اللسانية التي بحثها علم اللغة الحديث، فقد ضمنه البعد الصوتي، ثم البعد التعبيري، ثم البعد الاجتماعي، والبعد التداولي للغة، قال د. حجازي: ((هذا تعريف دقيق يذكر كثيراً من الجوانب المميزة للغة أكد ابن جني أولاً الطبيعة الصوتية للغة، كما ذكر وظيفتها الاجتماعية في التعبير ونقل الفكر، وذكر أيضاً أنها تستخدم في مجتمع فلكل قوم لغتهم. ويقول الباحثون المحدثون بتعريفات مختلفة للغة، وتؤكد كل هذه التعريفات الحديثة الطبيعة الصوتية للغة والوظيفة الاجتماعية للغة، وتنوع البنية اللغوية من مجتمع إنساني لآخر))^(٢) .

ويعرض ابن جنبي فيه وظيفة اللغة في المجتمع حين تعبر عن آراء كل قوم وأغراضهم وشؤونهم الحياتية ؛ ((وذلك (حدّ) يقع تحت النظر المنطقي الذي يفترض (وضعاً) مسبقاً أو منطقياً في كل نظر لغوي، وهو أيضاً لا يقع تحت إلحاح ضيق فيشد حدّه الى لغة معينة، ولكنه إطلاق أصيل يذهب إليه، يجعل من حدّه وعاءً يتّسع لكثير مما أضافه اللغويون من بعد))^(٣) .

٢) ويعرفها "ابن خلدون" (ت ٨٠٨هـ) بأنها: ((ترجمان عمّا في الضمائر من تلك المعاني، يؤديها بعض الى بعض بالمشافهة في المناظرة والتعليم وممارسة البحث في العلوم؛ لتحصيل ملكتها بطول المران على ذلك))^(٤) .

٣) ويراها عبدالعزيز عبدالمجيد: ((النظام الذي يمكن بواسطته تحليل أي صورة أو فكرة ذهنية الى أجزائها أو خصائصها، والذي به يمكن تركيب هذه الصورة مرة أخرى في أذهاننا أو أذهان غيرنا بواسطة تأليف كلمات ووضعها في ترتيب خاص))^(٥) .

٤) وحدها "د. نسيم عون" بأنها: ((الملكة المشتركة بين البشر التي تسمح للناس بالتفاهم بواسطة إشارات صوتية))^(٦) .
ثانياً عند علماء الغرب:

١) عرف "سوسير" اللغة بقوله : ((نتاج الملكة الكلامية وتجميع التقاليد الضرورية التي أقرها الاجتماعي لتسمح للأفراد بتدريب ملكاتهم))^(٧) .
٢) وعرفها (سابير) بأنها: ((ظاهرة انسانية وغير غريزية لتوصيل العواطف والأفكار والرغبات، بواسطة نظام من الرموز الصوتية الاصطلاحية))^(٨) .

٣) ويصفها "جيفونز" بأنها ((وسيلة للتوصيل، وأداة للتجميل، ومساعدة التفكير))^(٩) .

٤) وهي عند "هنري سويت": ((التعبير عن الأفكار بواسطة الأصوات الكلامية المؤتلفة في كلمات))^(١٠).

٥) وحدّها "لاند" بقوله: ((وظيفة التعبير اللفظي عن الفكر سواء أكان داخلياً أم خارجياً))^(١١).

٦) وعرفها "كارول"، بقوله: ((اللغة أية لغة ليست سوى نظام بنيوي من الأصوات العرفية المنطوقة، ومن تتابعات الأصوات التي تستعمل أو يمكن أن تستعمل في التعامل بين الأفراد، عند مجموعة من البشر ويصنف الأشياء والأحداث والعمليات التي تتم في البيئة الانسانية))^(١٢).

في ضوء ما تقدم يمكن أن نخلص إلى أن اللغة هي:

نظام اعتباطي من العلامات الصوتية أو غيرها التي تستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع محدد؛ للاتصال بين طرفين؛ لتبادل المشاعر، والأفكار، والتعبير عن الحاجات، والحقائق، والآراء بين أعضاء ذلك المجتمع المتجانس، عن طريق السماع وغيره .
ويتضمن هذا التعريف أن:

١) للغة نظاماً، أي سلسلة من العلاقات المنظمة التي تخضع لقوانين والتي يمكن التعرف إليها ووضع القواعد لها، فاللغة تحكمها أنظمة متعددة: صوتية، وصرفية، ونحوية، ومعجمية، ودلالية، وإشارية، وسياقية.

٢) اللغة اعتباطية، بمعنى أنها اتفاقية بين أفراد المجتمع الواحد، [فالفاعل مرفوع مثلاً في اللغة العربية، ولكن لا يوجد سبب يجعله مرفوعاً على وجه التحديد، إذ يمكن أن يكون منصوباً؛ لولا اتفاق أهل اللغة على ذلك] .

٣) اللغة علامات -أي رموز- فكلمة (كتاب) مثلاً ليست كتاباً، بل هي رمز يدل على هذا الشيء الذي نسميه كتاباً، [فاللغة نظام علاماتي

على السامع فك رموزه المسموعة، وعلى القارئ أو المتلقي فك رموزه المكتوبة] .

٤) اللغة أصوات بالأساس وهي منطوقة وحروفها منظومة، نعم قد تتخذ اللغة شكلاً كتابياً تعبر عن الكلام تعبيراً جزئياً، غير أن الأصوات أساسها .

٥) وقصدنا بـ(أو غيرها) : أنها مفهوم منظومي شامل وواسع لا يقتصر على اللغة المنطوقة بها، بل يشمل المكتوبة، والإشارات، والإيماءات، والتعبيرات التي تصاحب عادة سلوك الكلام، وتستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع معين .

٦) اللغة، تستخدم للتفاهم بين الأفراد للاتصال، وتبادل المشاعر، والأفكار، والتعبير عن الحاجات، والحقائق، والآراء، فعندما نتكلم لا نقل الأفكار فقط، بل كثيراً ما نتكلم بقصد نقل مشاعرنا ومقاصدنا، ولهذا فإن اللغة دوراً اجتماعياً، وعاطفياً، وفكرياً، وإعلامياً .

إذن اللغة تُعدّ إنجازاً غير عادي أنجزته مخيلة الفرد البشري بملكة ربانية، وإتقان محكم؛ لوصف الناس، والأماكن، والأشياء، والأحداث، والأفكار والمشاعر التي حوله .

المبحث الثاني: خصائص اللغة الإنسانية

تنماز اللغات الإنسانية بخصائص وسمات لا توجد في وسائل الاتصال الأخرى، نعم قد يشترك الإنسان مع غيره من المخلوقات في إحدى هذه الخصائص، أو بعضها إلا أنها لا توجد مجتمعة إلا في لغات البشر التي تشترك فيها جميعاً، وأهم هذه الخصائص هي^(١٣):

١-الوسط الصوتي السمعي

هذه من أوضح خصائص اللغة الإنسانية وأبرزها، وهناك وسائل اتصال أخرى من ذلك لغة الإشارة أو رقصات النحل، وبمقدور الإنسان أن يستخدم وسائط أخرى غير الصوت لتوصيل المعنى اللغوي كأن يستعيز عن كلمة « سر » أو « قف » بإشارة المرور أو بحركة يد الشرطي، إلا أن الصوت له ميزات خاصة تجعله أكثر ملاءمة من غيره. فبقدر ما تتمتع به أعضاء النطق عند الإنسان من مرونة عجيبة وكفاءة عالية على إحداث مختلف الأصوات تتمتع الأذن البشرية بمقدرة فائقة وحساسية بالغة على تمييز هذه الأصوات، ثم إنه بخلاف الكلام يستحيل التخاطب مثلاً بوساطة الإشارة في الظلام أو بوساطة اللمس من مسافات بعيدة، ومن الميزات الإيجابية لاستخدام قناة الاتصال الصوتية السمعية أنها لا تتطلب جهداً يذكر، وأنها لا تعيق أجزاء الجسم الأخرى عن أداء مهامها في أثناء عملية التواصل، كما أنها تسهل عملية التنسيق بين مجموعة من الأفراد يتعاونون في أداء مهمة معينة إذ تجعل بإمكانهم أن يتبادلوا فيما بينهم التعليمات اللفظية على حين تركز بقية الحواس والعضلات على العمل المطلوب إنجازه، وكلنا يعرف أهمية التعاون في حياة الإنسان.

٢-التلاشي السريع

هذه الخاصية والتي تليها ترتبطان أساساً بطبيعة الصوت، وتأتيان

نتيجة حتمية للخاصية الأولى، إذ يتلاشى صوت المتكلم حال التلفظ به، كالكتابة على الماء مثلاً، أو أثر الحيوان، أو رائحته، وميزة هذا التلاشي أنه يُبقي مجال الاتصال سالكاً ويفسح الطريق لاستمرار التواصل، ولتوالي الإشارات اللغوية الواحدة بعد الأخرى بشكل متلاحق وسريع.

٣- البث المتشتر والاستقبال الموجه

صوت المتكلم يتبدد في كل الاتجاهات (مثله في ذلك مثل الضوء، أو الأمواج على سطح البركة) حالما يتلفظ به ويمكن أن يلتقطه كل من هو على مرمى السمع منه، وبصرف النظر عن اتجاه المتكلم، أو موقع السامع منه كما يمكن للسامع بوساطة أذنيه أن يحدد مصدر الصوت ومكانه ووجهته .

٤- التبادلية

مهمة الإرسال والاستقبال مهمة متبادلة بين طرفي الاتصال، بمعنى أن المتكلم والسامع يمكن لأي منهما أن يقوم بدور الآخر ويحل محله، أو بعبارة أخرى فإن السامع يستطيع أن يعيد التلفظ بأي إشارة لغوية تماماً كما سمعها إذا كان يفهم ويتكلم اللغة التي قيلت بها، أما حركات المغازلة عند الأسماك الشوكية مثلاً فإن حركات الذكر تختلف عن الأنثى ولا يستطيع أي منهما أن يقلد الآخر. كذلك الدجاجة لا تستطيع أن تقلد أذان الديك .. وهكذا.

٥- التغذية الاسترجاعية الكاملة

يستطيع المتكلم أن يسمع نفسه ويفهم كل شيء يقوله هو بالطريقة نفسها التي يسمعه بها الآخرون، هذه التغذية الاسترجاعية تجعل مهمة تعلم الكلام وكذلك تصحيح الأخطاء في أثناء الكلام أسهل وأسرع.

٦-التوارث

يتوارث أفراد المجتمع لغتهم جيلاً بعد جيل من طريق التعلم والمحاكاة، صحيح أن المقدرة الكلامية عند الإنسان حقيقة بيولوجية لكن اللغة المحددة التي يتكلمها الإنسان حقيقة ثقافية، لذلك تختلف الألسن باختلاف الشعوب والثقافات، ويتعلم الإنسان لغته كما يتعلم عناصر الثقافة الأخرى، غير أن اللغة تختلف عن غيرها من عناصر الثقافة إذ بدونها لا يمكن أن تتحقق الثقافة أصلاً، فاللغة هي الوعاء الذي يحمل الثقافة والوسيلة التي تنقلها عبر الأجيال.

٧-التخصيصية

يُقصد بها أن ما يبذله الإنسان من جهد جسدي في أثناء عملية الكلام وما يصدر عن ذلك من ذبذبات صوتية ليس لها أي وظيفة أخرى غير توصيل المعاني والأفكار من المتكلم إلى السامع، فاللغة نظام اتصال صوتي مستقل قائم بذاته ولا يرتبط بأي رباط لا بسياق الحديث ولا بموضوعه. وهناك مثلاً نوع من التلازم بين الشاؤب والنوم، أو بين القشعريرة والبرد ولكن ليس هنالك أي تلازم بين هذه الأحاسيس وبين الكلمات التي تشير إليها في أي لغة من اللغات. ودليل آخر على تخصيصية اللغة أنه باستطاعتنا أن نتحدث وفي الوقت نفسه نقوم بأعمال أخرى لا علاقة لها بموضوع الحديث أو أن نتحدث عن أعمال تتطلب جهداً عضلياً دون أن تبدو علينا آثار التعب، أو أن نتحدث عن الفرح أو الحزن دون أن تبدو على ملامحنا أي انفعالات من هذا القبيل.

٨- الإحلال

ويعني قدرة اللغة الإنسانية على الحديث في أشياء وأحداث بعيدة عن المتكلم زماناً ومكاناً، فنحن غالباً ما نخوض في أمور مضت أو لم تحدث بعد وعن أشياء لا يراها المتكلم في محيطه المباشر، بل قد يخوض المتحدث في قضايا مجردة ومسائل لا وجود لها إلا في مخيلته، كما يمكنه أن يستخدم اللغة للبحث في أمور اللغة نفسها.

٩- الدلالية

اللغة الإنسانية ليست فيضاً من العواطف تأتي صفة ملازمة لبعض الحالات الشعورية، أو الجسدية، ولكنها توظف بوعي وعن قصد لإعطاء معاني محددة، وللدلالة على أفكار مجردة في ذهن المتكلم، أو أشياء محسوسة في بيئته الخارجية. والكلمات تحضر إلى الذهن الأشياء التي ترمز إليها ليس لأن العلاقة بينها وبين هذه الأشياء علاقة تلازم طبيعية، أو منطقية، أو شكلية، ولكن لأنها علاقة دلالية.

١٠- العشوائية، أو التواضعية

يرى بعض اللغويين القدماء ومنهم ابن جني أن اللغة جاءت نتيجة لمحاكاة الإنسان الأصوات الطبيعية من حوله، ولا تكاد تخلو لغة من لغات البشر من بعض الكلمات التي تقوم على المحاكاة كقولنا (قهقهه، وكح، وعطس)، أو قولنا (صرّ الجندب، زقزق العصفور) ومثله (شحيج الحمار ومواء القطه، ونعيق الغراب). بل ذهب بعضهم إلى أن مناسبة اللفظ لمدلوله مناسبة حتمية، غير أن اللغويين المحدثين لا يرون ذلك لأن هذه الأصوات التي تبدو وكأنها محاكاة لأصوات الطبيعة ليست سوى رموز لغوية كغيرها من الكلمات، والدليل على ذلك اختلافها من لغة لأخرى. فاللغة ليست إلا نظاماً من الرموز تواضع عليها الناس واصطلحوا لتكون وسيلة للاتصال

فيما بينهم. أي أن علاقة المعنى التي تربط الصوت بالشئ الذي يدل عليه ليست علاقة سببية، ولا شكلية، ولا طبيعية بل عشوائية اعتبارية لكنها علاقة ثابتة، فكلمة (ملح) ليست مالحة ولا كلمة (سكر) حلوة.

١١- التمايز

مخرج الحروف عند جميع بني الإنسان مصممة بالطريقة نفسها، ومع ذلك لو حصرنا جميع الأصوات في جميع اللغات البشرية في الماضي والحاضر لحصلنا على كم هائل من الأصوات اللغوية، وهذا يشير إلى أن أعضاء النطق عند الإنسان لها قدرة غير محدودة على إخراج الأصوات المختلفة، ولكن مع ذلك نجد كل لغة من اللغات تلجأ إلى استخدام عدد محدود جداً من الأصوات اللغوية لا يزيد ولا ينقص، هذه الأصوات متميزة بعضها عن بعض ومستقلة تماماً بحيث لا يمكن أن يكون هناك بين أي صوتين مهما تقاربت مخرجهما مسار متصل يتذبذب فيه الصوت بينهما بشكل متدرج لتقرب من هذا أو ذاك أو ليتخذ موقعاً وسطاً بينهما. هذا يعني أن الفروق الوظيفية بين الأصوات فروق قاطعة. نعم قد يصعب على السامع تمييز الصوت وقد يستحيل عليه الفهم نتيجة التشويش أو لأن المتكلم لا يجيد النطق ولكن لا يمكن أن يكون في اللغة صوت وسط بين صوتين متميزة عن بعضها ومنفصلة بقية الأصوات الانفصال. ويتبين ذلك في تمييز السامع بين فكلمة « سار » مثلاً تختلف اختلافاً تاماً في معناها عن كلمة « زار » أو « صار »، لما بين (السين والصاد والزاي) من اختلاف وظيفي مطلق لا تخطئه الأذن، ولا يفوت على الإدراك تحت ظروف الاتصال الملائمة، وعلى الرغم من أن الاختلاف الصوتي بين هذه الكلمات الثلاث قد يبدو اختلافاً طفيفاً نسبياً إلا أنه اختلاف قطعي ويؤدي إلى اختلاف جذري في المعنى، ومهما بدا الشبه الصوتي قريباً بين الكلمات فإن هذا

يقود إلى التشابه المعنوي. بل إن كلمة « سار » في معناها إلى « مشي » أو « ذهب »، رغم ما بين أصوات هذه الكلمات من عدم تشابه. ولو افترضنا أن ظروف الاتصال السيئة حالت دون تمييز المتلقي عما إذا كانت الكلمة التي سمعها « سار » أم « صار » فإنه أمام خيارين فقط، إما عدم الفهم أو ترجيح إحدى الكلمتين على الأخرى، مستعينا في ذلك بالسياق اللغوي. لكنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن يستنتج أن ما سمعه كلمة تحتل في لفظها وفي معناها موقعاً وسطاً بين الكلمتين أو أنها محصلة دمج الكلمتين إحداهما بالأخرى.

١٢- الإبداعية والخلق

إنَّ المتكلم بمقدوره أن يتدع بواسطة أصوات اللغة المحدودة كما لا متناهاً من الجمل التي لم يتلفظ بها من قبل لا هو ولا أحد سواه، وذلك بتوظيف عمليات القياس واستبطان قواعد اللغة في عقله اللاواعي، والأهم من ذلك أن هذه التراكيب على جذتها لا تستعصي على فهم السامع، وهكذا يستطيع الإنسان أن يعبر عن كل ظرف وعن كل موقف يجد نفسه فيه وأن يوصل إلى الآخرين أي فكرة تطرأ على باله، أو أي صورة ترسم في خيلته.

١٣- التطور والتغير

اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية هي دائمة التغير، فقد يطرأ التغير على المستوى الصوتي مثل تخلص اللهجة المصرية من (الذال، والطاء، والثاء) أو قد يطرأ على المفردات نفسها كما يطرأ التغير على المعاني للمفردات من توسيع أو تضيق .

١٤- الازدواجية

وتعني تعدد المستويات، والتي تشمل المستوى الصوتي والمستوى الصرفي، والمعجمي والمستوى النحوي، الذي يمكن من استخدام عناصر المستوى السابق وفق قواعد معينة لإنتاج جمل صحيحة.

١٥- التعبير عن المعاني المجردة

تشتمل اللغة الإنسانية على مفردات تدل على معان مجردة، نحو الصدق والكرم والأمانة، وأخرى تدل على أمور غيبية مثل الملائكة والشياطين، وأمور وهمية مثل عروس البحر والسعلاة. وهذه معان ومفاهيم لا يمكن التعبير عنها إلا من خلال اللغة.

المبحث الثالث: وظائف اللغة الإنسانية

اللغة وسيلة الفرد لقضاء حاجاته، وتنفيذ مطالبه في المجتمع، وبها يناقش شؤونه ويستفسر، ويستوضح، وتنمو ثقافته، وتزداد خبراته نتيجة لتفاعله مع البيئة التي ينضوي تحتها، فبوساطة اللغة يؤثر الفرد في الآخرين، ويستثير عواطفهم، كما يؤثر في عقولهم . وهي المستودع الثرّ لتراث الفرد، والرباط الذي يربط به أبناءه فيوحد كلمتهم، ويجمع بينهم فكراً، وهي الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر والمستقبل، وأياً ما كانت تقف الوظيفة الاتصالية في مقدمة الوظائف اللغوية، فاللغة بالدرجة الأولى وسيلة اتصال بين أفراد جماعة تؤلف بينهم على صعيد واحد، والمواقف التي يحتاج الفرد إلى استعمال اللغة للاتصال فيها مواقف كثيرة، فهي وسيلة للاتصال والتوصيل والنقل والتعبير عن الأفكار والمعاني والرغبات والانفعالات، لذا رأى بعض علماء اللغة أن اللغة تؤدي ثلاثة اغراض هي^(١٤):

أ - أنّها وسيلة للتوصيل .

ب - أنّها عون آلي للتفكير .

ج - أنّها وسيلة للتسجيل والرجوع إلى ما يسجل .

من هنا نشأت النظرية الكلاسيكية في اللغة والتي تحصر وظيفة اللغة في الغايات العقلية فهي للتوصيل، والتعبير فهي أداة عاكسة للفكر، ووسيلة للتفاهم والاتصال فقط. فقد ذكر د. السعران عدة وظائف للغة تبين أن الوظيفة الأساسية للغة ليست كونها ضرباً من توصيل الكلام، أو التعبير عن الأفكار والمعاني والأحاسيس والرغبات؛ إنما لها وظائف أخرى أكثر أهمية في رأيه هي^(١٥):

١- المونولوج (الكلام الانفرادي) ، كالقراءة بصوت عالٍ وهي بشكل عام تحديث الإنسان نفسه، والتفكير بصوت مرتفع أي أنه عندما يخلو الإنسان الى نفسه ويقوم بتحديثها فإنه لا ينقل إحساسات، أو افكارا إنَّما تستعمل اللغة بقصد التنفيس والتفريغ عن الحزن .

٢- استعمال اللغة في السلوك الجماعي، كالسلوك اللغوي الذي يصدر عن المصلين في صلاة الجمعة ، من الاستماع إلى الأذان، وتلاوة القرآن والتسبيح فهو لا ينقل أو يعبر عن أفكار وأحاسيس إنَّما هو تحقيق العبادة وأداء الفريضة .

٣- استعمال اللغة في المخاطبات الاجتماعية مثل: لغة التحيات (السلام عليكم)، و(عليكم السلام)، و(صباح الخير)، و(مساء الخير) وكذلك لغة التأدب: (شكراً)، و(عفواً) ، (من فضلك) ، و(لو سمحت)، إلى غير ذلك، فهو لا يقصد بها التعبير أو التوصيل للأفكار إنَّما هي وسائل لتوثيق صلات الناس بعضهم ببعض وكذلك إدماج المتخاطبين في علاقة اجتماعية.

٤- أيضاً ذكر وظيفة اللعب بالأصوات فهي تحرك النفوس كالموسيقى، فالنظرية الكلاسيكية في اللغة تقصر وظيفتها على توصيل الفكر والتعبير عنه على حين يرى معارضوها أنها سلسلة النشاط الإنساني المنتظم وأنها جزء من السلوك الإنساني، وأنها ضرب من العمل وليست أداة عاكسة للفكر .

٥- استعمال اللغة لإخفاء أفكار المتكلم، ويتضح هذا الاستعمال بأجلى صورته في لغة السياسة أحياناً، وفي لغة التحيات والتأدب أيضاً، وفي لغة اللصوص والخارجين عن القانون بصفة عامة، وفيما يسمى بالكلام الحرام . إنَّ الوظيفة التواصلية إنَّما هي وظيفة حسيرة المدى ، قليلة الفعل ، إذا ما قورنت بما يمكن أن يشتهه الإنسان، عامر الكون، من لغته من أدوار جمالية، وأفعال أنطولوجية تقيم الدليل على أن اللغة إنَّما هي وجود مركب

وكيان معقد وأداة ناجحة يستعملها الإنسان؛ ليقوم بها وجوده ويكتب بواسطتها نصوصاً ثرية وذاكرات قوية إليها تخزل أمثلة الإنسان الحائرة يجهر بها الصوت حيناً فتنقال أو تحجبها أبنية اللغة فتندفن ومجازاتها وتتخفى في تنميقاتها، فلا يقدر على إدراك جواهرها إلا عقل الأسرار، وكاشف الأغوار، فأتيح له الفوز بمكنون العير وبليغ الفقر يتخذها برهاناً على ثراء آله وجمال وسيلته، فتعدد الوظائف وتكاثر الأدوار .
فللغة وظائف كثيرة- غير ما تقدم ذكره-، ذكرها جاكوبسن، وهي^(١٦):

(١) الوظيفة التعبيرية : وتسمى كذلك، الوظيفة الانفعالية تتركز على المرسل، وتهدف إلى التعبير المباشر عن موقف الفاعل، مما يتحدث عنه .
(٢) الوظيفة الإفهامية : موجهة إلى المرسل إليه، تنهض بأدائها الصيغ القوية الآتية : (النداء، الأمر) .

(٣) الوظيفة المرجعية : تتصل بالسياق/ العالم .

(٤) الوظيفة التنبيهية: تنهض بأدائها، الصيغ الآتية ، (آلو...هل تفهمني، هل أنت معي...) .

(٥) الوظيفة ما بعد اللغوية: وتسمى الماورا لغوية ، فهي الكلام على الكلام، أو اللغة الواصفة .

(٦) الوظيفة الإنشائية : مدارها على الرسالة / الملفوظ .

وهذه الوظائف الست، إنما تتجهها، عناصر التواصل اللغوي الستة، وهي : (المرسل / المرسل إليه / الرسالة / السياق / المرجع / الشفرة، الكود / القناة) لذلك أسندت إلى كل عنصر من عناصر الدورة الكلامية وظيفة مخصوصة وأنيط بكل وظيفة دور معلوم عن هذه القضايا وغيرها ما تعلق منها بوظائف اللغة الست، أو ما تعلق بأركان الدورة الكلامية الستة .

وقد أضاف علماء اللسانيات المحدثون وظائف أخرى، لما ذكر، فلم

ترضهم الوظائف المسطورة والأدوار المرسمة لذلك استدرك عالم اللغة هاليداي على جاكوبسن، فعلق باللغة وظائف أخرى كي يقف الباحث في اللغة وأسرارها على ما اتصفت به أبنيتها من ديناميكية وما تختص به أشكلها من تركيب وتفقد قد لا يضبطه العدّ، ولا يأتي عليه الحد، فاللغة تبدأ تواصلية / تبليغية وتنتهي أنطولوجية / وجودية ، داخلها تسكن الذات البشرية، وبوساطتها تقول عالمها، وتسمي أشياءها، وتبني أحلامها القادمة ، وهذه الوظائف هي^(١٧) :

١. الوظيفة النفعية :

ويقصد بها استخدام اللغة للحصول على الأشياء المادية مثل : الطعام والشراب، ويلخصها هاليداي في عبارة « أنا أريد .

٢. الوظيفة التنظيمية :

ويقصد بها استخدام اللغة من أجل إصدار أوامر للآخرين ، وتوجيه سلوكهم، ويلخصها هاليداي في عبارة: أفعل كما أطلب منك .

٣. الوظيفة التفاعلية :

ويقصد بها استخدام اللغة من أجل تبادل الأمر، والأفكار بين الفرد والآخرين، ويلخصها هاليداي في عبارة: أنا وأنت .

٤. الوظيفة الشخصية :

ويقصد بها استخدام اللغة من أجل أن يعبر الفرد عن مشاعره ، وأفكاره، ويلخصها هاليداي في عبارة : إنني قادم .

٥. الوظيفة الاستكشافية :

ويقصد بها استخدام اللغة من أجل الاستفسار عن أسباب الظواهر، والرغبة في التعلم، ويلخصها هاليداي في عبارة : أخبرني عن السبب .

٦. الوظيفة التخيلية :

ويقصد بها استخدام اللغة من أجل التعبير على تخیلات وتصورات من إبداع الفرد ، وإن لم تتطابق مع الواقع ، ويلخصها هاليداي في عبارة : دعنا نتظاهر أو ندعي .

٧. الوظيفة البيانية :

ويقصد بها استخدام اللغة من أجل تمثل الأفكار والمعلومات ، وتوصيلها للآخرين ، ويلخصها هاليداي في عبارة : لدي شيء أريد إبلاغك به .

٨. وظيفة التلاعب باللغة :

ويقصد بها اللعب باللغة ، وبناء كلمات منها حتى ولو كانت بلا معنى ، ومحاولة استغلال كل إمكانيات البناء اللغوي .

٩. الوظيفة الشعائرية :

ويقصد بها استخدام اللغة لتحديد شخصية الجماعة ، والتعبير عن السلوكيات فيها ، ويلخصها هاليداي في عبارة : كيف حالك .

المبحث الرابع : الدراسة التطبيقية

في ضوء ما تقدم يمكن أن نجترح وظائف آخر غير ما ذكر من خلال استقراء كلام النبي الأعظم محمد ﷺ ، ومنها وظائف داخلية فيما تقدم ذكره آنفاً . وأهم هذه الوظائف هي :

(١) الوظيفة العقدية: عن طريقها يوظف النبي محمد ﷺ اللغة توظيفاً عقدياً لبيان العقائد الإسلامية الحقّة ، والذود عنها التي تفضي الى المحجة البيضاء وتكشف طريق الهدى ، وتدافع عن عقائد الإسلام والمسلمين ، بما لا يقبل الشك . من ذلك :

أ) الخالق لا يوصف:

قال ﷺ حين سُئل أن يصف ربه: ((إنَّ الخالق لا يوصف إلَّا بما وصف به نفسه وكيف يوصف الخالق الذي تعجز الحواس أن تدركه والأوهام أن تناله والخطرات أن تحده والأبصار الإحاطة به جل عما يصفه الواصفون نأى في قربه وقرب في نأيه كيف الكيف فلا يقال له كيف وأين الأين فلا يقال له أين هو منقطع الكيفوية والأينونية فهو الأحد الصمد كما وصف نفسه والواصفون لا يبلغون نعتَه لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ))^(١٨).

وفرت اللغة - هنا - الوسيلة التفسيرية لنقل الأفكار العقديّة بصياغة نبوية واضحة بعيدة عن التعقيد، سهولة المعنى والمبنى محملة بشحنات رسالية صادقة في الدفاع عن المعتقد .

ب) شروط التوحيد:

قال ﷺ: ((إذا قال العبد: « لا إله إلا الله » فينبغي أن يكون معه تصديق، وتعظيم، وحرمة، فإذا قال: « لا إله إلا الله » ولم يكن، تعظيم فهو مبتدع، وإذا لم يكن معه حلاوة فهو مرء، وإذا لم يكن معه حرمة فهو فاسق))^(١٩).
اللغة تلفت نظر المرسل اليه وتشده نحو الوحدانية الخالصة والشريعة السمحة وبيان عظمة الخالق .

ج) رحمة الله :

قال ﷺ: ((إن رجلين كانا في بني إسرائيل ، أحدهما مجتهد في العبادة و الآخر مذنب ، فجعل يقول المجتهد : أقصر عما أنت فيه ، فيقول : خلني وربي ، حتى وجده يوما على ذنب استعظمه ، فقال : أقصر ، قال : خلني وربي ، أبعثت علي رقيباً ؟ فقال : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة . فبعث الله إليهما ملكاً فقبض أرواحهما فاجتمعا عنده ، فقال للمذنب :

ادخل الجنة برحمتي ، وقال للآخر : أستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي ؟ فقال : لا يا رب . قال : اذهبوا به إلى النار)) (٢٠) .

وظّف ﷺ اللغة لجعلها أداة لنقل المعلومات الخبرية الى المتلقين بهدف التأثير في سلوكهم وتصحيح أفكارهم ، وأن الله بيده الأمر من قبل ومن بعد .
(د) لا جبر ولا اختيار

قال ﷺ : ((إنّ الله لا يطاع جبراً ولا يعصى مغلوباً ، ولم يهمل العباد من المملكة ولكنه القادر على ما أقدرهم عليه والمالك لما ملكهم إياه ، فإن العباد إن ائتمروا بطاعة الله لم يكن منها مانع ولا عنها صاد ، وإن عملوا بمعصيته فشاء أن يحول بينهم وبينها فعل وليس من أن شاء أن يحول بينه وبين شيء فعل ، ولم يفعله فأتاه الذي فعله كان هو الذي أدخله فيه)) (٢١) .
أخرج الرسول ﷺ عن طريق اللغة العقيدة الفاسدة التي قد يتعرض لها المسلمون ، فحاول إبراز عملية التفكير ، وإيضاح العقائد بإظهارها من حيز الكتمان الى حيز التصريح والتوضيح .

(هـ) الخاتمة:

قال ﷺ : ((فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بَسْتُ : أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً ، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً ، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ)) (٢٢) .

حاول ﷺ أن يثبت هويته وكيانه الشخصي عبر أداة اللغة ، وفي الوقت نفسه يظهر العقيدة الحقّة التي يجب على المسلمين الالتزام بها .

(و) الاصطفاء:

قال ﷺ : ((إنّ الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من إسماعيل كنانة واصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم)) (٢٣) .

يشير النبي ﷺ وهو خلاصة الخلاصة ، ومصطفى الخلق كله ، أن اصطفاؤه إلهي لا بشري ، وأنه بعث هاديا ومبشراً ، وأن تفضيل الخالق له هو كرامة له ومحفز على اتباعه والتمسك به .

(ز) الإمامة بعد رسول الله :

قال ﷺ لعمار بن ياسر : ((إنه سيكون بعدي هنات حتى يختلف السيف فيما بينهم وحتى يقتل بعضهم بعضاً ، وحتى يتبرأ بعضهم من بعض ، فإذا رأيت ذلك فعليك بهذا الأصلع عن يميني علي بن أبي طالب فإن سلك الناس كلهم وادياً فاسلك وادي علي وخل عن الناس يا عمار : إنَّ علياً لا يردك عن هدى ولا يردك إلى ردى يا عمار : طاعة علي طاعتي ، وطاعتي طاعة الله)) (٢٤) .

أسهمت اللغة في النص الرسالي في دعم عملية التفكير ، والتأمل والمراجعة لدى المتلقي ووجوب التمسك بالقطب المحوري الذي يشير إليه المرسل ؛ لأنه لا يدخل في ضلال ولا يخرج من نور ، بل يهديهم الصراط ويجنبهم المخاطر ، وتكمن أهمية ذلك من خلال التمسك بالخليفة الشرعي المنصوص عليه .

(ح) الأئمة بعد الرسول ﷺ :

قال ﷺ : ((الْأَئِمَّةُ بَعْدِي اثْنَا عَشَرَ : أَوْهُمْ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَآخِرُهُمُ الْقَائِمُ فَهُمْ خُلَفَائِي وَأَوْصِيَائِي ، وَأَوْلِيَائِي وَحُجَجُ اللَّهِ عَلَى أُمَّتِي بَعْدِي الْمُقَرَّبِينَ مِنْهُمْ مُؤْمِنٌ وَالْمُنْكَرُ لَهُمْ كَافِرٌ)) (٢٥) .

زوّد هذا النص المتلقي بزيادة الخزين الفكري العقدي وبين له عبر بوابة اللغة الدور الفعال للأئمة في الحياة الاجتماعية ، وإعادة تحديد وترتيب الأفكار التي يجب أن تؤخذ من منابعها الصافية أي من أهلها الحقيقيين ، فصاغ ذلك بلغة سلسلة وأسلوب جلي وفكرة ناصعة فتبلور النص عن وجوب الالتزام بهم ﷺ .

٢) الوظيفة الدعوية: يستعمل النبي اللغة من أجل الدعوة إلى الايمان بالله وملائكته، وكتبه ورسله، وأوليائه، بما يرسم لهم السعادة في الدارين ويهديهم إلى سبيل الرشاد. من ذلك

قال ﷺ: ((يا معشر قريش، يا معشر العرب، أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وأمركم بخلع الانداد والاصنام فأجيئوني تملكون بها العرب، وتدين لكم العجم، وتكونون ملوكا في الجنة)) (٢٦). استطاع النبي ﷺ عبر لغة النص أن ينقل إلى بني قومه وأهله المعلومات الدينية الجديدة والمتنوعة ذات الشحنات العاطفية باستخدام الأسلوب التعبيري المباشر لبيان الحقيقة والتعبير عنها بشكل الناصح والأب الشفيق من خلال الحيوية التي يستخدم فيها المفردات اللغوية المؤثرة.

٣) الوظيفة العبادية: يوظف النبي محمد ﷺ اللغة توظيفاً عبادياً لبيان أحكام الشريعة الاسلامية التي يجب على المسلم أن يلتزم بها، أو يتجنبها، أو يبيحها له، بأسلوب راعى فيه كل الاعتبارات، والمستويات، فيختار أحسنها وأفضلها، وأوقعها في نفس المخاطب وأقربها إلى فهمه وعقله، وأشدها تثبيتاً للدين والتمسك به.

(أ) الواجبات:

قال ﷺ: ((إِنَّ عَمُودَ الدِّينِ الصَّلَاةُ وَهِيَ أَوَّلُ مَا يُنْظَرُ فِيهِ مِنْ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ، فَإِنْ صَحَّتْ نُظِرَ فِي عَمَلِهِ، وَإِنْ لَمْ تَصَحَّ لَمْ يُنْظَرِ فِي بَقِيَّةِ عَمَلِهِ)) (٢٧).

أظهرت اللغة النبوية فلسفة الدين وركنه المهم عبر نظام العبادات الذي شرعه الاسلام الحنيف لما للعبادات من دور كبير في الإسلام من أجل تزكية النفس البشرية وربطها بخالقها في كل مستوياتها؛ لتضفي على العابد ملامح الاقرار والاعتراف بالربوبية للخالق الواحد، لتذليل النفس اللوامة والأماراة لطيعا النفس المطمئنة؛ لأجل الرقي والكمال.

ب) المستحبات:

قال ﷺ: ((لَوْ لَا أَنْ أَشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ عِنْدَ وُضُوئِهِمْ كُلِّ صَلَاةٍ)) (٢٨) .

يكشف هذا النص بلغته عن المندوب العبادي المنظم لعلاقة الفرد بربه المقتضي التقرب إليه بالأقوال والأفعال والخضوع لأوامره والإقرار بربوبيته وعبادته بتشريع نظر فيه المشرع الى فطرة الإنسان وإلى استعداداته وطاقاته وما يسعده في حياته وبعد وفاته .

ج) المكروهات :

قال ﷺ: ((إِنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَرِهَ لَكُمْ أَيْتُهَا الْأُمَّةُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ خَصْلَةً وَنَهَاكُمْ عَنْهَا:

كَرِهَ لَكُمْ الْعَبَثَ فِي الصَّلَاةِ، وَكَرِهَ الْمُنَّ فِي الصَّدَقَةِ وَكَرِهَ الضَّحِكَ بَيْنَ الْقُبُورِ، وَكَرِهَ التَّطَلُّعَ فِي الدُّورِ وَكَرِهَ النَّظَرَ إِلَى فُرُوجِ النِّسَاءِ وَقَالَ يُورِثُ الْعَمَى، وَكَرِهَ الْكَلَامَ عِنْدَ الْجَمَاعِ وَقَالَ يُورِثُ الْحَرَسَ وَكَرِهَ النَّوْمَ قَبْلَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، وَكَرِهَ الْحَدِيثَ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ وَكَرِهَ الْغُسْلَ تَحْتَ السَّمَاءِ بِغَيْرِ مَنَزَرٍ وَكَرِهَ الْمَجَامَعَةَ تَحْتَ السَّمَاءِ، وَكَرِهَ دُخُولَ الْأَنْهَارِ بِلَا مَنَزَرٍ وَقَالَ فِي الْأَنْهَارِ عُمَارٌ وَسُكَّانٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَكَرِهَ دُخُولَ الْحَمَامَاتِ إِلَّا بِمَنَزَرٍ وَكَرِهَ الْكَلَامَ بَيْنَ الْأَذَانِ وَالْإِقَامَةِ فِي صَلَاةِ الْغَدَاةِ حَتَّى تُقْضَى الصَّلَاةُ وَكَرِهَ رُكُوبَ الْبَحْرِ فِي هَيْجَانِهِ، وَكَرِهَ النَّوْمَ فَوْقَ سَطْحٍ لَيْسَ بِمُحَجَّرٍ وَقَالَ مَنْ نَامَ عَلَى سَطْحٍ غَيْرِ مُحَجَّرٍ بَرِئَتْ مِنْهُ الدِّمَةُ، وَكَرِهَ أَنْ يَنَامَ الرَّجُلُ فِي بَيْتٍ وَحْدَهُ وَكَرِهَ لِلرَّجُلِ أَنْ يَغْشَى امْرَأَتَهُ وَهِيَ حَائِضٌ فَإِنْ غَشِيَهَا فَخَرَجَ الْوَلَدُ مَجْدُومًا أَوْ أَبْرَصَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَغْشَى الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ وَقَدْ احْتَلَمَ حَتَّى يَغْتَسِلَ مِنْ احْتِلَامِهِ الَّذِي رَأَى فَإِنْ فَعَلَ وَخَرَجَ الْوَلَدُ مَجْنُونًا فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَكَرِهَ أَنْ يُكَلِّمَ الرَّجُلُ مَجْدُومًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ

وَبَيْنَهُ قَدْرُ ذِرَاعٍ وَقَالَ فِرٌّ مِنَ الْمُجْدُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ وَكَرِهَ الْبُولَ عَلَى شَطِّ نَهْرٍ جَارٍ، وَكَرِهَ أَنْ يُحْدِثَ الرَّجُلُ تَحْتَ شَجَرَةٍ مُثْمِرَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ أَوْ نَخْلَةٍ قَدْ أَيْنَعَتْ يَعْنِي أُنْمَرَتْ وَكَرِهَ أَنْ يَتَنَعَّلَ الرَّجُلُ وَهُوَ قَائِمٌ، وَكَرِهَ أَنْ يَدْخُلَ الرَّجُلُ الْبَيْتَ الْمُظْلِمَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ سِرَاجٌ أَوْ نَارٌ وَكَرِهَ النَّفْخَ فِي الصَّلَاةِ)) (٢٩) .

راعى ﷺ بلغته الجذابة وأسلوبه الفصيح الجانب التشريعي للمسلمين؛ لئلا يسمو بهم نحو الكمال بالابتعاد عما طلبه الشرع من غير جزم فيما ينسجم مع تعاليم وأحكام الإسلام الحنيف، فكل عمل عبادي أثر اصلاحي على صحة الجسم والنفس والأخلاق، والعلاقة مع الخالق، فالصلاة والصيام، والزكاة والحج، والطهارة عبادات ذات مردود إصلاحي نفسي وجسدي، زد على ذلك أثره التكاملي في النظام الاجتماعي .

٤) الوظيفة البيانية (الإفهامية)، يقصد بها استعمال النبي اللغة من أجل تبين الأفكار، والمعلومات، وتوصيلها إلى الناس عامة، وشيعته ومحبيه خاصة . من ذلك قوله ﷺ:

((يا علي: إنَّ للمؤمن ثلاث علامات: الصيام، والصلاة، والزكاة، وإنَّ للمتكلف من الرجال ثلاث علامات: يتملق إذا شهد، ويغتَاب إذا غاب، ويشمت بالمصيبة وللظالم ثلاث علامات يقهر من دونه بالغبلة، ومن فوقه بالمعصية، ويظهر الظلمة للمرائي ثلاث علامات: ينشط إذا كان عند الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويجب أن يحمد في جميع الأمور، وللمنافق ثلاث علامات: إن حدث كذب، وإن أوْثَمَن خان، وإن وعد أخلف، وللكسلان ثلاث علامات: يتوانى حتى يفرط، ويفرط حتى يضيع، ويضيع حتى يَأْثَمَ وليس ينبغي للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مَرْمَةٌ لمعاش، أو خطوة لمعاد، أو لذة في غير محرم .

يا علي: إنه لا فقر أشد من الجهل، ولا مال أعود من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عمل كالتدبير، ولا ورع كالکف ولا حسب كحسن الخلق، إن الكذب آفة الحديث، وآفة العلم النسيان وآفة السباحة المن . يا علي: إذا رأيت الهلال فكبر ثلاثاً وقل: الحمد لله الذي خلقني وخلقك قدرك منازل وجعلك آية للعالمين . يا علي: إذا نظرت في مرآة فكبر ثلاثاً وقل: اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي . يا علي: إذا هالك أمر فقل: اللهم بحق محمد وآل محمد إلا فرجت عني))^(٣٠) .

إذا كانت اللغة تراكيب يستعملها الناطقون باختلافات متباينة، وبصيغ مختلفة فهي بحاجة لمستعمل يُتقن استعمالها للتأثير على المتلقين، وقد كانت هذه الميزة في خطابه ﷺ إذ قصد بالوظيفة البيانية استغلال كل إمكانيات النظام اللغوي؛ لاستمالة مستمعيه لاتباعه في مختلف جوانب الحياة الدينية والدينية فهو - هنا - من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، فهو يوصي الإمام علي عليه السلام ظاهراً والمقصود به المسلمون جميعاً، فقد رسم منهجاً أخلاقياً يصلح الفرد نفسياً ويوجهه نحو الخير والإحسان وأداء الواجبات وترك المحرمات، ويرشده إلى مكارم الأخلاق التي توفر له حياة سليمة يضمن فيها الفرد المسلم الاحترام .

٥) الوظيفة التنظيمية (الإبلاغية)، يستعمل النبي اللغة من أجل توجيه سلوك عماله، ومتابعيه، ورعيته نحو الصواب والهدف الأسمى المقصود الذي فيه رضا الله وطاعته . ومن ذلك قوله ﷺ: لمعاذ بن جبل لما بعثه إلى اليمن: ((يا معاذ: علمهم كتاب الله، وأحسن أدبهم على الأخلاق الصالحة، وأنزل الناس منازلهم خيرهم وشرهم وأنفذ فيهم أمر الله، ولا تحاش في أمره ولا ماله أحداً فإنها ليست بولايتك، ولا مالك وأد إليهم الأمانة في كل قليل وكثير، وعليك بالرفق والعفو في غير ترك للحق يقول الجاهل

قد تركت من حق الله واعتذر إلى أهل عملك من كل أمر خشيت أن يقع إليك منه عيب حتى يعذروك، وأمت أمر الجاهلية إلا ما سنه الإسلام، وأظهر أمر الإسلام كله صغيره وكبيره، وليكن أكثر همك الصلاة فإنها رأس الإسلام بعد الإقرار بالدين وذكر الناس بالله واليوم الآخر، واتبع الموعظة فإنه أقوى لهم على العمل بما يحب الله ثم بث فيهم المعلمين واعبد الله الذي إليه ترجع ولا تخف في الله لومة لائم، وأوصيك بتقوى الله وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وترك الخيانة ولين الكلام وبذل السلام، وحفظ الجار ورحمة اليتيم وحسن العمل وقصر الأمل وحب الآخرة، والجزع من الحساب ولزوم الإيمان والفقہ في القرآن، وكظم الغيظ وخفض الجناح وإياك أن تشتم مسلماً أو تطيع آثماً أو تعصي إماماً عادلاً أو تكذب صادقاً أو تصدق كاذباً، واذكر ربك عند كل شجر وحجر وأحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية، يا معاذ: لولا أنني أرى ألا نلتقي إلى يوم القيامة لقصرت في الوصية، ولكنني أرى أن لا نلتقي أبداً، ثم اعلم يا معاذ: أن أحبكم إلي من يلقاني على مثل الحال التي فارقني عليها))^(٣١)

ليس للغة كيان من دون الانسان؛ لأن اللغة من الحياة الانسانية، وللحياة الانسانية ومن دون الانسان لا كيان لها، فإن عاش عاشت، وإن مات مات، لذا ركز ﷺ في مهمته التبليغية على اللغة بوصفها جزءاً من كيان الفرد الانساني، واستعملها وفق متطلبات الدعوة الاسلامية الحقّة التي رسمت معالم الانسان السوي والمجتمع الانساني الاسلامي الأرقى الذي مثلت القرآن وتعاليمه الهدف الاسمي لرسم الطريق الصحيح للمسلمين لينعموا بالحياة الكريمة ولكي تسود العدالة والمساواة بين أفرادهم؛ لذا جاء خطابه مطابقاً لما في الدين من معالم واخلاق.

(٦) الوظيفة التراثية: يستعمل النبي اللغة من أجل نقل التراث الفكري الصادر عن الأنبياء والأولياء والصالحين ﷺ، وهو في هذا يسهم بحفظ التراث الفكري من الضياع ويربط ماضي الفكر بحاضره، ويقدم ترجمة صحيحة للفكرة بأيد أمينة . من ذلك قوله ﷺ:

((إنَّ عيسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فقال: يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم، ولا تكافئوا ظالماً فيظلم فضلكم، يا بني إسرائيل: الأمور ثلاثة: أمر بين رشه فاتبعوه، وأمر بين غيه فاجتنبوه، وأمر اختلف فيه فردوه إلى الله، أيها الناس: إن لكم معالم فانتبهوا إلى معالمكم، وإن لكم نهاية فانتبهوا إلى نهايتكم، إن المؤمن بين مخافتين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه فليأخذ العبد لنفسه من نفسه ومن دنياه لآخرته، ومن الشيبة قبل الكبر، ومن الحياة قبل الموت، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب، وما بعد الدنيا دار إلا الجنة والنار)) (٣٢).

مثّل خطابه ﷺ في نقل التراث حلقة وصل بين الأجيال السابقة واللاحقة لتتصل الحلقات الثقافية المعرفية (الدينية وغيرها) والإفادة منها بنقل الخبرات الفكرية والنمط العقلي؛ لأنّ اللغة تبلور الخبرات البشرية، وتجارب الشعوب وتدون التراث الحضاري والثقافي للأمم، فعيسى عليه السلام روح الله وكلمته مثلت إبلاغاً أخلاقياً ومنهجاً معرفياً ينير درب العارفين .

(٧) الوظيفة التعليلية (السببية): عن طريقها يستعمل النبي اللغة من أجل إيضاح العلل والأسباب التي قد تخفى على القارئ أو السامع، والتي لا يمكن الاهتمام إلى العلة الصحيحة المطلوبة، سواء أكانت في عباداته أم معاملاته، أو عقائده فيكشف الستار عنها، ويبينها . من ذلك قوله ﷺ:

((تعلموا العلم فإنّ تعلمه حسنة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه

جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة ؛ لأنه معالم الحلال والحرام ، وسالك بطالبه سبيل الجنة، وهو أنيس في الوحشة، وصاحب في الوحدة، ودليل على السراء والضراء، وسلاح على الأعداء، وزين للأخلاء ، يرفع الله به أقواما يجعلهم في الخير أئمة يقتدى بهم، ترمى أعمالهم، وتقتبس آثارهم، وترغب الملائكة في خلتهم، يمسحونهم في صلاتهم بأجنحتهم ، ويستغفر لهم كل شيء حتى حيتان البحور وهوامها، وسباع البر وأنعامها ؛ لان العلم حياة القلوب، ونور الابصار من العمى، وقوة الابدان من الضعف ، ينزل الله حامله منازل الاخيار، ويمنحه مجالس الابرار في الدنيا والآخرة، بالعلم يطاع الله ويعبد، وبالعلم يعرف الله ويؤخذ، وبالعلم توصل الراحام، وبه يعرف الحلال والحرام، والعلم امام العمل والعمل تابعه، يلهمه الله السعداء ويحرمه الاشقياء)) (٣٣) .

في النص شكّل الخطاب النبوي اللغوي عاملاً مهماً في نمو لغة الفرد المسلم ، ومحاولة حثه على التزود بالمعارف لتتسع مداركه وأفاقه الذهنية التي يكسب بها مخزوناً معرفياً فضلاً عن الطاقة الروحية التي تتبع ذلك؛ ليخلق الى مراتب السمو والجلال .

٨) الوظيفة التحفيزية (الترغيبية): يستعمل النبي اللغة من أجل شدّ المسلمين نحو التزود بالمعارف والعلوم الدينية، والأخلاقية، والفكرية التي تسهم في ارتقائهم نحو الكمال والفضائل . من ذلك قوله ﷺ: ((مَا لِي أَرَى حُبَّ الدُّنْيَا قَدْ غَلَبَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِهِمْ كُتِبَ وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا عَلَى غَيْرِهِمْ وَجَبَ وَحَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَسْمَعُوا وَيَرَوْا مِنْ خَيْرِ الْأَمْوَاتِ قَبْلَهُمْ سَبِيلُهُمْ سَبِيلُ قَوْمٍ سَفَرٍ عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْهِمْ رَاجِعُونَ بَيُوتُهُمْ أَجْدَاثُهُمْ وَيَأْكُلُونَ تَرَائِثَهُمْ فَيَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ أَمَا يَتَعَبَّأُ آخِرُهُمْ بِأَوَّلِهِمْ لَقَدْ جَهِلُوا

وَنَسُوا كُلَّ وَاعِظٍ فِي كِتَابِ اللّٰهِوَأَمَنُوا شَرَّ كُلِّ عَاقِبَةٍ سُوِّءٍ وَلَمْ يَخَافُوا نُزُولَ فَادِحَةٍ وَبَوَاقٍ حَادِثَةٍ.

طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ خَوْفُ اللّٰهِعَزَّ وَجَلَّ عَنْ خَوْفِ النَّاسِ طُوبَى لِمَنْ مَنَعَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِخْوَانِهِ طُوبَى لِمَنْ تَوَاضَعَ لِلّٰهِ عَزَّ ذِكْرُهُ وَزَهَدَ فِيْمَا أَحَلَّ اللّٰهُ لَهُ مِنْ غَيْرِ رَغْبَةٍ عَنْ سِيرَتِي وَرَفَضَ زَهْرَةَ الدُّنْيَا مِنْ غَيْرِ تَحَوُّلٍ عَنْ سُتَّتِي وَاتَّبَعَ الْأَخْيَارَ مِنْ عِثْرَتِي مِنْ بَعْدِي وَجَانَبَ أَهْلَ الْخِيَلَاءِ وَالتَّفَاخُرِ وَالرَّغْبَةِ فِي الدُّنْيَا الْمُتَبَدِّعِينَ خِلَافَ سُتَّتِي الْعَامِلِينَ بِغَيْرِ سِيرَتِي طُوبَى لِمَنْ اكْتَسَبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مَالًا مِنْ غَيْرِ مَعْصِيَةٍ فَأَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ وَعَادَ بِهِ عَلَى أَهْلِ الْمُسْكَنَةِ طُوبَى لِمَنْ حَسَنَ مَعَ النَّاسِ خُلُقَهُ وَبَدَّلَ هُمْ مَعُونَتَهُ وَعَدَلَ عَنْهُمْ شَرَّهُ طُوبَى لِمَنْ أَنْفَقَ الْقَصْدَ وَبَدَّلَ الْفُضْلَ وَأَمْسَكَ قَوْلَهُ عَنِ الْفُضُولِ وَقَبِيحِ الْفِعْلِ)) (٣٤).

عمل النبي ﷺ في خطابه على استخدام الكلمات الهادفة، والمؤثرة التي من خلالها يظهر التأثير على سلوك وتصرفات المتلقين، وعلى طريقة اختيارهم للأفكار والمواقف المطلوب الوصول إليها، والتي تلامس أفكارهم ومشاعرهم، وتجذبهم نحو أوامره واتباعها وتجنبهم عن نواهيها وتركها. (٩) الوظيفة التفاعلية: ويقصد بها استخدام اللغة من أجل تبادل الأمر، والأفكار بين النبي والمسلمين، ليقدم لهم عصارة تجربته الدينية، وخلاصة التعاليم الإسلامية التي يجب أن يتمسكوا بها ويسيروا بهديها. من ذلك قوله ﷺ في حجة الوداع:

((الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على العمل بطاعته،

وأستفتح الله بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس اسمعوا مني ابين لكم، فاني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيها الناس إن دماءكم وأعراضكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبداً به ربا العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبداً به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية، والعمد قود، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من الجاهلية. أيها الناس إن الشيطان قد أيس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضي بأن يطاع فيما سوى ذلك فيما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض وإن عدة الشهور عند الله اثني عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متوالية وواحد فرد، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب بين جمادى وشعبان الأهل بلغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقا ولكم عليهن حقا حقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بأذنكم وأن لا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعضلوهن وتجهروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإذا انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكتاب الله، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا. أيها الناس إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لمؤمن مال أخيه إلا من طيب

نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعن [بعدي] كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد كلكم لادم وآدم من تراب إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم، قال: فليبلغ الشاهد الغائب. أيها الناس إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا يجوز لمورث وصية أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه ومن تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ولا يقبل الله منه صرفا ولا عدلا، والسلام عليكم ورحمة الله ((٣٥)).

لا يمكن للفرد أن يعيش وحيداً من دون أن يتفاعل مع الآخرين ويتفاعلون معه؛ لذا وظّف ﷺ اللغة لتكون سلباً نحو التأثير في المسلمين من طريقها يتعرف إلى أحوالهم وأفكارهم، وقدراتهم ليحفزها ويؤثر فيها، ويتواصل معها؛ ليحقق الهدف المنشود، وهي جزء من رسالته التي ما فتئ يستخدمها في المناسبات المختلفة.

١٠) الوظيفة الحجاجية: يستعمل النبي اللغة من أجل الذود عن حياض الإسلام والمسلمين والحفاظ على العقائد الإسلامية الصحيحة والراسخة، بأسلوب فكري رصين متين لا تشوبه الشوائب ولا يمكن الاعتراض عليه؛ فينعكس ذلك على المتلقي بالقبول والإذعان. من ذلك: ((قال أبو محمد الحسن العسكري (عليه السلام): لما نزلت هذه الآية ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ البقرة: ٧٤. في حق اليهود والنواصب فغلظ على اليهود ما وبخهم به رسول الله، فقال جماعة من رؤسائهم وذوي الألسن والبيان منهم: يا محمد إنك تهجوننا وتدعي

على قلوبنا ما الله يعلم منها خلافه، إن فيها خيرا كثيرا نصوم ونتصدق ونواسي الفقراء.

فقال رسول الله ﷺ: إنما الخير ما أريد به وجه الله وعمل على ما أمر الله تعالى، وأما ما أريد به الرياء والسمعة ومعاندة رسول الله ﷺ وإظهار الغنى له والتمالك والتشرف عليه فليس بخير بل هو الشر الخالص ووبال على صاحبه ويعذبه الله به أشد العذاب.

فقالوا له: يا محمد أنت تقول هذا ونحن نقول بل ما نتفقه إلا لإبطال أمرك ودفع رياستك ولتفريق أصحابك عنك وهو الجهاد الأعظم نأمل به من الله الثواب الأجل العظيم، فأقل أحوالنا إنك تساويننا في الدعاوى فأى فضل لك علينا؟.

فقال رسول الله ﷺ: يا إخوة اليهود إن الدعاوى يتساوى فيها المحقون والمبطلون، ولكن حجج الله ودلائله تفرق بينهم فتكشف عن تمويه المبطلين وتبين عن حقائق المحقين، ورسول الله محمد لا يغتم بجهلكم ولا يكلفكم التسليم له بغير حجة، ولكن يقيم عليكم حجة الله التي لا يمكنكم دفاعها ولا تطيقون الامتناع عن موجبها، ولو ذهب محمد ويريكم آية من عنده لشككتكم وقتلتم إنه متكلف مصنوع محتمل فيه معمول أو متواطئ عليه، وإذا اقترحتم أنتم فأراكم ما تقترحون لم يكن لكم أن تقولوا معمول أو متواطئ عليه أو متأت بحيلة أو مقدمات، فما الذي تقترحون فهذا رب العالمين قد وعدني أن يظهر لكم ما تقترحون ليقطع معاذير الكافرين منكم ويزيد في بصائر المؤمنين منكم.

قالوا: قد أنصفتنا يا محمد فإن وفيت بما وعدت من نفسك من الإنصاف فأنت أول راجع عن دعواك للنبوة وداخل في غمار الأمة ومسلم لحكم التوراة لعجزك عما تقترحه عليك وظهور باطل دعواك فيما ترومه

من حجتك.

فقال رسول الله ﷺ: الصدق ينبئ عنكم لا الوعيد، اقترحوا ما تقترحون ليقطع معاذيركم فيما تسألون. فقالوا له: يا محمد زعمت أنه ما في قلوبنا شيء من مواساة الفقراء ومعاونة الضعفاء والنفقة في إبطال الباطل وإحقاق الحق وأن الأحجار ألين من قلوبنا وأطوع لله منا، وهذه الجبال بحضرتنا فهلم بنا إليها أو إلى بعضها فاستشهدها على تصديقك وتكذيبنا، فإن نطقت بتصديقك فأنت المحق يلزمنا اتباعك وإن نطقت بتكذيبك أو صمتت فلم ترد جوابك فاعلم بأنك المبطل في دعواك المعاند لهواك.

فقال رسول الله ﷺ: نعم هلموا بنا إلى أيما جبل شئتم استشهدوه ليشهد لي عليكم، فخرجوا إلى أوعر جبل رأوه فقالوا: يا محمد هذا الجبل فاستشهده. فقال رسول الله ﷺ: إني أسألك بجاه محمد وآله الطيبين الذين بذكر أسمائهم خفف الله العرش على كواهل ثمانية من الملائكة بعد أن لم يقدروا على تحريكه وهم خلق كثير لا يعرف عددهم غير الله عز وجل، وبحق محمد وآله الطيبين الذين بذكر أسمائهم تاب الله على آدم وغفر خطيئته وأعادته إلى مرتبته، وبحق محمد وآله الطيبين الذين بذكر أسمائهم وسؤال الله بهم رفع إدريس في الجنة مكاناً علياً لما شهدت لمحمد بما أودعك الله بتصديقه على هؤلاء اليهود في ذكر قساوة قلوبهم وتكذيبهم في جحدهم لقول محمد رسول الله.

فتحرك الجبل وتزلزل وفاض عنه الماء ونادى: يا محمد أشهد أنك رسول رب العالمين وسيد الخلق أجمعين، وأشهد أن قلوب هؤلاء اليهود كما وصفت أقسى من الحجارة لا يخرج منها خير كما قد يخرج من الحجارة الماء سيلاً أو تفجراً، وأشهد أن هؤلاء كاذبون عليك فيما به يقرفونك من الفرية على رب العالمين.

ثم قال رسول الله ﷺ: وأسألك أيها الجبل أمرك الله بطاعتي فيما ألتسمه منك بجاه محمد وآله الطيبين الذين بهم نجى الله نوحا من الكرب العظيم وبرد الله النار على إبراهيم وجعلها عليه بردا وسلاما ومكنه في جوف النار على سرير وفراش وثير لم ير تلك الطاغية مثله لأحد من ملوك الأرض أجمعين، وأنبت حواليه من الأشجار الخضرة النظرة التزهة وعمّا حوله من أنواع التور مما لا يوجد إلا في فصول أربعة من جميع السنة؟

قال الجبل: بلى أشهد لك يا محمد بذلك، وأشهد أنك لو اقترحت على ربك أن يجعل رجال الدنيا قرودا وخنازير لفعل، أو يجعلهم ملائكة لفعل، أو يقلب النيران جليدا أو الجليد نيرانا لفعل أو يهبط السماء إلى الأرض أو يرفع الأرض إلى السماء لفعل، أو يصير أطراف المشارق والمغارب والوهاد كلها صرة كصرة الكيس لفعل، وأنه قد جعل الأرض والسماء طوعك، والجبال والبحار تتصرف بأمرك، وسائر ما خلق من الرياح والصواعق وجوارح الإنسان وأعضاء الحيوان لك مطيعة وما أمرتها به من شيء ائتمرت.

فقال اليهود: يا محمد علينا تلبس وتشبه، قد أجلسرت مرده من أصحابك خلف صخور من هذا الجبل فهم ينطقون بهذا الكلام ونحن لا ندرى أنسمع من الرجال أم من الجبل، لا يغتر بمثل هذا إلا ضعفاؤك الذين تبجج في عقولهم فإن كنت صادقاً فتنح عن موضعك هذا إلى ذلك القرار وأمر هذا الجبل أن ينقلع من أصله فيسير إليك إلى هناك، فإذا حضرك ونحن نشاهده فأمره أن ينقطع نصفين من ارتفاع سمكه ثم يرتفع السفلى من قطعيته فوق العليا وتنخفض العليا تحت السفلى، فإذا تجعل أصل الجبل قلته وقتله أصله لنعلم أنه من الله، لا يتفق مثله بمواطأة ولا بمعاونة موهين متمردين.

فقال رسول الله ﷺ - وأشار إلى حجر فيه قدر خمسة أرتال - فقال:

يا أيها الحجر تدرج، فتدرج ثم قال لمخاطبه: خذه وقربه من أذنك فسيعيد عليك ما سمعت، فإن هذا جزء من ذلك الجبل، فأخذه الرجل فأدناه إلى إذنه فنطق الحجر بمثل ما نطق به الجبل أولاً من تصديق رسول الله ﷺ فيما ذكره عن قلوب اليهود ومما غبر به من أن نفقاتهم في دفع أمر محمد ﷺ باطل ووبال عليهم.

فقال له رسول الله ﷺ: أسمعت هذا أخلف هذا الحجر أحد يكلمك ويوهمك أن الحجر يكلمك؟ قال: فأتني بما اقترحت في الجبل فتباعد رسول الله وأصلك ذروتك. فقال الجبل: أأمرني بذلك يا رسول رب العالمين؟ قال: بلى فانقطع نصفين وانحط أعلاه إلى الأرض وارتفع أسفله فوق أعلاه فصار فرعه أصله وأصله فرعه، ثم نادى الجبل: يا معاشر اليهود هذا الذي ترون دون معجزات موسى الذين تزعمون أنكم به مؤمنون؟.

فنظر اليهود بعضهم إلى البعض، فقال بعضهم: ما عن هذا محيص، وقال آخرون منهم: هذا رجل منجوت مؤتى له ما يريد - والمنجوت يتأتى له العجائب - فلا يغرنك ما تشاهدون. فناداهم الجبل: يا أعداء الله قد أبطلتم بما تقولون نبوة موسى، هلا قلتم لموسى إن قلب العصا ثعبانا وانفلاق البحر طرقا ووقوف الجبل كالظلة فوقكم إنما تأتى لك لأنك مؤتى لك يأتيك جدك بالعجائب فلا يغرننا ما نشاهده، فألقمتهم الجبال بمقاتلتها والصخور ولزمتهم حجة رب العالمين))^(٣٦).

مثل خطابه المشفوع بالقرآن حجة سلطة على المتلقين، فهو الأداة التي يبلغ بها المخاطب غايته وبها يتحصل مقصده، زد على ذلك استعماله استراتيجية اقناع ممثلة بالخطاب المدعوم بالحجج وقوة التأثير، وقدم طروحات تدعو العقل الى التدبر والتفكر الموضوعي بغية بناء الرأي

الصائب؛ لتدفع المخاطب الى التأمل من أجل الحصول على الإقرار بالحقائق التي يريدها النبي .

(١١) الوظيفة التفسيرية: يستعمل النبي اللغة من أجل ايضاح وبيان مقاصد آيات القرآن الكريم وبيان المفاهيم، والأسرار التي تتضمنها الآيات الشريفة بأسلوب واضح ومعنى جزل . من ذلك:

((عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما أنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ: ((إِنَّمَا الْحُمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ)) .

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْمَيْسِرُ؟

فَقَالَ: كُلُّ مَا تَقُومَر بِهِ حَتَّى الْكَعَابُ وَالْجُوزُ،

قِيلَ: فَمَا الْأَنْصَابُ؟

قَالَ: مَا ذَبَحُوهُ لِأَهْلِيهِمْ،

قِيلَ: فَمَا الْأَزْلَامُ قَالَ قَدَّاحُهُمُ الَّتِي يَسْتَقْسِمُونَ بِهَا)) (٣٧) .

حاول ﷺ استعمال اللغة من أجل الفهم وإفهام المتلقي المفردات القرآنية التي لا يفهم معناها أو يغيب عن المسلمين دلالتها، فقد قامت اللغة بوظيفة الكشف والإظهار المفرداتي عبر الذخيرة اللغوية التي يمتلك ناصيتها النبي ﷺ والمدعومة بالمدد الإلهي .

(١٢) الوظيفة الدعائية: يستعمل النبي اللغة من أجل نقل المتلقين الى عالم المثال والأخلاق والسمو الروحي والمعرفي ، واستشعار معنى الثناء على الله سبحانه، وإضافة الجود والكرم إليه، فضلاً عن إظهار العبد الفقر والاحتياج لله، فالدعاء أساس العبادة وروحها، وهو المناجاة بين العبد وربّه . من ذلك:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ إِذَا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ: ((اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَإِسْرَافِي عَلَى نَفْسِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي

اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَبِقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي فَأَحْيِنِي وَتَوَفَّنِي إِذَا عَلِمْتَ الْوَفَاةَ خَيْرًا لِي اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَكَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا وَالْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لَا يَنْفَدُ وَقُرَّةَ عَيْنٍ لَا يَنْقَطِعُ وَأَسْأَلُكَ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَبَرَكَاتِ الْمَوْتِ بَعْدَ الْعَيْشِ وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ وَلَذَّةَ الْمُنَظَرِ إِلَى وَجْهِكَ وَشَوْقًا إِلَى رُؤْيَاكَ وَلِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ وَلَا فِتْنَةٍ مَضَلَّةٍ اللَّهُمَّ زَيْنًا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عَزِيمَةَ الرَّشَادِ وَالثَّبَاتِ فِي الْأَمْرِ وَالرُّشْدِ وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ وَحُسْنَ عَافِيَتِكَ وَأَدَاءَ حَقِّكَ وَأَسْأَلُكَ يَا رَبِّ قَلْبًا سَلِيمًا وَلِسَانًا صَادِقًا وَاسْتِغْفْرُكَ لِمَا تَعْلَمُ وَأَسْأَلُكَ خَيْرَ مَا تَعْلَمُ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ فَإِنَّكَ تَعْلَمُ وَلَا نَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ((٣٨).

تمثل الوظيفة الدعائية الوسيلة الناجعة لتوجيه الأمة وتبليغها بما ينبغي أن تكون عليه من تصفية القلوب وصلاح الأفعال، والأقوال عن طريق النصح والإرشاد والمواظب التي تعكس الصدق المتناهي، والمعاني السامية التي تبلورت لدى النبي الخاتم ﷺ.

١٣) الوظيفة الجزائية: يوظف النبي اللغة في تبيان جزاء الأعمال، فالصالحة لها جزاء عاجل في الدنيا، قبل الثواب في الآخرة، والطالحة لها جزاء في الدنيا وعقاب في الآخرة، بحسب العمل. فمن ذلك:

قال رسول الله ﷺ: ((من أسر ما يرضي الله (عز وجل) أظهر الله له ما يسره، ومن أسر ما يسخط الله (تعالى) أظهر الله له ما يحزنه، ومن كسب مالا من غير حله أفقره الله (عز وجل)، ومن تواضع لله رفعه الله، ومن سعى في رضوان الله أرضاه الله، ومن أذل مؤمنا أذله الله، ومن عاد مريضا فإنه يخوض في الرحمة وأوما رسول الله ﷺ إلى حقويه وإذا جلس عند

المريض غمرته الرحمة، ومن خرج من بيته يطلب علماً شيعه سبعون ألف ملك يستغفرون له، ومن كظم غيظاً ملأ الله جوفه إيماناً، ومن أعرض عن محرم أبدله الله بعبادة تسره، ومن عفا عن مظلمة أبدله الله بها عزا في الدنيا والآخرة، ومن بنى مسجداً ولو مفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة، ومن أعتق رقبة فهي فداء من النار، كل عضو منها فداء عضو منه، ومن أعطى درهماً في سبيل الله كتب الله له سبع مائة حسنة، ومن أحاط عن طريق المسلمين ما يؤذيهم كتب الله له أجر قراءة أربع مائة آية، كل حرف منها عشر حسنة، ومن لقي عشرة من المسلمين فسلم عليهم كتب الله له عتق رقبة، ومن أطعم مؤمناً لقمة أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقاه شربة من ماء سقاه الله من الرحيق المختوم، ومن كساه ثوباً كساه الله من الإسترى والحريز، وصلى عليه الملائكة ما بقي في ذلك الثوب سلك)) (٣٩).

اللغة جهاز معرفي يتم بوساطتها اقتناء المعارف، ومعرفة الأساليب والمضامين، فعلية يقع الاعتماد في خزن المعارف، وتأثير الكلام في تحفيز وتوعية المتلقي؛ لذا استعمل ﷺ الأسلوب الشرطي الجزائي لحث المتلقين على التمسك بما يقوله واتباع ما يقال له.

نتائج البحث

(١) تُعدُّ اللغة وسيلة التعبير الأولى والرئيسة عمّا لدى المتكلم من معانيّ يودّ إبلاغها السامع أو القارئ، وهي الجسر الذي تعبر عليه الأجيال من الماضي إلى الحاضر، ومن الحاضر إلى المستقبل، فمعرفة اللغة وإدراك كنهها والكشف عن أسرارها، ووظائفها يؤدي ذلك كله إلى معرفة متكلمي هذه اللغة والاطلاع على أنماط التفكير والتعرف إلى المستوى الحضاري الذي بلغوه .

(٢) عُرِفَت اللغة بتعريفات كثيرة، عند علماء اللغة المتقدمين والمتأخرين، وكانت لهم في ذلك لفتات علمية للوصول الى تعريف جامع مانع، على الرغم من تعدد وجهات النظر التي تعرف من خلالها اللغة، وقد خلص البحث إلى تعريفها بأنها:

نظام اعتباطي من العلامات الصوتية، أو غيرها التي تستخدم للتفاهم بين أبناء مجتمع محدد؛ للاتصال بين طرفين؛ لتبادل المشاعر، والأفكار، والتعبير عن الحاجات، والحقائق، والآراء بين أعضاء ذلك المجتمع المتجانس، عن طريق السماع وغيره .

(٣) انمازت اللغة الإنسانية بخصائص وسمات لا توجد في وسائل الاتصال الأخرى، فهي ظاهرة اجتماعية لا توجد مجتمعة إلا في لغات البشر التي تشترك فيها جميعاً .

(٤) اللغة وسيلة الفرد لقضاء حاجاته، وتنفيذ مطالبه في المجتمع، فبوساطتها يؤثر الفرد في الآخرين، ويستثير عواطفهم، كما يؤثر في عقولهم، وتقف الوظيفة الاتصالية في مقدمة الوظائف اللغوية؛ لذا تُعدّ بالدرجة الأولى وسيلة اتصال بين أفراد جماعة تؤلف بينهم على صعيد واحد، ومع هذا لها وظائف آخر لا تقل أهمية عن ذلك .

٥) كشف البحث عن أهم الوظائف اللغوية في الخطاب النبوي الشريف التي يمكن من خلال اكتشاف أهمية اللغة، وكيفية توظيفها عبر أنساق معرفية، وفكرية قصدها النبي ﷺ للتأثير في متلقيه .

٦) حاول البحث أن يجترح وظائف أخرى غير ما ذكره علماء اللغة من خلال استقراء كلام النبي ﷺ، والتي تعكس مكنة النبي في استعماله اللغة ومقدرته على التفنن في القول.

٧) أسهمت اللغة النبوية في النصوص بدعم عملية التفكير، والتأمل والمراجعة لدى المتلقين وزودتهم بالخزين الفكري، والعقدي، وإعادة تحديد وترتيب الأفكار والعقائد بإظهارها من حيز الكتمان إلى حيز التصريح والتوضيح التي يجب أن تؤخذ من منابعها الصافية ومن أهلها الحقيقيين، فصاغ ذلك بلغة سلسلة وأسلوب جلي وفكرة ناصعة .

٨) إذا كانت اللغة تراكيب يستعملها الناطقون باختلافات متباينة، وبصيغ مختلفة فهي بحاجة لمستعمل يُتقن استعمالها، لذا وظّف ﷺ كل إمكانيات النظام اللغوي؛ لاستمالة مستمعيه لاتباعه في مختلف جوانب الحياة الدينية والدنيوية، فقد رسم منهجاً أخلاقياً يصلح الفرد نفسياً ويوجهه نحو الخير والإحسان، وأداء الواجبات وترك المحرمات، ويرشده إلى مكارم الاخلاق التي توفر له حياة سليمة يضمن فيها الفرد المسلم الاحترام .

٩) ركز ﷺ في مهمته التبليغية على اللغة بوصفها جزءاً من كيان الفرد الإنساني، واستعملها وفق متطلبات الدعوة الإسلامية الحقّة التي رسمت معالم الإنسان السوي والمجتمع الانساني الاسلامي الأرقى الذي مثل القرآن وتعاليمه الهدف الأسمى؛ لرسم الطريق الصحيحة للمسلمين؛ لينعموا بالحياة الكريمة ولتسود العدالة، والمساواة بين أفرادهم؛ لذا جاء خطابه مطابقاً لما في الدين من معالم واخلاق .

١٠) مثَّلَ خطابه اللغوي ﷺ حلقة وصل بين الأجيال السابقة واللاحقة؛ لتتصل الحلقات الثقافية المعرفية (الدينية وغيرها) والإفادة منها بنقل الخبرات الفكرية والنمط العقلي ؛ لأنَّ اللغة تبلور الخبرات البشرية، وتجارب الشعوب وتدون التراث الحضاري والثقافي للأمم.

١١) يُعَدُّ خطابه ﷺ المشفوع بالقرآن حجة سلطة على المتلقين، فهو الأداة التي يبلغ بها المخاطب غايته وبها يتحصل مقصده، زد على ذلك استعماله استراتيجية إقناع ممثلة بالخطاب المدعوم بالحجج وقوة التأثير، وقدم طروحات تدعو العقل الى التدبر والتفكر الموضوعي بغية بناء الرأي الصائب؛ لتدفع المخاطب الى التأمل من أجل الحصول على الإقرار بالحقائق التي يريدتها النبي .

١٢) لا يخفى أن البحث في التراث اللغوي للنبي ﷺ يفتح آفاقاً رحبة في معرفة دقائق اللغة ، وكيفية توظيفها ، والميزات والخصائص التي اتصف، أو انفرد بها.

هوامش البحث

- ١- الخصائص، ابن جني: ١/ ٣٤ .
- ٢- علم اللغة العربية، د. محمود فهمي حجازي: ٩ .
- ٣- اللغة بين العقل والمقامة، د. مصطفى مندور: ٢٧ .
- ٤- مقدمة ابن خلدون، ابن خلدون: ٣/ ١٢٦٠ .
- ٥- اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها، عبدالعزيز عبدالمجيد، ١/ ١٥ .
- ٦- الألسنية (محاضرات في علم الدلالة)، د. نسيم عون: ٥٠ .
- ٧- فصول في علم اللغة العام، فرديناند دي سوسير: ٣١ .
- ٨- مقدمة لدراسة علم اللغة، د. حلمي خليل: ٢٣ .
- ٩- عوامل تنمية اللغة العربية، توفيق شاهين: ٢٥ .
- ١٠- العلاقة بين اللغة والفكر، أحمد عبد الرحمن حماد: ٤٩ .
- ١١- في اللغة والفكر، عثمان أمين: ١١ .
- ١٢- في علم اللغة، د. فاضل المطليبي: ٣١ .
- ١٣- ينظر: اللغات الانسانية (دراسات في النشأة والخصائص والفصائل)، د. حسام البهنساوي: ٧٧- ٨٤، ومدخل الى علم اللغة، د. محمود حسن عبدالعزيز، ١٢- ٢٤: مدخل الى علم اللغة، د. محمود حسن عبدالعزيز، ط/ ١، الناشر: مكتبة الشباب، (القاهرة، ١٩٨٢م)، واللغة، طبيعتها ووظائفها وخصائصها، أيمن خالد دراوشة: ٢٦١- ٢٦٥، و اللغة الانسانية، طبيعتها وخصائصها، د. سعد عبدالله الصويان: ٩١- ٩٨، وقيمة اللغة العربية، د. سعود بن سليمان اليوسف: ١١- ١٥، ومنزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة، عبدالمجيد الطيب عمر: ٢٣- ٢٤ .
- ١٤- ينظر: اللغة، طبيعتها ووظائفها وخصائصها، ٢٥٩ .
- ١٥- ينظر: اللغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران: ١٦- ٢٣ .
- ١٦- ينظر: عملية التواصل اللغوي عند رومان جاكوبسن، د. ليلي زيان: ٩٦- ١٠٠ .
- ١٧- ينظر: وظائف اللغة بين اللسانيات العامة واللسانيات الاجتماعية، دربال بلال: ٨٩- ٩٠، وفي اللغة ووظائفها، د. علي عبدالعزيز الشبعان: ١٢ .
- ١٨- بحار الأنوار، المجلسي: ٣/ ٣٠٤ .
- ١٩- كلمة الرسول الاعظم، السيد حسن الشيرازي: ٣٠ .
- ٢٠- المصدر نفسه: ٣١ .
- ٢١- تحف العقول، ابن شعبة الحراني: ٣٧ .
- ٢٢- صحيح مسلم، مسلم النيسابوري: ١/ ٣٧١ .

- ٢٣-الأمالي، الشيخ المفيد: ٢١٦ .
- ٢٤-مناقب آل أبي طالب، ابن شهر آشوب: ٣/ ٢٠٣ .
- ٢٥-من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق: ٤/ ١٨٠ .
- ٢٦-بحار الأنوار: ١٨/ ١٨٥ .
- ٢٧-تهذيب الأحكام في شرح المنفعة للمفيد، الشيخ الطوسي: ٢/ ٢٣٧ .
- ٢٨-وسائل الشيعة، الحر العاملي: ٢/ ١٧ .
- ٢٩-من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق: ٣/ ٥٥٦-٥٥٧ .
- ٣٠-تحف العقول: ١٠-١١ .
- ٣١-بحار الأنوار: ١٢٦: ٧٤-١٢٧ .
- ٣٢-تحف العقول: ٢٧-٢٨ .
- ٣٣-الخصال، الشيخ الصدوق: ٥٤٤ .
- ٣٤-الكافي: ٨/ ١٦٨-١٦٩ .
- ٣٥-بحار الأنوار: ٧٣/ ٣٤٨-٣٥٠ .
- ٣٦-الاحتجاج، الطبرسي: ٦٤-٦٩ .
- ٣٧-البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم البحراني: ١/ ٤٥٦ .
- ٣٨-سنن النبي ﷺ، العلامة محمد حسين الطباطبائي: ٣٦٠ .
- ٣٩-الأمالي، الشيخ الطوسي: ١٨٢-١٨٣ .

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

* الاحتجاج، الشيخ ابو منصور أحمد بن علي بن ابي طالب الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)، تحقيق ونشر: نشر المرتضى، مشهد المقدسة، ١٤٠٣ هـ .

* أعلام الهداية (الإمام الحسن بن علي العسكري)، المجمع العلمي لأهل البيت (ع)، ط/ ٣، الناشر: مركز الطباعة والنشر للمجمع العالمي لأهل البيت (ع)، قم، ١٤٢٧ هـ .

* الألسنية (محاضرات في علم الدلالة)، د. نسيم عون، ط/ ١، الناشر: دار الفارابي، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥ م.

* الأمالي، الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف بالصدوق (ت: ٣٨١هـ)، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، ط/ ١، الناشر: مركز الطباعة والنشر في مؤسسة البعثة - قم، ١٤١٧ هـ .

* الأمالي، الشيخ الطوسي، محمد بن الحسن (ت: ٤٦٠هـ) تحقيق قسم الدراسات الإسلامية - مؤسسة البعثة، ط/ ١، الناشر: دار الثقافة، قم، ١٤١٤ هـ .

* الأمالي، الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (ت: ٤١٣هـ)، ط/ ٢، الناشر: المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد - قم، ١٤١٣ هـ .

* الإمامة والتبصرة من الحيرة، أبو الحسن علي بن بابويه القمي (ت: ٣٢٩هـ)،

ط/ ١، تحقيق ونشر: مدرسة الامام المهدي (عج)، قم المقدسة، ١٤٠٤ هـ .
* بحار الانوار الجامعة لدرر اخبار الائمة الاطهار، العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي، (ت: ١١١١هـ)، ط/ ٤، الناشر: مؤسسة الوفاء، بيروت - لبنان، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

* البرهان في تفسير القرآن، السيد هاشم الحسيني البحراني (ت: ١١٠٧هـ)، ط/ ١، تحقيق ونشر: مؤسسة البعثة، قم المقدسة، ١٤١٥ هـ .

* تحف العقول عن آل الرسول، الشيخ الحسن بن علي بن شعبة الحراني، المتوفى في القرن الرابع الهجري، تحقيق: علي أكبر غفاري، ط/ ٢، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤٠٤ هـ - ١٣٦٣ ش .

* تقريب المعارف، أبو الصلاح الحلبي، الشيخ تقي الدين بن نجم الدين بن عبيد الله بن عبد الله الحلبي، (ت: ٤٤٧هـ)، المحقق والناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم، ١٤٠٤ هـ .

* تهذيب الأحكام في شرح المقنعة للمفيد، شيخ الطائفة أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، (ت: ٤٦٠هـ)، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، ط/ ٤، الناشر: دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٦٥ هـ .

* الخصال، الشيخ أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين بن بابويه المعروف

- بالصدوق ، (ت : ٣٨١هـ) ، ط / ٢ ،
الناشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة
لجماعة المدرسين في الحوزة العلمية بقم ،
١٤٠٣ هـ .
- * الخصائص ، أبو الفتح عثمان بن
جني ، (ت : ٣٩٢هـ) ، تحقيق : محمد علي
النجار ، ط / ٢ ، الناشر : دار الكتب ، مطبعة
دار الكتب المصرية ، القاهرة ، (د . ت) .
- * سنن النبي ﷺ ، العلامة السيد محمد
حسين الطباطبائي ، (ت : ١٤١٢هـ) ،
تحقيق : الشيخ محمد هادي الفقهي ، ط / ٣ ،
الناشر : مؤسسة النشر الإسلامي التابعة
لجماعة المدرسين بقم المشرفة ، ١٤١٧ هـ .
- * صحيح مسلم ، أبو الحسن مسلم بن
الحجاج القشيري ، (ت : ٢٦١هـ) ، تحقيق :
محمد فؤاد عبد الباقي ، (د . ط) ، الناشر :
دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ،
(د . ت) .
- * العلاقة بين اللغة والفكر ، أحمد عبد
الرحمن حماد ، الناشر : دار المعرفة الجامعية ،
الاسكندرية ، ١٩٨٥ م .
- * علم اللغة العربية ، د . محمود فهمي
حجازي ، ط / ١ ، الناشر : دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، مصر .
- * عملية التواصل اللغوي عند رومان
جاكوبسن ، د . ليلي زيان ، (بحث) ،
الناشر : المجلة العربية للعلوم ونشر
الابحاث ، المجلد : ٢ ، العدد : ١ ، ٢٠١٦ .
- * عوامل تنمية اللغة العربية ، توفيق
شاهين ، ط / ٣ ، الناشر : مكتبة وهبة ،
القاهرة ، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م .
- * الفصول المهمة في أصول الأئمة ، الشيخ
محمد بن الحسن الحر ، (ت : ١١٠٤هـ) ،
ط / ١ ، تحقيق وإشراف : محمد بن محمد
الحسين القائيني ، ط / ١ ، الناشر : مؤسسة
معارف إسلامي إمام رضا ﷺ - إيران ،
١٤١٨ - ١٣٧٦ ش .
- * فصول في علم اللغة العام ، فرديناند دي
سوسير ، ترجمة د . أحمد نعيم الكراعين ،
الناشر : دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ،
مصر .
- * في اللغة والفكر ، عثمان أمين ، الناشر :
معهد البحوث والدراسات العربية ،
جامعة الدول العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- * في اللغة ووظائفها ، د . علي عبدالعزيز
الشبعان ، (بحث) ، الناشر : مركز الملك
عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة
اللغة العربية ، وجامعة الدمام ، ابحاث
ودراسات الندوة الخامسة : اللغة العربية
بين الابداعي والوظيفي ، ٢٠١٤ .
- * في علم اللغة ، د . فاضل المطليبي ، ط ١ ،
الناشر : دار الشؤون الثقافية العامة ،
بغداد ، العراق ، ١٩٨٦ .
- * قيمة اللغة العربية ، د . سعود بن
سليمان اليوسف ، ط / ١ ، الناشر : مركز
الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي
لخدمة اللغة العربية ، الرياض ، السعودية ،
١٤٣٨هـ - ٢٠١٧ م .
- * الكافي ، الشيخ محمد بن يعقوب بن
اسحاق الكليني (ت : ٣٢٩هـ) ، تحقيق :

عبدالعزیز، ط/ ١، الناشر: مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٨٢.

* مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل، الحاج الميرزا حسين النوري المعروف بالحدث النوري (ت: ١٣٢٠ هـ)، ط/ ١، الناشر: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - قم، ١٤٠٨ هـ.

* مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المعروف بـ (ابن خلدون)، (ت: ٨٠٨ هـ)، تحقيق: علي عبدالواحد وافي، ط/ ٣، الناشر: دار النهضة المصرية، ١٩٧٩ م.

* مقدمة لدراسة علم اللغة، د. حلمي خليل، الناشر: دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٩ م.

* من لا يحضره الفقيه، الشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين، بن بابويه المعروف بالصدوق، (ت: ٣٨١ هـ)، تحقيق: علي اكبر غفاري، ط/ ٣، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي، التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة، ١٤١٣ هـ.

* مناقب آل أبي طالب، الحافظ أبو عبدالله محمد بن علي بن شهر اشوب المازندراني، (ت: ٥٨٨ هـ)، الناشر: مؤسسة العلامة للنشر، قم، ١٣٧٩ هـ.

* منزلة اللغة العربية بين اللغات المعاصرة (دراسة تقابلية)، عبدالمجيد الطيب عمر، (اطروحة دكتوراه)، جامعة أم درمان الاسلامية، كلية الدراسات العليا، كلية اللغة العربية، ١٤٣١ هـ.

صححه وعلق عليه علي أكبر الغفاري، ط/ ٤، الناشر: دار الكتب الإسلامية - تهران - ايران، ١٣٦٥ ش.

* كشف الغمة في معرفة الأئمة، أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي، (ت: ٦٩٢ هـ)، الناشر: مكتبة بني هاشمي، تبريز، ١٣٨١ هـ.

* اللغات الانسانية (دراسات في النشأة والخصائص والفصائل)، د. حسام البهنساوي، الناشر: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، مصر، ٢٠١٥.

* اللغة الانسانية، طبيعتها وخصائصها، د. سعد عبدالله الصويان، (بحث)، الناشر: مجلة العصور، دار المريخ، لندن، المجلد: ٨، الجزء: ١، ١٤١٣-١٩٩٣ م.

* اللغة العربية أصولها النفسية وطرق تدريسها، عبدالعزيز عبدالمجيد، ط/ ٤، الناشر دار المعارف، القاهرة، د. ت.

* اللغة بين العقل والمقامة، د. مصطفى مندور، ط/ ١، الناشر: منشأة المعارف بالإسكندرية، جلال حزي وشركاه، مصر.

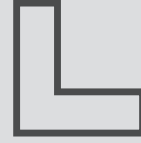
* اللغة، طبيعتها ووظائفها وخصائصها، أيمن خالد دراوشة، (بحث)، الناشر: مجلة التربية، اللجنة الوطنية القطرية للتربية والثقافة والعلوم، المجلد: ٢٩، العدد: ١٣٣-١٣٤، ٢٠٠١.

* اللغة والمجتمع رأي ومنهج، د. محمود السعران، ط/ ٢، الاسكندرية، ١٩٦٣ م.

* مدخل الى علم اللغة، د. محمود حسن

- * وظائف اللغة بين اللسانيات العامة واللسانيات الاجتماعية، دربال بلال، (بحث)، الناشر: مجلة الممارسات اللغوية، جامعة مولود معمري تيزي، مخبر الممارسات اللغوية، العدد: ٢٨، ٢٠١٤م.
- * وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي، (ت: ١١٠٤هـ)، ط/١، الناشر: مؤسسة ال البيت ﷺ لإحياء التراث بقم المشرفة، ١٤٠٩هـ.





**بيعتا العقبة
وأثرهما في بناء الشخصية الإسلامية القويمة**
أ.م.د. عبد الزهرة جاسم الخفاجي
الجامعة الإسلامية / فرع بابل



**The Two Homages of AL-Aqaba and their
influence in Building the Straight Islamic
Personality**

Prof. Dr. Abdalzahra Al- Kafaji
The Islamic University/Babylon Campus

الملخص

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين ، وبعد .

فما أحوج الأمة الإسلامية وقد ابتعدت عن المسار الذي رسمه رسول الله ﷺ لأن تعيد توجيه بوصلتها إلى الاتجاه الذي يعيدها إلى حيث أرادها الله تعالى أن تكون «خير أمة» ، ولا يتحصل لها ذلك إلا بقراءة الماضي قراءة صحيحة ، ومن بين المسارات المهمة التي رسمها رسول الله ﷺ بيعتا العقبة الأولى والثانية .

إن أهمية البحث في البيعتين ، هو أنهما على الصعيد الدعوي تُعدّان الأساس في تخطّي الإسلام حدود مكة ومن ثم ظهوره وانتشاره . أمّا على الصعيد التربوي فقد كانتا القاعدة المتينة التي أُرسيت بموجبها معالم المجتمع المسلم القائمة على التوحيد والقيم التي تجعل منه مجتمعاً سوياً . وبنود بيعة العقبة الأولى خير دليل للأمة للرجوع إلى قيم مكارم الأخلاق ، وفي بنود بيعة العقبة الثانية منهاج عمل لترصين بنائها . والله ولي التوفيق

Abstract

The Islamic nation, which has moved away from the path set by the messenger of God (pbuh), is in a greater need of returning to the Direction where God Almighty wants it to be -the best nation. It can only get this direction by reading the past correctly, And among the important part drawn by the messenger of God (pbuh) are the homages of Al-Aqaba. the importance of the research paper lies in two levels:

--The first is that the homages are the groundwork to spread Islam out of mecca.

--The second, on the other hand is that they are the lasting base to set the outlines of the Islamic Society which are based on the loneliness of God in the values that make great Society.

Then, the nation has a good evidence in the terms of the first and the second homages which can resort to in moral and sobering the nation.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله

الطيبين الطاهرين

فالتأمل في سيرة رسول الله ﷺ يجد فيها منهجاً سليماً يضع الأسس الصحيحة لبناء الإنسان القويم ، فهو الأسوة الذي أمرنا الله تعالى أن نقتدي به ، وكل ما يحتاجه المسلم يحده في سلوك رسول الله وسيرته. وبيعتا العقبة جزء من سيرته ﷺ وأهميتها تكمن في أنها وضعتا قواعد شخصية المسلم ، وحددتا معالم مجتمعه.

والذي دعاني إلى اختيار موضوع البحث الموسوم ب:(بيعتا العقبة وأثرهما في بناء الشخصية الإسلامية القويمة) أنه يتناول جزئية من سيرة رسول الله ﷺ تتعلق بإعادة بناء الإنسان في مجتمع قطع في أمس الجاهلية شوطاً طويلاً ، قد لا يختلف يومنا عن أمسه إن لم يزد عليه، في ظل حرب الأفكار والثقافات الممنهجة وما يعانيه المجتمع من انفصام بين شعارات دينية براقية وواقع مؤلم يعيشه الإنسان المسلم ألماً ومعاناة ، فنحن أحوج ما نكون والحالة هذه إلى تجربة نجحت كل النجاح في إعادة بناء الإنسان على وفق المنظومة القيمية الإسلامية وفي مقدمتها مكارم الأخلاق .

وقد اتبعت في هذا البحث المنهج التاريخي الوصفي باستدعاء الأحداث التاريخية للبيعتين وتحليلهما، والرجوع إلى آيات القرآن الكريم ذات الصلة بالموضوع ، والسنة النبوية وأحاديث أهل البيت (عليهم السلام) لاستنباط الدروس والفوائد التي تعيد الإنسان إلى دائرة البناء حيث أراد الله تعالى.

وقد قسّمت البحث إلى:

- المقدمة تناولت فيها أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهج البحث.
- مدخل تاريخي: تتبعت فيه حركة الرسول ﷺ في مرحلة هي الأصعب

في مراحل الدعوة الإسلامية وهي التي أعقبت وفاة عمه أبي طالب عليه السلام.

- بيعة العقبة الأولى: تناولت فيها مقدمات البيعة وانعقادها وبنودها لاستخلاص الدروس منها باعتبارها مدرسة لبناء الخلق القويم.
- بيعة العقبة الثانية: تناولت فيها مقدمات البيعة وانعقادها وشروطها باعتبارها ركائز بناء الأمة من خلال بناء الإنسان.
- الخاتمة: وفيها ماتوصلت إليه وتأكيد على أن بقاء الأمة مرهون بالأخلاق المستمدة من العقيدة.

مدخل تأريخي:

واجهت قريش الإسلام بكل جبروتها، فوفقت بوجه الدعوة الإسلامية، وبذلت قصارى جهدها للنيل من صاحب الدعوة النبي محمد صلى الله عليه وآله لولا أن قيض الله له عمّه أبا طالب ليؤمن به ويصدقّه، وينصره فقد وقف عليه السلام بوجه قريش في بدايات الدعوة الإسلامية يوم قال للنبي لمحمد صلى الله عليه وآله: «إمض على أمرك وافعل ما أحببت، فوالله لا نسلمك بشيء أبداً»، وكانت آخر كلماته لقومه وصيته في النبي محمد صلى الله عليه وآله قائلاً: «أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش، والصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيتكم به... دونكم يا معشر قريش! ابن أبيكم، كونوا له ولادة ولحزبه حماة والله لا يسلك سبيله إلا رشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسي مدة وفي أجلي تأخير، لكففت عنه الهزاهز، ولدافعت عنه الدواهي»^٢. ولم يتأخر رسول الله صلى الله عليه وآله عن العرفان لأبي طالب عليه السلام فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لما مات أبو طالب عليه السلام وقف رسول الله صلى الله عليه وآله على قبره فقال: جزاك الله من عم خيراً فقد ريبتني يتيماً، ونصرتني كبيراً»^٣.

كانت وفاة أبي طالب عليه السلام نقطة تحول في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، وانعطافة مهمة في مسار الدعوة الإسلامية، يتضح أثر وفاة أبي طالب جلياً في قول

رسول الله ﷺ: «مانالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»، وفي رواية عائشة عن رسول الله ﷺ قال: «ما زالت قريش كافة عني حتى مات أبو طالب»^٥. وعلى صعيد الواقع لم يبق أمام رسول الله ﷺ بعد أن أمعنت قريش في أذاه وأصحابه ومنعه من أداء رسالته إلا البحث عن ملاذ آمن يواصل منه الدعوة إلى الله تعالى. فكانت رحلته إلى الطائف. لم يعد رسول الله ﷺ يحتمل ما يقع عليه من أذى، وتضييق على الدعوة للإسلام، فقرر أن يبحث عن مكان يستطيع منه أن يبلغ رسالة ربه، فكانت محطته الأولى الطائف^٦، المدينة التي فيها الكثير مما يبحث عنه رسول الله ﷺ، فهي قريبة من مكة، كما أنها تمتلك من عناصر القوة سواء على مستوى التحصين أو بقييلتها الكبيرة ثقيف ما يجعل قريش لا تجرأ على طلبه، كما أن كبار رجالات قريش يمتلكون مزارع في الطائف ومصالح اقتصادية مهمة تمنعهم من التعرض إلى الطائف، فخرج في شوال من السنة العاشرة للبعثة وحده متخفياً ماشياً على قدميه^٧. التقى بسادة ثقيف « فعرض عليهم نفسه وشكا إليهم البلاء وما انتهك منه قومه ... وتهزؤابه وأفشوا في قومهم الذي راجعوه به وقعدوا له صفين على طريقه فلما مر جعلوا لا يرفع رجله ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة وأدموا رجله فخلص منهم وهما تسيلان الدماء»^٨.

لم ينجح مسعى رسول الله ﷺ في الطائف وقفل راجعاً إلى مكة، ومع كل ما تعرض له في الطائف من أذى، وقسوة في التعامل، إلا أنه لم ييأس، ولم يتوان، وإنما بدأ يخطط لكسر العزلة الاجتماعية التي فرضتها عليه قريش لتحول بينه وبين قبائل العرب؛ وقد وصف ابن هشام (ت ٢١٨هـ) موقف النبي ﷺ بعد عودته من الطائف فقال: «ثم قدم رسول الله ﷺ مكة، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه، إلا قليلاً

مستضعفين، ممن آمن به، فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب: يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم عن الله ما بعثه به^٩. فلئن كانت محاولته ﷺ مع قبيلة ثقيف لم تنجح، فإنَّ النجاح قد يكون حليفَ محاولةٍ أخرى مع قبيلةٍ أخرى من قبائل العرب القويَّة ولهذا: «كان رسول الله يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم ويكلم شريف كل قوم، لا يسألهم إلا أن يؤووه ويمنعوه، ويقول: لا أكره أحداً منكم، إنما أريد أن تمنعوني مما يراد بي من القتل حتى أبلغ رسالات ربي»^{١٠}.

فالهدف الاساسي في هذه المرحلة، هو أن يجد رسول الله ﷺ من يحميه وينصره ليلبغ دعوة ربه، فكان يقف على منازل القبائل من العرب، فيقول: «يا بني فلان، إني رسول الله اليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد، وأن تؤمنوا بي، وتصدقوا بي، وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به»^{١١}. وقد ذكرت المصادر أسماء القبائل التي عرض نفسه عليها ولم يستجب منهم أحد^{١٢}. وكان ذلك بتأثير قريش عليهم، فكانوا يقولون لمن يأتي مكة: «لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي النبوة»^{١٣}.

دخول الإسلام إلى يثرب

ويرى رسول الله ﷺ ورؤياه صادقة ما يفتح له أفق النصر ليعزز أمل الخلاص من أذى قريش بين أصحابه في مكة قال: قال: «رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ فَذَهَبَ وَهَلِي [أي ظني] إِلَى أَهْلِهَا الْيَمَامَةِ أَوْ هَجَرْتُ فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ»^{١٤}.

كان تحرك رسول الله ﷺ على يثرب قد مرَّ بمراحل أفضت إلى بيعتي العقبة اللتين مهدتا لهجرة المسلمين ومن ثم رسول الله ﷺ إليها وعلى

النحو الآتي:

المرحلة الأولى : لم يقف رسول الله ﷺ في عرض نفسه على القبائل فقط وإنّما قصد المشاهير ممن يقدم إلى مكة ، لا يسألهم مع ذلك إلاّ أن يؤووه ويمنعوه^{١٥}. وفي هذا الاطار التقى سويد بن الصامت وعرض عليه الإسلام ودار بينهما حوار انتهى إلى انصراف سويد راجعاً على قومه في يثرب ، ولم يلبث أن قُتل على يد الخزرج ، ولم يتوفر دليل على اسلامه أو أنّه دعا أحداً إلى الإسلام ، غير أنّ رجالاً من قومه يقولون : «إنا لنراه قد قتل وهو مسلم وكان قتله قبل يوم بعث»^{١٦}.

المرحلة الثانية : الحدث الثاني يتمثل بقدوم جماعة من يثرب هم « أبو الحيسر ، أنس بن رافع » مكة ، ومعه فتية من بني عبد الأشهل فيهم إلياس بن معاذ ، يلتمسون الحلف مع قريش على قومهم من الخزرج »^{١٧} ، فسعى رسول الله للقاء بهم وقد حصل له ذلك فعرض نفسه عليهم^{١٨} ، غير أنّهم كانوا مشغولين بأمر الحلف مع قريش ، وانصرفوا راجعين إلى أهلهم ولم يثبت أنّهم أسلموا.

المرحلة الثالثة : تُعد هذه المرحلة الأهم في العلاقة بين المسلمين في مكة ويثرب ، فمن جانب المسلمين كان أمر الله تعالى واضحاً لرسوله ﷺ : « اخرج من مكة فقد مات ناصرك »^{١٩}. أمّا من جانب يثرب فقد وضعت بعث أوزارها بما تمخضت عنها من نتائج جعلت من القبيلتين المتصارعتين تبحيان عمّن يلم شعتهما ويضع حدّاً لصراع دام لأكثر من مئة وعشرين سنة ، ووجدوا أنّ ذلك لا يُدرِك إلاّ من خارج يثرب. ولهذا فإنّ يوم بعث كان هدية من الله تعالى لرسوله على حد قول السيدة عائشة : « كان يوم بعث يوماً قدمه الله لرسوله ، فقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد افترق ملوهم ، وقتل سرواتهم ، وخرجوا فقدمه الله لرسوله ﷺ ، وجعله

سببا في دخولهم الإسلام»^{٢٠}. وإنجاز وعد الله تعالى بإظهار دينه ، وتحقيق حلم يثرب في وضع نهاية لعداء استحكم ردحاً من الزمن والعيش بسلام تحت راية الإسلام . لذلك نجد ابن إسحاق عندما يذكر هذه المرحلة يتبدى حديثه فيقول: « فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيه ﷺ ، وإنجاز مواعده له »^{٢١}. فالتقى «عند العقبة رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً»^{٢٢} ، فجلس إليهم وتحدث معهم « فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن » . فتنبه الفتية إلى أمر كانوا قد سمعوه من اليهود وقال بعضهم لبعض: «يا قوم تعلمون والله أنه النبي ﷺ الذي توعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه» ، وذكر أن اليهود ومن خلال معرفتهم بالنبي ﷺ الذي تذكره كتبهم كانوا يقولون للعرب في يثرب : « إن نبيا الآن مبعوثٌ قد أظلم زمانه نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم » . فتيقن الفتية أن الذي يحدثهم هو النبي ﷺ المقصود فأجابوه وصدقوه وأسلموا، وقالوا: «قد علمت الذي بين الأوس والخزرج» من الاختلاف، وسفك الدماء، ونحن حراس على ما أرشدك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإننا نشير عليك برأينا، فامكث على اسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله عز وجل أن يصلح ذات بينهم، ويجمع لهم أمرهم فإننا اليوم متباغضون متباعدون وإنك إن تقدم علينا ولم نصطلح لا يكون لنا جماعة عليك، ولكننا نواعدك الموسم من العام المقبل، فرضي بذلك رسول الله»^{٢٣}، انصرفوا من عند رسول الله ﷺ وقد آمنوا برسالة الإسلام «فرجعوا إلى قومهم فدعوهم سراً وأخبروهم برسول الله ﷺ والذي بعثه الله به وتلوا عليهم القرآن ، حتى قل دار من دور الأنصار إلا قد أسلم فيها ناس»^{٢٤} .

وهكذا كسر الإسلام طوق الحصار المفروض عليه في مكة لينتشر في يثرب ففتح أبوابها لرسول الله ﷺ لتكون الملاذ الآمن الذي يبحث عنه، ومع كل ما كان يتعرض له من اضطهاد في مكة لكنه لم يكن متسرعاً في الخروج منها إلا بعد أن يهيء الركائز الأساسية لنجاح مشروعه في الانتقال، فكانت بيعتا العقبة هما الركيزتين لذلك المشروع .

تعريف البيعة

البيعة في اللغة : «الصفقة على إيجاب البيع، وعلى المبايعة والطاعة»^{٢٥}، أما في الاصطلاح: «المعاقدة على الإسلام والإمامة والإمارة، والمعاهدة على كل ما يقع عليه اتفاق»^{٢٦}. ومما تقدّم فالبيعة هي الطاعة والعقد والنصرة والصفقة والولاء والخضوع والالتزام بما اتفق عليه بين المتعاقدان.

البيعة في الكتاب والسنة

وردت البيعة في القرآن الكريم في أربعة مواضع من ثلاث سور التوبة^{٢٧} والفتح^{٢٨} والممتحنة^{٢٩}، يُستدل منها على مشروعية البيعة، أمّا أدلة مشروعية البيعة في السنة النبوية الشريفة فهي أكثر من أن تُحصّر في هذا البحث ؛ لذا سنقتصر على بيعتي العقبة موضوع البحث للاستدلال بهما على مشروعية البيعة، ففيهما استوثق رسول الله ﷺ من دعاه إلى الهجرة إليهم، حيث اشترط عليهم مبايعته على شروط واضحة مُلزمة قبل أن يرحل إليهم فبايعوه على ذلك. إنّ حرص رسول الله ﷺ على عقد البيعتين دليل على ضرورة البيعة ومشروعيتها، فلو لم تكن مشروعة لما طلبها منهم، ولولا ضرورتها لاكتفى بما ذكره من استعداد للدخول في الإسلام^{٣٠}.

تأكد لرسول الله ﷺ أنّ يثرب هي دار الهجرة التي وعد بها أصحابه بعد أن انتشر فيها الإسلام على يد الرهط الذين التقى بهم رسول الله ﷺ

كما بينا إذ لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ،^{٣١} ولذلك انصب تخطيطه على أن تكون يثرب هي البقعة التي يُعبد الله فيها دون شريك، ويقام فيها مجتمع طاهر، فجاءت بنود البيعة في العقبة لتبلي ما أَراده رسول الله ﷺ، وتقام فيها دولة تقوم على تعاليم الإسلام بعد أن رفضت مكة ذلك فكانت بيعة العقبة الثانية.

بيعة العقبة الأولى

المصدر الرئيس لبيعة العقبة الأولى هي رواية عبادة بن الصامت^{٣٢} باعتباره شاهد عيان شارك في البيعة وقد نقلها ابن إسحاق فقال: «قال عبادة بن الصامت: كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء - وذلك قبل أن يفترض علينا الحرب: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي بهتاناً نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب»^{٣٣}.

- المكان: كانت البيعة عند العقبة، وأضيفت لها الأولى لأن هناك بيعة أخرى ستأتي بعد سنة.

- الزمان: موسم الحج في العام الثاني عشر من البعثة النبوية الشريفة على موعد سابق مع رهط الخزرج في العام الماضي.

- تشكيلة وفد يثرب: حضر البيعة اثنا عشر رجلاً، عشرة من الخزرج واثنا من الأوس. وهذه التشكيلة تعكس نجاح الإسلام في رأب الصدع بين الأوس والخزرج، ولئم جروح الماضي، وإلى هذا الرأي ذهب المستشرق واط فقال: «ومن هنا فإن نبوة محمد ﷺ بما فيها من مضامين سياسية كانت من ألزم الأمور للمدينة لبعث الأمل في السلام»^{٣٤}.

أما فيما يتعلق ببند البيعة التي حرص رسول الله ﷺ أن يبايعه الوفد عليها فستناولها بشيء من التفصيل لأنها جاءت لتغيير الكثير من موازين مجتمع يثرب، ولتكون منطلقاً جديداً لبناء مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية، والبند التي تمت البيعة عليها هي أن:

١ - لا نشرك بالله شيئاً، ٢ - لا نسرق، ٣ - لا ننزي، ٤ - لا نقتل أولادنا، ٥ - لا نأتي ببهتان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا. ٦ - لا نعصيه في معروف. فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله عز وجل إن شاء غفر وإن شاء عذب.

يتبين لمن يدقق في بنود البيعة أنها تنقسم من حيث موضوعها على قسمين:

القسم الأول: يتعلق بالجانب العقائدي ويتمثل بالبندين الأول والسادس.

القسم الثاني: يتعلق بالجانب الاجتماعي ويتمثل بالبند الثاني والثالث والرابع والخامس.

إن وضع رسول الله ﷺ بنود بيعة العقبة الأولى بهذه الصيغة التي تجمع الجانبين الديني والأخلاقي لتأكيد على الارتباط الوثيق بينهما وقد بين القرآن الكريم صور هذا الارتباط في مواضع كثيرة^{٣٥}، كما أشار النبي الكريم ﷺ إلى هذا الترابط في الكثير من أحاديثه وفي قوله ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ أَخْلَاقًا»^{٣٦} صورة دقيقة وواضحة عن العلاقة بين الإيمان الذي هو جوهر العقيدة وبين الأخلاق. ولذلك يمكن القول: «لا يمكن أن تكون عقيدة سليمة ما لم يدعمها منظومة أخلاق قوية وسلوكيات اجتماعية سليمة تضبط سلوك أفراد المجتمع. في الجهة الأخرى لن تكون أخلاق الأفراد حسنة، والمجتمع سليماً ومعافى من الأمراض المجتمعية ما

لم توجد عقيدة توجهه نحو الفضيلة»^{٣٧}، فالعلاقة بين الدين والمنظومة الأخلاقية علاقة تكاملية لا يكتمل أحدهما من غير الآخر .

أولاً - الجانب العقائدي :

يقوم الجانب العقائدي في بيعة العقبة الأولى على ركنين أساسيين :

٢- التوحيد : « أن لا نشرك بالله شيئاً »

التوحيد من المقاصد الأساسية للرسالات السماوية ، وما من نبي إلا بعثه الله تعالى إلى قومه يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ...﴾^{٣٨} ، فكان التوحيد في مقدمة دعوات الأنبياء^{٣٩} ، والمقصد الأساسي لرسالة الإسلام ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^{٤٠} ، ففي هذه الآية أمر من الله سبحانه إلى نبينا الكريم ﷺ ، أن يخاطب جميع الخلق من العرب والعجم ، يدعوهم إلى توحيد الله وطاعته ، واتباعه فيما يؤديه إليهم^{٤١} ، ولذلك كانت دعوته إلى القبائل والأفراد تبتدئ بالتوحيد ، وكان يقف على منازل قبائل العرب فيقول: «إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي ، وتصدقوا بي...»^{٤٢} ، فالدعوة إلى التوحيد يعني الدعوة إلى وحدانية التفكير وتوجيه العقل نحو إله واحد هو الله تعالى « وما من شك في مثل هذا التوجه سيكون من نتائجه قطع أسباب التششت ، والتذبذب الذهني ، وكذا الصراع النفسي الذي من الممكن أن يحياه الإنسان إذا هو عاش في بيئة يقوم دينها على تعدد الآلهة وتنوعها »^{٤٣} . وقد عرض القرآن الكريم وضع أمم كان تعدد الآلهة سائداً عندهم وبين أثر التعدد على تفكيرهم

وعقولهم من ذلك على سبيل المثل قال تعالى: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ* أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ*^{٤٤}.

إن ترسيخ فكرة التوحيد في وجدان الإنسان له آثاره الكبيرة في تكوين شخصية الإنسان وحياته، فالتوحيد يجعل حياة الإنسان خالية من الآثار التي يتركها تعدد الآلهة نتيجة للصراع الداخلي الذي يعيشه الإنسان . وقد جعل رسول الله ﷺ من التوحيد منطلقاً لإقامة دولة الإسلام فكان يخاطب الناس قائلاً: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَقْلِحُوا وَتَمَلِّكُوا بِهَا الْعَرَبَ ، وَتَذِلَّ لَكُمْ الْعَجَمُ»^{٤٥} ، ولما كانت المعطيات التي تحصلت لرسول الله ﷺ أن يثرب هي المكان الموعود لإقامة الدولة فقد كان البند الأول في مبايعة أهلها هو توحيد العقيدة التي كانت مشتتة بين أكثر من إله والتوجه لعبادة الله وحده .

٢- الطاعة :

الطاعة في اللغة: «الطَّاعَةُ : الانقيادُ والموافقةُ، وقيل: لا تكون إلا عن أمرٍ»^{٤٦}، وفي الاصطلاح: «هي الإتيان بالمأمور به والانتهاض عن المنهي عنه والعصيان بخلافه»^{٤٧}، والطاعة يجب أن تكون في معروف ، فإن كانت في غيره يتحمل وزرها من أطاع^{٤٨}، فالطاعة من الأمور المهمة للمحافظة على سلامة المجتمع لأن معصية رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى ينتهي بالمجتمع إلى الضلال كما يصف ذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾^{٤٩}، وفي هذه الآية أمر عام ليس لأحد مخالفة ما أمر الله (عز وجل) به أو حكم به ،

وترك ما أمَرَ به لغيره .

ثانياً - الجانب الأخلاقي:

يُعرِّف الماوردي (٤٥٠هـ) الأخلاق بأنها: «غرائز كامنة تظهر بالاختيار وتُقهَر بالاضطرار»^{٥٠} والعلاقة بين الدين والأخلاق علاقة وثيقة وليس أوضح من القرآن الكريم دليل على ذلك ، ولذا جاء الجانب الأخلاقي من البيعة ليعالج المنظومة القيمية بالتخلص من الدنيا والرذائل التي كانت تفتك بالمجتمع في المدينة يثرب وهي: السرقة، والزنا، وقتل الأولاد، والبهتان .

١- السرقة :

السرقة لغة: هي أخذ الشيء في خفية. والسارق عند العرب: هو من جاء مستتراً إلى حرز فأخذ منه ما ليس له.

ورد ذكر السرقة واشتقاقاتها في عدة مواضع من القرآن الكريم ، فقد جاءت على أنها خُلِقَ سيء عندما اتهم يوسف إخوته بها^{٥١}، وجاءت شرطاً من شروط مبايعة النساء لرسول الله ﷺ يوم فتح مكة^{٥٢} على أن «... لا يسرقن»^{٥٣}، وردت بلفظ يدل على ممارسة من ممارسات الشياطين^{٥٤}، ثم ذُكرت في موضع بيان عقوبتها^{٥٥}.

وخطورة السرقة في كونها من الجرائم التي يُبتلى بها المجتمع ليس في جانب المسرقات فقط وإنما في ما يُثيره السارق من خوف لدى المجتمع وفساد في الأرض بأخذ أموال الناس بغير حقها وازعاجهم في أوقات راحتهم وتعكير صفو طمأنينتهم ، فالمجتمع الذي تنتعش فيه السرقة يكون خالياً من الطمأنينة ، وفي هذا المعنى ترد إشارة الى ما تركته السرقة من أثر في مجتمع يثرب على الرغم من مرور بضع سنين على إسلام الأنصار ما زالوا يستذكرون الخوف من السراق كما في قول الله تعالى يصف طائفة

منهم: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾^{٥٦}، فكانت حجتهم: «بيوتنا خالية من الرجال، نخشى عليها السراق»^{٥٧}. فالسرقة آفة من الآفات التي تعرّض أمن الأفراد والمجتمعات للخطر، ولهذا فإن رسول الله ﷺ كان يأخذ البيعة على من أراد الدخول في الإسلام على أمور مهمة منها تجنب العدوان على أموال الناس بالسرقة . ومن الذين عرّفوا بالسرقة في يثرب طعمة بن بشير بن أبيرق الذي لم يصلح شأنه حتّى بعد أن دخل في الإسلام ، فمات تحت جدار سقط عليه وهو يسرق ، ويرى المفسرون أن الآية (١٠٥) من سورة النساء نزلت فيه^{٥٨}.

٢- الزنى :

الزنى هو : « وطيء الرجل امرأة لا تحل له بقصد الاستمتاع ، ويسمى سفاحاً ، لأنّه بمنزلة الماء المسفوح بلا حرمة، ويعتبر الزنى من أقدم الظواهر الاجتماعية التي رافقت البشرية وتختلف النظرة إلى الزنى باختلاف الجماعات واختلاف مفاهيمها الأخلاقية المستمدة من طبائعها وتقاليدها وهو عند بعضها مباح ، وعند بعضها إساءة مغتفرة ، وعند بعض آخر جريمة فاحشة »^{٥٩}. وينزل الله تعالى قرآناً ينهى عن الزنى باعتباره فاحشة ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾^{٦٠}، «لم تقل الآية: لا تزنا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، وهذا الأسلوب في النهي فضلاً عما يحمله من تأكيد، فإنّه يوضح أنّ هناك مقدمات تجرّ إلى الزنى ينبغي تجنبها وعدم مقاربتها»^{٦١}، وقد بين رسول الله ﷺ المسببات التي تفضي إلى الزنى فقال : « كُلُّ ابْنِ آدَمَ لَهُ حَظٌّ مِنَ الزَّانِي ، فَرِزَى الْعَيْنَيْنِ النَّظَرُ ، وَرِزَى الْيَدَيْنِ الْبَطْشُ ، وَرِزَى الرَّجْلَيْنِ الْمَشْيُ ، وَرِزَى الْفَمِ الْقَبْلُ ، وَالْقَلْبُ

يَهْوَى وَيَتَمَنَّى ، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ أَوْ يُكَذِّبُهُ الْفَرْجُ»^{٦٢} . فهذه الحواس هي التي تستشعر مفاتن الجنس الآخر وتجد عنده لذة الزنى فتثير الغريزة الجنسية فإن استسلم صاحبها لهواه وصدق الفرج ذلك أي أنه إذا زنى بالفرج ، فقد صدق زنى هذه الأعضاء وإن لم يزن بفرجه، بل سَلِمَ وَعَلَبَ هَوَاهُ وحفظ نفسه فإن هذا يكون تكذيباً لزنى هذه الأعضاء .

ويستدل من مواقف بعض القبائل العربية من الدعوة الإسلامية أنَّ الزنى ظاهرة متفشية بالمجتمع العربي قبل الإسلام وليست حالات فردية. فقد أَقْبَلَ وَفَدُ ثَقِيفٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فِي عام الوفود ومما ارادوه من النبي ﷺ أَنْ يَسْمَحَ لَهُمْ بِمَآرَسَةِ الزَّنى قَالُوا: «أَرَأَيْتَ الزَّنا؟ فَإِنَّا قَوْمٌ نَغْتَرِبُ؟ قَالَ: هُوَ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ»^{٦٣} ، «وسألت هذيل رسول الله ﷺ أَنْ يَحِلَّ لَهَا الزَّنى»^{٦٤} ، وفد طُفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدُّوسِيَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ ، فقال: «ابن عبد البر. فقال رسول الله ﷺ: اللهم اهد دوساً»^{٦٥} . وهكذا فقد كانت تسود مجتمع الجزيرة العربية ويشرب منها فوضى في العلاقات الجنسية شأنه شأن المجتمعات الأخرى ، تعكس هذه الفوضى صور الزواج المتعددة عند عرب الجاهلية، فقد كان الزواج عندهم سلوكاً فطرياً يتماشى مع حاجاتهم ، فلم يكن محمداً وإنما كان على ضروب مختلفة «يعتورها الظلم ويتخللها الفساد وليست جديرة بأن تبني عليها الدعائم الأسرية والروابط العائلية، وقد عرف العرب في الجاهلية أنواعاً من الأنكحة يمكن الرجوع إلى المصادر التي تناولتها إذا ما أُريد التوسع»^{٦٦} .

لاشك أنَّ هذا العدد من أنواع الأنكحة يدلُّ على أنَّ الفاحشة قد شغلت مساحة واسعة في العلاقة بين الرجل والمرأة وهنا تكمن الخطورة إذ «ما تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء»، فإنَّ النبي محمد ﷺ قد أدرك مدى الخطورة فأراد في بيعة العقبة تنظيم الجنس وتقنينه للسيطرة على

فوضى الجنس التي كانت شائعة آنذاك في مجتمع كان يخطط ﷺ أن يكون نواة أمة تصنع حضارة عمادها الدين الإسلامي القائم على عقيدة التوحيد ومكارم الأخلاق فكانت عبارة (لأنزني) هي البند الثالث من بنود بيعة العقبة الأولى .

٣-لأنقتل أولادنا

يعالج هذا البند من بنود بيعة العقبة الأولى موضوعاً اجتماعياً خطيراً يهدد الأمن المجتمعي ، وقد أشار القرآن الكريم إلى شق من هذا الموضوع في ما نزل منه في مكة^{٦٧}، وجاء في النواهي الربانية في ما نزل من القرآن الكريم في المدينة^{٦٨} .

وَالْوَلَدُ : «بِفَتْحَتَيْنِ كُلِّ مَا وَلَدَهُ شَيْءٌ وَيُطْلَقُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَ الْمُثْنَى وَ الْمُجْمُوعِ فَعَلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ وَهُوَ مُذَكَّرٌ وَ جَمْعُهُ أَوْلَادٌ»^{٦٩} .

وأد المؤودة لغةً يعني :«دفنها صغيرة في القبر وهي حيّة»^{٧٠}، وكان الوأد من الممارسات التي شاعت بين القبائل العربية قبل الإسلام^{٧١} .

ولا توجد أسباب محددة يمكن الركون إليها دفعت الى قتل الأولاد ولم يفصح من وأد ابنته عن سبب مقنع ، ومن خلال المرويات يمكن تبويب أسباب قتل الأولاد إلى :

أولاً : أسباب عقائدية :

كان من عادة عرب الجاهلية أن يجعلوا لله (عز وجل) شركاء فيجعلون له نصيباً ولأصنامهم ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا﴾^{٧٢}، والمراد بالشركاء « شركاؤهم هاهنا هم الذين كانوا يخدمون الأوثان. وقيل : هم الغواة من الناس. وقيل: هم الشياطين»^{٧٣} فهؤلاء هم من يدفع الناس إلى قتل أبنائهم كما يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ

لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِيْنَهُمْ طَوَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْنَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ»^{٧٤}، ولم يرد ما يفيد أنَّ العرب في الجاهلية كانوا يقدمون ضحايا من البشر لأصنامهم أو مقدساتهم كما هو الحال عند الأمم الأخرى سوى ما نقله جواد علي عن اهل دوما^{٧٥}.

وحادثة نذر عبد المطلب دليل على أنَّ العرب لم يارسوا هذا النوع من الطقوس فقد كانت معارضة قريش لعبد المطلب قوية قائلين له: «لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه أي ويكون سنة»^{٧٦}.
ثانياً: أسباب اقتصادية:

كانوا يخافون الفقر وقد أكد القرآن الكريم خوفهم هذا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾^{٧٧}، وفي الآية الكريمة ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾^{٧٨}. فيعتقدون أنَّ الحاجة ربما تضطر بناتهم إلى ارتكاب الخطيئة كما عبر عن ذلك إسحاق بن خلف^{٧٩} وهو يتذكر ابنته التي قتلها^{٨٠}.

ومما يجب التوقف عنده أن من القبائل التي ذكرت في قتل أبنائها لم تكن تشكو الفاقة أو الخوف من الأعداء مثل قبيلة قريش فقد كانت في حرم آمن ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾^{٨١} ومع ذلك كان «بمكة جبل يقال له: أبو دلامة^{٨٢} كانت قريش تئد فيه البنات»^{٨٣}. كما أنَّ في متون الكتب الكثير من المرويات التي يستدل بها على أنَّ هناك أفراد كانوا في سعة من العيش قد وئدوا بناتهم، وقد بيَّن الإمام علي (عليه السلام) بكلمة موجزة أنَّ العربي يقتل ولده خوفاً من الجوع ولكنه يستطيع أن يؤمن لكلبه المعيشة قال: «يَغْدُو أَحَدُكُمْ كَلْبَهُ، وَيَقْتُلُ وَلَدَهُ»^{٨٤}.

وكان القرآن واضح في نهيمهم من قتل ، وبين لهم أنَّ الرزق بيد الله سبحانه فلا تقتلوا -أيها الناس- أولادكم خوفاً من الفقر؛ فإنَّ الله تعالى يرزق الأبناء كما يرزق الآباء، إنَّ قَتَلَ الأولاد ذنب عظيم.

ثالثاً : الأسباب الاجتماعية :

تُعَدُّ الأسباب الاجتماعية التي تحكمها العادات والتقاليد من أهم الأسباب التي دفعت العرب في الجاهلية إلى قتل أولادهم وخاصة البنات، حتَّى أنهم كانوا لا يطيقون ولادة بنت لهم وقد وصف القرآن الكريم ذلك أدق وصف ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾^{٨٥}، فيكتنفه الخجل حتَّى لا يستطيع مواجهة الناس ويختار في كيفية التخلص من هذا العار الذي ابتلي به بولادة بنت له فيقول الله تعالى في ذلك: ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾^{٨٦}، ولذلك كانت المرأة في الجاهلية «إذا حملت تحفر حفرة تمخضت على رأسها فإن ولدت جارية رمت بها في الحفرة وردَّت التراب عليها وإن ولدت غلاماً حبسته»^{٨٧}، ومع ذلك لم يكن عندهم عمر محدد للقتل^{٨٨}، وكذلك كان نصيب التي تلد وفيها عاهة القتل فقد عمد بعضهم إلى وأد بناتهم إذا ما وُلِدَت بعيب خَلْقِي، كأن تولد زرقاء، أو سوداء، أو برشاء، أو كسحاء^{٨٩}.

وأيّاً كانت القبيلة التي استنت الوأد فإنَّ الدافع الرئيس لقتل الأولاد بشكل عام هو الخوف من الفقر وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم ودلّت عليه المرويات كما بينّا، والخوف من العار للإناث بشكل خاص لاسيما السبي كما بينته المرويات، أو الوقوع في الرذيلة جراء معايشة العرب لظاهرة الانحلال الجنسي التي نهى عنها رسول الله ﷺ في البند الثاني من بيعة العقبة الأولى كما مر بنا .

٤- لائأتى بهتان

البهتان: «كُلُّ مَا يَبْهَتْ لَهُ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَنْبٍ وَغَيْرِهِ»^{٩٠}.

وَيُعَدُّ الْبَهْتَانُ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَطَرَةِ الَّتِي تَهْدِدُ الْأَمْنَ الْمَجْتَمَعِي، فَقَدْ رَوَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ بِشَرِّ رِجَالِكُمْ؟ قُلْنَا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: إِنْ مِنْ شَرِّ رِجَالِكُمُ الْبَهَاتُ الْجَرِيءُ الْفَحَاشُ، ...»^{٩١}، الَّذِي يَبْهَتْ غَيْرُهُ «أَيُّ يَقْذِفُهُ بِالْبَاطِلِ وَيَفْتَرِي عَلَيْهِ الْكَذِبَ، وَالْإِسْمُ الْبَهْتَانُ»^{٩٢}.
ورد ذكر البهتان في عدة مواضع من القرآن الكريم، وفسره المفسرون بحسب موضعه الذي ورد فيه، فقد جاء بمعنى:

أولاً - الظلم: قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مُبِينًا﴾^{٩٣}. وفي هذه الآية يعني: البهتان الباطل، والظلم، والتجاوز على مهر الزوجة بغير حق.^{٩٤}

ثانياً - الافتراء: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدْ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾^{٩٥}، وهو أن ترمي أخاك بأمر منكر أو تقذفه بذنوب وهو بريء منه^{٩٦}، أو اتهام باطل كما أشار الله تعالى إلى ذلك قال: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾^{٩٧}، فقد اتهموا مريم بالزنى وهي محصنة^{٩٨}، وما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^{٩٩}، وهو محاولة الإساءة لنبى ﷺ بالنيل من عرضه بما ليس فيه^{١٠٠}. وخطورة هذا النوع من البهتان أنه يشيع الفاحشة بين الناس، وقد قال الامام الصادق (عليه السلام) في ذلك: «من بهت مؤمناً أو مؤمنة بما ليس فيه بعثه الله (عز وجل) في طينة خبال حتى يخرج مما قال، قلت: وما طينة الخبال؟ قال: صديد»^{١٠١}.

ثالثاً - الكذب المرتبط بالزنى : ﴿ وَلَا يَأْتِينَ بَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ ﴾^{١٠٢} ، يقول الطبري (ت ٣١٠هـ) : « لا يلحقن بأزواجهن غير أولادهن »^{١٠٣} ، وقال القرطبي : « قيل : معنى ﴿ بَيْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ أَلَسْتَهُنَّ بِالنِّمِيمَةِ . ومعنى بين ﴿ أَرْجُلَهُنَّ ﴾ فروجهن . وقيل : ما كان بين أيديهن من قُبْلَةٍ أو جَسَةٍ ، وبين أرجلهن الجماع ، وقيل : ما بين يديها ورجليها كناية عن الولد لأن بطنها الذي تحمل فيه الولد بين يديها ، وفرجها الذي تلد منه بين رجليها »^{١٠٤} ، وقيل : « يُلْحِقْنَ بِأَزْوَاجِهِنَّ غَيْرَ أَوْلَادِهِنَّ »^{١٠٥} . فعن ابن عباس : « كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هذا ولدي منك فذلك بهتان »^{١٠٦} . وقد شخّص رسول الله ﷺ هذا الداء في المجتمع الجاهلي وحذّر منه فقال : « أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ، ولن يدخلها الله جنته ، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله منه وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين »^{١٠٧} .

مما تقدم فإن البهتان يعبر عن سلوك غير أخلاقي يهدف إلى ضرب الأواصر الاجتماعية مما يؤدي إلى تفكك المجتمع ، ومن البهتان ما يهدد سلامة النسب الذي يحرص عليه الإسلام أشد الحرص .

وهكذا فإن بنود بيعة العقبة الأولى تعبّر عن فهم النبي ﷺ لوحي الله تعالى من أجل تسيدته لواقع الحياة في مجمل نواحيها ، فهي إمّا مستمدة من القرآن الكريم كما في بنديها الأول والسادس ، أو إن القرآن الكريم جاء موافقاً لرسول الله ﷺ فيها كما في بنودها الأخرى ، الأمر الذي يؤكد التلازم بين القرآن الكريم والسيرة .

بيعة العقبة الثانية

بدأت بيعة العقبة الأولى تؤتي ثمارها ، إذ لم تمض شهور قلائل حتى «لا يبقى دار من دور يثرب إلا فيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام»^{١٠٨}، ولما كان الأنصار يعلمون أن رسول الله ﷺ يبحث عن مأوى ينصره على حد قول جابر بن عبد الله قال: «ان رسول الله ﷺ لبث عشر سنين يتبع الحاج في منازلهم في الموسم وبمجنة وبمكاظ وبمنازلهم بمنى من يؤويني من ينصرني حتى أبلغ رسالات ربي عز وجل وله الجنة فلا يجد أحدا ينصره ويؤويه»^{١٠٩}. فكان من دلائل نجاح العقبة الأولى أن مستوى الإيمان بين الذين اعتنقوا الإسلام في يثرب أن صاروا يفكرون جادّين في انقاذ رسول الله ﷺ مما هو في ضيق منه، «ولما حضر الحج مشى أصحاب رسول الله ﷺ الذين أسلموا بعضهم إلى بعض يتواعدون المسير إلى الحج، وموافاة رسول الله ﷺ والإسلام فاش يومئذ في المدينة»^{١١٠}، ويبدو أن هذه اللقاءات قد تمخضت عن اختيار نخبة منهم تتولّى إعداد منهج اللقاء والهدف منه ، فقال قائلهم: «ثم بعثنا الله (عز وجل) فأتمرنا واجتمعنا سبعون رجلاً منّا فقلنا: حتّى متى نذر رسول الله ﷺ يُطرد في جبال مكة ويخاف؟»^{١١١}.

مما تقدم فإن فكرة بيعة العقبة الثانية هي من الأنصار وقد تم الإعداد لها في يثرب ، وقد حدد المجتمعون هدف اجتماعهم بالنبي في موسم الحج وهو إنقاذه من الوضع الذي هو فيه وتوفير المكان الآمن له الذي كان يبحث عنه منذ أن بُعث بالإسلام، مما يعني أنهم قد عرفوا كل شيء عن رسول الله ﷺ، وربما كان لمبعوثه مصعب بن عمير معهم الدور الكبير في هذا الإعداد.

وفي الموسم قدمت قافلة حجاج يثرب كما اعتادوا عليه في كل موسم، وكان من بينهم النخبة التي اختارها مسلمو يثرب». وهم سبعون رجلاً يزيدون رجلاً أو رجلين في حَمَرٍ [أي جماعة] الأوس والخزرج وهم خمسمائة»^{١١٢}.

«فَوَاعِدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْعَقْبَةَ، مِنْ أَوْسَطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ»^{١١٣}، في منى، الشعب الأيمن للمنحدر من منى بأسفل العقبة^{١١٤}. وفي رواية «في دار عبد المطلب ﷺ على العقبة»^{١١٥}. في ذي الحجة السنة ١٣ من المبعث النبوي الشريف، الثلث الثاني من ليل أوسط أيام التشريق^{١١٦}، ليلة النَّفَرِ الأول^{١١٧}.

ولأهمية الحدث حرص رسول الله ﷺ على أن يكون اللقاء في منتهى السرية، ولذلك اتَّخَذَ جملة من التدابير الاحترازية كاختيار المكان، وانطلاقهم إلى الموعد المتفق عيه إذا هدأت الحركة، وأن لا ينبهوا نائماً، ولا ينتظروا غائباً يتسلل الرجل والرجلان، مستخفين تسلل القطا^{١١٨}. اختلفت الروايات في من حضر اللقاء مع رسول الله ﷺ فمن قائل: «جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب ﷺ ليس معه غيره»^{١١٩}، وفي رواية كان معه عمه العباس والامام علي ﷺ وأبو بكر^{١٢٠}، وفي أخرى معه عمه العباس وحزرة وعلي بن أبي طالب ﷺ^{١٢١}.

يتضح من مجريات أحداث بيعة العقبة الثانية أن هناك رؤى مشتركة بين رسول الله ﷺ وبين المسلمين في يثرب، وإن لم يكن بينهما اتصال مباشر. فالمسلمون في يثرب عرفوا الوضع الحرج لرسول الله ﷺ في مكة، والذي أصبح لا يُحْتَمَلُ بسبب ما يتعرض له من أذى هو والمسلمون من مشركي قريش، يُسْتَدَلُّ على ذلك من قولهم: «حَتَّى مَتَى نَذَرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطْرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟»^{١٢٢}، هذا من جهة المسلمين في يثرب، أمّا من جهة

رسول الله ﷺ فقد كان يبدو واثقاً من نجاح بيعة العقبة الأولى وأن نتائجها جاءت كما أراد لها أن تكون كما بدا ذلك من خلال مستوى الإيمان المرتفع الذي عبر عنه المجتمعون بقولهم لرسول الله ﷺ: «... اشترط علينا لربك عَزَّ وَجَلَّ ولنفسك ما شئت»^{١٢٣}. فقد أطلقوا له الخيار في طلب ما يريد؛ الأمر الذي شجعه لحسم أمرٍ ظلَّ يشغل باله طوال وجوده في مكة أن يئس من استجابة قريش لدعوته مع كل الحب الذي كان يكنه لمكة الذي يقول فيها: «ما أطيبك من بلد، وأحبك إليَّ»^{١٢٤}، ويقول: «والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إليَّ»^{١٢٥}، ولذلك رفع من سقف مطالبه في اللقاء الذي جرى بينه وبين وفد مسلمي يثرب المؤلف من «سبعين رجلاً وامرأتين»^{١٢٦}، أو من «ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين»^{١٢٧}. فقد طلب إليهم قائلاً: «أشترط لربي أن لا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم»^{١٢٨}. ولما سأله عن الجزاء إن هم وفوا بذلك قالوا: «فَمَا لَنَا؟ قَالَ: الْجَنَّةُ»^{١٢٩} فجاء القرآن ليوثق هذا الحدث المهم - كما في كل أحداث السيرة - بالآية الكريمة^{١٣٠}: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِّبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^{١٣١}، لتؤكد لهم أنهم ربحوا البيع.

لا شك أن هذا الفهم المتبادل بين رسول الله ﷺ ومسلمي يثرب يرجع إلى النجاح الذي حققته بيعة العقبة الأولى بما تضمنته من بنود صحت المنظومة القيمية للمجتمع في يثرب، والنجاح الذي حققه مبعوث رسول الله ﷺ إلى يثرب الصحابي مصعب بن عمير «نور الله قلبه» في نشر الإسلام، والوصول بمستوى الإيمان لدى مسلمي يثرب وخاصة الذين حضروا

إلى مكة في هذا العام الى الدرجة التي يشد فيها البراء بن معرور على يد رسول الله ﷺ ويقول : نعم والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله ﷺ فنحن أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابرا عن كابر» . وفي هذا القول دليل على عمق إيمانهم بالإسلام ومحبة رسوله كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون لديه أحب من ولده ووالده والناس أجمعين »^{١٣٢} . وقولهم مجتمعين معربين عن تمسكهم بالبيعة : « فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها »^{١٣٣} .

وكان مصعب أكثر نجاحاً في بيان الموقف في يثرب في كونه أصبح مهيباً لاستقبال رسول الله ﷺ متى قرر الخروج من مكة .

مع قناعة رسول الله ﷺ أن الأمور سارت كما أراد الله تعالى لها ، وتمت البيعة كما قال المبايعون : « فقمنا إليه رجلا رجلا يأخذ علينا بشرطة العباس ويعطينا على ذلك الجنة »^{١٣٤} . فإنه ﷺ كان حريصاً أن تكون المبايعة شاملة لمن أسلم أو سيسلم في يثرب فعمد إلى طريقة التمثيل باختيار اثني عشر نقيباً ليمثل كل منهم عشيرته ويكون مسؤولاً أمام رسول الله ﷺ . لم يكن اختيار النقباء بالانتخاب من المسلمين انفسهم كما تدعي بعض المصادر^{١٣٥} . وأنما كان من طريق الوحي كما أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ في كلامه إلى المجتمعين في العقبة من الأوس والخزرج حين قدم عليهم النقباء : « لا يغضبني أحدكم فإني أفعل ما أؤمر ، والمليك جبريل عليه السلام » إلى جنبه يشير إليهم واحداً بعد واحد^{١٣٦} . ولذلك فإن القراءة غير الواعية للتراث الإسلامي ، أو التوظيف الانتقائي له القائم على المصالح الخاصة يؤدي إلى تشويهه . ومن الجدير بالذكر أن ما قام به رسول الله ﷺ في اختياره النقباء هي من الأحداث التي وافقه فيها القرآن الكريم^{١٣٧} .

وتذكر المصادر أن رسول الله ﷺ قد اشترط في بيعة العقبة الثانية اشتراطات يوردها بعضهم على أنها في نص البيعة كما هو الحال في رواية الصحابي جابر بن عبد الله الأنصاري (رضوان الله تعالى عليه) وهو من الذين حضروا بيعة العقبة الثانية وبايع رسول الله ﷺ ، وفيها قال : «يا رسول الله، عَلَامَ تُبَايِعُكَ؟ قال تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النِّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النِّفْقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ، لَا تَأْخُذْكُمْ فِيهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَتَمَنَعُونِي مِمَّا تَمَنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ»^{١٣٨}، وبالشروط نفسها يذكر رواية عبادة بن الصامت^{١٣٩} . وفي روايات أخرى بشروط والفاظ مختلفة^{١٤٠}.

شروط البيعة : انصب اهتمام رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الثانية على إعداد يثرب لكي تكون نواة للأمة الإسلامية ، فجاءت شروطه فيها لتبني هذه الأمة ، وقد بايعهم على :

أولاً : على السمع والطاعة في النشاط والكسل :

لم تكن مبايعة المسلمين على السمع والطاعة في بيعة العقبة الثانية هي الأولى ، وانما سبقتها بيعة العقبة الأولى كما بينا ، وكان يحرص على أن تكون مبايعتهم على أمر يطيقونه ، فقد يندفع الانسان فيبايع رسول الله على أمر يعجز عن الإتيان به ، فعن ابن عمر قال : «كنا إذا بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة يقول لنا : « فيما استطعت »^{١٤١} ، أي قل : « فيما استطعت وهذا كمال شفقتة ﷺ ورأفته بأتمته يلقنهم أن يقول أحدهم فيما استطعت لئلا يدخل في عموم بيعته ما لا يطيقه »^{١٤٢} ، ومصدقا لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾^{١٤٣} ، ويؤكد أن الإسلام لا يُحْمَلُ الإنسان فوق

طاقته قال تعالى: ﴿وَلَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^{١٤٤}، وبهذا فإن تأكيد رسول الله على الطاعة في بيعتي العقبة إنما يريد به تربية الأمة على احترام قادتها من غير تقاعس أو كسل لأن الكسل: «التغافل عما لا ينبغي التغافل عنه ولذلك عدّ مذموماً وضده النشاط»^{١٤٥}. فالطاعة هنا مطلوبة بين الإيمان في حده الأدنى وحده الأقصى. كما إن السمع والطاعة مقرّوتان بطاعة الله كما يقول النبي ﷺ، فيما رواه ابن عمر: «السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»^{١٤٦}.
ثانياً: على النفقة في العسر واليسر :

يتفق معظم المهتمين ببيعة العقبة الثانية على أن المقصود (بالنفقة بالعسر واليسر) هو النفقة في الجهاد فقد قال تعالى: ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^{١٤٧}، والنفقة في اليسر والعسر تتفق والآية الكريمة ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾^{١٤٨}، فالنفقة في اليسر أن ينفق الموسر من سعة ماله وغناه، أمّا في العسر، فلينفق مما أعطاه الله على قدر رزقه^{١٤٩}. وفي هذا الشرط يهيء رسول الله ﷺ الأنصار للتعامل مع فكرة الإنفاق في سبيل الله سواء لتأمين معيشة المهاجر الذي سيفر بدينه الى يثرب، أو لتمويل حاجة الجهاد «فالإنفاق في سبيل الله بمعناه المشهور هو الإنفاق في عتاد الجهاد لم يكن إلاّ بعد الهجرة»^{١٥٠}.

ثالثاً: وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ:

وفيه يؤكد بناء المجتمع على وفق معايير للإسلام بعد أن رباه على مكارم الاخلاق في بيعة العقبة الاولى . ويُعدُّ هذا الشرط من الركائز الأساسية التي يركز عليها البناء السليم للأمة ، ويهدف هذا الشرط إلى إعداد المسلمين لتحمل مسؤولية حماية القيم الإلهية ونشرها، وقد بين الله تعالى أنَّ من أهم أسباب انهيار الحضارات كانت قائمة هو إهمال أهلها لوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى : ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾^{١٥١}، فكان سبب زوالهم أنهم « لم تكن من جملتهم بقية في الأرض يأمرون فيها بالمعروف وينهون عن المنكر »^{١٥٢}، وعليه فإن إقامة الحضارة ، وبناء الدولة ، وإدامة عزِّ الأمة الإسلامية تتلخص بنشر القيم التي جاء بها الإسلام والمحافظة عليها، وخير وسيلة لذلك هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر « لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر »^{١٥٣} . ولذلك وصف الله تعالى الأمة الإسلامية بخير الأمم قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾^{١٥٤}، ولأهمية هذه الفضيلة فقد كانت من بين ما اشترطه رسول الله ﷺ على الأنصار في بيعة العقبة الثانية . والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من المهمات الصعبة التي يُكلف بها المسلم ولعل في قول الصحابي أبي ذر الغفاري (رضوان الله تعالى عليه) ما يكفي لتوضيح هذه الصعوبة فقد قال : « ما زال بي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى ما ترك لي الحق صديقاً »^{١٥٥} .

ولعل ما حلَّ بنا اليوم يرجع إلى تخلينا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متأولين قول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ

لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥٦﴾ واضعينا في غير موضعها فوصلنا الى النتيجة التي حذرنا منها رسول الله ﷺ قال: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن الله سبحانه وتعالى عليكم شراركم فليسو منكم سوء العذاب، ثم ليدعون الله (عز وجل) خياركم فلا يستجاب لهم»^{١٥٧}.

رابعا - على أن تقوموا في الله لا تأخذكم في الله لومة لائم:

هذا الشرط من الشروط الصعبة التنفيذ، لأنه يضع صاحبه في مواجهة الأحداث بصورة مباشرة والالتزام به لا يحدد بزمان ولا بمكان ففي شرح النووي على مسلم قال: «نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر في كل زمان ومكان الكبار والصغار، لانداهن فيه أحداً، ولانخافه هو، ولا نلتفت إلى اللائمة».

ويعد من يخشى في الله لومة لائم مDAHناً في دينه، وكان المكذبون ممن يدهن في الدين ولذلك حذر الله تعالى رسوله منهم فقال ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ* وَذُوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾^{١٥٨}، فكان هذا الخلق موضع اهتمام رسول الله ﷺ يؤكد للمسلمين بصورة فردية كما هو الحال في وصاياه لصحابي الجليل أبي ذر الغفاري (رضوان اله تعالى عليه) قال: «وصاني رسول الله أن لأخاف في الله لومة لائم»، وكان الإمام علي (عليه السلام) يعد هذا الأمر الأمر من السبع اللاتي هن جوامع الإسلام كما جاء في وصيته لمحمد بن أبي بكر: «أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام: ... إلى أن قال ولا تخف في الله لومة لائم»^{١٥٩}.

وفي بيعة العقبة الثانية ختم به النبي ﷺ اشتراطاته على المبايعين، أراد النبي ﷺ أن يربي المسلمين على هذا المبدأ الرفيع لما له أثر على مصير الأمة

، ولقد كان في موقف سعد بن معاذ بعد حين من العقبة خير دليل على استشراف أهمية هذا المبدأ في المستقبل ، عندما حَكَمَ سعد في بني قُريظة ولم تأخذه في الله لومة لائم كما قال : « لقد أنى لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم »^{١٦٠} .

تضافرت كلتا البيعتين على إصلاح الإنسان ، ونجح إنسان يشرب في الوفاء ببيعته ، ولعلَّ أوضح أدلة نجاحه هو اختياره (الجنة) جائزة للنجاح ففي بيعة العقبة الأولى « فإن وفيتم فلكم الجنة »^{١٦١} ، وفي بيعة العقبة الثانية « الجنة »^(١٦٢).

الخاتمة

تبين البحث أنَّ بيعتي العقبة كانتا المخاض الذي تولدت فيه الدولة الإسلامية من رحم مجتمع نَحَرته تقاليد وعادات كادت أن تأتي على منظومته القيمة برمتها ، لذلك انصبَّ اهتمام رسول الله ﷺ في بيعة العقبة الأولى على بناء الفرد الذي هو نواة المجتمع فكانت بحق بيعة البناء الداخلي ليشرب القائم على (مكارم الأخلاق) وتوحيد المتناحرين بَلَمَّ شعثهم في منظومة أخلاقية تحت مظلة عبادة الله الواحد .

وانتقل ﷺ في بيعة العقبة الثانية إلى إعداد يثرب لتكون (طيبة) ، فتكون نواة أمة تصنع دولة ومدينة يشع نورها ليضيء سماء العالم متجاوزاً حدود جزيرة العرب فكانت بحق عقداً حقيقياً لنشوء دولة الإسلام . وفي كل ذلك كان الإنسان هو الهدف، فبناء الإنسان يعني بناء الأوطان

التوصية :

إذا كانت ثمة توصية ونحن نعيش في ظل ظروف لا تختلف عما كان عليه المجتمع في يثرب ، فتدخل اليهود في شؤون الأمة على أشده ، وانهيار المنظومة القيمية يتسارع نحو الانحدار . فإذا ما أردنا أن نوقف ذلك لنعود أمة كما ينبغي بين الأمم ليس أماننا إلا العودة إلى رسول الله ﷺ وتفعيل وصيته (التمسك بكتاب الله وعترته) فكما صلحت جاهلية العرب في الماضي بكتاب الله ورسوله ، لاتصلح جاهليتهم في الحاضر إلا بهما .

والله وليُّ التوفيق

الهوامش

- ١- ابن إسحاق، محمد (ت ١٥١هـ) السير والمغازي، تحقيق: سهيل زكار، ط ١، دار الفكر، بيروت، ٣/ ١٥٤؛ ابن هشام، عبد الملك (ت ٢١٨هـ) السيرة النبوية، تعليق: عمر عبد السلام تدمري، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠م، ١/ ٢٩٩.
- ٢- دحلان، أحمد بن زيني (ت ١٣٠٤هـ) أسنى المطالب في نجاة أبي طالب، تحقيق: حسن السقاف، ط ٢، دار الإمام النووي، عمان، ٢٠٠٧م، ص ٤٤.
- ٣- الحمداني، جمعة ثجيل، السيرة النبوية في مرويات الامام الصادق، العتبة العباسية، كربلاء المقدسة، ٢٠١٧م، ٣٣٧، عن ابن حاتم العملي، الدر النظيم، ص ٢٢١.
- ٤- ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: محب الدين أبي سعيد، بيروت - دار الفكر، ط ١ - ١٩٩٦م، ٣٦/ ٢٢٥.
- ٥- م. ن.
- ٦- الطائف: هو وادي وهو بلاد ثقيف، بينها وبين مكة اثنا عشر فرسخا - الفرسخ: ٣ أميال أو ٥٥٤٤ متراً - سميت بذلك، لأن نزلها رجل من حضر موت فقال لأهلها: ألا أنبي لكم حائطا يطيف ببلدكم فبناه، فسمي الطائف، وقيل غير ذلك.
- ٧- سيرة ابن هشام، ٢/ ٦٧.
- ٨- ابن عتبة، موسى (ت ١٤١هـ) المغازي، جمع: محمد باقشيش، المغرب - جامعة بن زهر، ١٩٩٤م، ص ٨٧.
- ٩- سيرة ابن هشام، ٢/ ٧١؛ الطبري، جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك، ط ٢، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ٢/ ٨٢.
- ١٠- اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت ٢٩٢هـ) تاريخ اليعقوبي، النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤م، ٢/ ٢٩؛ الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ) اعلام الوري بأعلام الهدى، صححه: علي أكبر الغفاري، ط ١، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٧٠.
- ١١- سيرة ابن هشام ٢/ ٧٢.
- ١٢- يُنظر: ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٠م، ١/ ٢١٦؛ المقرئ، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) إمتاع الاسماع تحقيق: محمد عبد الحميد، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٩م، ١/ ٤٩.
- ١٣- الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ) جوامع الجامع، تحقيق: مؤسسة النشر الإسلامي، ط ٣، قم، ١٤٢٤هـ، ٢/ ٣١١؛ الواحدي، أبو الحسن علي

- بن أحمد (ت ٤٦٨هـ) الوسيط في تفسير القرآن المجيد ١/ ٥٩٨، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤م، ٣/ ٥٢.
- ١٤- صحيح البخاري، ص ٩٥٤.
- ١٥- يُنظر: مغازي موسى بن عقبة، ص ٨٦؛ سيرة ابن هشام، ٢/ ٧٤.
- ١٦- سيرة ابن هشام، ٢/ ٧٦.
- ١٧- تاريخ الطبري، ٢/ ٣٥٢.
- ١٨- يُنظر: سيرة ابن هشام، ٢/ ٧٦.
- ١٩- الشيخ المفيد، محمد بن محمد بن محمد النعمان (ت ٤١٣هـ) إيمان أبي طالب، الفية الشيخ المفيد، ١٤١٣هـ، ص ٧٤.
- ٢٠- صحيح البخاري، ح: ٣٩٣٠، ص ٩٦٥.
- ٢١- سيرة ابن هشام، ٢/ ٧٦.
- ٢٢- سيرة ابن هشام، ٢/ ٧٧.
- ٢٣- مغازي موسى بن عقبة، ص ٨٩.
- ٢٤- م. ن.
- ٢٥- الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ) كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، ط ٢، ١٤٠٩هـ، ٢/ ٢٦٥.
- ٢٦- ابن الأثير المبارك بن محمد (ت ٦٠٦) جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرئؤوط، ط ١، مكتبة دار البيان بيروت، ١/ ٢٥٢.
- ٢٧- التوبة: ١١١.
- ٢٨- الفتح: ١٠، ١٨.
- ٢٩- الممتحنة: ١٢.
- ٣٠- يُنظر: آل محمود، أحمد محمود، البيعة في الإسلام، دار الرازي، البحرين، ص ٣٣.
- ٣١- سيرة ابن هشام ٢/ ٧٨؛ تاريخ الطبري ٢/ ٣٥٤؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد (ت ٧٤٨هـ) سير اعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الارناؤوط، بيروت - مؤسسة الرسالة، ط ٢ - ١٩٨٢م، ٧/ ٢.
- ٣٢- عبادة بن الصامت بن قيس بن اصرم بن فهر... بن الخزرج، ولد في يثرب سنة ٣٨ق. هـ، وعاش ٧٢ سنة، توفي سنة ٣٤هـ على ارجح الروايات وكان ممن شهد العقبة الأولى. الزحيلي، وهبة، عبادة بن الصامت، ط ٢، دار القلم، دمشق، ١٩٨٨م.
- ٣٣- سيرة ابن هشام ٢/ ٨١.
- ٣٤- واط، مونتجمري، محمد في مكة، ترجمة: عبد الرحمن عبدالله الشيخ، الهيئة

- المصرية للكتاب ، القاهرة ، ١٣١٥ هـ ص ٢٨٢ .
- ٣٥- يُنظر على سبيل المثل : الحجرات : ١٢ ، الأحزاب : ٧٠ ، التوبة : ١١٩ ، المائدة : ٨ .
- ٣٦- المتقي الهندي ، علي (ت ٩٧٥هـ) كنز العمال ، بيروت - مؤسسة الرسالة ، ط ٥ - ١٩٨٥ م ، ح : ٥١٣٠ ، ٢ / ٣ .
- ٣٧- بسام أبو عليان ، قراءة سوسيولوجية في نصوص بيعة العقبة الأولى ، بحث متاح على الموقع الإلكتروني : <https://pulpit.alwatanvoice.com>
- ٣٨- النحل : ٣٦ .
- ٣٩- يُنظر : المائدة : ٧٢ ؛ الأعراف : ٧٣ ، ٨٥ ، ٥٩ ، ٦٥ ؛ هود : ٨٤ ، ٦١ ، ٥٠ ، المؤمنون : ٢٣ ، ٣٢ ؛ النمل : ٤٥ ؛ العنكبوت : ١٦ ، ٣٦ ؛ نوح : ٣ .
- ٤٠- الأعراف : ١٥٨ .
- ٤١- يُنظر : الطبرسي ، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ) مجمع البيان في تفسير القرآن ، ط ١ ، دار العلوم ، بيروت ، ٢٠٠٥ م ، ٤ / ٣٧٥ .
- ٤٢- سيرة ابن هشام ، ٢ / ٧٢ .
- ٤٣- عويضة ، كامل محمد ، القدرات العقلية في علم النفس ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ص ١١٧ .
- ٤٤- الشعراء : ٧١ - ٧٤ .
- ٤٥- طبقات ابن سعد ، ١ / ٥٠٢ .
- ٤٦- المعجم الوسيط ، مادة : طوع .
- ٤٧- ابن حجر ، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩ ، ١٣ / ١١٢ .
- ٤٨- يُنظر : صحيح البخاري ، ح : ٤٣٤٠ ، ص ١٠٦٢ ..
- ٤٩- الأحزاب : ٣٦ .
- ٥٠- الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠ هـ) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك ، تحقيق : هلال السرحان وحسن الساعاتي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١ / ٥ .
- ٥١- يوسف : ٧٧ ، ٧٣ ، ٧٠ .
- ٥٢- الطبرسي ، مجمع البيان ، ٩ / ٣٤٩ .
- ٥٣- الممتحنة : ١٨ .
- ٥٤- الحجر : ١٨ .
- ٥٥- المائدة : ٣٨ .

- ٥٦- الأحزاب : ١٣ .
- ٥٧- الطبرسي ، مجمع البيان ، ٨ / ١٤٠ .
- ٥٨- ابن شبة، أبو زيد عمر (ت ٢٦٢هـ) تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق فهد شلتوت ، ٥٠٣ / ٢ .
- ٥٩- الترماني ، عبد السلام ، الزواج عند العرب ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٤ م ، ص ٣٣ .
- ٦٠- الإسرائ : ٣٢ .
- ٦١- يُنظر : تفسير الأمل ، ٨ / ٤٦٤ .
- ٦٢- مسند أحمد ، ح : ١٠٩١٩ ، ١٦ / ٥٣٦ .
- ٦٣- تاريخ المدينة المنورة ، ٥٠٣ / ٢ .
- ٦٤- ابن عبد ربه ، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) العقد الفريد ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٤ هـ ، ٦ / ١٤٧ .
- ٦٥- ابن عبد البر ، أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ، تحقيق : علي محمد البجاوي ، ط ١ ، دار الجليل ، بيروت ، ١٩٩٢ م ، ٢ / ٧٥٩ .
- ٦٦- يُنظر على سبيل المثل : يكن ، فتحي ، الإسلام والجنس ؛ ميّة الرحبي ، الإسلام والمرأة ؛ الترماني ، عبد السلام ، الزواج عند العرب ؛ عبد الكريم ، خليل ، مجتمع يثرب ؛ طقوش ، محمد سهيل ، تاريخ العرب قبل الإسلام ؛ الأهدل ، عبد الرحمن ، الأنكحة الفاسدة . الأهدل ، عبد الرحمن ، الأنكحة الفاسدة ، ط ١ ، مكتبة الخافقين ، دمشق ، ١٩٨٣ م ، ص ٧ .
- ٦٧- التكوين : ٨ ، ٩ .
- ٦٨- الأنعام : ١٥١ ؛ الإسرائ : ٣١ .
- ٦٩- الفيومي ، أحمد بن محمد ، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي ، منشورات دار الرضي ، ٦٧٨ / ١ .
- ٧٠- الجوهرى : الصحاح ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٩٠ ، ج ٢ ، ص ٥٤٦ .
- ٧١- الميداني ، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ق ٥هـ) مجمع الأمثال ، تحقيق محيي الدين عبد الحميد ، دار المعرفة ، بيروت ، ج ١ ، ص ٤٢٤ .
- ٧٢- الأنعام : ١٣٦ .
- ٧٣- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق : عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ٢٠٠٦ م ، ٩ / ٣٧ .

- ٧٤- الأنعام: ١٣٧ .
- ٧٥- يُنظر: علي، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، جامعة بغداد، ١٩٩٢م، ٦/١٩٨ .
- ٧٦- الديار بكري، حسين بن محمد، (ت٩٦٦هـ) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر، بيروت، ١/١٨٢ .
- ٧٧- الأنعام: ١٥١ .
- ٧٨- الإسراء: ٣١ .
- ٧٩- ابن الطيب الشاعر إسحاق بن خلف الشاعر المعروف ب ابن الطيب من شعراء المعتصم
- ٨٠- يُنظر: الكتبي، محمد بن شاكر (ت٧٦٤هـ) فوات الوفيات، تحقيق: احسان عباس، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، ١/١٦٤ .
- ٨١- قریش: ٤ .
- ٨٢- أبو دلالة: بضم أوله: جبل مطل على الحجون بمكة . معجم البلدان، ٢/٤٥٩ .
- ٨٣- الأنيبيهي، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت٨٥٢هـ) المستطرف في كل فن مستطرف، ط١، عالم الكتب، ١٤١٩هـ، ص٣٢٩ .
- ٨٤- إبن طاووس، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى (ت٦٦٤هـ) كشف المحجّة لثمرة المهجة، تحقيق: محمد الحسون، ط٢، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤١٧هـ، ص٣٣٦ .
- ٨٥- النحل: ٥٨ .
- ٨٦- النحل: ٥٩ .
- ٨٧- النعماني، سراج الدين عمر بن علي (ت٧٧٥هـ) اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨م، ٢٠/١٨٢ .
- ٨٨- يُنظر: تفسير القرطبي، ٧/٩٨؛ الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق أبو عبدالله الداني، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ج٤، ص٨٠٧ .
- ٨٩- يُنظر: الحوفي، أحمد محمود: الحياة من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، ط٢، ١٩٥٢ .
- ٩٠- المقدسي، محيي الدين بن محمد العليمي (ت٩٢٧هـ) فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق: نور الدين طالب، ط١، دار النوادر، ٢٠٠٩م، ٢/١٩٤ .

- ٩١- الكليني، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ) الكافي، ط ١، منشورات الفجر، بيروت، ١٤٢٨هـ، ١٧٠/٢.
- ٩٢- المازندراني، محمد صالح (ت ١٠٨١هـ) شرح أصول الكافي، تحقيق: علي عاشور، ط ٢، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨م، ٢٩٠/٩.
- ٩٣- النساء: ٢٠.
- ٩٤- يُنظر: الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) مفاتيح الغيب، ط ٣، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ، ١٠/١٤؛ الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، جماعة المدرسين، قم، ٢٥٧/٤.
- ٩٥- النساء: ١١٢.
- ٩٦- يُنظر: الطباطبائي، تفسير الميزان، ٧٧/٥.
- ٩٧- النساء: ١٥٦.
- ٩٨- يُنظر: الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ) التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب العاملي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٣/٣٨١.
- ٩٩- النور: ١٦.
- ١٠٠- يُنظر: الطبرسي، مجمع البيان، ١٦٩/٧.
- ١٠١- الكافي ٢/٣٥٧.
- ١٠٢- الممتحنة: ١٢.
- ١٠٣- الطبرسي، مجمع البيان، ٣٤٩/٩.
- ١٠٤- تفسير القرطبي، ٤٢٦/٢٠.
- ١٠٥- الطبرسي، مجمع البيان، ٣٤٩/٩.
- ١٠٦- م. ن.
- ١٠٧- الميرزا، النوري (ت ١٣٢٠هـ) مستدرك الوسائل، تحقيق: مؤسسة آل البيت ﷺ لاهياء التراث، ط ٢، بيروت، ١٩٨٨م، ٤٤٠/١٥.
- ١٠٨- ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ) مسند أحمد، تحقيق: شعيب الارنؤوط وآخرون، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١م، ح: ١٤٤٥٦، ٣٤٧/٢٢.
- ١٠٩- م. ن.
- ١١٠- طبقات ابن سعد ١/٢٢٥.
- ١١١- مسند أحمد، ح: ١٤٤٥٦، ٣٤٦/٢٢.
- ١١٢- طبقات ابن سعد، ١/٢٢١.
- ١١٣- سيرة ابن هشام، ٨٦/٢.

- ١١٤- م . ن . ؛ طبقات ابن سعد، ٨٦/٢ ؛
- ١١٥- تفسير القمي، ٢٧٢/١ ؛ اعلام الوری، ١٤٢/١ .
- ١١٦- أيام الشريق هي ثلاثة أيام بعد يوم النحر في موسم الحج وهي أيام (١١ - ١٢ - ١٣) من شهر ذي الحجة، وسميت بهذا الاسم لأن لحوم الأصاحي تُشَرَّق فيها، أي تُجفف بأشعة الشمس، ويسمى اليوم الثاني منها يوم النَّفَر الأول وهو اليوم الذي ينفر فيه الحاجُّ من منى إلى مكَّة . يُنظر : لسان العرب، ١٠/١٧٦ .
- ١١٧- يُنظر : طبقات ابن سعد، ٢/٢٢١ ؛ سيرة، ابن هشام، ٨٦/٢ .
- ١١٨- يُنظر : تاريخ الطبري، ٢/٣٦٢ ؛ طبقات ابن سعد، ٢/٢٢١ ؛
- ١١٩- سيرة ابن هشام ٨٦/٢
- ١٢٠- امتاع الأسماع، ١/٥٣ .
- ١٢١- تفسير القمي، ١/٢٧٣ ؛ اعلام الوری، ١/١٤٢ .
- ١٢٢- مسند أحمد، ٣/٣٤٠ .
- ١٢٣- مغازي موسى بن عقبة، ص ٩٩ .
- ١٢٤- الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ) الجامع الكبير، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م، ح: ٣٩٢٦، ٦/٢٠٨ .
- ١٢٥- مسند أحمد، ح: ١٨٧١٥، ٣١/١٠ .
- ١٢٦- اعلام الوری، ١/١٤٢ .
- ١٢٧- يُنظر : سيرة ابن هشام، ٨٨/٢
- ١٢٨- مغازي موسى بن عقبة، ص ٩٩ . وقد وردت بالمضمون نفسه ولكن بألفاظ مختلفة يُنظر : مسند احمد، ح : ١٥٣٧١، ٣/٤٦١ ؛ القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (ت ٣٢٩هـ) تفسير القمي، ط ٣، مؤسسة دار الكتاب، قم، ١٤٠٤ هـ، ١/٢٧٢ .
- ١٢٩- الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق (ق ٣هـ) اخبار مكة، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله، ط ٢، دار خضر، بيروت، ١٩٩٤م، ٤/٢٦ .
- ١٣٠- الواحدي، أسباب النزول، ص ٢٦٠ .
- ١٣١- التوبة، ١١١ .
- ١٣٢- صحيح البخاري ١٥ ؛ مسلم ٤٤ .
- ١٣٣- مسند أحمد، ح: ١٤٢٤٣، ٣/٣٤٠ .
- ١٣٤- مسند أحمد، ح: ١٤٢٤٣، ٣/٣٤٠ .
- ١٣٥- أبو العطا، نظمي خليل، الهجرة وأول مجلس للنواب في الإسلام، مقال متاح على الموقع الإلكتروني : <http://www.akhbar-alkhaleej.com/13384/arti->

cle/53996.html

- ١٣٦- السهيلي، عبد الرحمن (ت ٥٨١هـ) الروض الانف، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، ط ١، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧م، ٤/ ١٢٤.
- ١٣٧- يُنظر: المائدة: ١٢، ١١٢؛ آل عمران: ٥٢؛ الصف: ١٤.
- ١٣٨- الأصبهاني، أبو نعيم (ت ٤٣٠هـ) دلائل النبوة وتحقيق: محمد رواس قلعجي و عبد البر عباس، ط ٢، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٦م، ١/ ٣٠٣.
- ١٣٩- م. ن. ٤٥٢/٢.
- ١٤٠- يُنظر: صحيح البخاري، ح: ٧٠٥٦، ص ١٧٤٨؛ القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (ت ٣٢٩هـ) تفسير القمي، ط ٣، مؤسسة دار الكتاب، قم، ١٤٠٤هـ، ١/ ٢٧٢.
- ١٤١- صحيح البخاري، ح: ٧٢٠٢، ص ١٧٨٠.
- ١٤٢- النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى (ت ٦٧٦هـ) صحيح مسلم بشرح النووي، دار السلام، القاهرة، ١٤١٦هـ، ح: ١٨٦٧، ١٣/ ١٣.
- ١٤٣- التوبة: ١٢٨.
- ١٤٤- المؤمنون: ٦٢.
- ١٤٥- المناوي، عبد الرؤوف (ت ٤٣٠هـ) التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، ط ١، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٠م، ص ٢٨١.
- ١٤٦- صحيح البخاري، ح: ٧١٤٤، ص ١٧٦٥.
- ١٤٧- البقرة: ١٩٥.
- ١٤٨- الطلاق: ٧.
- ١٤٩- يُنظر: الطبرسي، مجمع البيان، ١٠/ ٣٦.
- ١٥٠- ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (ت ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤م، ٢٧/ ٣٧٢.
- ١٥١- هود: ١١٦.
- ١٥٢- الطبرسي، مجمع البيان، ٥/ ٢٦٩.
- ١٥٣- الشيخ المفيد، أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣هـ) المقنعة، ط ٢، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ١٤١٠هـ، ص ٨٠٨.
- ١٥٤- آل عمران: ١١٠.
- ١٥٥- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، ط ١، مركز هجر، ٢٠٠٣م، ٥/ ٣٥٨.
- ١٥٦- المائدة: ١٠٥.

- ١٥٧- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ) تهذيب الأحكام، تحقيق: حسن الموسوي الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، ح: ٣٥٢، ٦/ ١٧٦.
- ١٥٨- القلم: ٨، ٩.
- ١٥٩- الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ) الأمالي، تحقيق: بهراد الجعفري وعلي أكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١/ ٥٥؛ القبانجي، حسن، مسند الإمام علي، تحقيق: طاهر السلامي، ط ١، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٠م، ح: ١٠٢٧٤، ٩/ ٤١٠.
- ١٦٠- تاريخ الطبري، ٢/ ٢٤٩.
- ١٦١- سيرة ابن هشام، ٢/ ٨١.
- ١٦٢- م. ن، ٢/ ٩٣.

المصادر و المراجع :

القرآن الكريم

أولاً: المصادر :

* ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ) مسند أحمد، تحقيق: شعيب الارنؤوط وآخرون ، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠١ م .

* دحلان ، أحمد بن زيني (ت ١٣٠٤هـ) أسنى المطالب في نجاة أبي طالب ، تحقيق : حسن السقاف ، ط ٢، دار الإمام النووي : عمان ، ٢٠٠٧ م .

* الديار بكري ، حسين بن محمد ، (ت ٩٦٦هـ) تاريخ الخميس في أحوال أنفس النفيس، دار صادر، بيروت .
* الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد (ت ٧٤٨هـ) سير اعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الارنؤوط ، بيروت - مؤسسة الرسالة ، ط ٢ - ١٩٨٢ م .

* الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ) مفاتيح الغيب ، ط ٣، دار إحياء التراث العربي ، بيروت، ١٤٢٠هـ .
* الزخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨هـ) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق أبو عبد الله الداني، ط ٣، دار الكتاب العربي، بيروت .

* ابن سعد ، أبو عبد الله محمد بن سعد (المتوفى: ٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى ، تحقيق: محمد عبد القادر ، بيروت ، دار

الكتب العلمية ، ط ١، ١٩٩٠ م
* السهيلي ، عبد الرحمن (ت ٥٨١هـ) الروض الانف ، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل ، ط ١، دار الكتب الإسلامية ،

* الأبشيهي ، شهاب الدين محمد بن أحمد بن منصور (ت ٨٥٢هـ) المستطرف في كل فن مستطرف ، ط ١ ، عالم الكتب ، ١٤١٩ هـ .

* ابن الأثير، المبارك بن محمد (ت ٦٠٦) جامع الأصول في أحاديث الرسول ، تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط ، ط ١، مكتبة دار البيان بيروت .

* ابن إسحاق ، محمد (ت ١٥١هـ) السير والمغازي ، تحقيق: سهيل زكار، ط ١، دار الفكر، بيروت .

* الأصبهاني ، أبونعيم (ت ٤٣٠هـ) دلائل النبوة و تحقيق : محمد رواس قلعجي و عبد البر عباس ، ط ٢، دار النفائس ، بيروت، ١٩٨٦ م .

* الترمذي، محمد بن عيسى (ت ٢٧٩هـ) الجامع الكبير ، تحقيق: بشار عواد معروف ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٩٨ م .

* الجوهري، إسماعيل بن حماد (ت ٣٩٣ هـ) الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٤، ١٩٩٠ .

* ابن حجر ، أحمد بن علي أبو الفضل العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) فتح الباري شرح صحيح البخاري دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩ هـ .

- القاهرة، ١٩٦٧ م .
- * السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، الدر المنثور، ط١، مركز هجر ٢٠٠٣ م .
- * ابن شبة، أبو زيد عمر (ت ٢٦٢هـ) تاريخ المدينة المنورة ، تحقيق فاهيم شلتوت .
- * ابن طاووس ، رضي الدين أبو القاسم علي بن موسى (ت ٦٦٤هـ) كشف المحجّة لثمرّة المهجّة ، تحقيق : محمد الحسون، ط٢، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤١٧هـ .
- * الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، جماعة المدرسين، قم .
- * الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ) :
- * اعلام الوري بأعلام الهدى، صححه : علي أكبر الغفاري ، ط١، الأعلمي، بيروت، ٢٠٠٤ م .
- * جوامع الجامع ، تحقيق : مؤسسة النشر الإسلامي، ط٣، قم، ١٤٢٤هـ .
- * مجمع البيان في تفسير القرآن، ط١، دار العلوم، بيروت، ٢٠٠٥ م .
- * الطبري، جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) تاريخ الرسل والملوك، ط٢، تحقيق : محمد ابو الفضل ابراهيم، دار المعارف، مصر .
- * الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ) :
- * التبيان في تفسير القرآن، تحقيق أحمد حبيب العاملي، دار احياء التراث العربي، بيروت .
- * تهذيب الأحكام ، تحقيق : حسن الموسوي خرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران .
- * الأمالي، تحقيق : بهراد الجعفري و علي اكبر غفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران .
- * ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد (ت ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤ م .
- * ابن عبد البر، أبو عمر يوسف (ت ٤٦٣هـ) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق : علي محمد البجاوي، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢ م .
- * ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ) العقد الفريد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٤هـ .
- * ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن (ت ٥٧١هـ) تاريخ مدينة دمشق، تحقيق : محب الدين ابي سعيد، بيروت - دار الفكر، ط١ - ١٩٩٦ م .
- * ابن عقبة، موسى (ت ١٤١هـ) المغازي، جمع : محمد باقشيش، المغرب - جامعة بن زهر، ١٩٩٤ م .
- * الفاكهي، أبو عبد الله محمد بن إسحاق (ق ٣هـ) اخبار مكة، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله، ط٢، دار خضر، بيروت، ١٩٩٤ م .
- * الفراهيدي، الخليل بن أحمد

- (ت ١٧٥هـ) كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي ، ط ٢، ١٤٠٩ هـ .
- * الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، منشورات دار الرضي .
- * الفرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ) الجامع لأحكام القرآن ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٦ م .
- * القمي، أبو الحسن علي بن إبراهيم (ت ٣٢٩هـ) تفسير القمي، ط ٣، مؤسسة دار الكتاب، قم، ١٤٠٤ هـ .
- * الكتبي، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ) فوات الوفاة، تحقيق: احسان عباس، ط ١، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣ م .
- * الكليني، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩هـ) الكافي، ط ١، منشورات الفجر، بيروت، ١٤٢٨ هـ .
- * المازندراني، محمد صالح (ت ١٠٨١هـ) شرح أصول الكافي، تحقيق: علي عاشور، ط ٢، دار احياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠٨ م .
- * الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٤٥٠هـ) تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، تحقيق: هلال السرحان وحسن الساعاتي ، دار النهضة العربية، بيروت .
- * المتقي الهندي ، علي (ت ٩٧٥هـ) كنز العمال ، بيروت - مؤسسة الرسالة ، ط ٥ - ١٩٨٥ م .
- * المفيد، محمد بن محمد بن محمد النعمان (ت ٤١٣هـ) :
- * ايمان أبي طالب، الفية الشيخ المفيد، ١٤١٣ هـ .
- * المقنعة ، ط ٢، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم، ١٤١٠ هـ .
- * المقدسي، محيي الدين بن محمد العليمي (ت ٩٢٧هـ) فتح الرحمن في تفسير القرآن، تحقيق: نور الدين طالب ، ط ١، دار النوادر، ٢٠٠٩ م .
- * المقرئزي، تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) إمتاع الاسماع تحقيق: محمد عبد الحميد ، بيروت ، دار الكتب العلمية، ط ١ ، ١٩٩٩ م .
- * المناوي، عبد الرؤوف (ت ٤٣٠هـ) التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق : عبد الحميد صالح حمدان ، ط ١، عالم الكتب ، القاهرة، ١٩٩٠ م .
- * الميداني، أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم (ق ٥هـ) مجمع الأمثال، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت .
- * الميرزا، النوري (ت ١٣٢٠هـ) مستدرك الوسائل ، تحقيق : مؤسسة آل البيت عليهم السلام لاحياء التراث ، ط ٢، بيروت ، ١٩٨٨ م .
- * النعماني، سراج الدين عمر بن علي (ت ٧٧٥هـ) اللباب في علوم الكتاب، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي

- * محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٨ م .
- * النووي ، أبو زكريا محيي الدين يحيى (ت٦٧٦هـ) صحيح مسلم بشرح النووي، دار السلام، القاهرة، ١٤١٦هـ .
- * ابن هشام ، عبد الملك (ت٢١٨هـ) السيرة النبوية، تعليق: عمر عبد السلام تدمري، ط٣، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٠ م .
- * الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد (ت٤٦٨هـ) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤ م .
- * اليعقوبي، أحمد بن واضح (ت٢٩٢هـ) تاريخ اليعقوبي، النجف الأشرف، المكتبة الحيدرية، ١٩٦٤ م .
- ثانياً: المراجع :
- * الأهدل، عبد الرحمن ، الأنكحة الفاسدة، ط١، مكتبة الخافقين، دمشق، ١٩٨٣ م .
- * الترماني، عبد السلام، الزواج عند العرب، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٤ م .
- * الحمداني، جمعة ثجيل، السيرة النبوية في مرويات الامام الصادق ، العتبة العباسية ، كربلاء المقدسة ، ٢٠١٧ م .
- * الحوفي، أحمد محمود: الحياة من الشعر الجاهلي، مكتبة نهضة مصر، ط٢، ١٩٥٢ .
- * الزحيلي ، وهبة ، عبادة بن الصامت ، ط٢، دار القلم ، دمشق ، ١٩٨٨ م .
- * علي ، جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢، جامعة بغداد ، ١٩٩٢ م .
- * عويضة ، كامل محمد ، القدرات العقلية في علم النفس ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- * القبانجي، حسن ، مسند الإمام علي ، تحقيق: طاهر السلامي ، ط١ ، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ٢٠٠٠ م .
- * آل محمود ، أحمد محمود ، البيعة في الإسلام ، دار الرازي ، البحرين .
- * واط ، مونتجمري ، محمد في مكة ، ترجمة: عبد الرحمان عبدالله الشيخ، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٣١٥ هـ .
- * ثالثاً: المواقع الإلكترونية :
- * بسام أبو عليان ، قراءة سوسيولوجية في نصوص بيعة العقبة الأولى ، بحث متاح على الموقع الإلكتروني : <https://com.alwatanvoice.pulpit> .
- * عطى ، نظمي خليل ، الهجرة وأول مجلس للنواب في الإسلام ، مقال متاح على الموقع الإلكتروني : <http://www.akhbar-alkhaleej.com/13384/article/53996.html> .

